

مجلة تراثية فصلية محكمة

1

الموداد

WWW.ATTAWHEEL.COM

تصدر عن

مركز الشؤون الثقافية العامة

- وزارة الثقافة والآثار

الجمهورية العراقية

المجلد الثاني عشر

العدد الأول

٢٠٠٩ - ٢٠١٠ م

أسكنك الله الفردوس

WWW.ATTAWHEEL.COM

المودد

مجلة زائنية فصلية



تصدرها وزارة الثقافة والإعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - الجمهورية العراقية
رئيس مجلس الإدارة الدكتور محسن حميد الموسوي

المجلد الثامن عشر
ربيع ١٩٨٩
العدد الأول

رئيس التحرير طه آزاد الكبيسي

سكرتيرة التحرير هدى شوكت بن عام



الهيئة الاستشارية

الأستاذ كوركيس عواد
الأستاذ عبد الحميد العلوجي
الأستاذ أسامة ناصر النقشبندي

الدكتور نوري حنفودي القيسي
الدكتور عماد عبد السلام رؤوف
الدكتورحاتم صالح الضامن
الدكتور صالح العابد

● عنوان المجلة : دار الشؤون الثقافية العامة - الاعظمية - ص . ب ٤٠٣٢ بغداد - الجمهورية العراقية .

● لا تهاد المواد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

أعياد نيسان

لَقَدْ غَدَا الإِقْتِدَارُ الْعِرَاقِيُّ حَقِيقَةً وَاقِعَةً أَقْرَبَهَا الْبَعِيدُ وَالْقَرِيبُ ، الْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ . .
سواءً تَجَسَّدَ هَذَا الإِقْتِدَارُ فِي صُنْعِ النَّصْرِ وَالسَّلَامِ ، أَوْ فِي دَفْعِ حَرَكَةِ التَّنْمِيَةِ وَالْبِنَاءِ . .
وسواءً تَجَسَّدَ / هَذَا الإِقْتِدَارُ / فِي الْعَمَلِ الْوِطْنِيِّ الْإِقْلِيمِيِّ ، أَوْ عَلَى الصَّعِيدِ الْقَوْمِيِّ
وَالْإِنْسَانِيِّ . ذَاكَ أَنَّ مَقَامَ وَيَقُومُ بِهِ الْعِرَاقُ بِقِيَادَةِ الْقَائِدِ الْفَذِّ الْعَظِيمِ صِدَامِ حُسَيْنٍ . . لَمْ
يَكُنْ فِي مُحْصَلَاتِهِ إِلَّا عَمَلًا وَطَنِيًّا - قَوْمِيًّا وَإِنْسَانِيًّا .

□ إِنَّ قِيَامَ مَجْلِسِ التَّعَاوُنِ الْعَرَبِيِّ فِي السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ شَبَاطِ ١٩٨٩ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَمِصْرَ
وَالْأُرْدُنِ وَالْيَمَنِ . . هُوَ وَاحِدٌ مِنْ ثَمَارِ النُّهوضِ الْعِرَاقِيِّ وَالْعَمَلِ الْوَحْدَوِيِّ عَلَى طَرِيقِ
التَّعَاوُنِ وَالتَّضَامَنِ وَالْوَحْدَةِ . لِأَسِيْمَا وَأَنَّ مَجْلِسَ التَّعَاوُنِ فِي إِطَارِ الظُّرُوفِ الْمَوْضُوعِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ،
جَاءَ مَشْرُوعًا مَتَمِّيزًا بِالْوَاقِعِيَّةِ وَالْعَقْلَانِيَّةِ اللَّتَيْنِ لَا بُدَّ لَهُمَا أَنْ يَكْتَسِبَا مَضْمُونَهَا مِنْ خِلَالِ الْخَطَوَاتِ
الْعَمَلِيَّةِ التَّالِيَةِ . وَلَا بُدَّ لَهُمَا أَنْ يَكْتَسِبَ هَذَا الْمَضْمُونُ خَاصَّةً وَأَنَّ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ أَقْطَارِ الْمَجْلِسِ -
شَأْنُهُ شَأْنُ مَجْلِسِ تَعَاوُنِ دَوْلِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ وَإِتِّحَادِ دَوْلِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ - هُوَ الْهَوِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ
الْقَائِمَةُ عَلَى وَحْدَةِ الثَّقَافَةِ وَاللُّغَةِ وَالتَّارِيخِ وَالْأَرْضِ وَالْمَصِيرِ الْمَشْتَرَكِ ، عَمَّا يُشَكِّلُ حَافِزًا دَائِمًا لِأَنَّ
يَظَلُّ مَشْرُوعُ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ الشَّامِلَةِ ، حَاضِرًا بِاسْتِمْرَارٍ فِي الْأَذْهَانِ وَالْعُقُولِ وَالْوُجْدَانَاتِ .

□ وفي شهر نيسان الخصب والبركة والعطاء يحتفل عراق الخير والنصر الذي أصبحت
مهرجانات الفرح والمحبة والبناء والعطاء ، حاضرة في الآن والمكان . .
أقول في شهر نيسان الخصب والعطاء يحتفل العراق بعيد تأسيس الحزب - حزب البعث
العربي الاشتراكي - مُفجّر ثورة ١٧ - ٣٠ تموز وقائدها .

ويحتفل العراق من أقصاه إلى أقصاه في ٢٨ نيسان بعيد ميلاد القائد الفذ - قائد النصر
والسلام والبناء صدام حسين . . حيث غدا ميلاد القائد ميلاداً لكل عراقي في الوقت
نفسه .

فالحمد لله الذي أكرمنا بمولده - سيدي القائد . . وعزّنا بعزيمك ، وخصّنا بالنصر على
القوم الغادرين . .

أما دعوانا لك - سيدي القائد - فبالثايد والسلامة . . والنصرة التي لا يُدرك الوصف
كُنْهها ، ولا يتسع مقال لذكرها . .

وسلامٌ عليك - أيها القائد الفذ العظيم - يوم ولدت فينا . . وولدتنا بك . .
وسلامٌ يوم سِرت وانتصرت ، وانتصرنا بك . .
سلام هي حتى مطلع الفجر . . . آمين . . !

رئيس التحرير

القاهرة : تاريخ وتراث

معنى التاريخ في القاهرة

بقلم

البروفيسور أوليك كرابار

متحف فوك - جامعة هارفارد

ترجمة

محمود هندي

دار المنصور للعمارة

من بحوث ندوة

« الحاضرة المتوسعة : معالجة التوسع الحضري للقاهرة »

المنعقدة في القاهرة - تشرين الثاني ١٩٨٤

توضح المخططات الملحقة بهذا البحث والرسومات والجدول وقائمة الصروح والحكام اضافة الى مطالعة أي كتاب عن عمارة القاهرة سمتين فريدتين لهذه المدينة الرائعة .
الأولى : هي أن مامن مدينة في العالم الاسلامي تمتلك كنوز صرح معمارية كما تمتلك القاهرة . أما في العالم أجمع فإن روما وتحتها هي التي تضارع القاهرة في الكم ولربما تبرزها في اختلافات ثرائها .

الثانية : هي أن صروح القاهرة كما في اسطنبول أو إصفهان أو دلهي أو سمرقند ترفط اديم المدينة ، وتعمل كنقاط بؤرية أو عقدية لا تغفل في مدارك المرء ووعيه في المنطقة الحضرية التي كانت على الأقل قائمة قبل التبدلات الصرحية والبنية والاجتماعية في القرن التاسع عشر . غير ان هنالك فرقاً بين القاهرة و« المدن الصرحية » المقارنة الأخرى للعالم الاسلامي .

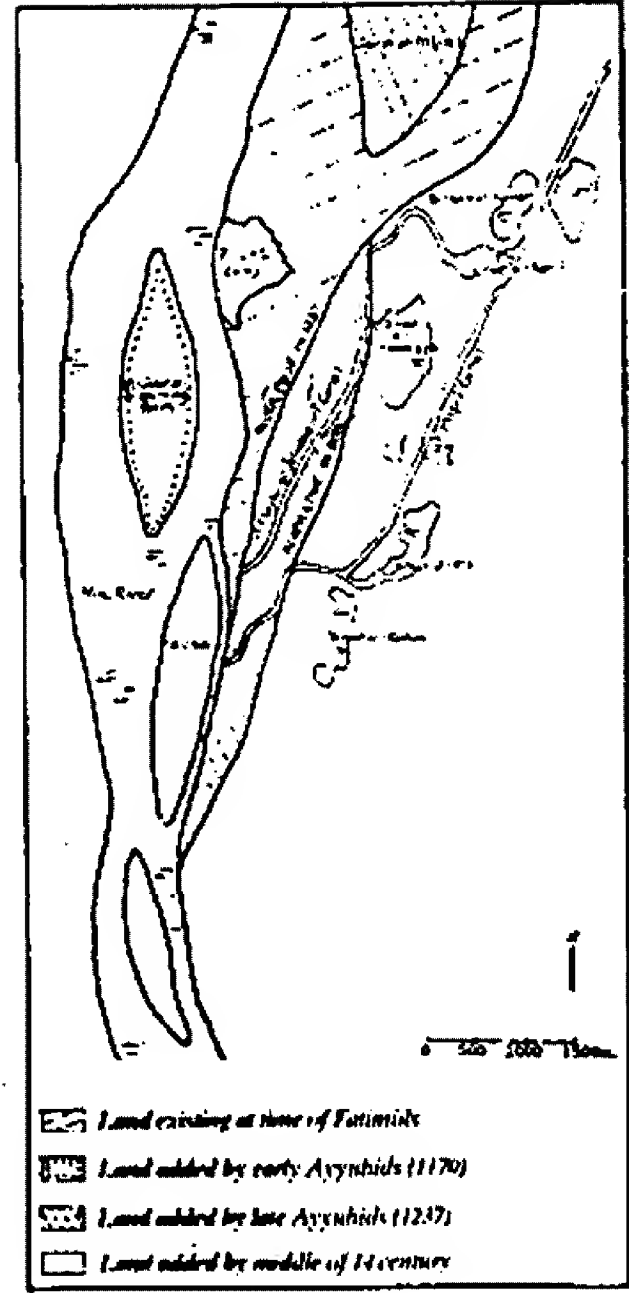
ففي المدن الأخرى تعبر الصروح الرئيسة فيها ، مهما كانت وظيفتها ، عن قوة وفكر السلالة الحاكمة العثمانية أو الصفوية أو المغولية أو التيمورية . بالاستثناء الجزئي لأبنية الفاطميين في أواخر القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين فإن هذا المفهوم قلما ينطبق على القاهرة ، إذ ان المملوكيين لا يمكن ولا يجب أن يعتبروا سلالة تقليدية حاكمة ، وان صروح العثمانيين في القاهرة متميزة بشكل دقيق في عدم احتوائها ، كما في العادة ، على البهرجة التي تتمسك بها في أمكنة أخرى . كما أن القاهرة لا يمكن اعتبارها من بين المدن « الاسلامية » الشكيلة - Typical - لغربي آسيا والبحر المتوسط . صحيح بالطبع ، ان دمشق وطرابلس وحلب تبرز بعض نفس سمات القاهرة (ويختلف الوضع في حالتي القدس ومكة بسبب متطلباتها الخاصة التي تفرضها قدسيتهما) ولكن هذه المدن كانت كلها متأثرة في تركيبها الاجتماعي والرؤيوي بشدة بمصر . ان كلاً من فاس أو مراكش أو تونس أو تلمسان أو الموصل أو بغداد أو قونية أو البصرة أو إصفهان أو يزد تظهر علاقة مختلفة بين النسيج الحضري والصروح المعمارية . كل واحدة من هذه المدن تتضمن عدداً من الأبنية الرئيسة وبينها بعض من أروع تحف العمارة الاسلامية .

التساؤلات عن أهمية هذه الخصوصية القاهرية والحث على مناقشة كيفية تفسيرها على مستويين مختلفين :

الأول : هو مستوى فهم او قراءة الصروح الساكنة Static للمدينة بصفتها عنصراً تكميلياً للنسيج الحي للمدينة .
والثاني : هو مستوى أقرب الى التساؤل : فبالافتراض ان تفسيراً معقولاً قد طرح عن الصروح ، وقد وجد تعريف مناسب للسمة الشكلية للمدينة ، فهل يمكن او يجب ان يمتد هذا الوعي او الفهم الى الحكم على المدينة الحديثة وان يصبح جزءاً من أي اختطاط مستقبلي للمدينة ؟

ونقطة تمهيدية أخيرة أراها ضرورية هي : أن قيود ضيق الوقت لاعداد وتقديم تعريفي ومحدودية معرفتي والتحقيقات التمهيدية التي قمت بها عن الصروح القاهرية تجبرني على حصر ملاحظاتي عن المدينة الى ما قبل عام ١٥٢٠ م . ان هذا ، كما اعتقد ، أمر منطقي الى مدنى ان الأشكال والسمات الأساسية كانت قد حدثت بسبب التداخلات غير الاعتيادية للنظام الحضري الفاطمي للقرن الحادي عشر والفكر الأيوبي لآخر القرن الثاني عشر والأسلوب المملوكي المدروس كثيراً من القرن الثالث عشر الى اوائل القرن السادس عشر . أما الأساليب التي تداخلت فيها كل تلك الأشكال والسمات فما زالت بانتظار مؤرخيها .

السؤال التاريخي الأول الذي تطرحه القاهرة هو سبب ايلولتها مختلفة بشكل فريد . ليس هنالك جواب واضح عن هذا التساؤل ، ولكنني ، لغرض النقاش ، اود أن أطرح الشرح التالي : فالقاهرة ، وهي الوحيدة بين المراكز الحضرية الرئيسية التي توفرت فيها مجموعة من محفزات الاستثمار والتعبير في العمارة بمقياس واسع . لقد شيد البعض من هذه المنشآت ضمن وضعها البيئي ، بينما كان البعض الآخر منها صدفاً تاريخية . أما الأسباب الرئيسية الأخرى فهي : مصادر مستمرة للشراء من خلال التجارة قرابة خمسمائة عام ، بغض النظر عما وجد من تقلبات في الفعاليات التجارية ، وعدم وجود كوارث مدمرة مثل التي حطمت غربي آسيا حتى القرن السادس عشر . وفي أزمرة

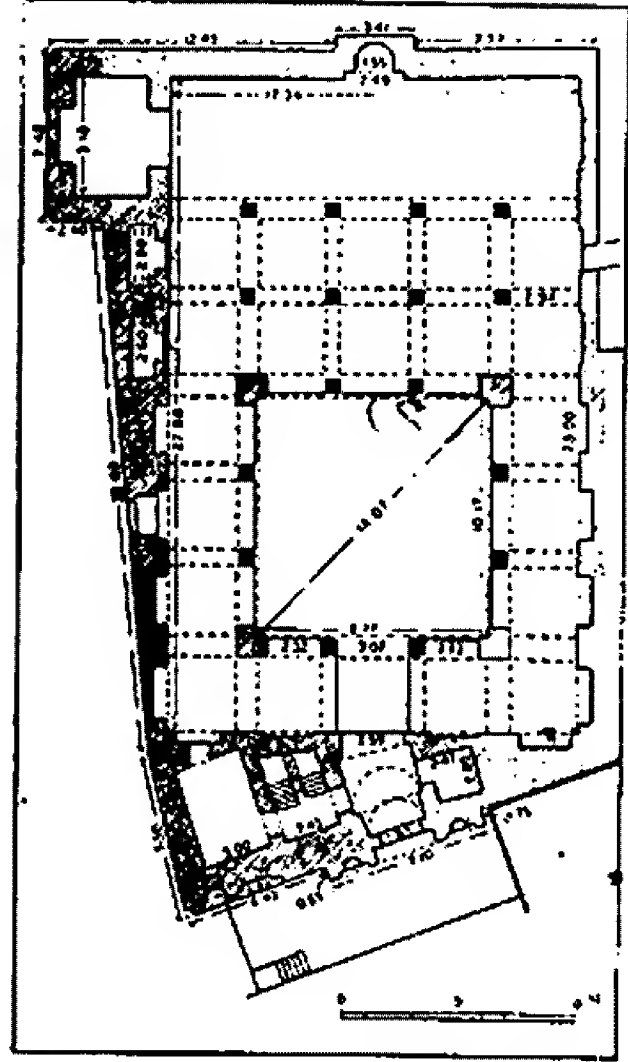


حركة نهر النيل والأراضي المتوفرة في زمن الفاطميين والممثلة لوقت
عهد الأيوبيين ١١٧٠ م ولأواخر عهد الأيوبيين ١٢٣٧ م والأراضي
المضافة في القرن الرابع عشر حسب تسلسل التخطيط .
المصدر : أبو نعد ، شكل ٦

أما مالا تملكه هذه المدن ، من جهة ، فهي استمرارية فعاليات الأبنية الرئيسة عبر العديد من القرون (كما هو موجود في القاهرة بين الأعوام ١٠٠٠ م حتى ١٨٠٠ م تقريباً) . أما من الجهة الأخرى فان المظهرية الثابتة لهذه الأبنية هي أن تقوم قبورها ومناراتها بتميز شريط أفق القاهرة وتعمل بواباتها وأسوارها المنقوشة على تكوين شكل وهيكل المدينة الحية ، كما هو الحال مثلاً ، في رسم شوارعها ومحاراتها اضافة الى مدينة الموت الأزلية ، اذ أن مقابر القاهرة الواسعة كانت جزءاً متمماً للحاضرة .
ان الغرض الرئيس من هذا البحث هو اشارة بعض

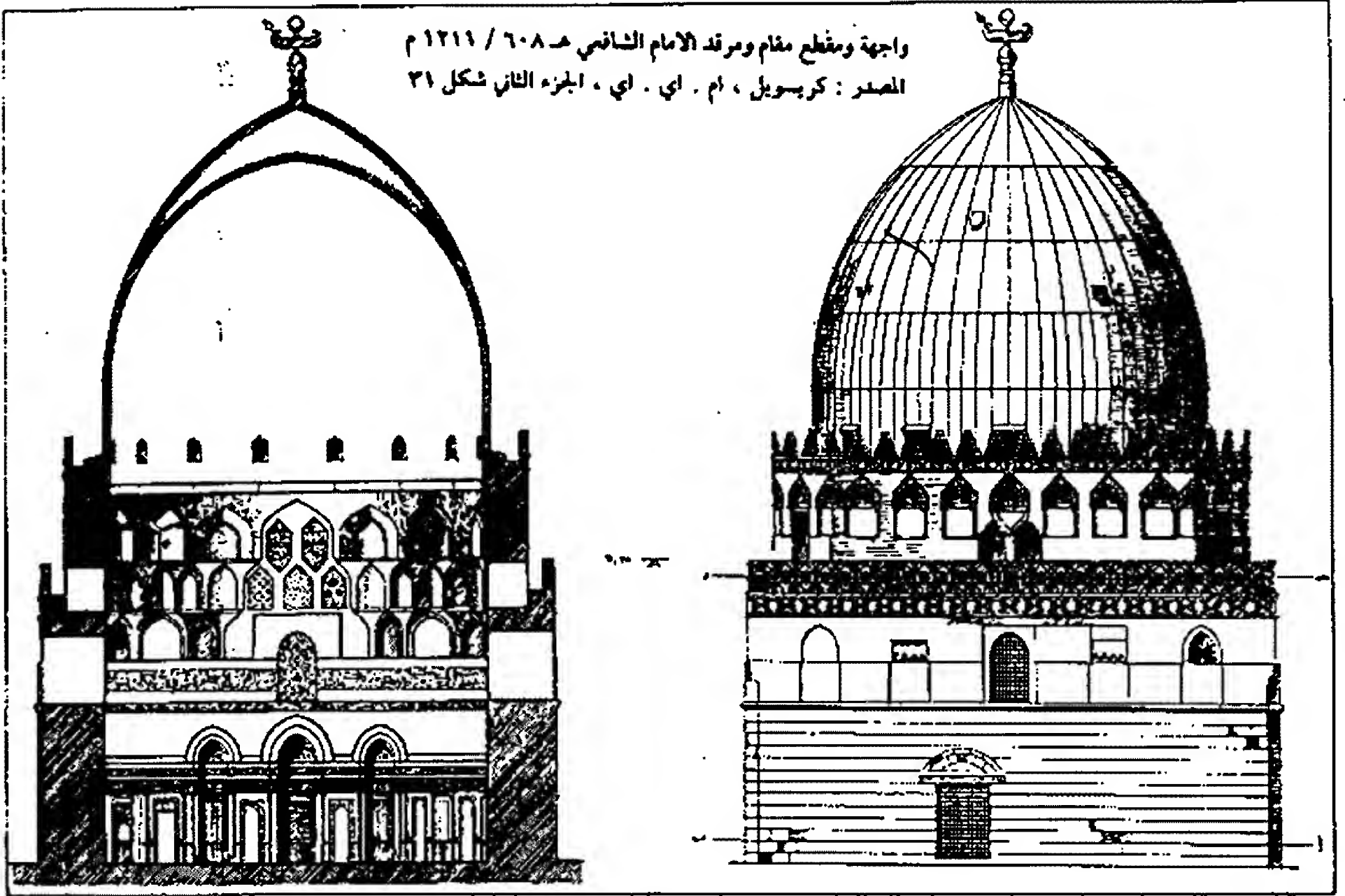
جنيزا) دون ان يكون أقل رعاية أصيلة من التنوع المبهر . لم يكن هنالك مركز اسلامي آخر مزود بتلك العوامل الفعالة التي خلقت في القاهرة رعاية ثابتة ووسائل للاستثمار في البناء .

غير ان امكانية الاستثمار المعماري لا تفرض واقعيته ، اذ هنالك شيء آخر قدح زناد البناء وجعله الشكل الرئيسي للتعبير بما يتباين مع صناعة الأشياء ، مثلاً ، أو جمعها ، (رغم ان كلتي هاتين الفعالتين كانتا جارييتين) . الجواب الجزئي للسؤال الثاني هذا يأتي عندما نتذكر الحفظية الرائعة للأشكال المعمارية القاهرية . فبينما عمل نبلاء ايران وتركيا ، ناهيك عن التطرق الى ايطاليا ، ابتداءً من القرن الثالث عشر على تحارب رئيسية ذات أفكار جديدة وفي بعض الأحيان رائعة ، فان عمارة القاهريين استثمرت وشجعت ، بصورة عجيبة وتصويرية ، الأشكال التقليدية جداً للتراكيب الفسيحة والتزيينات السطحية : كالفناءات والأروقة والقبب والأواوين والمقرنصات والمشابك الهندسية والشرائط الكتابية الكبيرة وغيرها . ان الصروح الملوكية تحكي لنا وتكرر مرة وأخرى نفس القصة التي كانت في حينه لغة جيدة التنظيم لأن الحاجة لم تكن قد اذنت للبحث عن مفهوم جديد أو قول شيء جديد . ان الحضارة التي كانت تبدو في حالة سلام مع نفسها شهدت في اظهارات الأبنية أفضل طريقة وأكثرها تعبيراً في تذكير نفسها بقيمتها الذاتية المقبولة . وبينما تستنسخ الصروح بعضها فانها ، في بعض الأحيان ، تتنافس فيما بينها لتدخل على الدوام في حوار مع التي سبقتها دون ان تحمل احداها عمل الأخرى الا نادراً . انها تستذكر ، كما يبدو لي ، الطريقة التي شيدت بها المدينة التجارية لآخر القرن التاسع عشر للمغرب ، والى حيث وصلت (بما فيها القاهرة واسطنبول) ، مصارفها ، وشركاتها التأمينية ، ومصروحها ، وغالباً جامعاتها بأنماط كلاسيكية جديدة (Neo - Classical Styles) . انني ، بكلمة أخرى ، اناقش بأن خارج وجود الموارد والرعاية ، كان في القاهرة ، وخاصة في عصر المماليك اتفاق حضاري ذاتي الضمان ولا يرقى اليه الشك يُستند اليه عند الحاجة الى الأشكال وأساليبها . ذلك الاتفاق هو الذي



خطة جامع الأضمار ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م
المصدر : كريستوفل كي . اي . سي .
المجلد الأول شكل ١٤١

قلقة ولكنها على العموم فعالة بنجاح فان خليطاً فطرياً من الجماليات الدينية والعرقية وجذباً متساوياً من المثقفين ، ومؤسسات اجتماعية ومالية وفعاليات أخرى هي التي جذبت الناس من كل انحاء العالم الاسلامي ، وبأسلوب أكثر انضباطاً من العالم اللاسلامي أيضاً (حتى نشوء سلطة اسطنبول فان صورة الأتراك والعرب وغيرهم في الغرب كانت صورة مصرية) ، وتوفر صروح رئيسة سهلة الرؤيا من مدينتي أكثر مسحاً في القدم ، وأخريات كلاسيكية وخاصة مصرية قديمة دخلت حيز الأساطير اضافة الى تأديتها عمل المقالع الحجرية ، والوجود الأصلي في العهود الملوكية لطبقة من الحماة المنحدرين من « الخدم » العسكريين الذين اندمجوا مع البرجوازيين المحليين والعلماء من خلال النسيج المعقد للنظام القانوني ، وفي أزمته أكثر مسحاً فان القليل مدارس جيداً (عدا ما يعرف من خلال وثائق



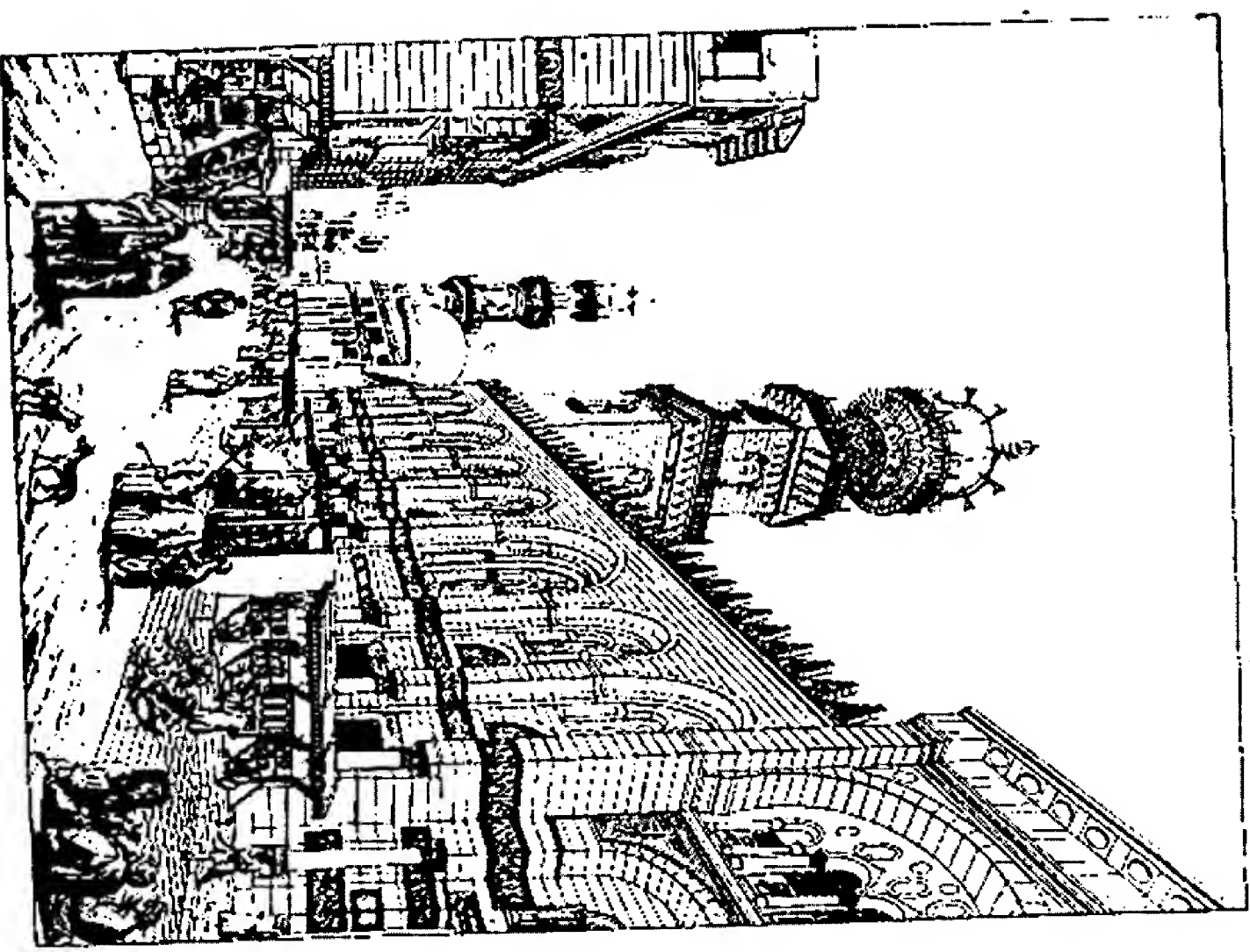
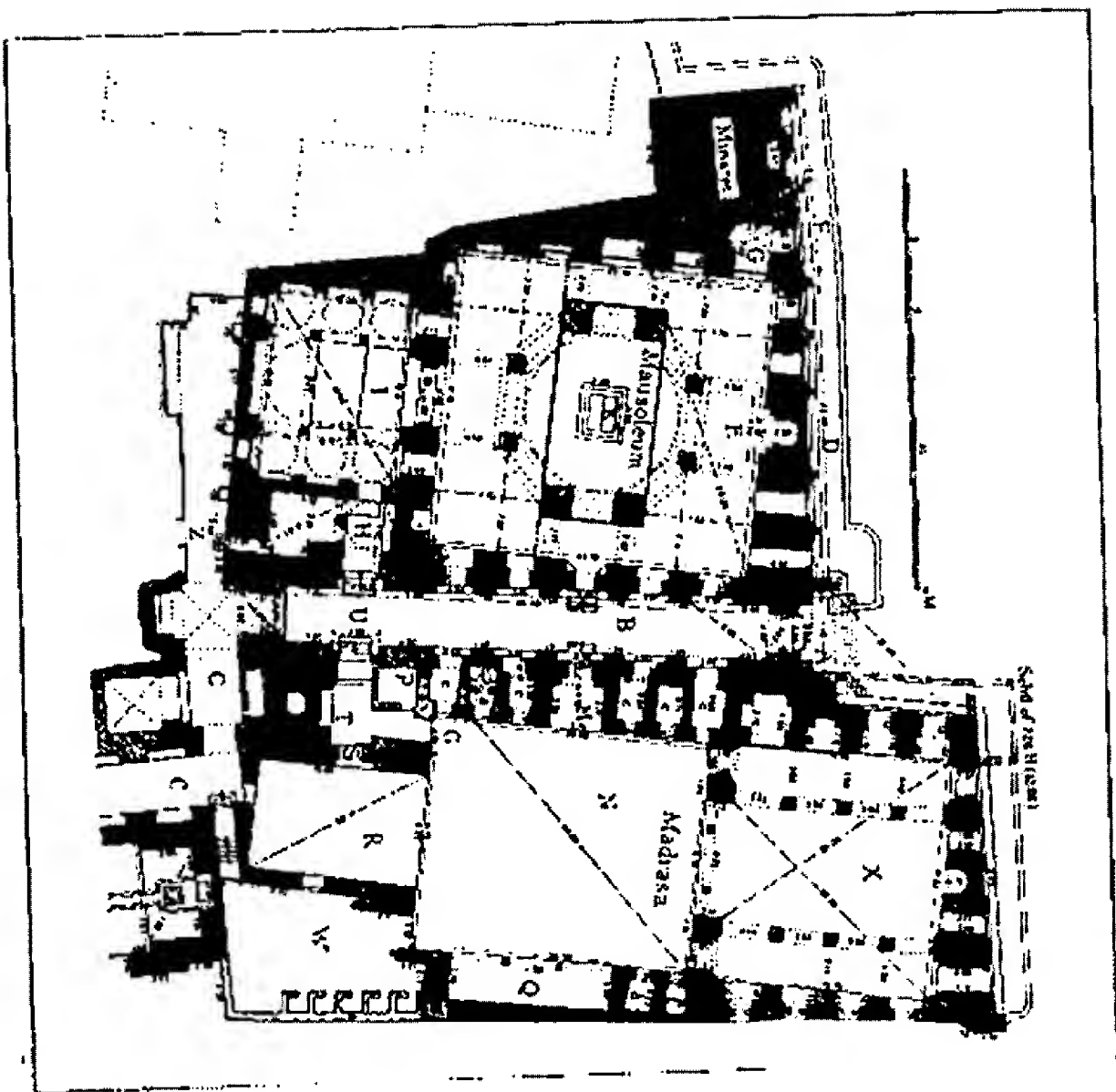
الى رابطة تحفيزية وأغراض ومعاني نظرية أو عملية أو دينية منحت الماضي الأصالة . ولكن حتى لو كان المرء متحرجاً تجاه قيم ما كان يسمى بنمط المملوكية - الجديدة فالحقيقة تبقى هي أن النمط المملوكي الأصيل جزء لا ينفك عن القاهرة ، عميق الجذور بكيونيتها ، وعليه ، فإن المدينة المعاصرة لابد ان تتشبه بها من غير أن تستسخنها بتقليدية وضيقة .

هنالك نوع مختلف من تحليل الصروح الكلاسيكية ، وخاصة المملوكية منها في القاهرة ، يجعل بالامكان اقتراح عدد من الطرائق الأكثر دقة وعمقاً والتي بها أثرت الصروح التاريخية للقاهرة على النسيج البني للمدينة والتي خلقت جمالية قاهرة متميزة ، والقابلة أو غير القابلة للتحويل الى معايير معاصرة لأجزاء جديدة من المدينة ، والتي يجب أخذها بنظر الاعتبار عند مناقشة مصير المدينة التاريخية . ساحند نفسي بنقطتين وأحاول تطوير بعض من نتائجها .

كان ضرورياً للتعبير عن الموارد والرعاية في العمارة وعن الحفاظ على التعبيرية .

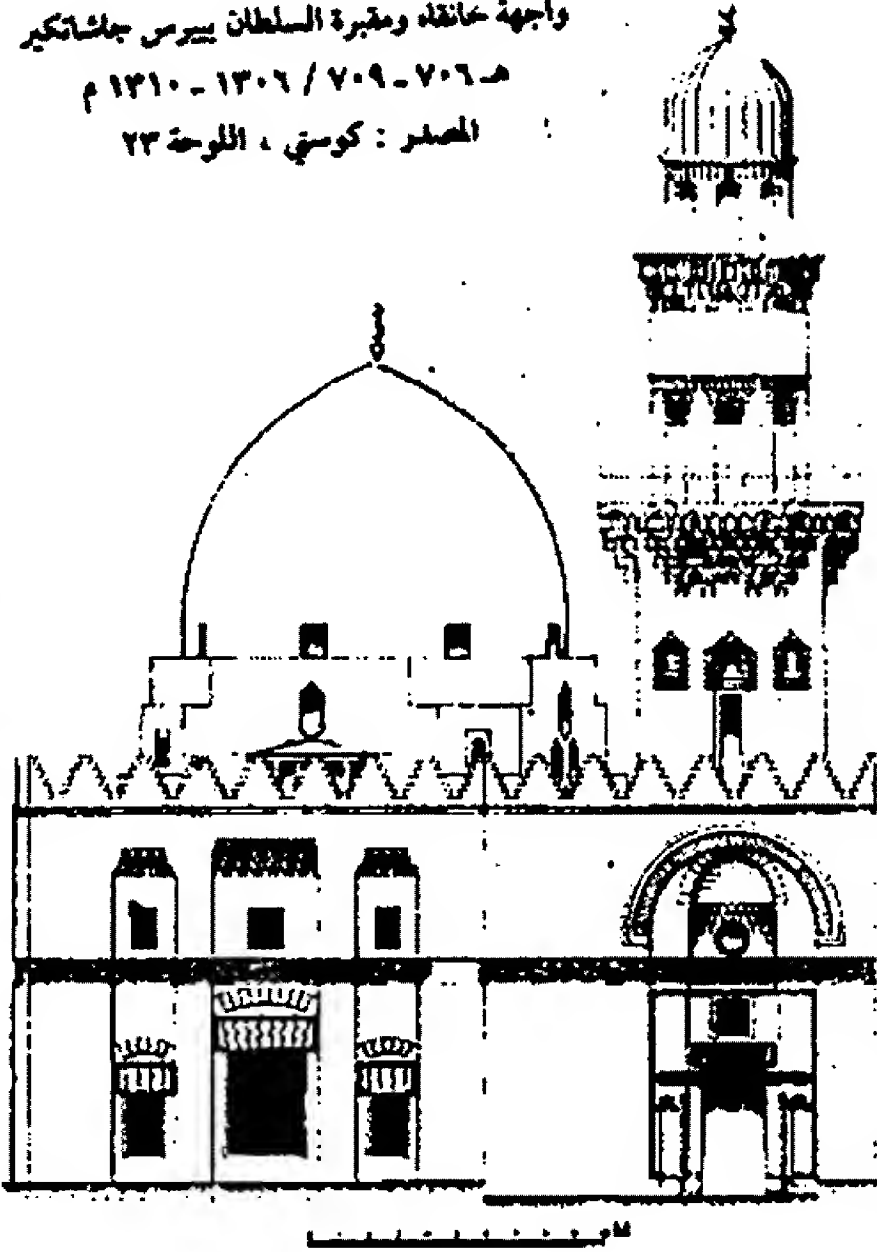
قد يتحقق المؤرخون من هذه العموميات ويوجدوا بعض الاستثناءات فيها مثل مدرسة السلطان حسن ، ويشخصوا بواضت وتفسيرات إضافية عديدة لأبنية القاهرة بين الأعوام ١٠٠٠ م و ١٥٠٠ م ، وعلى العموم متابعة العديد من التحليلات الوصفية والتقنية والآثارية والنصية والشكلية والمقارنة والتي هي مستلزمات الفهم التزامني للصروح ، او بكلمة أخرى عن معناها ضمن أوقاتها ، والتقرب منها ذهنياً الى وقت خلقها قدر المستطاع . مهما كانت هذه المعرفة مثيرة ومهمة للفهم المناسب للماضي فان وثاقة الصلة بالعلم المعاصر وعلى الأخص بالأبنية المعاصرة صعب التحقق جداً . في الغالب ، وكما في صرح رفعت باشا ، فان الإنعكاس المباشر للماضي ، حتى حين يكون جيد التنفيذ ينم عن شعور بفراغ محاكاتي ، بسبب افتقاره

خطة مدبرة وضريح السلطان قلاوون
المصدر: كرسويل أم. إي. إي. الجزء الثاني شكل ١٠٨

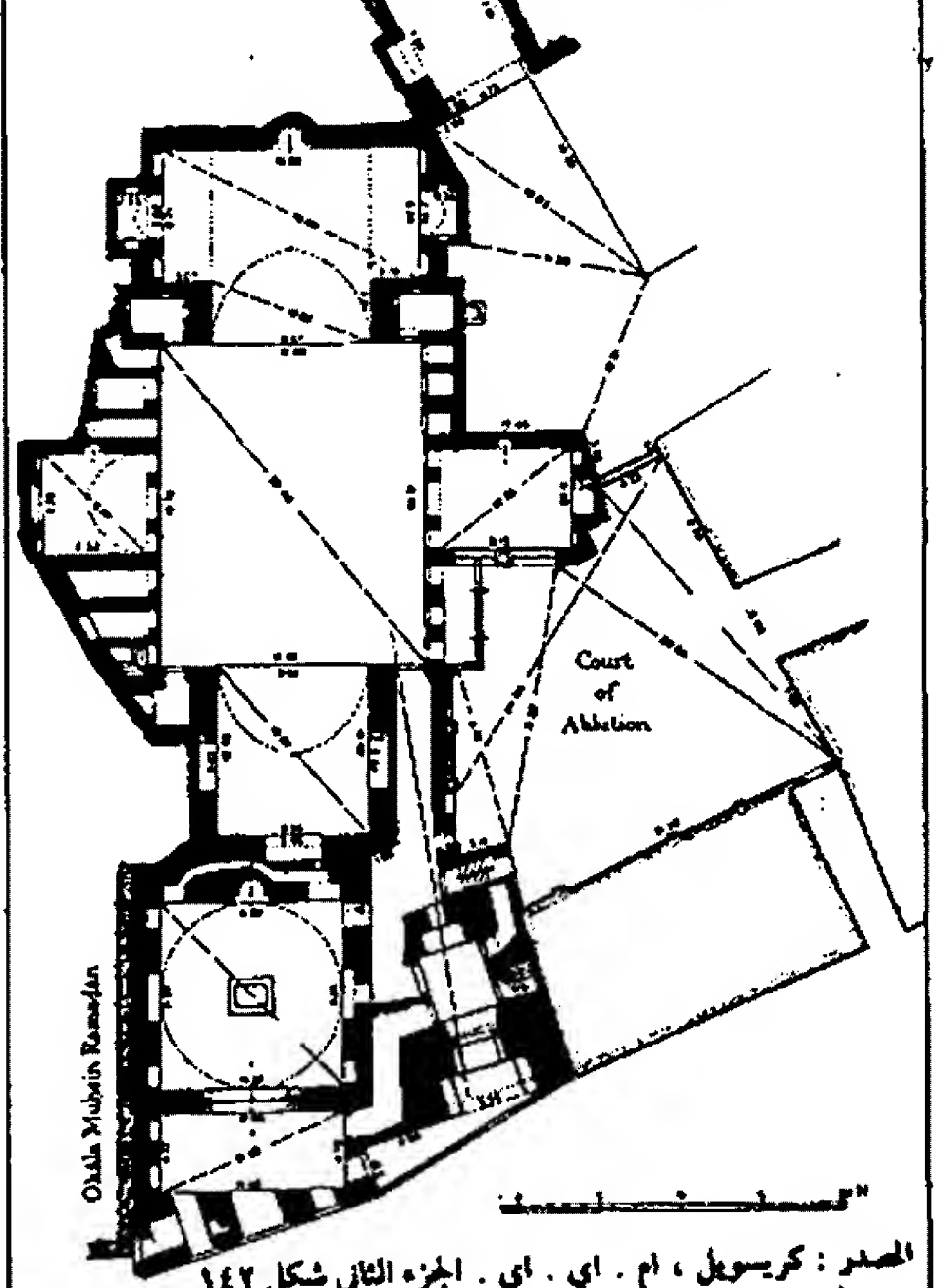


مدبرة وضريح السلطان قلاوون هـ ٦٨٤ / ١٢٨٥ م
المصدر: كرسويل، لوحة ٢٠

واجهة خانقاه ومقبرة السلطان بيبرس جاشانكير
هـ ٧٠٦ - ٧٠٩ / ١٣٠٦ - ١٣١٠ م
المصدر : كوستي ، اللوحة ٢٣



خطة خانقاه ومقبرة السلطان بيبرس جاشانكير



المصدر : كريسويل ، ام . اي . اي . الجزء الثاني شكل ١٤٢

نظامياً أو قصدياً لغرض استبدالها بأخرى جديدة .
هنالك تضمينان يستلزمان نظري لاهميتها الخاصة .
أحدهما هو أن سلامة الصرح قد ضُمنت بإجراءات تفوق
الاجراءات التي تضمن استعمالته المناسبة لمدة غير قليلة ، وقد
حُمي بسبب ان شيئاً آخر قد أصبح ، حتى حين تتخلص أهمية
وظائفه المبدئية أو تتضاءل الى العدمية ، جزءاً من نسيج كينونته
الحضرية . على المستوى الديني أو العاطفي ، فقد يكون العديد
من هذه الصروح تضم مواقع دفنية ، وبالتالي فإن العلاقة
السحرية المعقدة لروحية المسلمين التقليدية بالنسبة لوجود الموق
قد طوّرت ، بشكل يكاد ان يكون آلياً وثرة من التفاعل الدائم
مع أي صرح يتضمن مقبرة . ساعدو وشيكاً الى مستوى شكلي
ممكن من التفاعل في محيط مختلف ، ولكن التضمين الثاني لهذه
الحماية الاجتماعية للعديد من الصروح قد يكون ، بغض النظر
عن الاختلافات الشكلية الموجودة بينهم ، هو أنها كانت على

النقطة الأولى : هي أن كل ابنية الازمنة الكلاسيكية تقريباً
منشآت مستقلة وليست تعديلات أو اضافات رئيسية لأبنية
قديمة . هنالك ، بالطبع ، استثناءات كما في الإضافات المملوكية
لجامع الأزهر وخاصة لتركيبته . والحالة الأخيرة مهمة لأنها مثال
لصرح ذي تاريخ معقد وحساس ، والذي تطلب تعديلات
مستمرة - ومازال قيد التعديل - لأن قوته الحية وأغراضه تطفئ
على سمته الشكلية وتجعل تعاقب معانيه الترامنية غير ذات ارتباط
ببعضها لأن الجديد يتقدم الى الواجهة . أما الاستثناءات
الأخرى فهي في العادة اصلاحات أو أفكار ثانوية لذوق جديد
رغم ان الدراسات الأخرى على الصروح الفردية قد تغير من هذا
الاستنتاج . وبافتراض ان ذلك مقبول ، فما هي تضميناته على
تاريخ القاهرة وخاصة اذا استذكر المرء ان بعض الصروح (عدا
بعض المساكن الخاصة أو الأبنية غير الدينية) كانت قد دُمّرت

الدوام جزءاً من مدونة Code بصرية متوقعة ضمن مجتمع تقليدي . سيكون هناك ما يمكن تسميته بالاتفاق العلائقي بين المتضامين والمنشئين والسكان والذي تطلب الأقل من الوظائف المعينة التي يجب تأديتها مما في أشكال معينة تكون متوفرة بغض النظر عن الوظائف التي طبقت (فهل كانت هنالك حاجة حقيقية لكل المدارس التي وجدت في القاهرة ؟) .

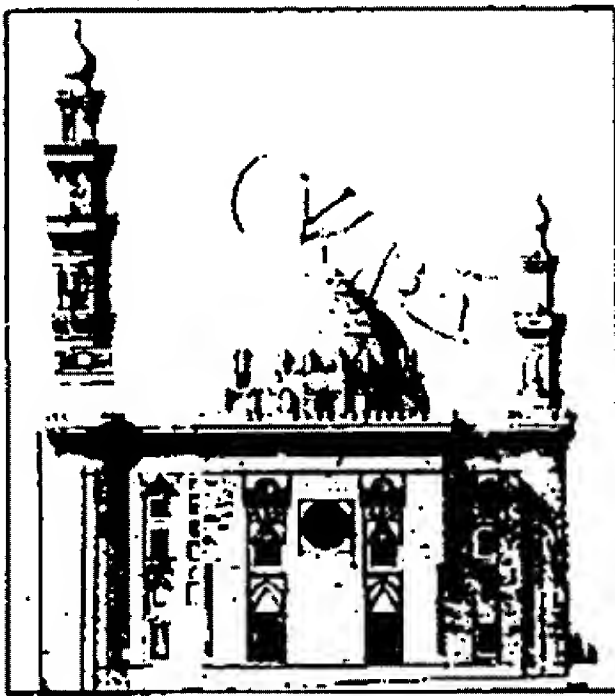
ان من الأصعب كثيراً ان نشخص عملية المدونة البصرية في الماضي مما هو في فهم الوظيفة العملية ، ولكن (وهذه هي نبطي الرئيسة الثانية عن المدينة التاريخية للقاهرة) العدد الكبير من الصروح المحمية اضافة الى الموارد الأدبية والنقشية المتوفرة لها تؤدي الى فرضية عامة للنقاش . لقد كان من الملاحظ دائماً ان الوظيفة المعينة للعديد من الأبنية المملوكية - المدارس والخانقاه (Khanqah) والرباط والمسجد والجامع وحتى المستشفيات والمستودعات في بعض الأحيان - يصعب تحديدها بواسطة التطلع البصري وحده ، من خلال المدارك الحسية البسيطة للبوابة والواجهة ، ان اغلب هذه الأبنية يستعمل عدداً صغيراً من الأفكار المعمارية والتي تكون هي السائدة على مشارف المدينة وعلى الأخص المنائر والقبة والبوابات . انها العمارة الحقيقية المستمرة للقاهرة أكثر من تأديتها الوظائف التي تتضمنها .

ان مؤرخ المجتمع والحضارة ينسئ الأشكال ويتحدث عن الأغراض والاستثمارات والمضامين الاقتصادية والايديولوجية . اما مؤرخ الفن فينظر اليها ليحدد النشوء النمطي والنوعية التقنية والقوة المعبرة ، أو أنه يشير الى أن هذه ومماثلها من السمات مترابطة مع بعضها الى حد أن جامع بيبرس يقرن بجامع الحكيم ، وأن مدرسة قايتباي تتضمن علاقته بمدرسة قلاوون أو مدرسة الناصر . يمكن تفسير هذه العلاقات بمفهوم نوع من الأهداف الفكرية أو العاطفية تعود الى أيام بيبرس وقلاوون أو قايتباي ، ولكن هذه التفسيرات لا تكون ذات أثر لازمة تالية عندما لا تكون احتمالات القرن الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر ذات معنى ، ان ما لازال عاملاً اليوم هو ما أميل الى تسميته بالقوة النغمية للصروح ، بينا المنائر (والتي يصح

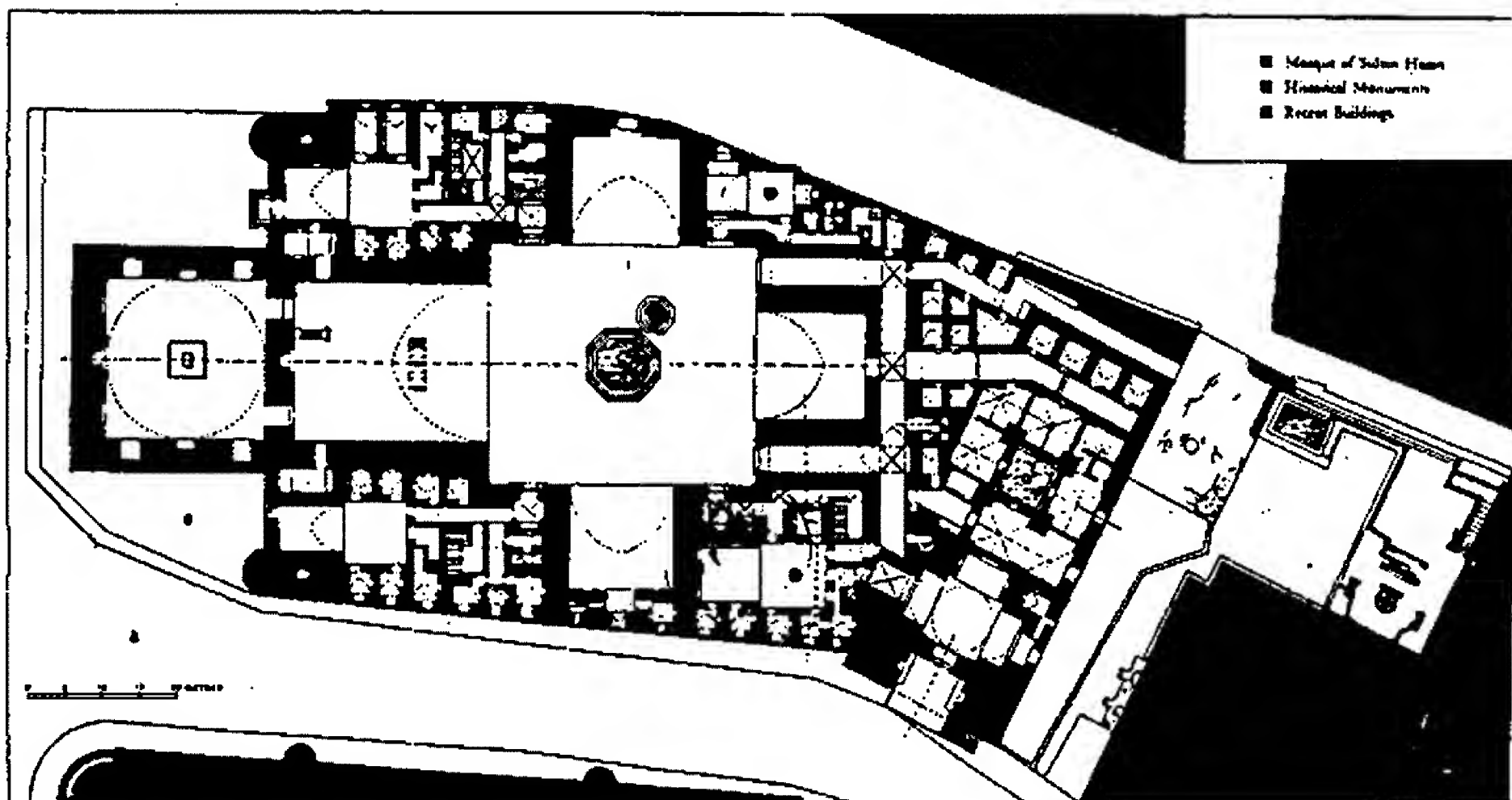
أكثر لو سميت بالأبراج) تعمل كمرحلات بصرية بحيث توجه الماشي من مكان ما ، وان البوابات المتقنة الصنع تجعله يقف ويدخل أو على الأقل يتطلع . قالى حكم مؤرخ المجتمع أو الفن يمكن اضافة حكم مؤرخ التمددين القاهري الذي يبحث عن معاني من وجهة نظر الادراك الحسي البصري للمدينة .

ان ماتوفر في مدينة القاهرة هو شبكة من العلامات البصرية التي تنظم الحركة داخل المدينة والتي تجعلها قابلة للاستعمال البصري وللهم عندما يحاول المرء أن يستعملها وان يفهمها . هنالك الحركة من جامع الحكيم الى المقبرة الجنوبية ، والرحلة الجانبية الى القلعة من خلال درب الأحمر ، وأي عدد من التوجهات الأخرى التي تربط المدينة . لقد حددت هذه الاتجاهات بأشكال ثابتة مستقلة معرفياً عن الوظائف المرتبطة بها .

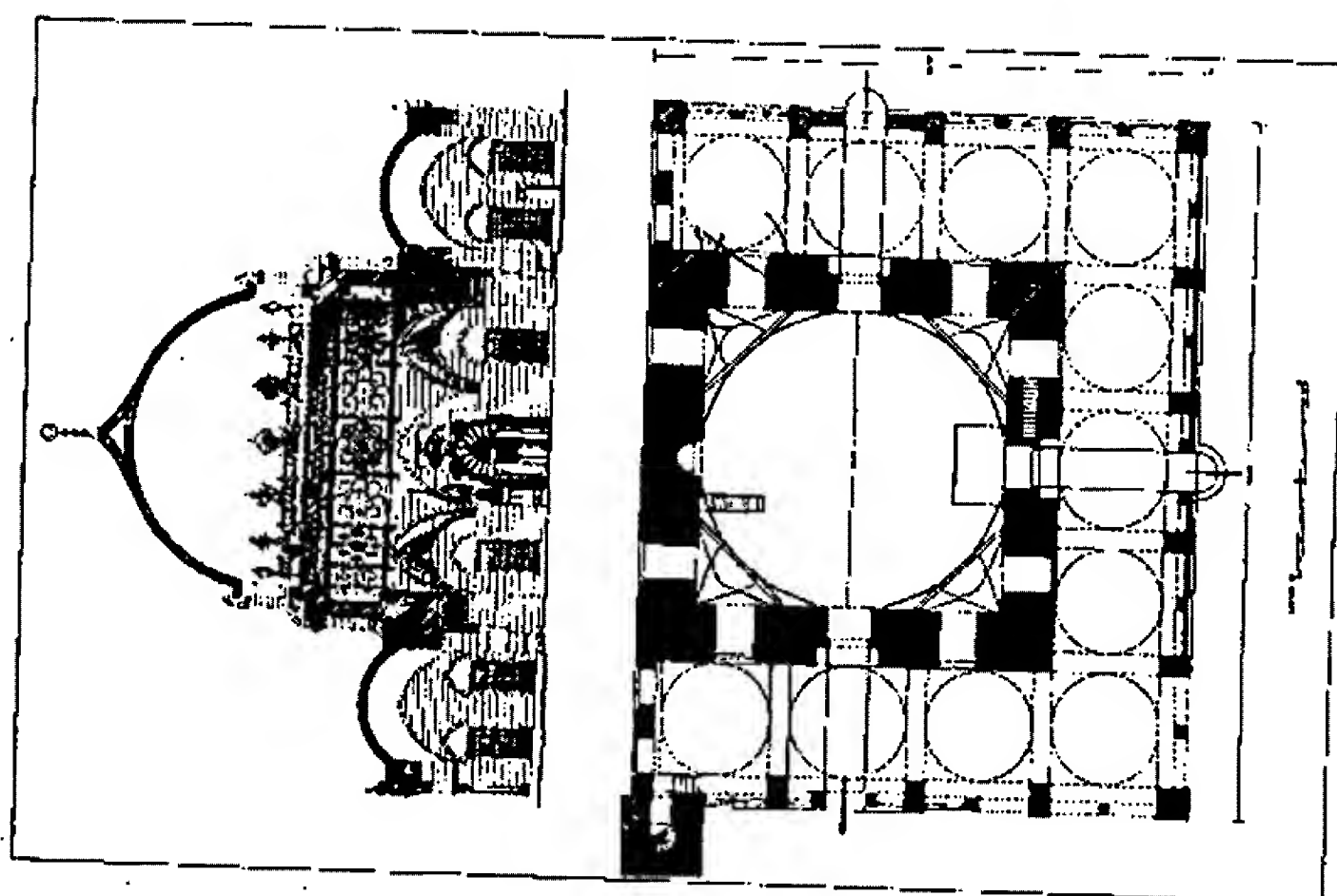
من بين المدن الإسلامية المعروفة لدي ، فان اسطنبول وحدها فيها نظام علائقي نغمي ، ولكنها تفتقر الى كثافة العلامات التي توفرها القاهرة ، وانها على مقياس مختلف تماماً . لم يعد يهم ، على هذا المستوى ، ماكان من الامكانات التاريخية المعينة والمتطلبات والوظائف أو الاستثمارات من أجل خلق هذه



جامع ومدرسة السلطان حسن
٧٥٧ - ٧٦٤ / ١٣٥٦ - ١٣٦٢ م
المصدر : هيرز ، لوحة ٤

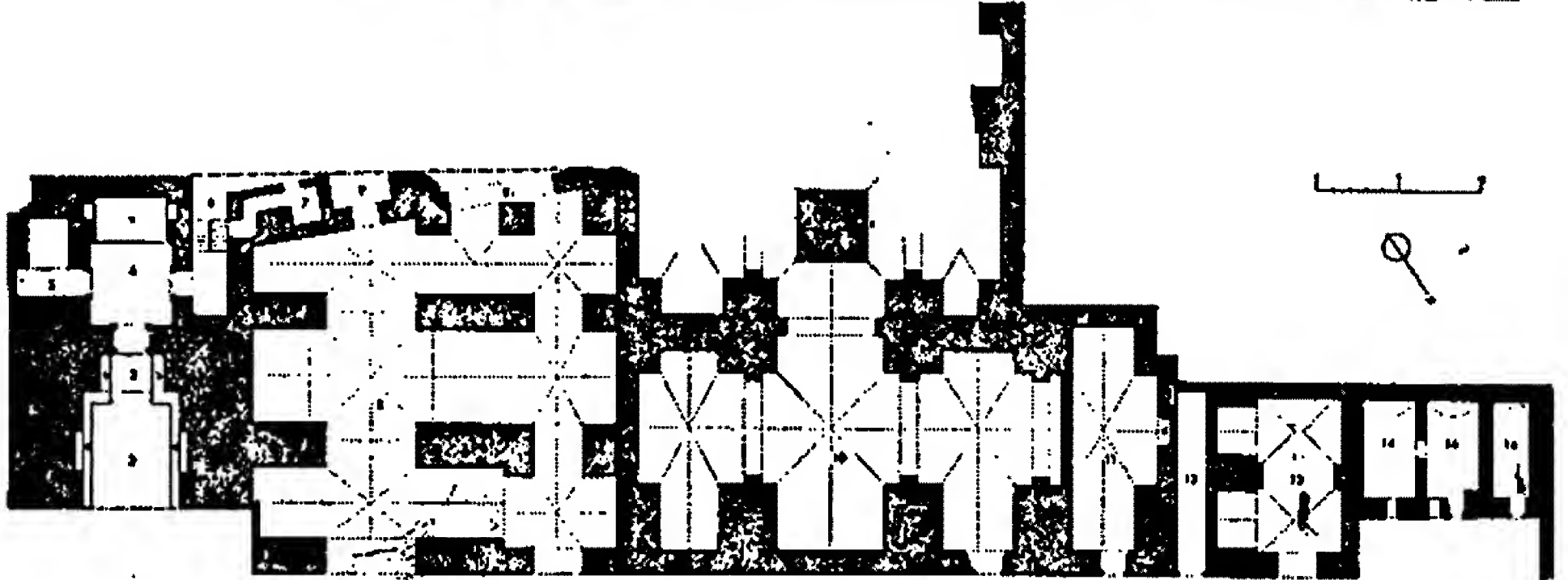


خطة جامع ومدرسة السلطان حسن
المصدر : كروسويل ، ام . اي . اي ، الجزء الأول شكل ٢٦



خطة ومدرسة السلطان حسن
المصدر : كروسويل ، ام . اي . اي ، الجزء الثاني
شكل ١١٠ ، ١١١

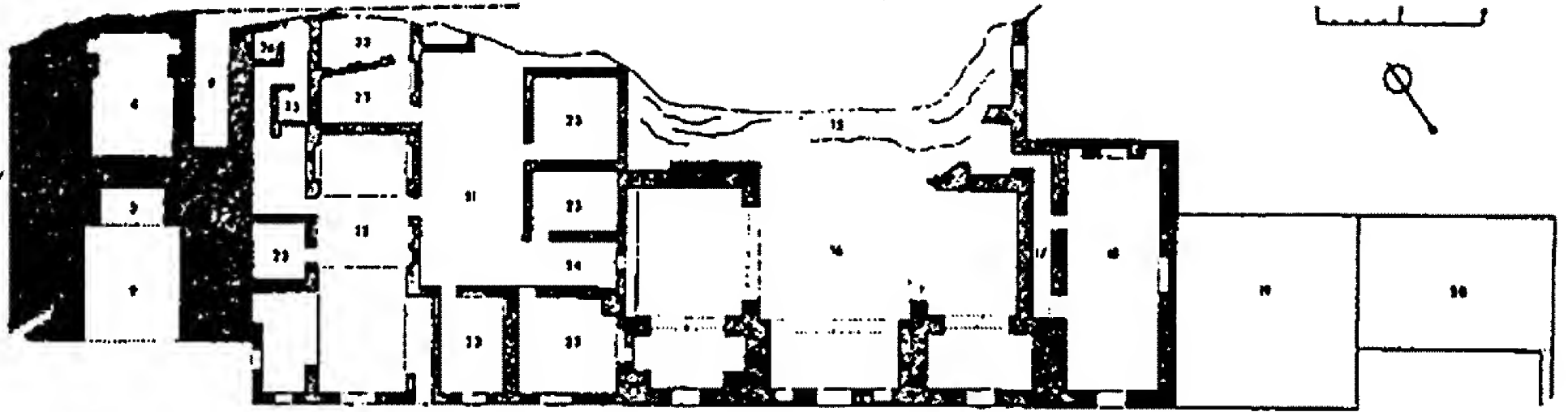
سيلان لشرب الماء في المركز: عثمانى من القرن الثالث عشر
وفي البمين مملوكي من القرن الخامس عشر
المصدر: كوسبي، لوحة ٤١



Place of Yashbak Qusun, 14th-15th century, plan, first floor.

Source: Revault, Maury, vol. 2, fig. 11.

خطة الطابق الاول لقصر يشبك وكوسن - القرن ١٤ - ١٥
المصدر: ريتولت، موري، الجزء الثاني شكل ١١



Palace of Yashbak/Qusun, second floor.

Source: Revault, Maury, vol. 2, fig. 12.

الطابق الثاني لقصر يشبق ركوسن
المصدر: ريفولت، موري، الجزء الثاني شكل ١٢

ان حجج هذا البحث في تفسير مدينة يجب أن تتعدى خصوصيات مدينة القاهرة . وان استخدام مدينة غنية بشكل استثنائي بصروح العصر الوسيط يتضمن انه عندما تحصل مدينة ما على كثافة القاهرة الصرحية ، فان الصروح تكون بعيدة عن الدقة المتناهية للمؤرخ ، وتصبح عوامل مستمرة في الحياة الشكلية للنظام الحضري لأن معانيها الحقيقية تتحدد أقل بما قد جرى لها مما بما كيف تتصرف على مجموع النسيج الحضري .

الشبكة البصرية . ولكن مايجم فعلاً هو أن سمة قد أضفيت في الجزء الأخير من العصور الوسطى على مدينة بقيت عاملة حتى الآن وهي لم تمتد الى البقاع الجديدة من المدينة حيث حلت مساحات حركة المرور والاعلانات الضوئية محل المنائر في الارشاد ، وحيث قامت الابنية العالية مقام القباب ، وتنازلت البوابات أمام شبايك العرض . ربما كانت هذه في الحقيقة لغة نهاية القرن العشرين ولكن فهماً أرقى لما جعل القاهرة فريدة في الماضي قد يساعد في ابقائها فريدة في المستقبل .

المصادر

- اوكسفور ، ١٩٥٢ - ١٩٥٩ .
- حنا ، نيلي - بولاق ، بقعة تاريخية محظورة في القاهرة ، ميخائيل ماينيك - لندن ١٩٨٠ .
- ميرز ، ماكس ، جامع السلطان حسن في القاهرة ، القاهرة ١٨٩٩ .
- ريموند ، اندريه ، القاهرة العثمانين ١٥١٧ - ١٧٩٨ ، ريفولت وب موري ١٩٨٣ .
- ريفولت ، جي . وب . موريه ، قصور وبيوت القاهرة ، الجزء الثاني - القاهرة ١٩٧٧ .

- أبو لغد ، جانيت ، القاهرة الف عام وعام لمدينة متصورة - برنستون ١٩٧٢ .
- كوسقي ، باسكان ، العمارة العربية - صروح القاهرة باريس ، ١٨٣٩ .
- كريسويل ، كي . اي . س . العمارة الاسلامية القديمة ، أوكسفورد ١٩٤٠ .
- كريسويل ، كي . اي . س . جوامع مصر ، القاهرة ١٩٤٩ .
- كريسويل ، كي . اي . س . العمارة الاسلامية المصرية

Hanna, Nelly. "Bulaq: An Endangered Historic Area of Cairo" in *Islamic Cairo*, Michael Meinecke, ed. AARP, London (June, 1980): 19-29.

Herz, Max. *La Mosquee du Sultan Hassan au Caire*. Cairo, 1899.

Raymond, André. "Les Bains publics au Caire à la fin du XVIII^e siècle." *Annales Islamologiques* VII (1967): 129-150.

Raymond, André. "Le Caire sous les Ottomans: 1517-1798" in *Palais et maisons du Caire*, J. Revault and B. Maury, eds. vol. 2. Paris, 1983.

Revault, J. and B. Maury. *Palais et maisons du Caire*. vol. 2. Cairo, 1977.

Sources

Abu-Lughod, Janet. *Cairo: One Thousand and One Years of the City Victorious*. Princeton, 1972.

Coste, Pascal. *L'Architecture arabe, ou monuments du Caire*. Paris, 1839.

Creswell, K.A.C. *Early Muslim Architecture*. Oxford, 1940. (EMA).

Creswell, K.A.C. *The Mosques of Egypt*. Cairo, 1949. (MF).

Creswell, K.A.C. *The Muslim Architecture of Egypt*. Oxford, 1952-1959. (MAE).

أحداث مهمة في تاريخ القاهرة

هجري ميلادي

- ١١ / ٦٣٢ : وفاة النبي محمد (ﷺ) في المدينة .
- ١٨ - ٢٠ / ٦٤١ - ٦٣٩ : فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص أثناء خلافة عمر بن الخطاب .
- ٢٠ / ٦٤١ : الاستيلاء على حصن بابليون الروماني القديم [قصر الشام] في القاهرة القديمة .
- ٢٠ / ٦٤١ : مصر ، ولاية تحت رعاية الخلفاء في المدينة .
- ٢٠ / ٦٤٢ - ٦٤١ : إنشاء مسجد عمر ، تأسيس القسطنطينية كمدنية عاصمة .
- ٤١ - ١٣٢ / ٧٥١ - ٦٦١ : الحكم الأموي .
- ١٣٢ - ٦٥٠ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ : الحكم العباسي
- ١٣٢ / ٧٥١ : والي مصر ينتقل بمسكنه الى حي العسكر الجديد .
- ٢٥٤ / ٨٦٨ : احمد بن طولون يصبح والي مصر .
- ٢٥٤ - ٢٩٢ / ٨٦٨ - ٩٠٥ : الحكم الطولوني .
- ٢٥٦ / ٨٧٠ : ابن طولون ينتقل بمسكنه الى القطامي .
- ٢٦٥ / ٨٧٧ : اكمال جامع ابن طولون .
- ٢٩٧ - ٥٦٧ / ٩٠٩ - ١١٦٩ : الحكم الفاطمي
- ٣٥٨ / ٩٦٩ : الجيوش الفاطمية من شمال القاهرة تحتل القسطنطينية وتأسيس مدينة القاهرة المسورة .
- ٣٦١ / ٩٧٢ : وقف جامع الأزهر .

- ٤٠٣ / ١٠١٢ : اكمال جامع الحكيم .
- ٤٥٨ - ٤٦٩ / ١٠٦٦ - ١٠٧٢ : الحراب بسبب الجفاف ووباء الطاعون ، تشتت خزائن الفاطميين .
- ٤٨٠ - ٤٨٤ / ١٠٧٨ - ١٠٩١ : انشاء اسوار جديدة وبوابات (الفتوح ، نصر ، زويلة) ، التهديد بالغزو من قبل الأتراك السلجوقيين .
- ٤٩٠ / ١٠٩٦ : بداية الحملة الصليبية الأولى .
- ٤٩٢ / ١٠٩٩ : سقوط القدس امام الفرنجة .
- ٥٦٣ / ١١٦٨ : حرق القسطنطينية لمنع سقوط القاهرة امام الفرنجة .
- ٥٦٤ / ١١٦٩ : سيطرة صلاح الدين الأيوبي على مصر .
- ٥٦٤ - ٦٥٠ / ١١٦٩ - ١٢٥٢ : الحكم الأيوبي .
- ٥٦٦ - ٥٧٢ / ١١٧٠ - ١١٧٦ : اطالة اسوار القاهرة : بدء انشاء القلعة .
- ٥٧١ تقريباً / ١١٧٥ تقريباً : ادخال نظام المدرسة في التعليم الى القاهرة .
- ٦٣٨ تقريباً / ١٢٤٠ تقريباً : تأسيس فيالق ممتازة من المماليك الأتراك (المخدم) من قبل السلطان الملك الصالح .
- ٦٤٧ / ١٢٤٩ : انشاء أسس اول مدفن واضح مع قبر ومدرسة للسلطان الملك الصالح .
- ٦٤٨ / ١٢٥٠ : بدء حكم المماليك البحرية .
- ٦٥٧ / ١٢٥٨ : احتلال المنول لبغداد ومقتل الخليفة العباسي / المستعصم بالله .

٦٦٠ / ١٢٦١ : تنصيب السلطان بيبرس . أحد العباسيين خليفة في القاهرة .

٦٦٤ / ١٢٦٥ : بيبرس يصبح سلطان مدينتي مكة والمدينة المقدستين .

٦٧٦ / ١٢٧٧ : بيبرس يدحر المغول في شمال سوريا .

٦٩٢ / ١٢٩٢ : الاستيلاء على آخر المواقع الفرنجية .

٧٠٩ - ٧٤٠ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ : حكم الناصر محمد بن قلاوون ، أعظم باني ونصير مملوكي .

٧٨٢ / ١٣٨٢ : بداية الحكم الجركسي المملوكي .

٨٧٢ - ٩٠٢ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ : حكم الأشرف قايتباي ، أوج الفترة الجركسية المملوكية .

٩٠٦ - ٩٢١ / ١٥٠١ - ١٥١٦ : حكم قنصوة الفوري .

٩٢٣ / ١٥١٧ : السلطان العثماني سليم الأول يحتل مصر التي تصبح ولاية للإمبراطورية العثمانية .

٩٤٥ / ١٥٣٨ : موت آخر خليفة عباسي قاهري مسلماً ، الخلافة الى سلطان الدولة العثمانية .

١١٨٢ / ١٧٦٨ : ثورة الشيخ علي بيك ضد العثمانيين وسيطرته على جزء من البلاد العربية ومحاولاً دمج سوريا .

١١٨٦ / ١٧٧٢ : اتحاد الثورة .

١٢١٣ / ١٧٩٨ : دحر نابليون للقوات المصرية في معركة الأهرام .

١٢١٦ / ١٨٠١ : نزوح الفرنسيين عن مصر واعادة استيلاء العثمانيين عليها .

١٢٢٠ / ١٨٠٥ : محمد علي يطرد الحاكم العثماني ويقتل موظفيه الكبار .

تعقيب توضيحي :

ليس هدفي من بحثي هذا والملاحظات التالية شرح أو تفسير صروح القاهرة بمحتواها التاريخي ، ولكن بالأحرى ، ولأخذ حالة القاهرة بالذات بنظر الاعتبار ، التفكير ملياً بدور

المؤرخ والتاريخ في معاونة الاختطاطيين والمعماريين والمصممين ، والقادة السياسيين ، والاداريين العاملين في رسم صورة المستقبل ، ومواجهة ضرورات اليوم ، أو اتخاذ القرارات التي تؤثر بشكل حاسم على المستقبل . يعتبر البعض ان المؤرخ ليس إلا مسجلاً اخبارياً لما جرى ، وان أحكامه ليست ذات قيمة تفوق قيمة أي مواطن معاصر أو ناقد فيا عدا ما يمكن أن يوضحه بسهولة من آراء أو من معرفة أكثر من غيره . وآخرون يدعون ان على المؤرخ مسؤولية بيان كيفية ملاءمة أو عدم ملاءمة أي قرار مع مايفترض الإتفاق عليه من علاقات بين الحاضر والماضي . غير أن آخرين يصرحون ان من التشجرف الافتراض بأن للمؤرخ نوعاً من الاحتكار على الأحكام الحساسة ، ولكن مع ذلك فإن دوره أكثر من دور ناقل اخباري لأنه يتحدث باسم فئات غير معرفين نسبياً في عملية بناء المستقبل : طبقة الموق ، والسلف ، والأماكن ، والأشكال التي تركوها والتي مازالت قيد العمل أو ستستبدل بأماكن جديدة وأشكال جديدة . ولكن هل أن المؤرخ ، ببساطة ، ينقل بأحسن مايمكنه ، مايدوله أو الى اجماع الرأي في مهته مايسمى بصوت الماضي ؟ أو هل انه يحول الى الماضي اسئلة تعد اليوم وتبحث في الماضي عن أجوبة واتجاهات عن المستقبل . انني لا أملك أجوبة عن هذه التساؤلات التي لانعدو ان تكون حالة خاصة لموضوع أوسع لمستشارين خارجيين في تكوين عالم اليوم ، ولكنها اهتمامات تشغلني منذ مدة مما حدد صيغة تساؤلاتي .

يتضمن البحث نوعين من المعلومات وعدداً من الاسئلة . أولاً : هنالك قائمة بتواريخ وأحداث الحكام المتعاقبين تعمل على تعزيز ثراء وتعقيدات تاريخ القاهرة . هذه القائمة تنم على ان هنالك الكثير من الحالات الزمنية التي يمكن التوقف عندها لوضع لمحة لما كانت عليه القاهرة ، ودعم وصف بنسي وبصري مع الممارسات والترعات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي كانت سائدة آنذاك . لم يسبق لأحد أن قام بمثل هذه الاقتطاعات الأفقية خلال مدينة القاهرة من قبل إلا جزئياً ، وانها إذ كانت آسرة للمؤرخين ، فان فوائدها الفعلية للممارسين المعاصرين

ربما كانت ثانوية عدا عن كونها مثيرة لموضوع واحد . فعندما يتحدث المؤرخون عن ماضي القاهرة من خلال صروحها ، فانه يتحدث عن مواضي عديدة لاعن ماض واحد . وان دوره يكون في التمييز بين ماضٍ وماضي ، بغية توضيح الفوارق . غير أن واقع المدينة نفسها قد مزج بين المواضي وخلطها لتعايش سوية عبر الحلقات التاريخية . ماهي النقطة التي يكون منطقياً معها للتوصل الى قرار بأن المدينة قد وصلت وضماً من التعادل المترابط والذي يمكن ويجب أن يحافظ عليه بدلاً من السماح له بالاستمرار بالحياة .

ثانياً : يتضمن البحث غنارات من الاشكال القاهرية لمختلف الوظائف والتي اصبحت الآن صروحاً . ومع ان هنالك نواحي عديدة لم يُقبر غورها بعد في هذا المجال ، فان المعلومات الخاصة بالصروح ، من الناحية العامة ، متوفرة بسهولة . اما اجراءات وضع معايير حقيقية فانها على الخصوص واضحة نسبياً . انها ، ببساطة ، مسألة توفر عدد أكبر من المتعلمين والمعماريين (وبالتالي تخصيصات مالية أكثر) لغرض تسجيل دقيق وتفسير للصروح القائمة وتلك التي يمكن استعادتها آثارياً وعن المعلومات النصية الخاصة بها . ان العضلات القائمة على هذا المستوى ذات نوعين . أحدهما هو الهيمنة على دقة المعلومات واكتمالها ، لأنها تخص صروحاً يعتمد عليها التاريخ ، وخاصة تلك الصروح التي قد تندثر أو تُعدّل أو تُحوّل لاستعمالات أخرى أو تصان . ان الافتقار الى الهيمنة قد يؤدي الى تأثيرات نكبية في الوقت الذي حققت فيه الهيمنة على دقة المعلومات نجاحات مشهودة في القاهرة أو في غيرها . أما النوع الثاني من العضلات فيمكن في المجالات السياسية والثقافية : ما الذي يتوجب حفظه وكيف ؟ لقد كتب الكثير عن هذا الموضوع ، ولكن الأهم من الـ « الذي » والـ « كيف » هو مسألة « لماذا » بحفظ الشيء ، هل هو لإبداء التقدير للماضي أم لتلبية حاجات اليوم ؟

وأخيراً ، فان البحث تقصد في التحرك خطوة الى الامام متجاوزاً الاعتراف البسيط بشراء القاهرة الفريدة في الصروح الاسلامية من خلال تضمينه ثلاثة تساؤلات تأملية أخرى :

١ - ماذا في تاريخ القاهرة ما أتاح لها فريديتها ؟

٢ - ماهي الاشكال التي اتخذتها تلك الفريدة ؟

٣ - ماذا تعني هذه الفريدة اليوم بالنسبة للمستقبل .

هذه التساؤلات تستحق شيئاً من الدراسة التفصيلية .

بالنسبة لسؤال ماذا في تاريخ القاهرة ما أتاح لها فريديتها ،

فان المثال التالي كفيلاً بتوضيحه ، ففي القاهرة ليست هنالك منطقة أكثر استثنائية في روعتها من باب زويلة حيث يسند السور الفاطمي المشيد عام ١٠٩٢ م جامع المؤيد المشيد عام ١٤٠٥ - ١٤٢٠ م ، وحيث يقع جامع ثلاثي العنبر جداً على خلاف مع كل محوري المنطقة ، وحيث تفتح الأزقة نحو كل جزء من المدينة القديمة . من وجهة نظر جمالية ومنطقية ، انه مكان يتسم بالسخف لأن الأنماط المختلفة من المنشآت والوظائف المتكررة تتكاثف على بعضها ، كما أن لكل نمط متمثل في هذه المنطقة مثلاً ذا نوعية رفيعة موجود في منطقة أخرى . غير أن أياً من هذا كله لا يهم ، لأن كل هذه العناصر المتباينة كانت قد توحدت بحياة المدينة وبفعاليتها اللامتناهية ، وما الصروح إلا رفقاء صداديين للحياة المستمرة . ان إعادة انشاء أسوار المدينة الفاطمية من قبل بدر الجمالي ، الوجه الفاطمي البارز ، بدوق جديد من أجل اخراج الاشكال وابرازها ، وبالتأكيد بدوافع تجارية ومن قبل سلطان مملوكي ليست بحد ذاتها مهمة لما حدث لها عبر الزمان . لم يكن تضارب الأنماط مهماً ، ولا كان الافتقار الظاهر الى النظام ذا شأن ، لأن أياً من هذه الأبنية لم يكن في الحقيقة « صروحاً » بل كانت كلها تلبية لمتطلبات عملية أو حكومية آنية . ان تبعية هذه أمر ساعود اليه وشيكاً . ولكن المهم هو امكانية قبولها كلها حتى وان استعملت أشكالاً غريبة جداً كما في جامع صالح ثلاثي ، لأن معاشتها واستعمالها وأشكالها كانت جزءاً مما ادعوه بالعقد العلائقي ، أو بكلمة أخرى علاقة متفق عليها بين الناس والأشكال . مثل هذه العقود تنشئ صروحاً على ما كانت الحال عليه في السابق ، بحيث ان برجاً عسكرياً يمكن ان يصبح قاعدة لمنازة أو حانوتاً لتاجر معاصر يعلق فيه سلعته لأنه موجود ويعود لمن يعمل فيه . والمقصود بذلك هو

أن محافظ صروح باب زويلة واحتضنها لم يكن اهتماماً جمالياً بالعمارة ولا معرفة راسخة بالتاريخ ، ولاحق قيوداً قانونية ، بل قبولاً للغة شكلية مثل لغة القاهرة .

ماهي معايير هذه اللغة ؟ لقد أكدت في بحثي على ان المنائر علائم للحركة والاتجاه مثل المرشدات ، وان القباب مواقع ثابتة ذات أهمية مقدسة أو خلافه ، أما البوابات فعلامات وقوف للدراك الحسي للمرء واستعمالاته للمدينة . كل الاشكال الثلاثة هذه تؤدي الى ما قد يكون أهم عنصر للقاهرة ، ولربما لاية مدينة تقليدية ، ألا وهو الشارع ، أو بتعبير أصح وسائط النقل التي ليست بين الصروح (كما نصفها صحيحاً كتب الدلالات في عصرنا السياحي) ولكن بين أنماط الفعاليات ، كالمعيشة البنية ، والعلاقات الاجتماعية ، والولاء للأسرة ، والعمل والاعتسال والغذاء وما الى ذلك . ان هذه الشبكة من الحركة والتي لم تدرس أبعادها التاريخية ، حسب علمي ، لحد الآن في المدينة الاسلامية ، والتي تم فصلت في حينه بالصروح ولربما تكونت شكلياً بها .

ماذا يعني هذا اليوم ؟ انني ، وبالمخاطرة بتضخيم الحال ، اقول قبل كل شيء ان المدينة التي عاشت حتى أوائل القرن التاسع عشر قد طورت نظاماً للاشكال يكون قد أوفى بحاجاتها ، ولكن هذا النظام كان أقرب الى « العلامات - Signs » مما هو الى « أنماط - Styles » ، لان ما تبقى مشتركاً بين العهود الفاطمية والأيوبية والمملوكية الاولى والمملوكية الآخرة والعثمانية ليس من قبيل معالجة الأشياء التي تتغير مثلها يتغير الذوق ، ولكن « رمزية الاشكال - Typology of forms » هي التي حافظت على الدوام على نفس الهيكل . والسؤال هو فيها اذا لم تستبدل مدينة القرنين التاسع عشر وأوائل العشرين ذلك النظام وتلك الرمزية بنظام جديد ورمزية جديدة . ان بمقدور المرء ان يؤيد فكرة العودة المعمدة لنظام سابق ، ولكنني أشعر بكل ثقة ، بالتضمينات الثقافية والاجتماعية ، ان لم تكن السياسة ، بما يقام به . بكلمة أخرى ، ولغرض النقاش ، أود أن أقدم تساؤلاً عما اذا لم يكن النظام البصري للمدينة العثمانية القديمة فعلاً لغة للماضي

والذي استعير عنه في القاهرة (وليس في فاس أو حلب مثلاً) بنظام آخر . أما تساؤلي الثاني فهو هل يتمكن المرء من أن يدحض أنه حتى لو لم تكن أشكال الماضي الراسخة - ولربما بعض وظائفها - وثيقة الصلة في تلبية متطلبات اليوم ، فان « أنماط - Types » الاحتياجات - needs وأنماط الاستجابات -

responses التي وجدت في الماضي مازالت نفسها اليوم . اننا مازلنا نتحدث عن شبكة الاتصالات بين العيش والعمل والحفاظ على الصحة ، وتربية الأطفال ، والصلاة ، والتعامل بالعلاقات الاجتماعية والعائلية ، فهل وجدنا العلامات التي تجعل هذه الفعاليات عاملة ؟ هل نعرف ما هي اجراءات الحاضر في التعرف على الاتجاهات والأماكن المهمة ، وعمليات التوقف ؟ هل نعرف الشكل المادي المتوقع من قبل مجتمع معاصر ومجاميع اجتماعية ؟ وأخيراً ، فان الماضي ، ماضي القاهرة البنيوي الماجد ، المهتد بالتطورات المعاصرة يصح أن يصبح رمز هوية القاهريين ، والذي يميز القاهرة عن العديد من الحواضر الأخرى . ان مهمة المؤرخ يمكن ان تكون للعالم المعاصر احد الرموز الازليزية وفي إيجاد افكار ذات هوية ذاتية على مستوى مختلف تماماً عن مستوى « تفسير » الماضي ، وهل مستوى جعل الماضي علامة للحاضر مثل ما هو سائد في العملات الورقية وطوابع البريد . وسواء أكان هذا فعالية مبررة سلوكياً فانه أمر يحننا فعلاً ولكنه يبعثنا عن غرض رئيس ألا وهو فهم كيف يمكن لمدينة القاهرة أن تواجه المستقبل . غير ان سلوكيات اعمالتنا يجب أن تواجه (بفتح الجهم) ، في مرحلة ما ، اضافة الى مواجهة تقنياتها .

لتلخيص ماتقدم أرفع الى حناية المتدبرين الأسئلة والمواضيع

التالية :

١ - انه للقاهرة مواضي عديدة يتعلم المؤرخ منها كيف يميز ، أما بالنسبة الى « الاختطاطي المعاصر - Contemporary Planner » أو المنشئ أو متخذ القرار فهل ان هذه التحسينات في المعرفة ذات اية أهمية حقيقية أم انها لاتتضمن مخاطر دلالات ايديولوجية اذا ما استعملت خارج العالم الذاتي للماضي .

٢ - حتى منتصف القرن التاسع عشر ، شاركت المواضي

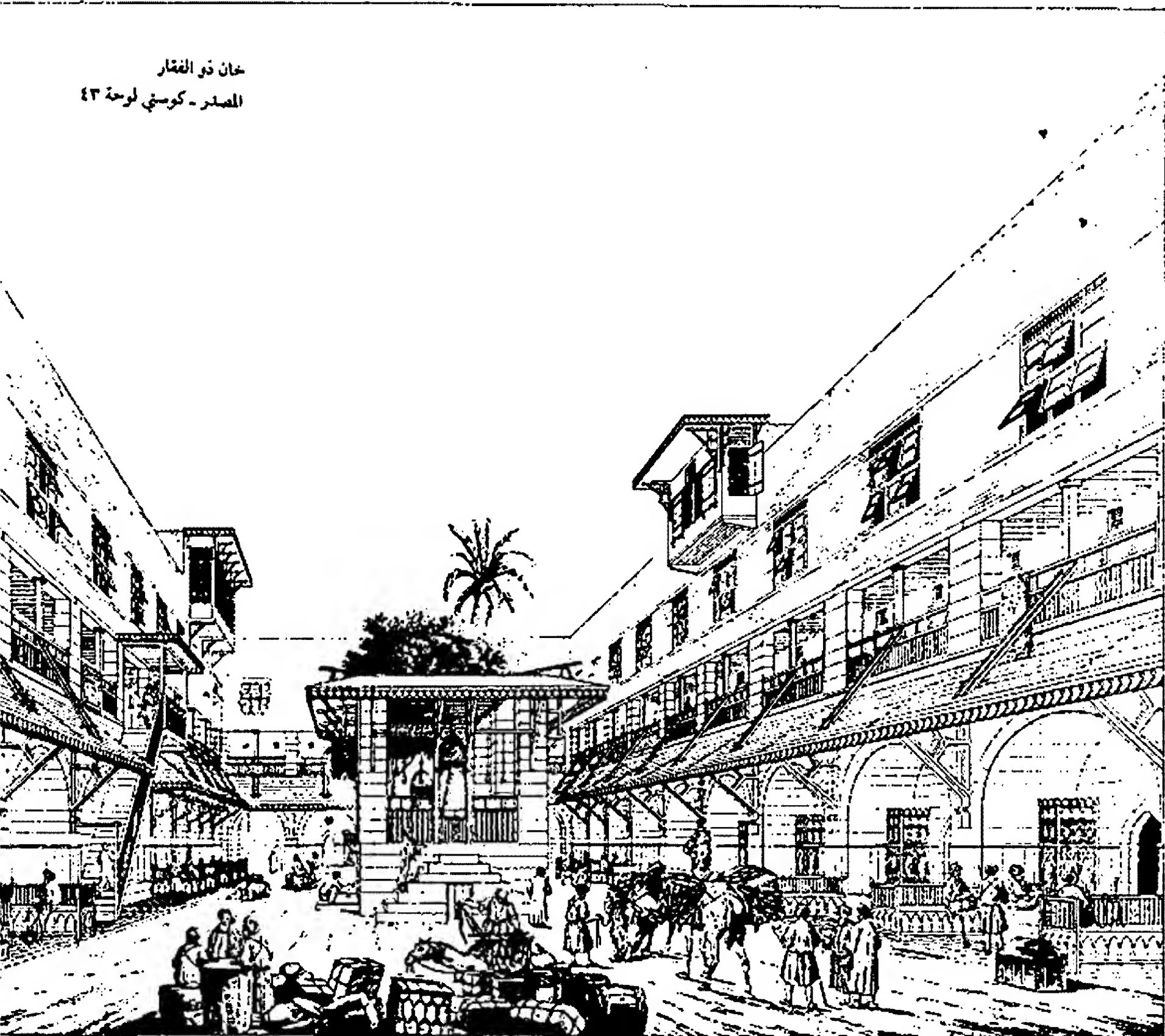
٤ - هنالك في الحقيقة أسلوب في تعريف العمارة الحضرية للقاهرة ذات السمات الفريدة الخاصة بها ، والتي فيها انبعثت النبضات الأولية من قبل مدينة الفاطميين في القرن العاشر ، وفيها تكوّنت الثوابت .

ذلك الأسلوب هو العلاقة بين الأشكال أو الفعاليات التي حولها لا الأشكال و الظاهرة - Visible .

العديدة للقاهرة لغة ورمزية في الأشكال ، فهل استعوض عن تلك اللغة بلغة النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي هي متمثلة في القاهرة بشكل مثير ؟ وعلى هذا فهل اننا نحقون في اضافة أهمية كبيرة على اللغة القديمة في التفكير بعمارة اليوم وعمارة المستقبل ؟

٣ - ان معضلة التعامل مع التاريخ تختلف عن معضلة التعامل مع ربوع تتضمن مستندات تاريخية .

خان ذو الفقار
المصدر - كوسني لوحة ٤٣



Caravansarai of Zulfikar, 18th century.
Source: Coste, Pl. XLIII.

بعض سمات الشعر العربي القديم كما تصورها مجموعة مختارة غير مشهورة كثيراً

محاضرة ألقاها السير جارس . ج . لايل
بتاريخ ٢٢ مارس ١٩١٨ في
الأكاديمية البريطانية

ترجمة

مراجعة

د . علي يحيى منصور

كلية اللغات / جامعة بغداد

د . نوري هودي القيسي

كلية الآداب / جامعة بغداد

لقد طرح السيد راينولد نيكلسون في كتابه « تاريخ أدب العرب » (١٩٠٧) أحسن عرض باللغة الانكليزية عن الأدب العربي القديم وفرز له بحق مرتبة متقدمة في عالم الابداع الأدبي المهيّب الذي ندين به للعرب وللأقوام الأخرى التي نطقت بلغتهم . يقول نيكلسون عن شعر العرب بأنه :

« يدور في عالم منفرد ، ولن يصبح مألوفاً في لغتنا أبداً ، على الرغم من كل مميزات الرائعة . . . وقد لا يتيسر لأي مترجم تقديم قصيدة عربية نموذجية للقارئ الانكليزي بشكل مفهوم وجذاب في آن واحد . وانا نجد انفسنا حائرين حتى أمام ما يبدو بأنه أفضل الأمثلة الملائمة لغرضنا ، ونقف حائرين مرة بعد مرة أمام الأفكار المتميزة بالطابع القومي العميق والاستعارات ذات الطابع المحلي الغريب والأسلوب الاصطلاحي المتمتع » (١) .

وعلى الرغم من هذا الحكم المخيب للأمال فاني اقترح طرح بعض نماذج من الشعر العربي القديم عليكم راجياً منكم ان تتذكروا بأن هناك علاقات معينة تربطنا نحن الأوروبيين ، رجالاً ونساءً ، بذلك الأسلوب ذي التركيب البعيد الغريب عنا . وأول موسوعة وأهمها بين تلك المجموعات من الأعمال القديمة يحتويها

الكتاب المقدس ، باللغة الانكليزية . لقد عالج السير جورج آدم سميث تلك القرابة بين العرب وغيرهم من الساميين في قضايا الأدب (وفي أشياء أخرى) .

ونجد في سفر أيوب يتكلمها العرب كأبطال للأحداث الدرامية ، ويراري سوريا مكاناً لها ، عنداً كبيراً من المقاطع الوصفية التي تذكرنا فوراً بأسلوب شعراء العرب في تصوير حيوان الصحراء والذي يشكل أحد أهم المميزات المعبدة الساحرة للقصائد العربية . وفي « نشيد الأناشيد » المنسوب الى سليمان ، توجد لمسات كثيرة لا بد من وضعها جنباً الى جنب مع تلك المنظومات العربية التي تدعى بـ « النسيب » ، وهي في غزل النساء ووصف محاسنهن وبيان آلام الفراق والأحزان التي تثيرها الذكرى أثناء وقوف الشاعر عند منازل الحبيبة الخالية ، لكي ندرك الشبه في لحظة .

ففي الشعر الانكليزي الذي نظم في القرن الماضي وفي أكثر أجزائه شعبية ، قطع شعرية قد تأثرت بشيء من وحي منابع العربية . ولم يكن بين القطع الشعرية التي عرفت في صباي قطعة أكثر شهرة من « قاعة لوكسلي » (١٨٤٢) :

وفي تلك القطعة أبيات لها نفس أوزان البحر العربي :

Ye know why the forms are fair, ye hear the tale is told.

Existent behind all laws, that made them and, lo, they are I

And there I ye have heard and seen: consider and how the head.

وفي أبيات أخرى في القطعة تتنوع أوزان الطويل مع احتفاظها بالشبه به ، وأبيات أخرى من بحر مختلف هو « البسيط » ؛ بينما ترتبط أجزاء عديدة من القطعة ببعضها بتفعيلة يونانية الأصل (وهي الأنابيست anapest ، التي تتألف من مقطعين قصيرين يليهما مقطع طويل) ولا يمكن تركيبها في النظام العربي دون الاختلال به . إلا أن الشاعر في قطعه « مليكة » قد عمد تطبيق النموذج العربي في القطعة كلها ، وفي رأيي أن النتيجة مرضية جداً .

فلدينا هنا إذاً روابط تشعرنا بأن بلاد العرب القديمة ليست غريبة عنا كلياً . « مهما اختلفت طبيعة تلك الأرض عن أرضنا ، وحياة العرب الرحل والمقاتلين عن حياة الفلاحين المستقرين وأهل المدن ، فإن المشاعر المشتركة للطبيعة الانسانية تقيم القرابة ؛ ولو تأملنا الأمر بامعان كاف لوجدنا أن أهل البراري من رجال ونساء بشر لهم مالنا من عاطفة وحب وكراهية .

ولو استعرضنا تأريخ الأمم ذات الآداب القومية الأصيلة ، لوجدنا أن أقدم نماذج أدبها وأقواها ثباتاً على البقاء ، هي النماذج المكتوبة شعراً ، فالأدب المأيد بالشر ، ويبدو أن السبب في ذلك بسيط . وكما اكتشف م . جوردين M. Jourdain فأننا نتكلم نثراً في حياتنا اليومية بصورة عفوية ، وهو يأتي ببساطة ويذهب ببساطة . أما إذا أريد لقول أن ينطبع في الذاكرة ويصمد على البقاء فإنه يجب أن يصاغ بشكل خاص ويختار باعتناء غني بالمعنى ويختلف عن غيره من الكلام بميزة منفردة .

ويمكننا القول ، دون أن نخوض في تفاصيل ماهية الشعر المتشعبة ، بأن أحد عناصر ذلك الكلام على الأقل هو أن له شكلاً محدداً يختلف عن شكل الكلام اليومي ، ويتميز بقدرته على الصمود والبقاء دون تغيير في ذاكرة البشر ، بينما الكلام اليومي قصير الأجل ويختلف من جيل إلى جيل . لذا فشعر الأمة ، من وجهة نظر خاصة ، يعتبر أصلق تاريخ لها .

Hall . وكلمات الشاعر نفسه برهان على أنه استوحى شكل تلك القطعة ومضمونها من قراءته ترجمة السير ولیم جونز للمعلقات^(١) . إن لها بناء القصيدة العربية : فالشاعر يهيم بالقيام برحلة إلى بلد بعيد ، ويذهب برفقة أصدقائه قبل بدء رحيله إلى زيارة المكان الذي يذكره بحبيته التي ابتعدت عنه وزوجت لغيره نتيجة لتصالح أمها المحنكة . ويتطرق الشاعر إلى تفاصيل لقاءاته مع الحبيبة . وقد استعار بعضها من الشاعر العربي . ولنضرب مثلاً :

كم مرة نطلعت إلى نجوم الشريا
وهي ترتفع من بين الظلال المرحية
وتلمع كسرب من البراصات
منضوفة بسلك فضة .

وفي قصيدة امرئ القيس^(٢) :

إذا ما الشريا في السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفضل
ويفلح الشاعر في النهاية في الصمود ولقاء الدنيا بدون الحبيبة ، وتنتهي القصيدة ، كقصيدة الشاعر العربي ، بتصوير حي لمعاصرة وشيكة .

وفي السلسلة الثانية من الأناشيد الرعوية Dramatic Idylls للشاعر روبرت براوننغ (١٨٨٠) قطعة بعنوان « مليكة Melykeh » فضلها الناظم على غيرها بحيث اختارها لوحدها من تلك المجموعة لديوان من المختارات طبع قبل موته بوقت قصير . وليس موضوع القطعة قصة عربية فحسب - قصة اختطاف ذهل بن شيان فرساً نادرة تعود إلى حسين بن بني أسد - بل أن كل بيت منها يوحى عن طريق اسم أو عبارة بأنها مأخوذة عن أصل عربي . ولا يقف الأمر عند هذا الحد : حتى البحر عربي - الطويل ذو الإيقاع الرائع الجليل ، وكان براوننغ نفسه قد ابتكر بحراً طويلاً إنكليزياً لقطعة ابت فوكلر (Abt Vogler) المنشورة في مجموعة (Dramatic Personae) في سنة ١٨٦٤ ، دون أن يعرف أي شيء عن عروض الشعر العربي !

بينما تصاغ القصة الثرية من جديد بلسان كل راويروها ، نجد ان الشعر تنوارته الأجيال عن بعضها دون تغيير يذكر . وغالباً ما نجد في التراث التقليدي ، الذي يُصاغ منه تاريخ الأدب ، قطعاً من الشعر القديم لا تنتمي الى إطار التقليد الثري الذي يحنوها ، ولا شك البتة في أن الشعر يستحق اهتماماً أكثر من النثر ، لآلانه بالضرورة سرد حقيقي لما وقع ، بل لآلانه دليل معاصر ؛ هذا بينما ينهج كل راوٍ لقصةٍ ثرية ، سرد قصته بأسلوب جديد وهو يخوض غمار كل مخاطر التنوع الملازمة لهذا النمط من العمليات . وهكذا الحال في بلاد العرب أيضاً - كغيرها من البلدان - فإن أقدم كل أنواع الأدب هو الشعر .

إن مانصفه بـ « الشعر العربي القديم » ، والذي وصلنا مدوناً ، هو مجموعته نتاج فترة لا تعود بأي حال من الأحوال الى أبعد من بداية القرن السادس الميلادي ، اي قبل مولد الرسول (ﷺ) بسبعين سنة تقريباً وأكثر بقليل من قرن قبل بدته بنشر دعوته . وقد وصلتنا أقدم نتاجات تلك الفترة في دواوين أو مجموعات قصائد امرئ القيس أمير كندة ، عبيد بن الأبرص الاسدي ، وهو من معاصريه ، ولدينا اجزاء من قصائد تنسب الى عمرو بن قميئة ومجموعة من عشر قصائد تنسب لعمه المرقش الأكبر وكلاهما من بني بكر ، وهذه القصائد ، وإن كانت أصيلة ، فهي أقدم عهداً ، وقد تكون به س أبيات مشهورة يقال أنها للمهلhel ، رئيس قبيلة تغلب أثناء الحرب الطويلة مع بكر والمعروفة باسم حرب البسوس ، قد تكون هي الأقدم عهداً .

ومع ان هذه القصائد أقدم القصائد الموروثة فليس هناك سبب لاعتبارها أول قصائد نظمها العرب ، بل بالعكس فإنها تدعونا الى افتراض وجود شكل مقنن للشعر ، والشعراء المتنافسون كثيرون في هذا الفن . وكانت بحور الشعر العربي وقوانينه قائمة بصورة عامة ، ولو ان الشعراء المبكرين الذين سبق ذكرهم ينظمون في بعض البحور التي لم ينظم فيها الشعراء اللاحقون ، وهكذا تمّ دحض النظرية التي تذهب الى ان ما يدعى بالشعر القديم إنما هو انعكاس نحو الورا لقصائد نظمت في تاريخ لاحق .

وتعتبر التقاليد الرائعة لأدب العرب القومي ونظام تسلسل المواضع المحكم لقصائدهم من أبرز الصفات المميزة التي تظهر بأكمل شكل في أقدم نماذج القصيدة العربية . فتبعاً لهذا التقليد ، يلزم الشاعر نفسه - إلا إذا كانت قصيدته في الرثاء أو في موضوع متعلق بالرثاء - بأن يبدأ بالتشبيب بالنساء وذكر رحيل الاصحاب بسبب شحة العشب وجذب الأرض والبحث الدائم عن المراعي الجديدة لأبل القبيلة . هذا هو النسب أو الجزء العاطفي الذي تظهر فيه قدرة الشاعر الغنية بأغنى صورها . ولربما اعتقدنا بأن هذا الالتزام يؤدي الى الرتابة المضجرة ، نعم لاشك انها كذلك الى حد معين ، إلا ان فطاحل الشعراء يحسنون تنوع الصورة بمهارة ويبتكرون دوماً احداثاً وصوراً جميلة تسير القانون العام الذي يلتزمون به .

والمرحلة الثانية في القصيدة هي في أهمية النسب ، وتتضمن وصف ناقة الشاعر حيث انه يركبها ويرحل لبيتعد عن أعباء الذكرى حين تصبح فوق طاقته . ويبدو هذا الجزء عملاً غالباً لاسماعنا : فالوصف المفصل لدقائق تشريح كل عضو في الناقة ، كما نجده عملاً في معلقة طرفة بن العبد ، لا يسحرنا البتة . إلا ان علينا ان نتذكر بأن الشعر كان الفن الوحيد لدى العربي البدوي . ولم يكن بمقدوره مزاوله فن النحت أو الرسم في الظروف الحياتية التي كان يعيشها . ان مهمة الأزميل أو الريشة تتمثل عند الشاعر العربي بتلك الضربات واللمسات الدقيقة التي تبرهن على معرفة صميمية ومشاركة وجدانية حيمة للشاعر بموضوعه ، يمكنه من خلالها ان يرسم بالشعر صورة متقنة على أحسن وجه في حدود خبراته المحدودة ، ولدينا بيت للشاعر زهير بن أبي سلمى يستشهد به كثيراً ، يعبر بأمانة عن غاية الشاعر العربي المثلى :

وان احسن بيت أنت قائله

بيت يقال اذا انشدته صدقا

[البيت للشاعر حسان بن ثابت] الديوان ١ / ١٢٣ .

ويقدم لنا الشاعر العربي علقمة بن عبدة المعروف بعلقمة الفحل صورة كلامية رائعة لناقة ، لنقل بأننا يمكن ان نعتبرها نظيراً لتمثال واط للطاقة ، المنتصب في وسط حدائق كنسنتن :

فدعها وسلْ أَلْهُمَّ عَنْكَ بِحَسْرَةٍ
 كَهْمِكَ فِيهَا بِالرِّدَافِ خَبِيبُ
 إِلَى الْحَارِثِ السُّوْهَابِ أَصَمَلْتُ نَاقَتِي
 لِكُلِّكُلْهَا وَالْقَصِيرَيْنِ وَجِيبُ
 وَنَاجِيَةِ أَفْنَى رَكِيبَ ضُلُوعِهَا
 وَحَارِكُهَا تَهْجُرُ فَنُؤُوبُ
 وَتَصْبَحُ عَنْ غَبِ السَّرَى وَكَأَنَّمَا
 مَوْلَعَةٌ تَخْشَى الْقَنَاصِينَ شَبُوبُ
 تَعَفَّقُ بِالْأَرَطِيِّ لَهَا وَأَرَادَهَا
 رَجَالُ فَبَدَّتْ تَبْلُغُهُمْ وَكَلِيبُ
 لَتَبْلُغُنِي مَدَارَ أَمْرِيءَ كَانَ نَائِبًا
 فَقَدْ قَرِيبَتِي مِنْ نَدَاكَ قُرُوبُ
 إِلَيْكَ أَثْبِتِ اللَّعْنَ كَسَانَ وَجِيفِهَا
 بِمَشْتَبِهَاتِ هَوْنُ مَهِيْبُ
 هَدَانِي إِلَيْكَ الْفَرْقَدَانِ وَلاَحِبُ
 لَهُ فَوْقَ أَضْوَاءِ الْمِثْنَانِ عُلُوبُ
 بِهَا جِيفُ الْحَمْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا
 فَبَيْضُ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ
 تَرَادُّ عَلَى يَمَنِ الْخِيَاضِ فَإِنْ تَعَفَّفُ
 فَإِنْ الْمُنْدَى رِحْلَةُ فَرْكُوبُ

وفي حالات استثنائية ، كما نرى في قصيدة ساقلم لكم
 ترجمة لها فيما بعد ، تأخذ الفرس مكان الناقة لتكون موضوع
 الوصف ، إلا أن هذه الحالات نادرة . ويحدث غالباً أن ينصرف
 الشاعر ، بدلاً من الاطالة في وصف أعضاء الناقة ، إلى مقارنة
 سرعة جريها بسرعة حمار الوحش أو البقر الوحشي أو الثور
 الوحش حين يفاجئها القناصون ، أو بزواج من النعام تسوقها
 زخعة مطر مفاجئة من المرعى إلى المكمن ، ونجد هنا أروع رسامي
 هذا الفن بالكلمات . وهذه هي المشاهد الأصيلة التي ترد على
 الدوام في منظومات الشعراء كما وصلتنا مئات المرات في القصائد
 الموروثة . ويندر أن يغيب عنصر الابتكار والتجديد في صور
 معينة . أننا نجد في مئات بل في آلاف من لوحات السيدة العذراء

والطفل ، أو في الأنواع الأخرى من اللوحات الدينية في مدرسة
 الفن الإيطالي العظيمة ، كيف كان الفنان يبدع في رسم لوحته
 بشاهد فرديته الخاصة .

وفي وصف علقمة^(١) للنعامة ومقارنته لها بفرسه مثل واضح
 حيث يقول :

كَأَنَّمَا خَاضِبُ زَعَرُ قِوَادِمِهِ
 أَجْنَى لَهُ بِأَلْوَى شَرِيٍّ وَتَنُومُ
 يَظَلُّ فِي الْحَنَظَلِ الْخَطْبَانِ يَنْقِفُهُ
 وَمَا اسْتَطَفَّتْ مِنَ التَّنُومِ غَنُومُ
 فَهُوَ كَشَفِ الْعَصَا لَأَمَّا تَبَيَّنَتْهُ
 اسْكُ مَا يَسْمَعُ الْأَصْوَاتِ مَصْلُومُ
 حَتَّى تَذَكَّرَ بِيَضَاتٍ وَهَيْجَةٍ
 يَوْمَ رَذَاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَغِيومُ
 فَلَا تَزِيدُهُ فِي مِثْلِهِ نَفَقُ
 وَلَا الزَّفِيفُ تُؤَيِّنُ الشَّدَّ مَسْؤُومُ
 يَكَادُ مَنِيْمُهُ يَخْتَلُ مَقْلَتُهُ
 كَأَنَّهُ حَافِزٌ لِلنَّحْسِ مَشْهُومُ
 وَضَاعَةٌ كَعَصِي الشَّرْعِ جُؤْجُؤُهُ
 كَأَنَّهُ بَتْنَامِي الرُّوْحِ عُلْجُومُ
 يَأْوِي إِلَى جِسْكِ زَعَرٍ حَوَاصِلِهِ
 كَأَنَّهُ إِذَا بَرُكُنْ جَرْنُومُ
 فَطَافَ طُوفَيْنِ بِالْأَدْحَى يَقْفِزُهُ
 كَأَنَّهُ حَافِزٌ لِلنَّحْسِ مَشْهُومُ
 حَتَّى تَلْفَاقَ وَقَرْنَ الشَّمْسِ مَرْتَفَعُ
 أَدْحَى عَرْمِينَ فِيهِ الْبَيْضُ مَرْكُومُ
 يَسُوحِي إِلَيْهَا بِانْقِصَافٍ وَنَقْنَقَةٍ
 كَمَا تَرَاظُنُ فِي أَفْدَانِهَا الرُّومُ
 صَمَلُ كَانَ جَنَاحِيهِ وَجُؤْجُؤُهُ
 بَيْتَ أَطَافَتْ بِهِ خَرْقَاءُ مَهْجُومُ
 تَحْقَهُ هَقْلَةٌ سَطْمَاءُ خَاضِعَةٌ
 تَهْيِيبُهُ بِزِمَارٍ فِيهِ تَرْنِيمُ

هذه هي إذاً أجزاء القصيدة التي على الشاعر ان يلتزم بها : اما في الجزء التالي فهو يعالج الموضوع الخاص الذي يحمله الشاعر في ذهنه ، فقد يكون هبة يطمح اليها من عند السيد الذي يغني بمدحه ، وقد يكون في الحماسة ، اما في حوادثه هو نفسه او في مفاخر قبيلته و بطولاتها ، وقد يخاطب الشاعر بقصيدته الاصدقاء او الاعداء ، إما لحث الصديق على الجلّد ، أو لصب العار على العدو ، أو يلخص خبراته في حكم ينصح بها أولاده . ومهما كانت مواضع تلك القصائد ، فهي تعرض علينا صورة الحياة كما كان يحياها من نظمها ومن نظمت له ، وهذا هو الركن الأساس في قيمتها التاريخية ، ويعبر كين Gibbon عن ذلك بقوله :

« كان الشعراء العرب مؤرخي العصر ومعلمي الاخلاق فيه ومع أنهم كانوا يتعصبون لبني قومهم ، الا أنهم كانوا أيضاً يتفخرون بقيمهم ، وكان الموضوع المحبب في قصائدهم هو الربط بين الكرم والشجاعة » .

لو تأملنا مساحة الجزيرة العربية الشاسعة والمسافات التي كانت تفصل قبيلة عن قبيلة ، لظهر ان التقاليد الشعرية لا بد أنها استغرقت وقتاً طويلاً جداً لترسيخ نفسها في نظم القصائد على النطاق القومي ، ولما كانت أقدم النماذج التي وصلتنا من ذلك الأدب تحمل خصائص تلك التقاليد الشعرية كاملة ، فالاستنتاج المنطقي لذلك هو ان فن نظم الشعر كان مألوفاً في بلاد العرب لأجيال عديدة سبقت المملكات . ويتفق هذا الرأي مع الدليل الذي تطرحه النظائر المقابلة في الأدب العبري القديم ، والتي أشرت اليها سابقاً . وهناك رأي آخر يشير الى الاتجاه نفسه ، وهو التنويع والاتقان في بحور الشعر التي استخدمها الشعراء : وهي متكاملة تماماً في أقدم القصائد الموروثة . ويضاف الى ذلك أن لغة الشعراء العامة ، أو ما يمكن ان نطلق عليه اسم اللهجة الأدبية ، موحدة في كل مكان في وسط بلاد العرب وشمالها ماعدا لهجة مجموعة من القبائل المتجمعة حول سلسلة الجبال الواقعة في مركز النصف الشمالي والذي يدعى بجبال طي ، وحتى هناك ، فإن التباين ليس من النوع المتطرف جداً . ولنا ان نفترض بالمنطق انه

قد كانت هناك اختلافات في لهجات لغة الحديث في بلاد العرب قبل أربعة عشر قرناً ، كما هي الحال اليوم ، وأنه قد استخدمت لغة عامة للشعر تدمج كل اللهجات وتغني غمزون المفردات باستعارة المترادفات من المصادر المختلفة ، لكن ذلك ما هو إلا شاهد آخر على قدم فن الشعر في الجزيرة العربية .

إذا كان الشعر نظاماً قديماً متكاملأ بهذا الشكل في بلاد العرب ، فكيف يمكن أن تكون أقدم نماذج الشعر ذات تاريخ متأخر ؟ الجواب هو أن قصائد شعراء ما قبل الاسلام ، كانت محفوظة في ذاكرة الناس فقط ولم تكن مدونة ، الا في حالات خاصة قليلة أواخر تلك الفترة . ان الشعراء كانوا بصورة عامة هم أنفسهم ممثلين في الأحداث التي كانوا يعالجونها في أشعارهم : فالأعمال التي كانوا يتغنون بها كانت من منجزاتهم أو على الأغلب انتصارات قبيلتهم ، وكانت القصائد توثق أيضاً التحديات والأهاجي التي يطلقها الشاعر ضد أعداء قبيلته أو أعدائه . وكان افراد القبيلة يسارعون الى حفظ هذه القصائد وسرعان ما تدور على كل لسان . وهكذا يقول احد الشعراء^(١) عن قصيدة مديح هو يصدد نظمها .

فَلَاهُذَيْنِ مَعَ الرِّيحِ قَصِيدَةٌ
مَنْ مَغْلَقَةٌ إِلَى الْقَمْعِ
تَرْدُ الْمَاءِ لَهَا تَزَالُ غَرِيبَةٌ
فِي الْقَوْمِ بَيْنَ تَمَثُلٍ وَسَمَاعٍ

ويقول آخر^(٢) :

زَمِيمٌ لِمَنْ قَادَفْتَهُ بِأَوْبِدٍ
يَغْنِي بِهَا السَّارِي وَتَحْدِي الرُّوَّاحِلُ
مَذْكُورَةٌ تَلْقَى كَثِيرًا رَوَاتِهَا
ضَوَّاحٌ لَهَا فِي كُلِّ أَرْضٍ أَزَامِلُ
تَكْرُ فَلَا تَزْدَادُ إِلَّا اسْتِنَارَةً
إِذَا رَازَتْ الشَّعْرَ الشَّفَاءَ الْعَوَامِلُ

ولكن كان بجانب هذا التقليد العام نظام قائم للرواة ترعرع مع الشعراء المحترفين .

وبما ان يقول بان الرجال من ذوي المواهب الخاصة في فن القريض كانوا يعتبرون عند القبيلة ممتلكات ثمينة ، وكانت القبيلة تحرص على دفع أخطار الحروب ومشقات الحياة اليومية عنهم ، وكان هؤلاء الشعراء يتقدمون كأنهم أبطال بين قومهم في المباريات الشعرية والخطابية . وأيام العرب تذكر لنا عدداً كبيراً منهم ممن عاشوا في فترة الجاهلية أو في عصر الرسول (ﷺ) . وهكذا كانت تظهر تدريجياً طبقة جديدة من الشعراء المحترفين تبحث بدورها عن مساعدين وحواريين تعتمد على قوة ذاكرتهم لتودع عندهم القصائد التي ينظمونها . وكان هؤلاء المساعدون هم الرواة ، وكانت مهمتهم حفظ قصائد معلمهم وشرح المناسبات التي قيلت فيها وإيضاح التلميحات والاشارات الضمنية التي ترد فيها ثم حملها الى الاخلاف من الأجيال المتعاقبة . وغالباً ما أصبح الرواة شعراء ، ومن الطبيعي في حالات كثيرة ان يُسمع عن شاعر كراو في أول الأمر . وهكذا نشأت مدرسة تقليد مستمرة . ومن المؤكد ان الجزء الأعظم من الشعر القديم الذي وراثناه وصلنا عن طريق أولئك الرواة ممن خزنوا تلك القصائد في ذاكرتهم ، ويعزى ضياع القصائد التي يعود تاريخها الى ما قبل بدء القرن السادس الى اختفاء الأشخاص الذين كانوا يحفظون القصائد الأكثر قدماً ، وكذلك اختفاء أولئك الناس الذين نقلت اليهم تلك القصائد . وكان القرن الهجري الأول من تاريخ الاسلام عصر جهشان هائل ، وتغير كبير في المجتمع واضطراب في العلاقات القبلية . وقد دفع الخلفاء بقبائل كثيرة في جيوش جرارة نحو الشرق الى بلاد فارس والهند ، ونحو الغرب الى افريقية واسبانية ، ونحو الشمال الى بلاد البيزنطيين . ومن المؤكد ان كثيراً من الرواة قد هلكوا أثناء تلك الحملات دون ان يتسنى لهم اعداد من يخلفهم في متابعة مهمتهم التقليدية . وانصرف الجامعون والدارسون خلال القرنين الهجريين الأول والثاني الى من بقي من الرواة على قيد الحياة ودونوا من أفواههم ماكانوا يحفظون من قصائد الجاهلية . ولا بد ان كثيراً منها قد اختفى مع مرور الزمن . ومن الواضح ان هذا النمط من أسلوب توارث الشعر كان محفوفاً بالمخاطر الكبيرة ، وبالرغم من اننا نقدر بصورة عامة على استنتاج فكرة

جيدة عن أسلوب كل شاعر ، وعن اغراضه التي رمى اليها من خلال قصائده الباقية ، إلا ان قليلاً من القصائد فقط وصل الينا كاملاً . فالشغرات وتغير مواقع الآيات واختلاف القراءات - كلها ظواهر معروفة . وكلما كانت القصيدة مشهورة ، كبرت الاختلافات في شرحها . وشأن القرآن كشأن القصائد القديمة . فقد كانت معظم اجزاء الكتاب العزيز أيام الرسول (ﷺ) محفوظة في ذاكرة الناس فحسب ، ولم تجمع بشكلها الحالي الا بعد وفاته بستين ، على عهد الخليفة أبي بكر الصديق (رض) حيث جمعت سورة ودونت على يد زيد بن ثابت ، أحد كتبة النبي (ﷺ) . وبالرغم مما يقال بأن بعض السور كانت مدونة بشكل غير متكامل على قصاصات من مواد للكتابة عندما بلغت للمؤمنين أول مرة ، فان الجزء الأعظم من القرآن ، كما تبين المصادر التاريخية وكما جمعه زيد بن ثابت ، قد أخذ من صدور الرجال (١) . ومن الطبيعي ان نفترض بأن جمع نص ذي قيمة عظيمة لكتاب مثل القرآن قد أولى عناية كبيرة عند تدوينه للتقيد الى أقصى حد ممكن بنفس كلمات الوحي الفعلية ، أما بالنسبة الى القصائد فلم يكن التقيد بتلك الدرجة . ولما كانت الفترة الفاصلة بين نظم القصائد وتدوينها أطول بكثير ، فقد كان الاحتمال أكبر لتسلل بعض أشكال التحريف الى نصوصها ، أو ضياع أجزاء منها . سبب عجز ذاكرة الرواة . ولكن على الرغم من كل هذه الظروف - التي أحاطت بتوارثها ، فان هذه القصائد ، كما هي بين ايدينا (٢) ، افضل برهان على أصالتها .

أما ما يخص الشعراء الكبار فلقصائدهم ميزة منفردة واضحة تفرزها كقصائد تنسب لشعراء بارزين . اننا نجد في كل القصائد التي تنسب الى أي شاعر طريقته وأسلوبه ومواضيعه المفضلة ، وأسلوب اختياره الكلمات . وعلينا بداهة ان نتخصص كل قصيدة بدقة متناهية قبل ان نجزم بأصالتها ، ومع ذلك تبقى أمور كثيرة يشوبها الغموض . ولكن ، إذا حدث ان اخذت القصيدة مكانها في تاريخ ، كما تروي التقاليد ، وافقت الدلالات الجغرافية مع ظروف القبيلة التي ينتمي اليها الشاعر ، وكانت بلغتها وأسلوبها تنتمي الى عصرها وناظمها كغيرها من

القصاصد التي خضعت لامتحان وتمحيص رجال الادب المتضلعين ، عند ذلك يمكننا الاستدلال على أن القصيدة عمل أصيل قديم ، وأنها من نظم الشاعر الذي تنسب اليه .

ويذكر الفرزدق (٢٠ - ١١٠ هـ أو ١١٤ هـ) في إحدى نقائضه مع جرير ويمكن تحديد تاريخها فيما بين ٦٠ - ٧٠ هـ تقريباً ، اسما اثنين وعشرين شاعراً ، معظمهم من الجاهليين ، يقول أنهم اسألته في فن القريض . ويتحدث عن قصائدهم التي كانت ملونة آنذاك^(١) (بيت ٦١) ويتطرق خاصة الى ذكر ديوان كامل لقصاصد ليبد كانت بحوزته (بيت ٥٧)^(٢) .

فالفرزدق نفسه وجرير كانا يملكان قصائدهما على كتبه لحفظها ، ولو انهما كانا يلقيان قصائدهما على الجمهور وفق طريقة الأقدمين . وكان ذو الرسة (٧٨ - ١١٧ هـ) ، وهو معاصر لهما ، يحسن الكتابة ، ولكنه ، كما يقال ، كان يخفي معرفته بالكتابة عن الناس لأن ذلك عيب في البدوي^(٣) : فهو أيضاً كان يملئ قصائده على الرواة وهم يدونونها . ويبدو محتملاً - على أي حال - بأن الجزء الأعظم من الشعر الجاهلي الذي وصلنا كان قد تم تدوينه مع حلول منتصف القرن الأول الهجري ، أما بشكل دواوين او مجاميع قصائد تحوي أعمال شاعر واحد أو أعمال شعراء قبيلة واحدة قيلت في مناسبات أو أيام القبيصة أو في إحدى أسرها ، ولربما أضيف الى ذلك نغمة أو رابط لتلك القصائد والمناسبات التي دعت الشعراء الى نظمها .

وخلال القرن الهجري الثاني ، خاصة بعد تأسيس الخلافة العباسية ، كان أهم مظهر في الأدب العربي هو تمحيص علماء الأدب ، وتدقيقهم للدواوين فحول الشعراء ، وترتيب مجاميع القصائد المستمدة من المجاميع القبلية لتشكيل القطع الشعرية .

وأقدم تلك المجاميع على الإطلاق هي القصائد السبع الطويلة ، المعروفة أيضاً باسم « المعلقات » المنسوبة باتفاق آراء العلماء الى الراوية المشهور حماد . وقد اخلت خمس معلقات لكبار الشعراء من الدواوين والمعلقتان الباقيتان من شعراء أقل شهرة^(٤) . وكان المفضل ، وهو من معاصري حماد ومن أبناء قبيلة ضبة ومن ذوي النسب العربي ، هو الذي جمع مجموعة

مختارات سأحدثكم عنها في عصر هذا اليوم ، الا وهي مجموعة المفضليات^(٥) ، ويعود تأريخها الى ١٥٠ - ١٥٨ هـ تقريباً . ولحق بهذه المجموعة مجموعة أخرى اصغر منها حجماً هي « الاصمعيات »^(٦) جمعها شيخ المدرسة البصرية الاصمعي (١٢٢ - ٢١٣ هـ) ، وهذه المجموعة المختارة غير معروفة نسبياً لأنها لم تكن موضع اهتمام علماء معروفين وتعليقهم . اما مجموعة المختارات الثانية وهي « حاسة » أبي تمام فهي أشهرها ، وتاريخها التقريبي هو ٢٢٠ هـ . وقد تناولها كثير من الشارحين ، وترجمها الشاعر الألماني فريدرش روكرت (Friedrich Ruckert) على نحو رائع الى اللغة الألمانية نظماً . وتبعها بعد ثلاثين سنة تقريباً مجموعة أخرى تحمل نفس الاسم جمعها شاعر يدعى البحتري ، وقد تم مؤخراً نشر المخطوطة الوحيدة لهذه المختارات الموجودة في مكتبة جامعة ليدن ، بطريقة التصوير .

ولم تكن مجموعة المفضليات عملياً معروفة لدى علماء أوروبا حتى سنة ١٨٨٥ . وكانت مخطوطاتها نادرة في مكتباتنا ولم تكن قد نشرت لاني الشرق ولا في الغرب . وفي تلك السنة نشر الأستاذ المرحوم هاينرش توربيكه (Heinrich Thorbecke) ، الأستاذ في جامعة هايدلبرغ Heidelberg آنذاك ، القسم الأول من طبعته اعتماداً على مخطوط بيرلين يحتوي على النص مع شرح للمرزوقي (المتوفى سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) ، وكانت المجموعة تحتوي على ١٢٦ قصيدة ، وكان عدد القصائد التي نشرها الأستاذ توربيكه ٤٢ قصيدة .

وتوفي توربيكه سنة ١٨٩٠ دون ان يتمكن من إتمام النشر . وفي تلك السنة ظهر في اسطنبول القسم الأول من طبعة معتمدة على تنقيح الأنباري مع شرح مقتضب لحواشي ذلك الباحث المتوفى سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م) ، ولا اعتقد قط بأنها اكتملت ، وعلى أي حال فانه لم اطلع على أي تكميل لها . وفي سنة ١٩٠٦ طبعت نسخة المجموعة كلها (بشرح الأنباري) مع تعليقات مختصرة جداً في القاهرة من قبل أبي بكر بن عمر الداغستاني المدني . وهذا هو الشكل الوحيد الكامل للمجموعة المختارة والذي توفر للعلماء الأوربيين . وقد اكملت الآن ، بعد

عمل سنوات عديدة ، طبعة لها اعتماداً على شرح الأنباري
كامل ومجلداً ثانياً يحتوي على ترجمة القصائد معززة بهوامش
وفهرست باللغة الانكليزية . وقد تأخر ظهور هذه الطبعة ثلاث
سنوات ونصف بسبب الحرب : وكان طبع النص العربي يجري
في بيروت وبقيت آخر (١٥٠) صفحة (من مجموع
٨٥٠ صفحة) دون طبع حين انقطعت طرق المواصلات مع
تلك المدينة . وتقوم احلى المطابع القاهرية باعداد الجزء الناقص
من المخطوطات وتتكون المجموعة الكاملة ، عدا الفهارس
العربية التي ستلحق فيما بعد ، كما تأمل ، جاهزة للجمهور .
ويتفق الباحثون العرب بأن المفضل كان من أوفر الناس علماً
في زمانه ومعروفاً بصدقته وأمانته في نقل النصوص والتراث . عاش
جزءاً من حياته في عصر الأمويين والجزء الآخر في عصر
العباسيين : وقد ولد في السنوات الأخيرة للقرن الهجري الأول
وكان شيخ مدرسة الأدب والنحو التي قامت في الكوفة . وعمل
المفضل سنة ١٤٥ هـ معلماً للأدب للأمير الشاب محمد المهدي
والذي أصبح فيما بعد الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩) ، ويقال
ان المفضل قد جمع « المفضليات » للمهدي باقتراح من ابيه
الخليفة المنصور .

وتحوي مجموعة المفضليات اعمال اولئك الشعراء الذين لم
تكن لديهم قصائد كافية في عددها أيام المفضل لكي تجمع في
دواوين مستقلة ، لذا فانها لا تحتوي على قصائد الشعراء
المشهورين الذين كانت قصائدهم مجموعة في دواوين مثل امرئ
القيس ، طرفة ، زهير ، لبيد ، عترة ، النابغة والأعشى .
ومع ذلك فان في « المفضليات » قصائد مشهورة جداً وهي في
غاية الروعة . ويبلغ العدد الاجمالي للقصائد فيها ، كما ذكرنا ،
(١٢٦) قصيدة ، وهي من نظم (٦٧) شاعراً ، بينهم (٦)
شعراء فقط ولدوا في الاسلام ، و (١٤) اعتنقوا الاسلام بعد
تقدمهم في العمر ، والباقيون وهم (٤٧) ، عاشوا وماتوا في
الجاهلية ، أي قبل انتشار دعوة الرسول (ﷺ) في بلاد العرب .

إذا فالجزء الأعظم من هذه المجموعة هو صورة لوقائع
الحياة في تلك البلاد قبل التغيير الكبير الذي جاءت به دعوة

الرسول (ﷺ) ، وان الجزء الأكبر من القصائد المنسوبة للذين
اعتنقوا الاسلام كانت قد نظمت قبل اعتناق اولئك الشعراء
للالسلام . ونجد كذلك ان القليل القليل للشعراء الذين ولدوا
مسلمين ، وتلك القطع التي نظمها الشعراء بعد دخولهم
الاسلام ، لا تختلف كثيراً عن بعضها ، حيث لم يكن تغير الدين
قد ترك بصماته الواضحة بحد على شعرهم .

والأمثلة النمطية لذلك هي قصيدة طويلة لعبد بن
الطبيب ، شاعر تميم ، يعود تاريخها الى معركة القادسية الكبيرة
(قرب الكوفة) في سنة ١٥ هـ / ٦٣٧ م . وقد نظمها الشاعر
بعد مرور ٤ أو ٥ سنوات على اسلامه . وتحتوي القصيدة على
وصف دقيق لجلسة غمر عبر عنها الشاعر بحماس ومتعة ، والمثال
الثاني قصيدة الشاعر متمم في رثاء أخيه مالك الذي قتل في سنة
١١ أو ١٢ هـ .

ولانجد في هذه القصيدة أي أثر للشاعر الاسلامية على
الرغم من ان الشاعر كان مسلماً كما كان أخوه القتيل أيضاً (٢)
ويصح القول نفسه في القصيدة الأخيرة في هذه المجموعة وهي
المراثية العظيمة لأبي ذؤيب والتي قالها في موت ابنائه الخمسة
بالبطاعون ، ربما في سنة ١٥ هـ / ٦٣٧ م ، أي بعد اعتناق
الشاعر الاسلام بسبع سنوات .

لم يكن الشعر العربي القديم قصصياً يوماً ما ، وليست فيه
أية سمة ملحمة ، اذ ليس في هذه اللغة قصيدة تناظر نماذج
المثنوى الطويلة او الملحمة التاريخية في الأدب الفارسي . فالعرب
يصفون مثل تلك المغامرات بشكل مقتضب للغاية او يشيرون
اليها اشارة ضمنية خاطفة ، على فرض أن القاريء يعرف
التفاصيل . فالشعر إذاً يحتاج الى التقاليد التاريخية ليتسنى
تحليله ، ولا يستغنى عن الشروح أبداً . لقد بدأ جمع التقاليد
التاريخية في عصر تدوين الشعر ، واستمر جنباً الى جنب مع جمع
الدواوين .

وأهم الأسماء اللامعة في ذلك المجال هي أسماء محمد بن
السائب الكلبي (توفي سنة ١٤٦ هـ) ، وابنه هشام المعروف
عادة بابن الكلبي (توفي سنة ٢٠٤ هـ) ، وأبي عبيدة

(١١٢ - ٢٠٨ هـ) ؛ وهناك آخرون كثيرون ذكرت مجاميعهم في كتاب الأغاني ، وهو من أعظم مصادر معلوماتنا المتعلقة بتاريخ الجاهلية (توفي مؤلفه في سنة ٣٥٦ هـ) . وللأنباري شرح للمفضليات يعطينا ، رغم ما فيه من تشوش وتكرار وأمور غير ضرورية ، صورة واضحة للمناسبات التي قيلت فيها كل قصيدة ، ومفتاحاً لكل الاشارات الضمنية الواردة فيها . وقد أضفت هذه التفاصيل الى الترجمة من مصادر أخرى حسب توفرها لي . وبذا تكون المجموعة حاوية على التعريف برجال عاشوا في عصر يعتبر من أكبر فترات تاريخ الأمة العربية حراجة .

واقدم لكم الآن ترجمات لعدد قليل من القصائد كنماذج للصورة الوصفية الأدبية التي رسمتها المجموعة المختارة . القصيدة الأولى منسوبة لشاعر من بني تميم ومن بطون سعد بن زيد مناة واسمه سلامة بن جندل^(١) . ولعله أدرك الاسلام واعتنقه ، إلا ان القصيدة نظمت قبل اسلامه . والقصيدة ، خلافاً للقاعدة العامة ، لا تبدأ بالحـب وآلامه ، بل بآهة وداع للشباب الداهب . ثم يعالج الشاعر بعد ذلك عنفوان الشباب ويتغنى بمجده ، ويتنقل الى وصف خيول القبيلة ، ومن ثم يتحدث عن شجاعة بني قومه في القتال حين وقفوا ضد كل قبائل هضبة الجزيرة العربية حين تحالفت عليهم ، ومن كرمهم أيام القحط واستعدادهم لمون من كان يطلب ثاراً ، ومكانة قبيلته العظيمة بين القبائل واحترام الناس لها .

البحر هو « البسيط » ، كما هو بحر القصيدة باللغة العربية :

أودى الشباب حميداً ذو النعاجيب
أودى وذلك شأؤ غير مطلوب
ولّى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه
لو كان يدركه ركض البعاجيب
أودى الشباب الذي تجدد عواقبه
فيه نلذ ولالذات للشيب

يومان يوم مقامات وأندية
ويوم سير الى الاعداء تأويب
وكرنا خيلنا ادراجها رجماً
كس السنابك من بدء وتمقيب
والعاديات اساي الدماء بها
كأن اعناقها أنصاب ترجيب
من كل حث اذا ما ابتل ملبد
صافي الأديم اسيل الخد يعبوب
ليس بأسفي ولاأقنى ولاسفل
يعطى دواء قفى السكّن مربوب
في كل قائمة منه اذا اندفعت
منه أساو كفرغ الدلو أنغوب
يرقى الدسبع الى هادٍ له بّيع
في جؤجؤ كسداك السطيب مخضوب
تظاهر النّ فيّ فهو عتفل
يعطي اساهي من جري وتقريب
يحاضر الجحون مخضراً جحافلها
ويسبق الألف صفواً غير مضروب
كم من فقير باذن الله قد جبرت
وذى غنى بوائه دار عروب
عما تقدم في الهيجا اذا كُرمّت
عند الطعان وتُنجي كل مكروب
مت مَقْدُ بنا هماً فنهها
عنا طعان وضرب غير تدبيب
بالشرقي ومصقول أيننتها
صُم العوامل صدقات الانابيب
يجلو اسنتها فتيان عادية
لامقرفين ولامود جمابيب
سوى التّفاف قناها فهي عكمة
قليلة الزبغ من سن وتركيب
زرقاً اسنتها حمراً مشقفة
أطرافهن مقبل ليعاسيب

كانها باكف القوم إذ لحقوا
 موانع البشر أو اشدان مطلوب
 كلا الفريقين أعلاهم وأسفلهم
 يشقى بأرماحنا غير التكاذيب
 اني وجدت بني سعد يفضلهم
 كل شهاب على الأعداء مشبوب
 الى تميم حماة العز نسبتهم
 وكل ذي حسب في الناس منسوب
 ينجيهم من دواهي الشر إن أزمتم
 صبر عليها وقبض غير محسوب
 كنا نحمل إذا هبت شامية
 بكل واد حطيب الجوف مجلوب
 شيب المبارك مدروس مدافعه
 هاهي المراح قليل الودق موطوب
 كنا إذا ماأنا صارخ فزع
 كان الصراخ له قرع الظنابيب
 وشد كور على وجناء ناجية
 وشد مرج على جرادة مرحوب
 يقال تحبها أدنى لمرتعها
 وإن تعادى ببك كل محلوب
 حتى تركنا وماأثنى ظمائننا
 يأخذن بين سواد الخط فاللُوب

والقطعة التالية^(١٨) لربيعة بن مقروم الضبي المنسوب الى
 بني السُيد ، وهو من الشعراء المخضرمين ، ومن قبيلة المفضل
 نفسه ، قال يمدح أحد أبناء قبيلته وهو مسعود بن سليم من بني
 السيد - الذي دفع بسخاء فدية كبيرة لقبيلة معادية كانت قد نهبت
 ابل ربيعة واخذته أسيراً . ومن المحتمل ان « النسب » في
 القصيدة قد فقد بعض الأبيات لأن الانتقال منه الى الغرض
 الأساس للقصيدة أقصر من أن يكون أصيلاً ، ولا يستبعد ان
 يكون مسعود من قوم المفضل :

بانت معاد فأمسى القلب معمودا
 واخلفتك ابنة الحر الموعيدا
 كأنها ظبية بكر أطاع لها
 من حومل تلعات الجو أو أودا
 قامت ثريك غداة البين منسدلاً
 تحاله فرق متنيها العناقيدا
 ويسارداً طيباً عذبا مقبلة
 خيفاً نبته بالظلم مشهودا
 وجشرة حرج تدمى مناسمها
 أعملتها بي حتى تقطع البيدا
 كلفتها فرات حقاً تكلفه
 وديفة كاجيج النار صيخودا
 في مهمة قذف يخشى الهلاك به
 اصداؤه ماتني بالليل تغريدا
 لما تشكت الى الأبن قلت لها
 لاتستريحين ماالم الق معمودا
 ماالم الانى أمراً جزلاً مواهبه
 سهل الفناء رحيب الباع عمودا
 وقد سمعت بقوم يحمدون فلم
 اسمع بمثلك لاجلماً ولاجودا
 ولاعفاً ولاصبراً لنائية
 وماأنبى عنك الباطل السيدا
 لاحلمك الحلم موجوداً عليه ولا
 يلقى عطاؤك في الأقوام منكودا
 وقد مبيت بغايات الجياد وقد
 أشبهت آباءك الصيد الصناديدا
 هذا ثنائي بما أوليت من حسن
 لازالت عوض قرير العين محسودا

والقطعة الثالثة^(١٩) هي جزء من قصيدة موجودة في
 مجموعتنا ، والشاعر هو الأسود بن يعفر التميمي ، وكان من

ندماء النعمان ، آخر ملوك الحيرة . ولربما كانت وفاته بين ٦٠٢ و ٦٠٧ م .

وقد فقد بصره في كبره ونظم هذه القصيدة وهو أعمى .
وهذا الجزء يصف احتفال خمر :

أما تريني قد بليتُ وغاضني
مائيل من بصري ومن أجلادي
وعصيتُ أصحاب الصبابة والصبا
وأطمتُ عاذلتني ولأن قيادي
فلقد أروخُ على البحار مُرجلاً
مذلاً بمالي لبناً أجياي
ولقد نهوتُ وللشباب لذاتهُ
بسلافة مُزجت بماء غواي
من خمر ذي نطفٍ أغنُ مُنْطقي
وإني بها لندراهم الاسجاد
يسعى بها ذو تومتين مشمر
قناتُ انامله من الفرصاد
والبيض تمشي كالبدور وكالدمى
ونواعمُ يمشين بالأفراد
والبيض يرمين القلوب كأنها
أدحيُ بين صريمة وجاد

ينطقن معروفاً ومُنْ نواعمُ
بيض الوجوه رقيقة الأكباد
ينطقن غفوض الحديث ثامساً
فيلفن ماحاولن غير تنادي

وخشاماً لمحاضرتي اسمحوا لي أن أقدم لكم قطعة
قصيرة^(١٠) نقيضة للقصيدة السابقة يصف فيها الشاعر جنازته كما
يتصورها بنفسه وهو راقد على فراش المرض [وهي للممزق
العبد] :

هل للفتى من بنات الدهر من واق
أم هل له من جمالموت من راق
قد رجلوني ومارجلت من شعبي
والبسوني ثياباً غير اخلاق
ورفعوني وقالوا إيا رجل
وادرجوني كأنني طي غراق
وارسلوا فتية من خيرهم حسباً
ليسندوا في ضريح التراب أطباقي
هون عليك ولاتولع باشفاق
فإنما مالنا للوارث الباقي
كأنني قد رماني الدهر عن عُرْض
بنافذات بلا ريش واقواق

الهوامش

٩ - الفهرست ص ٢٤ .

١٠ - يشير إلى قصيدته التي يقول فيها :

وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إِذْ نَظُّوْا

وأبو يزيد وفو القروح وجروول

والفحل ملقمة الذي كانت له

حُيِّلَ الْمُلُوكُ كَلَامُهُ لِأَيْنَحَل

واخو بني قيس ومُنْ قَتَلْتَهُ

ومهلل الشمرء ذاك الأول

١ - نيكلسون : تاريخ أدب العرب ١٩٠٧ مقدمة ص ١١ .

٢ - تيسون : مذكرات ، ١ ، ص ١٩٥ .

٣ - الأخاني لأبي لرج الأصفهاني ١٧ / ١٣٠ / قح الجاوي .

٤ - هذا رد واضح لما ذهب إليه تولدكه ومارجليوث وتابعها طه حسين .

٥ - المفضل الضبي . الفضليات / ٧٦٥ (ليال) .

٦ - المفضل الضبي : الفضليات / ٧٨٦ (ليال) .

٧ - الميب بن علي : انظر الفضليات / ٩٦ . ٨ - المزود ، الفضليات

والاحشيان كلامها ومرقش
 واحو قضاة قوله يمشل
 واحو بني أسد قبيد إذ مضى
 وأبو ذؤاج قوله يمشل
 وابنا أبي سلمى زهير وابنه
 وابن القريظة حين جعد القول
 والجمفري وكان بشر قبله
 ولي من قصائد الكتاب المجل
 التوايح : أراد التابعت تابغة بن ذبيان والنايفة الجملي وأبو يزيد :
 المخيل وذو القروح : امرؤ القيس . جرول : الخطبة [المراجع] .
 ولقد ورنئت لال أرم منطلقاً
 كالسم غائط جاتئبه المنقل
 والحارثي الحو الخمس ورنه
 صدها كما صدح الصفة الممول

١ - المقطع على ص ٢٠٠ - ٢٠١ من القفاص .

١٠ - كتاب الأطلال ١٦ / ١٢١ .

١١ - المملكات :

كتب جونز عن المملكات أو القصائد السبع الجاهلية ١٧٨٢ لندن .
 وكتب هارتمان عن المملكات ووصلها بأنها القصائد النيرة المشرقة
 ١٨٠١ مونستر .

وترجم كوزان عدة مملكات الى اللغة الفرنسية ١٨٤٧ باريس

وترجم ارنولد المملكات السبع الى اللاتينية ١٨٩٠ لايبزك

ترجم فولف للمملكات السبع الى اللغة الالمانية ١٨٥٧ روتويل

كتب تولدكه عن خمس مملكات مع ترجمتها وشرحها ١٩٠٠ فينا

كتب آهل عن المملكات السبع ١٨٩١ برلين

كتب هنت وسكاون عن المملكات السبع ١٩٠٣ لندن

كتب آبري عن المملكات السبع ١٩٥٧ نيويورك

المملكات العشر نشرها احمد بن الأمين القسطنطيني ١٩١١ القاهرة .

المملكات السبع ١٣٦٨ القاهرة .

طبعت عدة مرات في مصر والهند وترجمت الى الفارسية والهندوستانية
 وترجمت لي دلي ١٩٠٥ والى التركية استبول ١٩٠٥ وطبعة أخرى
 ١٩٤٣ .

ونشرت المملكات مفردة وطبعت ترجماتها اكثر من ثلاثين ترجمة
 [المراجع] .

١٤ - المفضليات : طبعا توريبكه ١٨٨٥ لايبزك

طبعت في القاهرة ١٩٠٦ ، ١٩٢٦ ، ١٩٥٢ ، ١٩٦٤ .

الشروح : شرح محمد بن القاسم الأنباري

طبع في استبول ١٣٠٨ .

حققه ليال من ترجمة الى اللغة الانكليزية ١٩١٨ - ١٩٢١ .

واحد بيلان قهارسه ١٩٢٤ .

شرح التبريزي :

حققه فخر الدين قباد دمشق ١٩٦٨ - ١٩٧١ [المراجع] .

١٥ - الاصمعيات :

حققها الموارد ١٩٠٢ فينا .

واحد لحقها احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ١٩٥٢ ، ١٩٦٤

[المراجع] .

١٦ - وجرى لها بعد جمع بعض دولوين الشعراء الماكورين في المفضليات

بفضل جهود الباحثين ، وجمعي النواوين .

١٧ - المفضل الضبي . المفضليات ٢٢٥ - ٢٤٥ . ١٨ - المفضل

الضبي ، المفضليات ٤٤٣ - ٤٤٥ .

١٩ - المفضل الضبي ، المفضليات ٤٥١ - ٤٥٤ . ٢٠ - المفضل

الضبي ، المفضليات ٦٠٠ - ٦٠٢ .

ملاحقة :

عنوان المحاضرة باللغة الانكليزية :

Some Aspects of Ancient Arabic Poetry as Illustrated by a little-known
 anthology by Sir Charles L. Lyall.



الأنماط التحويلية في الجملة الاستفهامية العربية

دراسة

د . سمير شريف ستيتية

جامعة اليرموك / اربد - الأردن

من صيغته الاخبارية ، الى صيغته الاستفهامية ، وذلك على نحو
ما ترى في الشكل التالي :



قبل أن ندخل في تفصيل عمليات التحويل المتعلقة
بالجملة الاستفهامية ، نود أن نبين أن ادخال إحدى أدوات
الاستفهام على التركيب التقريري الاخباري ، لا يكفي وحده في
المستوى المنطوق من اللغة ، بل لابد من التنعيم الى جانب
ذلك . لكننا لا نكرر مع هذا ، أن أداة الاستفهام جزء رئيس من
التركيب ، في معظم المواطن ، على نحو ما سنرى . وعلى كل
حال ، فإن التنعيم أرمخ قاعدة ، وأثبت ركناً من بعض
الأدوات ، ففي العربية قد تسقط همزة الاستفهام استغناء

تعريف الاستفهام - حذف أدواته :

الاستفهام ، في حقيقته الدلالية ، طلب العلم بمضمون
شيء لم يكن معلوماً من قبل . ولكنه ، في حقيقته التركيبية ،
تحويل تركيب اخباري الى استفسار ، باستعمال أدوات خاصة ،
وتنعيم معين ، أو الاكتفاء بالتنعيم أحياناً . وانما فصلنا بين
المفهومين الدلالي والتركيبى للاستفهام ، من أجل إبراز حقيقته
التركيبية التي تلبس أحياناً بحقيقته الدلالية . وقد يعرف
الاستفهام أحياناً تعريفاً دلالياً محضاً ، دون النظر الى ماهيته
التركيبية ، كقول بعضهم : « الاستفهام استعمال ما في ضمير
المخاطب . وقيل : هو طلب حصول صورة الشيء في
الذهن »^(١) . وقد يعرف أحياناً تعريفاً يمزج بين بعض خصائصه
الدلالية ، وبعض سماته التركيبية ، كقول بعضهم :
« الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً بآداة
خاصة »^(٢) .

تستعمل اللغات المختلفة ، ومن ضمنها العربية ، أدوات
خاصة للاستفهام ، حتى انه يمكن القول ان استخدام أدوات
معينة للاستفهام ، يشكل جزءاً أساسياً في عملية تحويل التركيب

بالتنظيم ، وقد قال الأخفش الأوسط (ت ٢١٠ هـ) بجواز حذفها ، وجعل من ذلك قوله تعالى : « وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل » ، كأنما قال : أو تلك نعمة . . ؟ وقال ابن مالك مؤيداً الأخفش فيما ذهب إليه : « وأقوى الاحتجاج : هل مذهب إليه قول رسول الله (ﷺ) لجبريل (عليه السلام) : « وان زنى ، وان سرق ؟ » فقال : « وان زنى ، وان سرق ، أراد : أو أن زنى ، وان سرق ؟ » ، ومذهب ابن هشام (ت ٧٦١ هـ) أيضاً الى جواز حذف همزة الاستفهام ، وجعل من ذلك أبياتاً من الشعر ، نذكر منها قول عمر بن أبي ربيعة :
ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهراً

عند الرمل والخصى والتراب

قال ابن هشام : « قيل : أراد ألحها ؟ » وأردف بقول

المتني :

أحيا ، وأيسر ما قاسيت ما قتلت

والبين جار على ضمعي ، ومساعدلا

ثم قال : « أحيا فعل مضارع ، والأصل : أأحيا ؟

فحذف همزة الاستفهام » .

ويجوز حذف (هل) استغناء بالتنظيم ، ذلك أنهم عندما ذكروا الفروق بين همزة الاستفهام ، و (هل) لم يذكروا تميز همزة بجواز حذفها . ولا يوجد دليل يؤيد زعم من ذهب الى خلاف ذلك . وكيف لا يجوز أن تحذف (هل) اذا علمنا أنها ترد للتصديق ، شأنها في ذلك شأن همزة ، وإنما يجوز حذف همزة الاستفهام عندما ترد للتصديق ، دون التصور . والتصديق هو ادراك النسبة ، تقول : « أقدم محمد ؟ » ، و « هل قدم محمد ؟ » ، فأنت بذلك تسأل عن قدم محمد ، وتريد تصديقاً للخبر أو نقيضه ، فهذا هو التصديق . وأما التصور ، فإن حقيقته تظهر لك اذا سألت فقلت : « هل قدم محمد أو علي ؟ » فأنت تسلم بحصول القدم ، وان كنت لاتدري على وجه اليقين من الذي قدم ، أهو محمد أم علي ، وتتميز همزة الاستفهام ، و (هل) ، في أنها تميّزان للتصديق والتصور ، مع فارق واحد ، وهو أن همزة تستعمل في التصديق الإيجابي

(المثبت) ، والتصديق السلبي (المنفي) ، فتقول : أقرأت الكتاب ؟ وألم تقرأ الكتاب ؟ بينما تستعمل (هل) في التصديق الإيجابي ، فتقول : هل جاء المدعوون في الموعد المحدد ؟ بينما لا يجوز أن تقول : هل لم يحضر أخوك ؟ ومادامت همزة الاستفهام ، و (هل) تستويان في أنهما تستعملان للتصديق ، ومادام أنه يجوز أن تحذف أداة الاستفهام الدالة على التصديق ، فإن حذف (هل) جائز جواز حذف همزة .

فلنا انه يجوز حذف همزة الاستفهام ، و (هل) استغناء بالتنظيم ، وذلك حين تستعملان للتصديق ، دون التصور . أما حين تستعملان للتصور ، فإنه لا يجوز حذفها ، لأن التنظيم لا يكون وحده كفوفاً للتصور ، فلا يجوز أن تقول ، وأنت تريد التصديق ، « قرأت كتاباً أم جريدة ؟ » .

ونظراً لأن أدوات الاستفهام الأخرى ، غير همزة

و (هل) ، تستعمل للتصور دون التصديق ، ونظراً لأن التنظيم

لا يؤدي وظيفة التصور كما يؤدي وظيفة التصديق ، فإن حذف

أي من تلك الأدوات غير جائز . ويبان ذلك ، أن التنظيم ، وان

كانت له قيمة دلالية من نوع ما في العربية ، وفي اللغات الأخرى

غير النغمية ، فإنه لا يؤدي الدلالة المعجمية التي تؤديها أدوات

الاستفهام العربية التالية : (متى - كيف - لماذا - أين - ماذا -

كم - أي) . ولكن قد يحدث مثل ذلك في اللغات التي تسمى

باللغات النغمية Tone Languages ، لأن تغيير النغمة فيها كاف

لاحداث دلالة معجمية جديدة ، أي أنه كاف لاحداث تحويل في

التركيب من صيغة الى أخرى . وقد أفاض في بيان ذلك وشرحه

استاذنا العلامة البروفسور Pike في كتابه القيم Tone Languages .

ان حذف أداة الاستفهام الدالة على التصديق ، وعدم

حذفها حين تدل على التصور ، أمر مرتبط بالناحية الدلالية لهذه

الأدوات . وهناك سبب آخر لعدم جواز حذف هذه الأدوات من

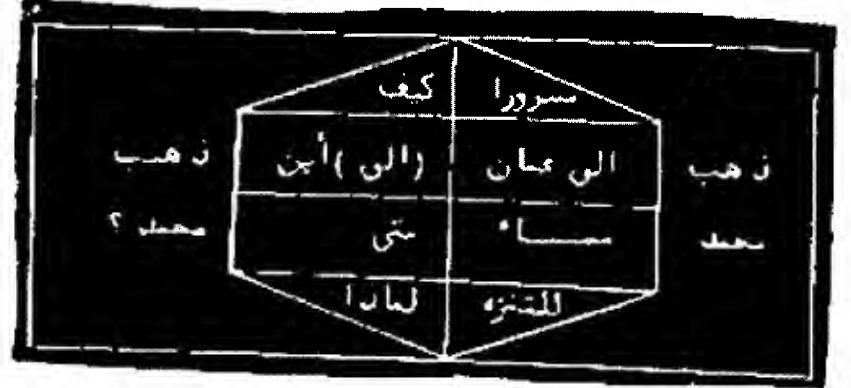
التركيب ، وهو سبب تركيبى ، ذلك أن الجملة الخبرية تعدّ جملة

حاضنة Matrix Sentence للشيء الذي تستخدم هذه الأدوات في

السؤال عنه ، سواء أكان زماناً ، أم مكاناً ، أم كيفية ، أم

سبباً . وبما أن هذه الأدوات تستخدم للسؤال عن المضمون

المحتضن (بفتح الضاد) ، لاعن الجملة الحاضنة ، فان حذف أداة الاستفهام لا يمكن أن يحدث أي تحويل في الجملة الخبرية الحاضنة ، أي أنه لا يمكن أن يحملها جملة استفهامية ، وذلك على نحو ما ترى في الشكل التالي :



ففي قولك : « ذهب محمد الى عمان » جملة خبرية حاضنة ، هي : « ذهب محمد » وشبه الجملة المحتضن « الى عمان » . وبسبب قبول الجملة الخبرية احتضان شبه الجملة ، فقد أصبح لدينا جملة تحويلية جديدة ، يفسرها القانون الذي سماء العلامة تشوسكي بالنحو المحدود Finite state grammar^(٨) ، ومؤداه أنه يمكن توليد عدد محدود من الجمل ، بزيادات تضاف الى الجملة النواة Kernel Sentence . فالجملة النواة في هذا التركيب هي « ذهب محمد » ، ثم زيدت عليها الفصلة المتمثلة في شبه الجملة « الى عمان » ، أو الهيئة المتمثلة في الحال « سروراً » ، أو الظرف « مساءً » ، أو شبه الجملة المبين للسبب « للتشبه » . وإذا نظرنا في الجمل التحويلية الاستفهامية :

الى أين ذهب محمد ؟

كيف ذهب محمد ؟

متى ذهب محمد ؟

لماذا ذهب محمد ؟

لم يعد بإمكاننا أن نقول ان أدوات الاستفهام في هذه الجمل أصبحت فصلة ، بل هي الآن عدة ، وجزء أساس من كل تركيب ، ولذلك لا يجوز حذفها ، بغض النظر عن أن وجود الزمان والمكان ، والهيئة ، والسبب ، في الجمل الاخبارية ، ليس أساساً ولا عمدة في صحة تلك التراكيب ، وان كنا لاننكر ، ولا أحد ينكر ، أنها بيان لمعلومات أخرى في تلك التراكيب ، معلومات تتعلق بالزمان ، والمكان ، والهيئة ، والسبب ،

وجودها يضيف أشياء جديدة الى الجملة النواة . وعليه ، لا يمكن حذف إحدى أدوات الاستفهام السابقة ، مع بقاء الجملة تحويلية استفهامية . بل ان الجملة مستعود جملة اخبارية ، كما هي في الأصل قبل دخول أداة الاستفهام عليها . وليس الأمر كذلك بالضرورة ، عند حذف همزة الاستفهام ، و (هل) عند حذفها ، وهما تدلان على التصديق .

وهناك سبب ثالث يحول دون حذف أدوات الاستفهام الدالة على الزمان ، والمكان ، والهيئة ، والسبب ، من الجمل الاستفهامية السابقة ، وهو أن البنية العميقة Deep structure للتركيب الاستفهامي ، ونظيره الاخباري المطابق بنية عميقة واحدة ، فإذا نظرنا في التركيب التالي : « أنجز العاملون عملهم مساء السبت » ، وجدنا بنيته العميقة مكونة من :

١ - أنجز العاملون عملهم .

٢ - العمل تم انجازه مساء السبت .

وإذا نظرنا في الجملة التحويلية الاستفهامية : « متى أنجز العاملون عملهم ؟ » (وهي النظر المطابق للجملة الخبرية : أنجز العاملون عملهم مساء السبت » ، وجدنا بنيته العميقة مكونة من :

١ - أنجز العاملون عملهم .

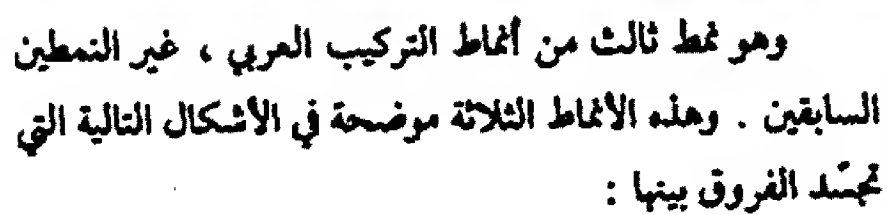
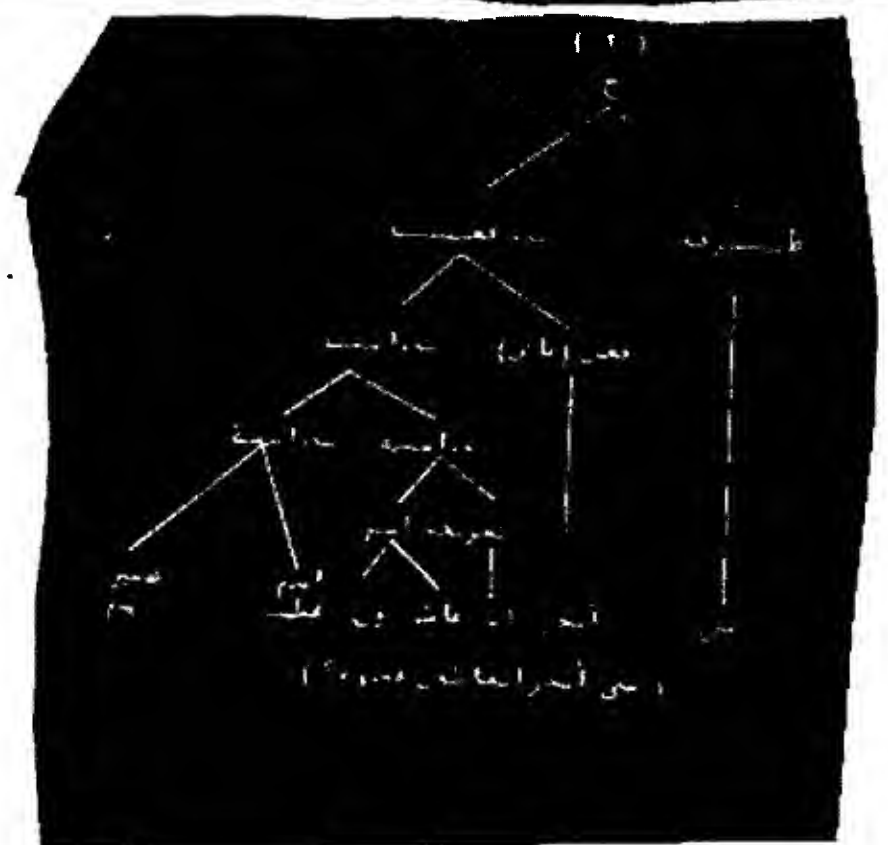
٢ - العمل منجز في وقت ما (هو في الجملة الاخبارية مساء السبت) .

لكننا اذا حذفنا اسم الاستفهام (متى) ، حتى مع ابقاء التنغيم تنغياً أو استفهامياً ، أصبح لهذه الجملة بنية عميقة هي : أنجز العاملون عملهم ، فلم يعد هذا التركيب نظيراً مطابقاً للتركيب الاخباري « أنجز العاملون عملهم مساء السبت » ، ولا يجوز بالتالي أن يستعمل التركيب الاستفهامي للسؤال عن الزمن الوارد ذكره في الجملة الاخبارية ، لأن الجملة التحويلية الاخبارية فيها ذكر لوقت الانجاز ، بينما لا يوجد استفسار عن وقت الانجاز في الجملة الاستفهامية . ومادام الأمر كذلك ، فالبنية العميقة لكل منها مختلفة عن الأخرى . ولما كان ذلك كذلك ، بسبب حذف أداة الاستفهام (متى) من الجملة الاستفهامية .

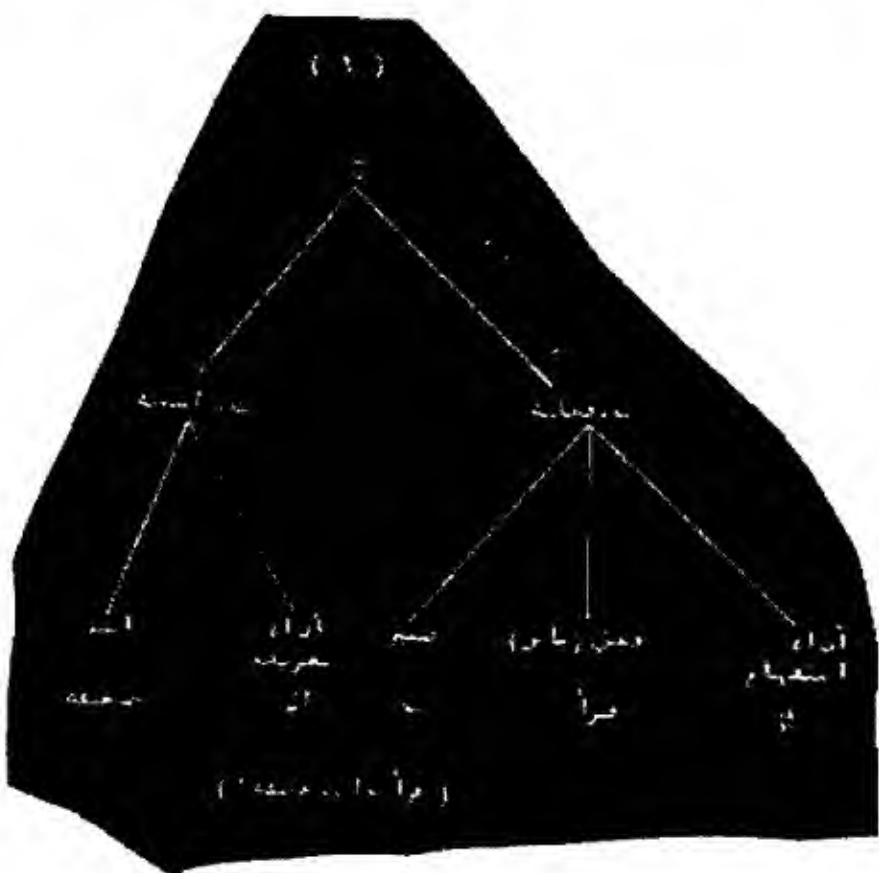
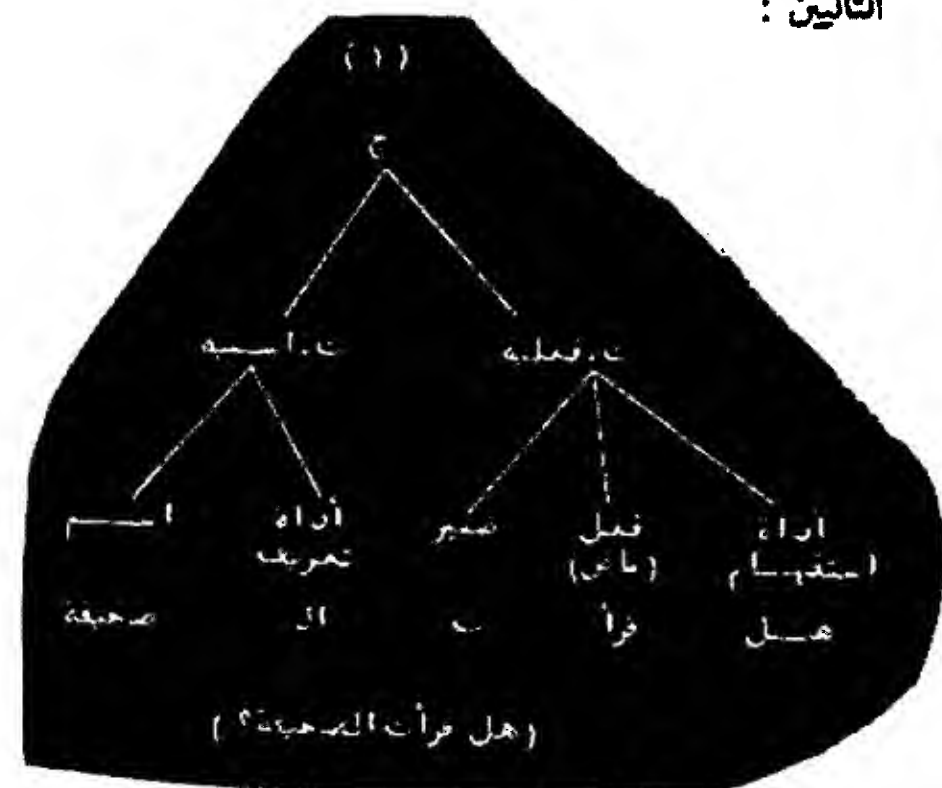
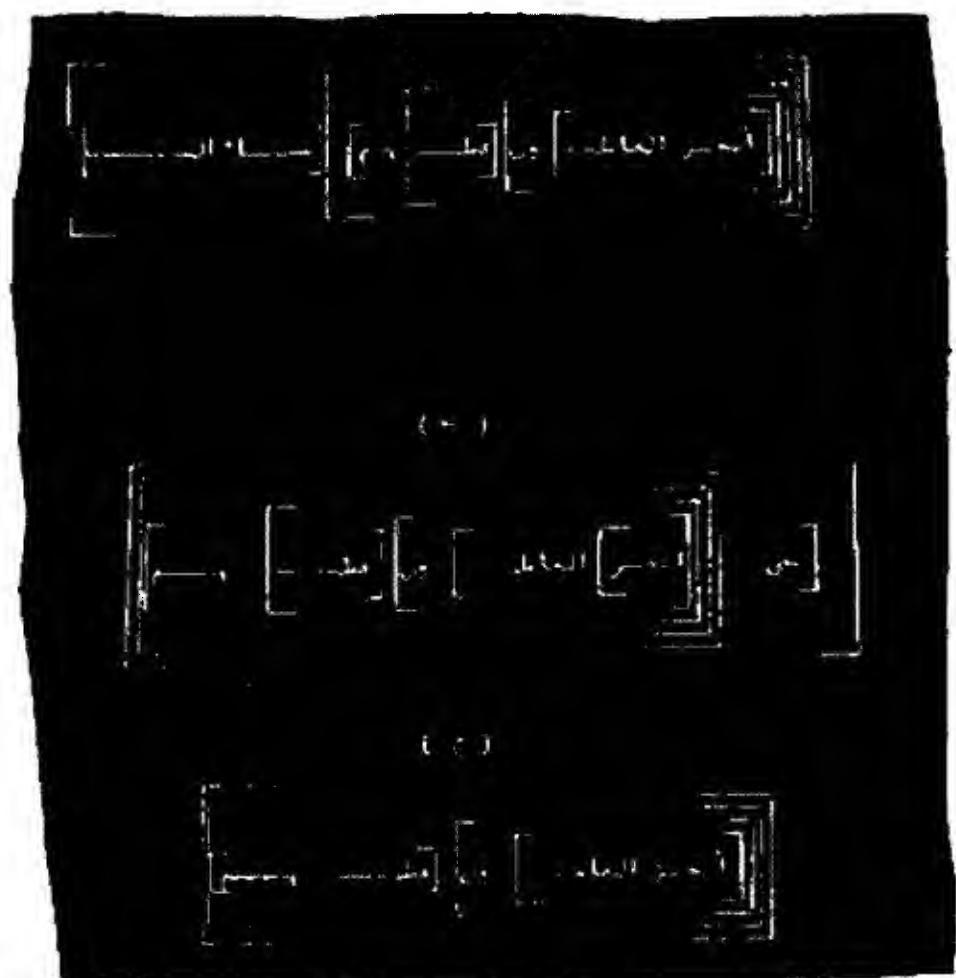
هذا ، وسيكون تحليل الجملتين ، الاخبارية : « أنجز
العاملون عملهم مساء السبت » والاستفهامية : « متى أنجز
العاملون عملهم ؟ » على النحو التالي :

يلي :

أما تحليل الجملة عند حذف أداة الاستفهام منها فيكون كما



المصدرة باحدى هاتين الاداتين ، اذ تبقى البنية العميقة للتركيب الاستفهامي ، بعد حذف الهمزة ، أو (هل) ، كما هي قبل حذف الاداة . فاذا نظرنا في التركيب التالي : « هل قرأت الصحيفة ؟ » وجدنا بنيتها الدلالية ، هي ذات البنية الدلالية عند حذف (هل) منه : « قرأت الصحيفة ؟ » بمعنى أن اسقاط أداة الاستفهام لم يغير شيئاً من حقيقة التركيب ، كما ان تحليل التركيبين يبقى واحداً ، وذلك على نحو ما هو مبين في الشجريين التاليين :



توضح التحليلات السابقة مايلي :

١ - ان وجود الظرف في الجملة الخبرية : « أنجز العاملون عملهم مساء السبت » هو الذي استدعى ورود اسم الاستفهام الدال على الظرفية « متى » في الجملة التحويلية الاستفهامية . وهذا يؤكد ماقلناه من أن البنية العميقة لهاتين الجملتين واحدة ، بمعنى أنه لا يوجد لكل منهما بنية عميقة مختلفة احدهما عن الأخرى . وكان بعض علماء اللغة قد أشاروا الى مثل هذه الحقيقة ، نذكر منهم العالمين الشهيرين Paul Postal و Jerrold Katz .^(١)

٢ - ان سقوط اسم الاستفهام الدال على ظرف الزمان من التركيب التالي : « متى أنجز العاملون عملهم ؟ » قد حوّل التركيب من صيغته الاستفهامية ، الى صيغة اخبارية « أنجز العاملون عملهم » بصورة جعلت البنية العميقة لكل واحد من التركيبين مختلفة تماماً عن البنية العميقة للتركيب الآخر . ومن الضروري أن تنبه الى أن شيئاً من ذلك لا يحدث عند حذف همزة الاستفهام ، و (هل) ، من الجمل التحويلية الاستفهامية

وملخص القول في هذه القضية ، أن حذف أداة الاستفهام مقصور على أداتي الاستفهام الهمزة و (هل) الدالتين على التصديق ، دون الأدوات الأخرى ، وذلك لأن التصديق يمكن أن يظل متضمناً في الجملة بعد حذف الهمزة ، و (هل) .

وثمة سبب رابع يمنع حذف أسماء الاستفهام الدالة على الزمان ، أو المكان ، أو السبب ، أو الهيئة ، من التراكيب السابقة ، وهو سبب مرتبط بتعلق هذه الأسماء في الجملة التحويلية الاستفهامية ، فإن أسماء الاستفهام تلك ، تتعلق تعلقاً مباشراً بالاسم فقط ، أو بالفعل فقط ، ولكنها لا تتعلق بركني الاسناد معاً ، تعلقاً مباشراً . أما تعلقها بالاسم فمثل : متى الساعة ؟ أين الرجال الأوفياء ؟ ما القول في الأدهياء ؟ لماذا الكلب ؟ كيف حالك ؟ وأما تعلقها بالفعل تعلقاً مباشراً ، فمثل قولك : متى يكون الظلم عدلاً ؟ أين يكون الظلم عدلاً ؟ قد يقال : إن تعلق أسماء الاستفهام هذه بالاسم إنما هو تعلق ظاهري ، أي أنه في البنية السطحية فقط ، بذلك على ذلك أن مقابلة البنى السطحية بالبنى الدلالية ، قد يوضح لنا وجود فعل محذوف في البنية السطحية ، وذلك على نحو ما هو مبين في القائمة التالية :

البنية الدلالية	البنية السطحية
كيف (يكون حالك) ؟	كيف حالك ؟
متى (يأتي) نصر الله ؟	متى نصر الله ؟
أين (يوجد) الكتاب ؟	أين الكتاب ؟
أي الرجال (يكون) هؤلاء ؟	أي الرجال هؤلاء ؟
ما (يكون) السبب في ذلك ؟	ما السبب في ذلك ؟
من (يكون) الرجل	من الرجل ؟

وهذا قول صحيح ، لكنه لا ينقض الحقيقة التي وضحتها ، والتي تقول إن تعلق أسماء الاستفهام في التراكيب السابقة ، إنما هو ارتباط بأحد ركني الاسناد ، لا بهما جميعاً . ومن

الضروري أن تشير إلى أننا نستعمل هنا مصطلح « التعلق » بالمعنى المستعمل في الدراسات اللغوية الحديثة ، بغض النظر عن اتفاقه أحياناً ، وعدم اتفاقه أحياناً أخرى ، مع المعنى الوارد في كتب التراث النحوي القديم .

وعلى كل حال ، فقد أدى تعلق هذه الأدوات تعلقاً مباشراً بأحد ركني الاسناد ، كما هو في التراكيب المذكورة أعلاه ، إلى عدم جواز حذفها ، إذا أردنا بقاء التركيب استفهامياً . وهذا يعني أن تعلقها بأحد ركني الاسناد تعلقاً مباشراً ، جعلها ركناً من أركان التركيب .

والذي يدل على أن هذه الأسماء تتعلق تعلقاً مباشراً بأحد ركني الاسناد فقط ، لا بهما جميعاً ، هو أنك إذا أنشأت تعلقها بركني الاسناد جميعاً ، اختل التركيب ، فلا تقول :

• متى الظلم عدل ؟

• أين الظلم عدل ؟

• كيف الظلم عدل ؟

(تشير النجمة • على يمين التركيب إلى أن التركيب غير مقبول نحوياً) .

توضح الأشكال التالية حقيقة هذا التعلق :

وإنما كانت هذه التراكيب غير صحيحة ، لأن ركنين الاسناد موجودان في الجملة ، واتحam هذه الأدوات يؤدي إلى إيجاد ركن جديد ، بجانب ركنين أصليين أصليين . وهذا يؤدي إلى ما يمكن أن يسمى بتضارب الأركان الاستنادية *Attributive essentials conflict* ولا يزول هذا التضارب إلا بإزالة أحد ركني الاسناد ، كأن تقول : متى العدل ؟ أين الظلم ؟ أين العدل ؟ كيف الظلم ؟ كيف العدل ؟ وهلم جرا . وفي هذه الحال ، فإنك تحل اسم الاستفهام محل ركن اسنادي ، ليصبح هو نفسه ركناً ، وبذلك لا يجوز حذفه . وإنما كان ذلك كذلك ، لأن ركني

الجملة أساسيان في بنائها ، ويدونها لتكون الجملة جملة .

حقاً ، قد يحذف الخبر ، وهو أحد ركني الاسناد ، اذا دل على الخبر المحذوف دال ، كما نص على ذلك النحاة ، ويكون الحذف جوازاً أو وجوباً ، أما جوازاً ، فإنه يحذف اذا كان معلوماً ، كقولك : « خرجت فاذا صديقي » ، أي متظر ، وكقوله تعالى : « اكلها دائم ، وظلها » ، أي كذلك . ويجب حذف الخبر في أربعة مواطن هي :

١ - اذا كان المبتدأ صريحاً في القسم ، نحو : « لعمرك لأقومن » ، اذ تكون البنية العميقة لهذا التركيب : « لعمرك قسمي لأقومن » . وانما يجب حذفه هنا ، لأن جواب القسم ، المبدوء بلام القسم ، قد سد مسدّه .

٢ - اذا كان المبتدأ معطوفاً عليه اسم بواو هي نص في المعية ، نحو : « كل رجل وعمله » . فالبنية العميقة لهذا التركيب هي : « كل رجل وعمله مقترنان » .

٣ - اذا كان الخبر كونا مطلقاً ، والمبتدأ بعد (لولا) ، نحو : « لولا العلماء هلك العوام » . والاصل الدلالي لذلك كما يلي : « لولا العلماء موجودون هلك العوام » .

٤ - اذا أغنى عن الخبر حال لاتصح أن تكون خبراً ، نحو : « مدحي العالم عاملاً » ، ونحو قول النبي عليه صلوات الله وسلامه : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » . وتقدير البنيتين الدلالتين هذين التركيبين على النحو التالي : « مدحي العالم اذا كان عاملاً » ، و « أقرب ما يكون العبد من ربه موضعه وهو ساجد » .

وهكذا ، يتبين لك أن حذف الخبر يرد في التراكييب العربية ، اذا قام غيره مقامه . ومثل هذا الشرط غير متوافر في التراكييب التي ترد فيها أسماء الاستفهام أخباراً ، فلذلك لا يجوز حذفها .

هذا الذي وضحناء عن حقيقة الدور الذي تمثله أسماء الاستفهام في الجملة ، لانجد له نظيراً في الهمزة و (هل) ، عندما تستعملان للتصديق . ان هاتين الأداتين ، وهما تستعملان للتصديق ، تتعلقان بركني الاسناد جميعاً ، تعلقاً

مباشراً ، لا بإحدهما دون الآخر ، وذلك على نقيض أدوات الاستفهام الأخرى . فاذا نظرنا في الجملتين التاليتين وجدنا أداتي الاستفهام ، الهمزة و (هل) ، متعلقتين بركني الاسناد جميعاً . ومادام هذا التعلق صحيحاً من الناحية النحوية ، فقد انتهى أن تكون أي من هاتين الأداتين ، ركناً من أركان التركيب . واذا كان ذلك كذلك ، فقد جاز حذف هاتين الأداتين ، وتبقى مع ذلك صيغة السؤال قائمة . يوضح الشكلان التاليان حقيقة ارتباط الهمزة و (هل) وتعلقهما بأركان الاسناد :



تتخذ مسألة التعلق ، على النحو الذي وضحناء ، بعداً ذا أهمية بالغة في مختلف النظريات اللغوية ، قديمها وحديثها . وقد كان للشيخ عبدالقاهر الجرجاني نظرات ثاقبة ، وآراء سديدة ، في توضيح مفهوم التعلق . وسنعود اليه بشيء من التفصيل ، عند الحديث عن التقدم والتأخير في التركيب الاستفهامي . ومنعالج هنا ، باختصار شديد ، قضية التعلق ، كما هي في نظريتي القوالب Tagmemic Theory والنحو النظامي Systemic Linguistics ، بعد ان فرغنا من مناقشتها في التوليدية التحويلية . فالمناقشة التالية تدور حول مسألة حذف أداة الاستفهام ، في ضوء هاتين النظريتين :

أما العلامة البروفيسور Kenneth Pike ، وهو مؤسس النظرية الأولى ، فيسمي التعلق بالتماسك Cohesion ، ويرى أن الجملة « قالب » ، وأن كل كلمة فيها لابد أن تشغل أربع خانات ، وهي :

١ - الرتبة Slot التي تشغلها الكلمة في التركيب . فقد تشغل حيز الابتداء Subject ، أو حيز الخبر Predicate ، أو حيز الفضلة Adjunct .

٢ - الدور Role ، وهو الوظيفة الناجمة عن اشغال الحيز

السابق ، وذلك كان يكون المبتدأ فاصلاً ، كما في : « محمد جاء » ، أو أن يكون مجرد عنصر هم للاخبار ، كما في « السيارة جديدة » ، وكأن يكون المبتدأ مصدراً مؤولاً ، كما في « أن تستيقظ مبكراً خير لك » ، وكان يكون الخبر جملة أو شبه جملة ، وكان تكون « الفضلة » فيها مفعولاً ، أو حالاً ، أو تحيزاً ، أو غير ذلك مما هو من بابه .

٣ - الصنف Cohesive ، وذلك كان يكون المبتدأ اسماً صريحاً ، أو ضميراً ، أو اسم إشارة .

٤ - التماسك Cohesion ، وهو محصلة وقوع الكلمة في الخانات السابقة . فقد يكون التماسك لفظياً ومعنوياً في وقت واحد ، كقولك : « الكتاب جديد » . فقد وقع التماسك المعنوي بين هاتين الكلمتين باتحاد المبتدأ والخبر ، أي اتحادهما من حيث أنها كذلك . ووقع التماسك اللفظي بينهما ، باتفاقهما في التذكير اللفظي . وقد يكون التماسك معنوياً لا لفظياً ، وذلك كما في : « الكتاب جديدة مادته » ، إذ حصل التماسك المعنوي فقط بين (الكتاب) و (جنة المادة) ، وإن كان التماسك بين (جديدة) و (مادته) تماسكاً لفظياً معنوياً ، لاتفاقهما في التانيث .

ولابد أن ننظر الى الكلمات والتراكيب من زاوية أخرى ، وهي هل الكلمة عمدة ، فيعبر عنها ساعتئذ بـ (+) ، أو هل هي فضلة ، فيعبر عنها بـ (-) . فإذا كانت عمدة ، فإن حذفها من شأنه أن يحدث خللاً في عملية التماسك . وإذا طبقنا ذلك على أدوات الاستفهام ، في مثل التراكيب التي ناقشناها ، وجدنا أن حذفها غير ممكن ؛ لأنه يزيل عنصر التأليف والتماسك بين مفردات التراكيب . نأخذ مثلاً الجملة التالية : « متى اللقاء القادم ؟ » ، وننظر كيف يتم تحليلها في ضوء نظرية القوالب هذه :

فيحذف اسم الاستفهام (متى) بختل تماسك التركيب ، لأن العلاقة الاخبارية المتبادلة بين (متى) و (اللقاء) ، قد فقدت بسقوط أحد ركنيها ، ولم يعد للتماسك بين المبتدأ (اللقاء) ، وصفته (القادم) من قيمة ، لأنه لا يغني وحده في إقامة الجملة .

أما نظرية النحو النظامي ، وهي من أحدث النظريات اللغوية المعاصرة ، فيرى أصحابها أن التركيب يقوم على ثلاثة مستويات هي : الشكل Form والمادة Substance والسياق Situation^(١) . وليس السياق في حقيقته إلا نوعاً من العلاقة بين الشكل والموقف . وتبعاً لذلك ، فإن اختلال أي من هذه المستويات الثلاثة ، سيؤدي الى اختلال التركيب . فإذا نظرنا في الآية الكريمة التالية : « أياك يوم القيامة »^(٢) ، تبين لنا أن صيغة السؤال مكونة بالضرورة من اسم الاستفهام (أياك) ، داخلًا على تركيب لاتم دلالة ، إلا بدخول اسم الاستفهام هذا ، وذلك من أجل صحة وجود علاقة بين هذا الأداء ، والموقف الاستفهامي ، أي أن وجود مثل هذه العلاقة لا يتم إلا بوجود اسم الاستفهام في هذا التركيب . وفي حال سقوطه ، أو اسقاطه ، فإن العلاقة بين الشكل والموقف تختل بالضرورة .

بعد الذي وضحنه من جواز حذف أداتي الاستفهام ، الهزة و (هل) ، وهما تدلان على التصديق ، وعدم جواز حذف الأدوات الدالة على التصور : نود أن نبين بعض الحقائق المهمة المتعلقة بالوظيفة الدلالية لحذف هاتين الأداتين ، فنقول : إن حذف هاتين الأداتين من التراكيب الاستفهامية ، لم يكن لمجرد الرغبة في توسعة الاستعمالات اللغوية ، ولالتخلص من أداة الاستفهام . حل أنه يمكننا أن نلاحظ الوظيفة الدلالية لحذف هاتين الأداتين ، إذا قارنا بين الجملتين التاليتين :

هل رأيت الساحر ؟ رأيت الساحر ؟

أما الجملة الاستفهامية الأولى : « هل رأيت الساحر ؟ » فهي من النمط الاستفهامي الذي يسمى النمط المحايد Neutral ، بمعنى أن السائل ليس لديه فكرة مسبقة عن رؤية



المخاطب (بفتح الطاء) لذلك الساحر ، بينما يوحى التركيب الاستفهامي الثاني « رأيت الساحر ؟ » أن السائل لديه فكرة مسبقة أو معرفة من نوع ما ، حول رؤية المخاطب لذلك الساحر . انه لا يريد تأكيداً لخبر رؤية الساحر ، ولكنه يستهجن أو يستنكر أو يستغرب ، أو يعجب . وعليه ، فإن تحويل الجملة الاستفهامية ، بحذف أداة الاستفهام (هل) والمهزة ، يعمل على تحويل السؤال الذي سميناه « محايداً » الى سؤال غير محايد . ذلك أن السؤال المحايد لا يقتضي معرفة مسبقة بالجواب ، بينما يقتضي حذف أداة الاستفهام مثل هذه المعرفة ، أي أن السؤال لا يكون محايداً . وكيف يكون كذلك ، وللأسئلة معرفة بوقوع الأمر المسؤول عنه ؟ وقد أعجبني وصف أحد العلماء للسؤال المحذوف أدواته ، أي السؤال غير المحايد ، حين قال أنه يعبر عن قدر من شك لا يقتضيه السؤال المحايد^(١) ، أي السؤال الذي لم تحذف أدواته . والمراد بالشك هنا ، الشك بالخبر أو المعرفة المسبقة التي انتهت الى أسماع السائل ، والتي تدفعه الى أن يسأل السؤال بصيغة « السؤال غير المحايد » .

أنماط أخرى من الحذف :

هناك أنماط أخرى من الحذف ، نذكر منها :

أ - قد يحذف الفعل الذي تتعلق به همزة الاستفهام ، و (هل) تعلقاً مباشراً ، وساعتئذ ، لا بد من تحويل التنغيم ليتوافق مع المعنى الجديد ، وذلك كأن تقول :

هل من عالم فأسأله ؟

هل في الدار من أحد ؟

أين سؤال ؟

هل لك من تعليق ؟

الأصل الدلالي في التراكيب السابقة : هل (يوجد) عالم فأسأله ؟ هل (يوجد) في الدار أحد ؟ أتريد سؤالاً ؟ هل (يوجد) لك تعليق ؟ وهلم جرا .

ب - وقد يحذف السؤال كله ، وذلك كأن تقول : « أين كنت ؟ » فقد يكون السؤال رداً على من سألك : « أين كنت ؟ »

« فرددت عليه استنكاراً لسؤاله ، أو استرجاحاً للسؤال : « أين كنت ؟ » فالمحذوف هنا سؤال كامل هو : « أتسألني ؟ » لأن الأصل هو : « أتسألني أين كنت ؟ » .

ومثل هذا الحذف قولك : « ماذا أسأل ؟ » فقد يكون هذا رداً على من قال لك : « ماذا تسأل ؟ » ، استنكاراً لسؤاله ، أو استرجاحاً له ، عندما لا تكون قد سمعت السؤال جيداً . وقد يكون قولك : « ماذا أسأل ؟ » رداً على من قال لك : « أسأل » . والأصل في ردك في الحالة الأولى هو : « أتسألني ماذا أسأل ؟ » فحذفت القسم الأول من السؤال . ويكون التحليل كما هو مبين في المشجر التالي :



ويشيع في بعض الوظائف اللغوية المعاصرة حذف السؤال كله ، والاكتفاء بما يدل عليه في السياق الاخباري . فقد يستهل أحدهم موضوعه قائلاً : « نعم ، تقاس الأمور بتأنيدها » ، دون أن يصدر الموضوع بسؤال . ومعنى ذلك ، أن المتكلم ، أو الكاتب ، قلنا أن أحداً سألته سؤالاً : « هل تقاس الأمور بتأنيدها ؟ » فجاء جوابه « نعم ، تقاس الأمور بتأنيدها » رداً على هذا السؤال المقتر . وقد يستهل بعضهم حديثه أو موضوعه قائلاً : « لا . لا أريد أن أحدثكم عن الكذب على العلماء » ، وكأنه تصور أن أحد الناس يسأله : « هل ستحدثنا عن الكذب عن العلماء ؟ » فجاء جوابه : « لا أريد . . » رداً على ذلك . ويمكن أن يعبر عن هذا رياضياً بما يلي :

0 ← ب + أ

وذلك حين تكون (ب) أداة الجواب (نعم - بل - لا) ،
(أ) هي الجملة التي تتحد مع الجملة الاستفهامية المحذوفة
(هل تقاس الأمور بتائجها ؟) في البنية العميقة .

وإذا كررت صيغة السؤال في الجواب ، مع وجود أداة
الجواب (نعم أولاً) ، فقد أصبح هذا خطأ آخر غير خطأ
الحذف .

ويمكن تسمية هذا القانون بقانون الاشتمال ، لاشتغال
الجواب على سؤال مقدر . ويمكن اضافته الى قوانين التحويل في
التوليدية التحويلية^(١) .

أما التصديق بنعم ، أو عدم التصديق بلا ، للاستئلة التي
تصغر بيمزة الاستفهام أو (هل) ، فيمكن تفسيره بحسب
قانون الاحلال ، ويعبر عنه رياضياً كما يلي :

أ = ب

فعندما يسألك شخص : « هل جاءك اليوم زائر ؟ » نجيبه
بنعم أولاً ، مستغنياً بإحداهما عن إعادة الجملة ، وبهذا تستعوض
عن إعادة الجملة بأداة الجواب . والشيء ذاته يقال عن السؤال
منفياً . فإذا قال لك قائل : « ألم يأتك زائر اليوم ؟ » قلت :
« بل » إذا كان الأمر قد حدث ، و « نعم » إذا لم يكن كذلك .
وهذه الصورة مختلفة تماماً عن سابقتها ، فهناك تحذف السؤال ،
وتستعوض عنه بنعم أولاً . وهنا تحذف الجواب ، وتستعوض
عنه بنعم أولاً .

هل جاءك اليوم زائر ؟ نعم

وهذا هو قانون التوسعة . وقد يظن أنه تطبيق لقانون
الزيادة ، وليس كذلك في الحقيقة ، لأن الزيادة تقتضي وجود
عنصر جديد ، يختلف عن العناصر الأصلية . أما (نعم) ،
فليست عنصراً جديداً في الإجابة ، وإنما هي اقرار لمضمون
الجملة التي بعدها : « جاءني اليوم زائر » . أما أننا أعطينا
الرمز (ب) ، وهو يختلف رياضياً عن الرمز (أ) ، فإن ذلك
لا يقتضي اختلاف الرمزين مضموناً ، بل هو اختلاف ظاهري .
والذي يدل على أن حقيقة كل من (أ) و (ب) متطابقة مع
الأخرى ، أنك تكفي في الجواب بالعنصر (ب) : « نعم » ،
دون حاجة الى إعادة العنصر (أ) : « جاءني اليوم زائر » .
وسنوضح بعد قليل ، كيف يمكن التعبير عن ذلك رياضياً ،
بحيث لا يكون هناك لبس بين قانوني الزيادة والتوسعة .

ومن صور الحذف في التركيب الاستفهامي ، المصدر
بالهمزة ، أنك إذا استعملت الهمزة فيه للتصور ، دون
التصديق ، فقد جاز لك حذف مايقابل المسؤول عنه ، حين
يكون له مقابل ، بشرط أن يكون معلوماً للمخاطب المسؤول ،
أو أن يكون معلوماً من السياق . ويسمى مايقابل المسؤول عنه
بالمعادل . فإذا عرف الشخص الذي تسأله « أي الدار أبوك ؟ »
أنك إنما تريد من سؤالك : « أي الدار أبوك أم في العمل ؟ » فقد
جاز لك حذف المعادل ، وهو هنا : « في العمل »^(٢) .

لكن حذف المعادل غير جائز إذا لم يكن معلوماً للمخاطب
(بفتح الطاء) أو لم يكن معلوماً من السياق . فإذا قلت :
« أجرح الجندي ؟ » وأنت تريد من سؤالك : « أجرح أم
قتل ؟ » فالسؤال غير صحيح . نعم ، هو صحيح من الناحية

التركيبية المجردة أولاً ، وهو صحيح من حيث انه يستعمل في التصديق دون التصور ثانياً ، لكنه غير صحيح من حيث أنك استعملته للتصور ، وهو لا يستعمل الا للتصديق . وقد أسلفنا لك قول أصحاب مدرسة النحو النظامي ، وقولهم هنا مفيد بل صحيح مطلقاً ، عندما ذهبوا الى أن السياق ليس في حقيقته ليس الا ترابطاً بين الشكل والموقف . الشكل هنا هو صيغة السؤال : « أجرح الجندي ؟ » ، والموقف هو موقف السائل الذي يريد أن يعرف هل جرح الجندي أو قتل . وإذا لم يتحد الشكل والموقف جميعاً في إطار وظيفي واحد ، فإن السياق الذي تستعمل فيه عبارة « أجرح الجندي ؟ » ليس هو نفس السياق الذي تستعمل فيه الجملة الاستفهامية : « أجرح الجندي أم قتل ؟ » اللهم الا اذا كان الذي تسأله يعرف أنك إنما تريد من سؤالك : « أجرح الجندي ؟ » ما يراد من السؤال : « أجرح الجندي أم قتل ؟ » . وعمل كل حال ، فإن السؤال : « أجرح الجندي أم قتل ؟ » قد حوّل التركيب الأول : « أجرح الجندي ؟ » من التصديق الى التصور ، وحوّله من السؤال عن أمر واحد ، كان هو المجهول الوحيد بالنسبة للسائل ، الى أمرين يستويان في عدم معرفة السائل بهما .

وهكذا ، فإن حذف المعادل قد يؤدي الى اختلاف التركيب ، لاختلاف السياق الذي يستعمل فيه ، وقد يحول التركيب والسياق جميعاً ، على نحو ما تبين .

ومن صور الحذف في الأساليب الاستفهامية أن يحذف متعلق الاسم ، سواء أقولاً كان أم غير قولاً^(١١) . فمن الشواهد التي حذف منها المتعلق الذي ليس قولاً ، قوله تعالى : « يتواري من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب »^(١٢) . والتقدير : يتواري من القوم من سوء ما بشر به ، يفكر أيمسكه على هون أم يدسه في التراب . وقدّر بعضهم متعلق الاستفهام في هذه الآية بأنه اسم ، كأنه قال : مفكراً أيمسكه .. الى آخره .

وقد ذهب بعضهم الى ان الغالب ان يكون المتعلق

المحذوف في القرآن الكريم خاصة ، فعل القول ، ومن أمثله الآيات الكريمة التالية :

١ - « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ؟ »^(١٣) .

٢ - « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار »^(١٤) .

٣ - « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أليس هذا بالحق ؟ »^(١٥) .

٤ - « ربنا أخرنا الى أجل قريب نجيب دعوتك وتبج الرسل ، أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ »^(١٦) .

٥ - « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، هل تجزون الا ما كنتم تعملون ؟ »^(١٧) .

٦ - « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا ؟ »^(١٨) بآيات همزة الاستفهام على قراءة ابن عامر .

والمعنى في كل ذلك على تقدير : « يقال لهم : أكفرتم ؟ » و « يقال لهم : لمن الملك اليوم ؟ » و « يقال لهم : أليس هذا بالحق ؟ »^(١٩) وهلم جرا .

الأنماط التحويلية الناجمة عن الزيادة والتوسعة :

الزيادة والتوسعة نمطان من العمليات التحويلية كما عرفنا . وتمثل الزيادة في اضافة عنصر جديد لم يكن له وجود أصلاً في التركيب . ويعبر عن ذلك رياضياً بالصورة المألوفة التالية :

$$A \rightarrow A + B$$

وقد يكون هذا التعبير الرياضي ملبساً ، اذ ليس فيه ما يشير الى ان العنصر (ب) غير متضمن في العنصر (أ) ، فانه اذا كان متضمناً فيه ، فالقانون قانون توسعة ، لا قانون زيادة . ويمكن توضيح ذلك بالجملة التوليدية : « سافر زيد » ، فان زيادة همزة الاستفهام عليها ، يجعلها جملة تحويلية : « سافر زيد ؟ »

ولما لم تكن همزة الاستفهام هذه امتداداً لأحد عنصري الجملة التوليدية ، أي بما أنها ليست متضمنة في أحدهما ، فإن وجودها في الجملة الاستفهامية التحويلية ، وجود زيادة ، لاوجود توسعة .

وتتمثل التوسعة في جعل مجال عنصر من عناصر الجملة أكثر انشاعاً مما كان عليه ، قبل التحويل . ويعبر عن ذلك رياضياً بالصورة المألوفة التالية :

$$A \Rightarrow B + A$$

وهي الصورة نفسها التي يعبر بها عن قانون الزيادة . ومع أن التوسعة في ظاهرها زيادة ، ولكنها ليست كذلك حقيقة . واذن ، حتى يزول اللبس الناجم عن استعمال صيغة رياضية واحدة ، لابد من تعديل صورة هذين القانونين ، بما يميز أحدهما عن الآخر .

أما قانون الزيادة فنرى أن تكون صيغته الرياضية كما يلي :

$$A \Rightarrow B + B$$

« (أ) تتحول الى (أ) + (ب) حيث (ب) غير متضمنة في (أ) » .

وأما قانون التوسعة فنرى أن تكون صيغته واحدة من الصور التالية :

$$A \Rightarrow B + A \supset B$$

« (أ) تتحول الى (أ) + (ب) حيث (ب) متضمنة في (أ) » .

$$\text{أو : } A + B \Rightarrow A + A + B$$

$$\text{أو : } A + B \Rightarrow A + B + B$$

فان من شأن هذه الصيغ الثلاث أن تزيل اللبس الناجم عن استعمال صيغة واحدة لقانوني الزيادة والتوسعة .

ومادنا بصدد النظر في قوانين التحويل ، فلا بأس أن نشير هنا ، الى ان قانوني التضييق والحذف ، يلتبس أحدهما بالآخر كذلك في موضعين : أحدهما عند عدم التفريق بينهما من

حيث المضمون ، وثانيهما عند عدم التمييز بينهما من حيث الصيغة ، أي عند استعمال صيغة رياضية واحدة لهذين القانونين ، مع اختلاف حقيقتيهما من حيث المضمون .

أما قانون الحذف فيشمل حذف أحد عناصر التركيب ، عندما لا يكون العنصر المحذوف متضمناً في العنصر الموجود في التركيب . ومثل ذلك حذف الفاعل ، أو المبتدأ ، أو الخبر ، فالفاعل ليس جزءاً من الفعل ، والمبتدأ ليس جزءاً من الخبر ، ولا الخبر جزء من المبتدأ ، فحذف أحد هذه العناصر ، إنما يكون بحسب قانون الحذف ، لا بحسب قانون التضييق .

وأما قانون التضييق فيعني حذف عنصر من التركيب متضمن في العنصر الباقي فيه . وقد يتم تضييق أكثر من عنصر من عناصر التركيب في عنصر واحد ، وذلك مثل : « قال لاحول ولا قوة الا بالله » ، فان الصيغة المنحوتة منها ، وهي « حوّل » ، تتضمن العنصرين المحذوفين جميعاً ، وهما : « قال » (اذ لا تكون حوّل دون قول تصدر به) ، و « لاحول ولا قوة الا بالله » . فهذا اذن ، من قانون التضييق ، لا قانون الحذف .

يعبر عن قانوني الحذف والتضييق عادة بالصيغة الرياضية التالية :

$$A + B \Rightarrow A$$

أو بالصيغة التالية :

$$A + B \Rightarrow B$$

ولإزالة اللبس الناجم عن استعمال صيغة رياضية واحدة لهذين القانونين ، فاننا نرى ضرورة تعديل هذه الصيغة ، حتى يكون بالامكان التعبير عن القانونين دون أدنى لبس . والذي نراه أن تكون الصيغة الرياضية لقانون الحذف كما يلي :

$$A + B \Rightarrow A : B$$

« يتحول التركيب المكون من العنصرين (أ) و (ب) الى (أ) ، بحيث لا يكون العنصر (ب) متضمناً في (أ) » .

أو كما يلي :

$$A + B \Rightarrow B : A$$

« يتحول التركيب المكون من العنصرين (أ) و (ب) الى (ب) ، بحيث لا يكون العنصر (أ) متضمناً في (ب) » .
أما قانون التضييق ، فنرى أن تكون صيغته الرياضية كما يلي :

$$A + B = A \Rightarrow B : A > B$$

« يتحول التركيب المكون من العنصرين (أ) و (ب) الى (أ) ، بحيث يكون العنصر (ب) متضمناً في (أ) » .
أو كما يلي :

$$A + B = B \Rightarrow A : A > B$$

« يتحول التركيب المكون من العنصرين (أ) و (ب) الى (ب) ، بحيث يكون العنصر (أ) متضمناً في (ب) » .

ونعود الى قانون التوسعة ، فنقول ان بروزه في التراكيب الاستفهامية ، من حيث هي كذلك ، قليل الدوران في اللغة العربية . وربما كانت الآية الكريمة التالية خير دليل على توسعة الاستفهام في العربية : « أنقولون للحق ، لما جاءكم : أسحر هذا ؟ »^(١) فالبنية العميقة لهذا التركيب القرآني تتضمن الجمل التوليدية التالية :

١ - جاءكم الحق .

٢ - قلتم للحق : هذا سحر .

ولما دخل الاستفهام على الجملة التوليدية : « قلتم للحق » ، فقد حولها الى جملة تحويلية استفهامية ، فأصبحت « أنقولون للحق ؟ » وكان من المتوقع أن يكون التركيب في بنيته المنطوقة : « أنقولون للحق لما جاءكم : هذا سحر ؟ » ولكن الاستفهام جاء بصورة موسعة ، حتى أنه امتد الى الجملة التوليدية : « هذا سحر » فأصبحت : « أهذا سحر ؟ » ، ثم تغير الموضع ، فأصبحت الجملة هكذا : « أسحر هذا ؟ » .

والذي يدل على أن الاستفهام في الجملة التحويلية : « أسحر هذا ؟ » هو امتداد للاستفهام في الجملة التحويلية : « أنقولون ؟ » هو أن الاستفهام فيها واحد ، بمعنى أن السؤال انما كان عن شيء واحد ، وهو السؤال عن قولهم للحق انه سحر . وقد خرج السؤال ، كما هو معلوم ، الى الاستنكار ، فكان استفهاماً انكارياً .

أما الزيادة ، فهي ظاهرة لغوية سائدة في لغات العالم ، مكتوبة وغير مكتوبة . ووجودها في اللغات وجنود سيروية وشيوع ، سواء أكان من الناحية الصوتية ، أم من الناحية الصرفية ، أم من الناحية التركيبية .

ونشيع الزيادة في الوحدات اللغوية العربية ، صوتية وصرفية وتركيبية . ومع أن الزيادة تؤخذ باعتبار كونها زائدة على الجمل التوليدية ، فإنه لا يوجد ما يمنع من أن تدرس في الجمل التحويلية ، ومن ضمنها الجمل الاستفهامية ، تماماً كما يدرس الحذف في الجملة الاستفهامية ، وهو في الأصل ، يُتناول باعتبار كونه حذفاً من الجملة التوليدية .

تبرز الزيادة في الجملة الاستفهامية في المواطن التالية :

١ - زيادة (من) في الجملة الاستفهامية .

٢ - زيادة الاستثناء في الجملة الاستفهامية .

٣ - زيادة النفي على همزة الاستفهام و (هل) .

وفيما يلي مناقشة لهذه الموضوعات :

١ - زيادة (مِنْ) في الجملة الاستفهامية :

تزداد (مِنْ) في الجملة الاستفهامية المصدرة بالهمزة أو (هل) . فقد تسبق الفاعل فتجره لفظاً ، ويبقى فاعلاً في المعنى ، مرفوعاً محلاً . وقد تسبق المفعول به كذلك ، فيبقى مفعولاً في المعنى منصوباً محلاً . وقد تسبق المبتدأ ، ويكون من أمره ما كان من أمر سابقه .

وقد ذهب النحاة الى ان (من) التي تدخل على الجملة الاستفهامية قد تعني الجنس ، وقد تعني الاستفراق . اما التي تعني الجنس فمثل قولك : هل قام من رجل ؟ أي هل قام رجل ؟ ومثل ذلك قولك : هل رأيت من رجل ؟ وقولك : هل في الدار من رجل ؟ وكقول الشاعر :

هل عليّ وبحكما اذا عشت من حرج ؟

وأما التي للاستفراق فمثل قولك : « هل قام من أحد ؟ » ، و « هل رأيت من أحد ؟ » ، و « هل في الدار من أحد ؟ »^(٢) .

وهذا الذي ذهبوا اليه مرجوح يمكن نقضه ، ذلك أن

التركيب التالية تدل على الجنس ، حتى قبل دخول (من) عليها :

هل جاء رجل ؟ هل رأيت رجلاً ؟ هل في الدار رجل ؟
فان كلمة (رجل) في هذه التراكيب ، لاتنفك عن الدلالة على الجنس ، بسبب مجيئها منكراً ، والتنكير ، كما هو معروف ، يدل على العموم . والعموم هنا ، عموم الجنس .
يضاف الى هذا ، أن التراكيب التالية تدل على الاستغراق ، حتى قبل دخول (من) عليها :

هل جاء أحد ؟ هل رأيت أحداً ؟ هل في الدار أحد ؟
فان كلمة (أحد) في التراكيب السابقة تكتسب من التنكير عموماً يدل على استغراق كل من تنطبق عليه كلمة (أحد) .

ان دخول (من) على الجمل السابقة ، لم يكسبها دلالة الجنس أو الاستغراق ، كما ذهب الى ذلك النحاة . وانما دخلت عليها لمطلق التوكيد . وبيان ذلك أنه لما كانت العربية لغة غير نغمية (أي أن النغمة فيها لاتعمل على تغيير الكلمة الى كلمة أخرى) ، فقد استحدثت عوضاً عن ذلك ، أدوات تكون بديلاً موضوعياً للتوكيد المستفاد من التنغيم . وكانت حروف الزيادة من هذا القبيل ، ومنها بطبيعة الحال ، (من) الداخلة على الجملة الاستفهامية . فحرف الجر الزائد داخلاً على هذه الجملة ، هو بديل للتوكيد المستفاد من التنغيم ، لابدل للتنغيم نفسه .

ولابد أن نذكر هنا ، أن الزيادة انما هي زيادة في المنطوق على نظيره في البنية حقيقة أو في البنية الدلالية . وهذا يعني أن نخرج بعض العلماء من أن يصفوا حروف الزيادة في التراكيب القرآنية بأنها زائدة ، انما هو تأثم في غير اثم ، اذ ان وجود حروف الزيادة لايغني أن ثمة حروفاً زائدة لاقيمة لها . وانما يعني ان هذه الحروف زائدة في ما هو منطوق ، على النظر في البنية العميقة .
فحرف الجر (من) في الآية الكريمة التالية : « هل يراكم من أحد »^(٣) ، انما هو زائد على النظر (غير القرآني) : « هل يراكم أحد » .

٢ - زيادة مورفيم الاستثناء في الجملة الاستفهامية :

قد يدخل على التركيب الاستفهامي أحد مورفيمات الاستثناء ، مثل (ألا) ، و (غير) ، و (سوى) ، فيتحول من تركيب استفهامي ، الى تركيب استفهامي استثنائي ، وهما نمطان متغايران في العربية . لننظر في التراكيب التالية :

- ١ - هل يهلك الا القوم الظالمون ؟
- ٢ - هل سيفوز بالجائزة غير الناجحين ؟
- ٣ - هل يكذب على العلماء غير السفهاء ؟
- ٤ - (فهل ينظرون الا سنة الأولين)^(٤) .

لقد وصفنا التراكيب السابقة بأنها تراكيب استفهامية استثنائية . اما انما استفهامية ، فمن حيث واقع بناها السطحية . واما انما استثنائية ، فمن حيث ان الفعل فيها واقع بصورتين احدهما صورة سلبية ، وهي تقابل المستثنى منه ، بينما تقابل الصورة الايجابية المستثنى . فاذا نظرنا في الجملة الاولى : « هل يهلك الا القوم الظالمون » تبين لنا أن الفعل فيها واقع بصورتين ، احدهما صورة سلبية ، وهي صورة المستثنى منه : « لايهلك الناس » ، والثانية صورة ايجابية ، وهي صورة المستثنى : « يهلك القوم الظالمون » .

وننظر في العبارة الثانية : « هل سيفوز بالجائزة غير الناجحين ؟ » فتجد البنية العميقة ، قد تضمنت المعنيين التاليين :

- أ - ان الناجحين سيفوزون بالجائزة .
- ب - لن يفوز بالجائزة غير الناجحين .

واما التركيب الثالث : « هل يكذب على العلماء غير السفهاء ؟ » فبنية العميقة تتضمن :

- أ - لا يكذب الناس على العلماء . ب - يكذب السفهاء على العلماء .
- وقد يتصور البعض أن (هل) في التراكيب السابقة وأمثالها ، انما هي للنفي . والحق أن النفي مستفاد من اتحاد (هل) ، و (الا) ، في مورفيم مركب . وانما كان اتحادهما مورفيمياً مركباً ، رغم اختلاف موقع كل منهما ، لان وجودهما في التركيب ، يغير الصيغة الاستفهامية الى صيغة أخرى ، تماماً كما لو كان التحويل في التركيب ناشئاً عن مورفيم واحد مفرد . اما الصيغة الاستفهامية الجديدة التي تحول اليها التركيب بوجود

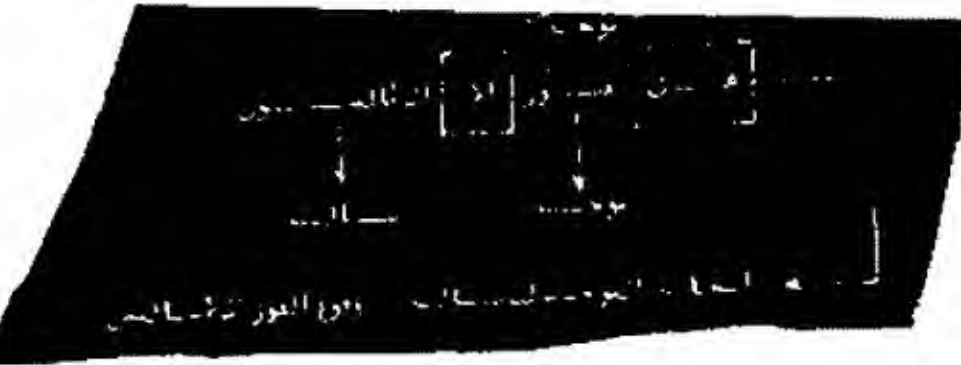
(هل) و (الا) فيه ، فهي الاستفهام السليبي ، أو الاستفهام الاستثنائي ، واقترح تسمية هذا النوع من الاستفهام بالاستفهام المفرغ ، جرياً على طريقة النحاة في تسمية أحد أقسام الاستثناء بالاستثناء المفرغ .

لكن ادخال مورفيم الاستثناء ، على الجملة الاستفهامية ، لا يجعلها دائماً من هذا القبيل . فان لاجابية الفعل ، أو سلبية ، ولايجابية المسند اليه ، أو سلبية ، أثراً في هذا التحويل . ولتوضيح هذه المسألة ، ننظر في بعض التراكيب السابقة ، مرة أخرى ، بشكل مفصل :

أما التركيب الأول : « هل يهلك الا القوم الظالمون » ، فهو مكون من عدد من المورفيمات . فالمورفيم الأول منها سالب ، وهو (هل) ، والمورفيم الثاني منها سالب كذلك ، وهو (يهلك) ، لأن الموجب نقيضه وهو (يفوز) . وأما المورفيم الثالث فهو (الا) ، وهو سالب كذلك ، لأنه استثناء ، والاستثناء سلب كما هو معروف . وأما المورفيم الرابع فهو (الظالمون) ، وهو سالب ونقيضه (العادلون) موجب ، بمعنى أنه صفة موجبة . غير أن اتحاد المورفيمين السالين (هل) و (الا) يولد مورفيماً مركباً موجباً ، كأنه لم يعد هذين المورفيمين السالين أي تأثير ، اذا نظر الى كل واحد منهما على حدة . ولذا ، فقد انصرف معنى الجملة الى : « يهلك الظالمون » ، وذلك على نحو مبين في الشكل الآتي :



وهناك دلالة أخرى لهذا التركيب ، غير ايجاب السلب للسالب ، وهي ايجاب الموجب للموجب ، المتمثل في وقوع الفوز للعادلين . فاذا غيرت الفعل السالب (يهلك) ، وجعلته موجباً ، تغير المعنى رأساً على عقب ، وأصبح كما يلي :



وغالباً ما يكون هذا التركيب غير ذي دلالة مقبولة ، اذ ان الاعراف والمبادئ والقوانين السماوية وغير السماوية ، تجمع على أنه لا فوز للظالم ، بغض النظر عن اختلافها في تحديد ماهية الظلم والظالمين . ولكن هذا التركيب قد يكون ذا دلالة صحيحة من الناحية السيمائية ، وذلك عندما يكون المجال المرجعي Perceptual Scope لهذا التركيب على هذا النحو ، أي اذا كان واقع المجتمع كذلك . ويكون مثل هذا التركيب ساعثاً ، وصفاً لما هو واقع في ذلك المجتمع .

وهناك دلالة أخرى لهذا التركيب ، غير ايجاب الموجب للسالب ، وهي سلب الموجب عن الموجب ، والمتمثل في سلب الفوز عن العادلين . وهو أمر تجمع المبادئ والاعراف الانسانية على رفضه .

دعنا الآن ننظر في دخول أدوات الاستثناء على الجملة الاستفهامية المصنوعة بمن ، متى ، وكيف . . ومن أجل ذلك لننظر في الأمثلة التالية :

- ١ - من خالق غير الله يأتيكم بماء معين ؟
- ٢ - من أنت غير أعمالك الصالحة ؟
- ٣ - متى يفوز بالجائزة غير العلماء ؟
- ٤ - كيف يفوز بالنصر سوى أهله ؟

ان تركيب الجملة : « من خالق غير الله يأتيكم بماء معين ؟ » يتضمن ما يلي :

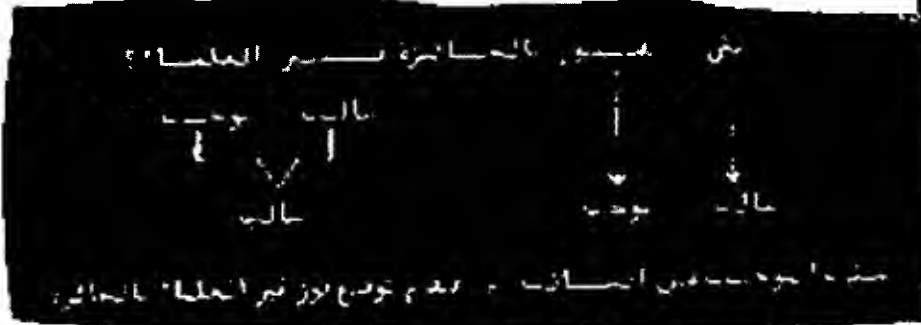
أ - الله يأتيكم بماء معين .

ب - لا خالق غير الله .

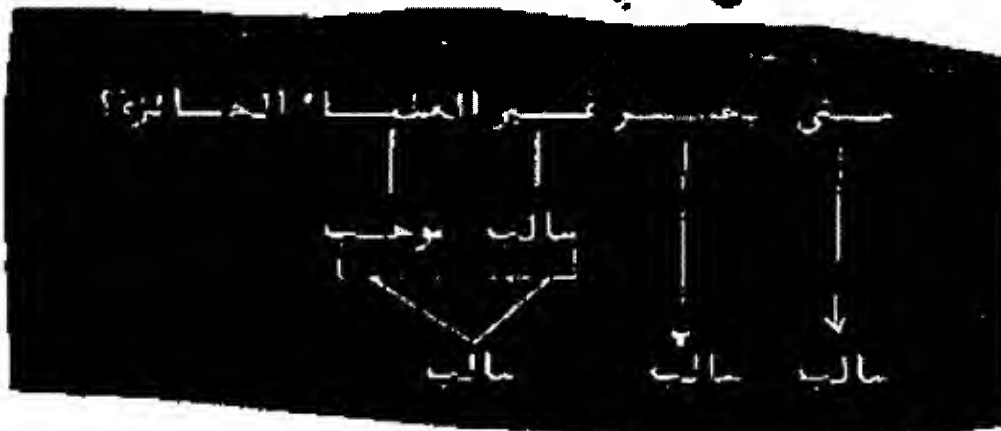
ج - لا أحد غيره (تعالى) يأتيكم بماء معين .

ويتضمن اقرار اتيان الله بماء معين ما هو مبين في الشكل التالي :

انتهينا الى ان حقيقتها تتمثل في : سلب الايجاب عن السالب ،
ذلك الذي يظهر في عدم توقع الفوز لغير العلماء . ويظهر في
الدلالة مضمون آخر هو وقوع الايجاب للموجب ، أي توقع فوز
العلماء بالجائزة .



واذا حولنا الفعل الموجب ليصبح سالباً (ينحسر) ، فإن
التركيب سيصبح كما يلي :



ومعنى ذلك هو : سلب السالب عن السالب ، أي تقرير
الموجب للسالب . ويؤدي ذلك الى أن غير العلماء لا يخسرون
الجائزة . ويؤدي كذلك الى ايجاب السالب للموجب ، أي تقرير
الخسارة للعلماء .

٣ - زيادة مورفيم النفي على الهمزة و (هل) :

جاء في اللسان : « ألا حروف استفهام واستفهام » . وجاء
فيه أيضاً : « أما (ألا) التي للعرض ، فمركبة من (لا) وألف
الاستفهام . والذي نراه في هذه المسألة أنه لا فرق بين (ألا)
التي للعرض ، وتلك التي للتحضيض ، من حيث ان كلا منها
مركبة من همزة الاستفهام و (لا) النافية . يدل ذلك على أن
العرض هو أدنى درجات التحضيض ، وأن التحضيض هو أعلى
درجات العرض . وقد بين الرماني معاني (ألا) فذكر منها أنها :
(أ) قد تكون للعرض ، نحو قولك : ألا تنزل فتصيب
خيراً . ألا نقصدنا فنكرمك .

ويتضمن هذا اقرار السالب للسالب ، أي اقرار أن غير
الله لا يأتي بماء معين . وإذا نظرنا في الجملة التالية : « متى يفوز
بالجائزة غير العلماء ؟ » وجدنا أن بنيتها العميقة تتضمن ما يلي :

أ - يفوز العلماء بالجائزة .

ب - لا يتوقع أن يفوز غير العلماء بالجائزة .

هذا اذا كان المقصود استبعاد فوز غير العلماء بالجائزة . أما
اذا كان المقصود من ذلك هو مجرد السؤال عن الوقت ، فإن البنية
العميقة ستضمن :

أ - يفوز العلماء بالجائزة عادة .

ب - يتوقع ان يفوز غير العلماء بالجائزة ، في وقت ما (هو محل
السؤال) . ومعنى ذلك ، أن هذا التركيب الاستفهامي غير محدد
الدلالة . ويسمى التركيب الذي له دالتان فأكثر ، تركيباً غير
محدد Ambiguous . وقد درج البعض على ترجمة هذا المصطلح
بكلمة غامض . ونظراً لما نشي به هذه الكلمة من دلالة غير
مقبولة في العربية ، والمجتمع العربي ، فلن أقترح ترجمة هذا
المصطلح بـ (غير محدد) . ونظراً لأن اللفظة الانكليزية
Ambiguous تعني في الانكليزية « غامض » كما تعني « غير محدد » ،
سواء بسواء ، فلن أقترح تعميم هذه الترجمة غير الشائعة ، وقد
وضح العلماء حقيقة المصطلح الذي نحن بصدد ، عندما بينوا
أن الجملة غير المحددة هي الجملة التي يكون لها دالتان فأكثر .
وهل يكون غير المحدد الا كذلك ؟ وهذه هي حقيقة هذا
المصطلح عندما يستعمل في الدراسات اللغوية . وهي تختلف
عن حقيقته عندما يستعمل في الدراسات الأدبية مثلاً .

اذا نظرنا في الجملة الاستفهامية : « متى يفوز بالجائزة غير
العلماء ؟ » نظرة أخرى ، بحسب عنصري الايجاب والسلب ،

(ب) قد تكون للتحفيض ، نحو قولك : ألا أكرمت زيداً . ألا عمراً لقيته .

(ج) قد تكون للتمني ، وتنصب بعدها النكرة بلا تنوين ، كقولك : ألا ماء بارداً . وإن شئت قلت : ألا ماء بارداً . وحكمها في ذلك حكم (لا) « النافية للجنس » ، قال حسان :
ألا طعمان ، ألا فرسان عادية

ألا نجشؤكم عند التناثر^(٣١)

أما (هلاً) فإنها مركبة من (هل) و (لا) ، وهي للتحفيض ، تقول : هلاً أكرمت زيداً ، وهلاً أتيت خيراً من ذلك ؟ وقال الرماني أيضاً : « وهي (هلاً) من الحروف الهوامل ، ومعناها التحفيض ، ولا يليها إلا الفعل مظهراً أو مضمرّاً لاختصاصها به ، وهي مركبة من (هل) و (لا) . فإذا أضمرت الفعل قلت : هلاً زيداً ؟ هلاً خيراً من ذلك ؟ أي : هلاً أكرمت زيداً ؟ وهلاً أتيت خيراً من ذلك ؟ تضمر فعلاً تدل عليه الحال المشاهدة »^(٣٢) .

وقد ورد أن بعض العرب يقولون : « ألا أكرمت زيداً ؟ ألا أحسنت إلى عمرو ؟ » وليست (ألا) هذه مركبة من (أن) و (لا) كتلك التي في مثل قولك : أقسمت ألا أنسى حقّي . وإنما هي صورة لهجية من صور (هلاً) ، أبدلت فيها الهاء همزة . ويمكن تسمية هذه الظاهرة بالتحقيق ، أي تحقيق الصوت الضعيف ، بتحويله إلى نظيره الشديد ، وهي ظاهرة معروفة في علم الأصوات^(٣٣) .

الوصف والأخبار بالجملة الاستفهامية :

ذهب بعض النحاة إلى أن جملة الوصف لا ينبغي أن تكون جملة استفهامية ، وذهبوا إلى تأويل الشواهد التي يفهم منها أن جملة الوصف فيها جاءت استفهاماً ، ومن ذلك قول الشاعر :
حتى إذا جنّ الظلام واختلط

جاءوا بمنق هل رأيت الذئب قط ؟

فقد قالوا إن جملة : « هل رأيت الذئب قط ؟ » لا يجوز أن تكون وصفاً لكلمة (منق) ، لأنها جملة استفهامية . فالوصف

على ما ذهبوا إليه ، محذوف قدروه به (مقول فيه) ، فيكون الأصل على هذا : جاءوا بمنق مقول فيه : هل رأيت الذئب قط ؟

أما رفضهم أن تكون جملة الوصف استفهاماً ، فصحيح باعتبار البنية العميقة فقط ، غير صحيح باعتبار البنية السطحية ، ذلك أن الاستفهام لا يظهر في البنية العميقة ، بل في البنيتين السطحية والدلالية .

وأما تأويلهم لهذا البيت بأن الوصف هو : « مقول فيه » ، فغير صحيح ، فالبنية الدلالية لهذا التركيب هي : جاءوا بمنق لونه هل رأيت الذئب قط ؟ وعلى هذا ، فجملة « هل رأيت الذئب قط ؟ » جملة أخبار لاجملة وصف . إنها (أي : هذه الجملة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (لونه) . ومهما أتيت بأمثلة من هذا القبيل ، خرجت بها هذا المخرج . دونك الأمثلة التالية :

١ - رأيت رجلاً كيف تعبد الطاعنين ؟

٢ - زرت حديقة كيف الجنة ؟

٣ - رأيت خلقاً كم عدد الناس في الحشر ؟

فالبنى الدلالية للتركيب السابقة هي كما يلي :

١ - رأيت رجلاً حاله كيف تعبد الطاعنين .

٢ - زرت حديقة جمالها كيف الجنة .

٣ - رأيت خلقاً عددهم كم عدد الناس في الحشر .

وهكذا ، فانت ترى أن جملة الوصف (باعتبار تسمية

جمهور النحاة لها) في التراكيب السابقة ، ليست استفهامية باعتبار بنائها الدلالية ، ولكنها جملة اخبارية حذف منها المبتدأ في البنية السطحية لكل منها .

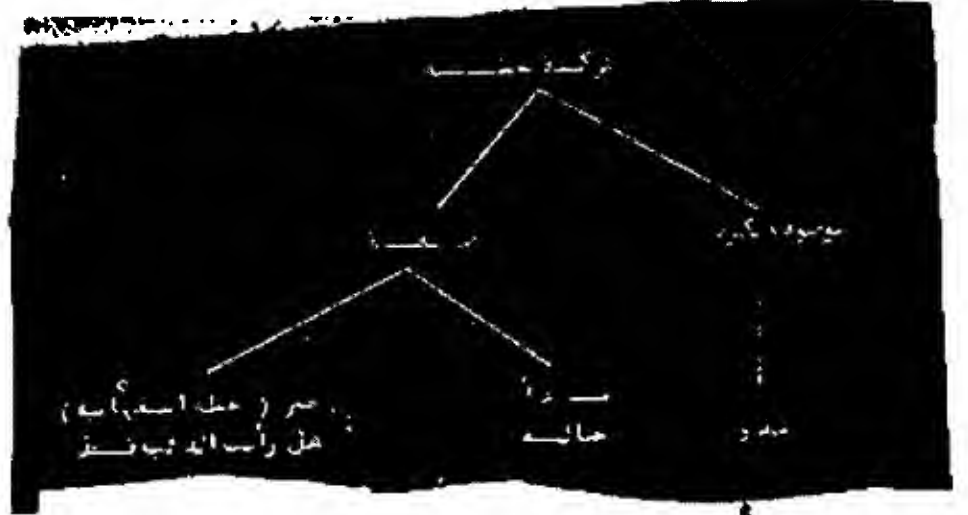
وعليه ، فانتا ترى أن معالجة هذا الموضوع ألصق بباب

الأخبار بالجملة الاستفهامية ، منها بباب الوصف بالجملة الاستفهامية ، وكان من الجدير أن تعالج هذه المسألة هناك ، لافي الباب الذي عولجت فيه ، لأن حقيقتها غير متضمنة فيه .

نتهي إذن ، إلى أن الجمل الاستفهامية في التراكيب

السابقة ، ماهي إلا أخبار لمبتدآت محذوفة ، وأن الجملة

الاخبارية (المكونة من مبتدأ محذوف ، وخبر هو في حقيقته جملة استفهامية) هي الوصف ، وذلك على نحو ما هو مبين في الشكل التالي :



يقودنا هذا الى مناقشة مسألة الاخبار بالجملة الاستفهامية ، اجائزة هي أم غير جائزة ؟ جمهرة النحاة على القول انه لا فرق في جملة الخبر بين أن تكون خبرية أو استفهامية ، أو أية جملة من الجمل الانشائية الأخرى ، فكما يجوز أن نقول : « زيد أبوه مسافر » ، يجوز أن نقول : « زيد هل سافر أبوه ؟ » فتكون الجملة الاستفهامية « هل سافر أبوه ؟ » خبراً للمبتدأ « زيد » . وقد ذهب ابن الأنباري ، وبعض الكوفيين ، الى منع الاخبار بالجملة الانشائية ، سواء أكانت استفهامية أم غير ذلك . ولذلك لجأ هؤلاء الى تقدير القول . وحجتهم في منع الاخبار بالجملة الاستفهامية أن الخبر ما يحتمل الصدق والكذب ، والجملة الانشائية لا تحتمل ذلك . وقد رد الأستاذ عبد السلام هارون على ابن الأنباري فقال : وما احتج به ابن الأنباري مردود :

١ - بأن الخبر الذي يحتمل الصدق والكذب ليس هو خبر المبتدأ ، بل هو ما يقابل الانشاء ، وانت ترى أن المفرد يقع خبراً اجماعاً مع كونه غير محتمل للصدق والكذب لأن احتمال ذلك انما هو من خصائص الكلام لا الكلمة الواحدة .

٢ - اتفق النحويون جميعاً على جواز الرفع في نحو : « أما زيد فاضربه » . فبرفع زيد في هذا المثال يتعين أن يكون مبتدأ ، والجملة بعده خبر ، وهي انشائية طلبية .

٣ - كذلك ورد السماع كثيراً بالأخبار بالجملة الانشائية الطلبية ، من ذلك قوله تعالى : « الحاقة ما الحاقة ؟ »

« القارعة ما القارعة ؟ » « أصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ؟ » « اذ وقعت جل الاستفهام أخباراً . ومن ذلك قول الشاعر :

قلب من عيل صبره فكيف يسلو ؟

صاليا نار لوعة وغرام

حيث أخبر في هذا البيت عن المبتدأ بجملة استفهامية (٣) .

التقديم والتأخير في الجملة الاستفهامية :

تبرز ظاهرة التقديم والتأخير في الجملة الاستفهامية في اللغة العربية ، على أنها إحدى الخصائص التركيبية الدلالية ، وهذه الظاهرة وجوه متعددة ، سنبحث منها بعض جوانبها في الصفحات التالية .

يلاحظ أن أسماء الاستفهام في اللغة العربية ، كما هو الحال في لغات أخرى ، تنصدر الجملة الاستفهامية . أي أن من حقها التقديم مطلقاً ، وذلك كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - ماذا قلت ؟

٢ - من رأيت اليوم من أصدقائك ؟

٣ - متى تستجيرون لداعي الحق ؟

٤ - كيف يكذب السفهاء على العلماء ؟

٥ - أن لك هذا ؟

٦ - كم كتاباً لديك ؟

٧ - أين الثرى من الثريا ؟

فاذا تناولنا الجمل الفعلية الأربع الأولى ، وجدنا الأساس الذي بنيت عليه هذه الجمل أساساً واحداً ، بمعنى أنها بنيت أما على فعل وفاعل وفضلة تتمثل في مفعول به معنوي ، وذلك كما في البنية العميقة للجملة الأولى : « قلت شيئاً ما » ، وأما على فعل وفاعل وفضلة تتمثل في مفعول به ذي ذات عاقلة ، كما في البنية العميقة للجملة الثانية : « رأيت اليوم شخصاً » . وقد تكون الفضلة ظرف زمان ، كما في البنية العميقة للجملة الثالثة :

« تستجيبون لداعي الحق وقتاً ما » . وقد تكون الفضلة هيئة متمثلة في حال مقدرة ، وذلك كما في البنية العميقة للجملة الرابعة : « يكذب السفهاء على العلماء ادعاء » .

ولما كانت الفضلة في كل جملة من الجمل السابقة مبهمة غير محددة ، فإن انشاء السؤال يقتضي ، في هذه الحال ، تقديم أداة الاستفهام . وبيّن لك التشجير الركني (أي الذي يشمل أصل الجمل الفعلية الأربع التي نحن بصدد مناقشتها) حقيقة ذلك :



فإذا أخذنا كل جملة على حدة ، فإن الأمر يتبين بصورة أوضح ، فالجملة الأولى هذا تشجيرها :



ويعبر عن ذلك رياضياً بما يلي :

أ + ب + ج ←

د + أ + ب + ج

فالمفعول به « شيئاً » اسم صريح كما هو معروف . ولما كانت أداة الاستفهام تقوم في البنية السطحية ، مقام الاسم الصريح في البنية العميقة ، فمعنى ذلك أنها تقوم مقام الاسم ، وتؤدي وظيفته ، وتعرب اعرابه . وهذا يبطل الزعم الذي جاء به أحدهم* وأنكر فيه أن تكون هذه الأداة اسماً ، بل أنه ينكر

اسمية أدوات الاستفهام كلها . ولما كانت دعواء هذه لا تستند الى دليل مقنع ، ولما كانت هذه الدعوى مليئة بالمغالطات والتناقضات ، فإننا سنرد عليه ، وباختصار شديد ، فيما هوآت :

١ - انه يناقض نفسه مناقضة شديدة وصريحة ، في غير موطن ، فهو يقول في ص ١٣٠ من كتابه « في التحليل اللغوي » : « والذي نسراه أن (ما) اسم استفهام ليس بمختص ، فيدخل على الجملة التوليدية أو التحويلية الاسمية أو الفعلية » . فهو يصرح ، اذن ، وبما لا يقبل الشك أو التأويل ، بأن (ما) اسم استفهام . ولكنه في الصفحة نفسها يقول : « وعلاقة لكلمة (ما) بالاسمية من قريب أو بعيد ، اذ انها عنصر استفهام ليس غير ، شأنها في هذا شأن الهمزة و (هل) » .

٢ - انه يخلط الأمور خلطاً عجيباً ، فقد أفرد في ص ١٣٣ عنواناً للحديث عن (من) ، وأحال قارئ هذا العنوان على كتاب سيبويه ج٢ ص ٤٠٨-٤١٣ ، وج٤ ص ٢٢٨-٢٣٣ ، وعلى أصول ابن السراج ج٢ ص ٣٦٠ و ٤١٨ ، وعلى المقتضب ج٢ ص ٣٠٨ ، ثم قال : « ثاني (من) في العربية على أوجه : للشرط ، ونكرة موصولة ، واسما موصولاً ، وللاستفهام » . الأمر الذي يوهم القارئ ان مضمون هذه العبارة موجود في الصفحات التي أحال عليها ، ثم قال بعد ذلك مباشرة : « والذي يعيننا هنا ورودها للاستفهام » . وأحال قارئ هذه العبارة الأخيرة على الصفحة ٣٦٠ من الجزء الثاني من الأصول لابن السراج .

على كل حال ، لا يوجد ما يدعو الى إحالة القارئ على أي مرجع عند قوله : « والذي يعيننا هنا ورودها للاستفهام » ، فان ورودها للاستفهام أمر في غاية الوضوح ، حتى أنه لا حاجة الى إحالة القارئ على ابن السراج ولا على غيره . ولو أنه أحالنا على المراجع وكانت حالته صادقة ، فالمصيبة أخف . فان ابن السراج لا يذكر شيئاً في الصفحة ٣٦٠ من الجزء الثاني من الأصول عن (من) الاستفهامية ، بل انه لا يذكر شيئاً عن (من) الاستفهامية في الفصل الذي يمتد من ص ٣٤١ الى

ص ٣٨١ في الطبعة التي اعتمدها ، وهي طبعة بغداد ١٩٧٣ ،
أو من ص ٣٣١ الى ص ٣٦١ من طبعة مؤسسة الرسالة
١٩٨٥ . ويكفيك ان تعلم ان ابن السراج قد عقد هذا الفصل
للحديث عن الوصل المتمثل في الألف واللام ، وكان عنوان
الفصل كما يلي : « باب مسائل من الألف واللام » . وقد وازن
ابن السراج في هذا الفصل بين أداة الوصل المتمثلة في الألف
واللام وأسماء الوصل مثل : (من) و (ما) و (الذي) وهلم
جرا .

أما الجملتان التاليتان الواردتان في ص ٣٦٠ من طبعة
بغداد (أو في ص ٣٤٢ من طبعة مؤسسة الرسالة) : « من أحر
أخوك » و « من حمراء جاريتك » فليستا استفهاميتين قطعاً ،
وإنما هما جملتان اخباريتان ، تبدئتان بالمبتدأ الذي هو اسم
موصول (من) وخبره (أخوك) في الجملة الأولى ،
و (جاريتك) في الجملة الثانية . وقد فسرهما ابن السراج بما
يحفظ القارئ العادي من الوقوع في الخطأ عند فهمهما ، فقال :
« من أحر أخوك ، تريد : من هو أحر أخوك ، ومن حمراء
جاريتك ، تريد : من هي حمراء جاريتك » ، أي أن المعنى
سيكون هكذا : الذي هو أحر أخوك ، والتي هي حمراء
جاريتك . فإين هذا من الاستفهام ؟ إذن ، فقد وهم هذا أشد
الوهم حين ظن أن هاتين الجملتين استفهاميتان ، فأحال
القارئ عليهما عندما قال : « والذي يعني هنا ورودها - ورود
(من) - للاستفهام » هذه نتيجة .

وأما سيويه ، فإنه يتحدث في الصفحات ٤٠٨ - ٤١٣
من الجزء الثاني من الكتاب عن تنبيه (من) الاستفهامية
وجمعها ، كما سنوضح بعد قليل ، ولم يذكر شيئاً عن (من)
الشرطية ، ولا عن (من) الموصولة . فما الداعي الى إحالة
القارئ على هذه الصفحات مادامت لا تؤيد ما يريد أن يثبت ،
بل أنها تنقضه من الجلور ، في ماهوآت بيانه بعد قليل . وأما
الاستشهاد بالصفحات ٢٢٨ - ٢٣٣ من الجزء الرابع من كتاب
سيويه ، فمثل ماسبق من الغرابة ، فإن سيويه ذكر (من) في
ص ٢٢٨ بعبارة قصيرة ، فقال عن (أي) أولاً : « وأي :

مسألة ليبين لك بعض الشيء ، وهي تجري مجرى (ما) في كل
شيء » ، ثم قال عن (مَنْ) ثانياً : « و (من) مثل (أي)
أيضاً ، إلا أنه للناس » فسيويه هنا ، لا يشير الى (من)
الموصولة ، ولا الى (أي) الموصولة كذلك ، وإنما يشير الى
(من) و (أي) الاستفهاميتين ، ومن أجل ذلك قال : « أي
مسألة ... » واذن ، يبطل الزعم بأن العبارة التالية : « تأتي من
في العربية على أوجه : للشرط ، ونكرة موصولة ، واسماً
موصولاً ، وللإستفهام » أقول يبطل الزعم بأنها منقولة من أية
صفحة من الصفحات التي أحالنا اليها من كتاب سيويه ، أو أن
مضمونها موجود في هذه الصفحات تحديداً . هذه نتيجة ثانية .
وأما المبرد ، فإنه لم يذكر شيئاً عن (من) الموصولة في
ص ٣٠٨ من الجزء الثاني من المقتضب ، وهي الصفحة التي
أحيل القارئ عليها . هذه نتيجة ثالثة .

يبقى هناك احتمال مؤداه أن إحالة القارئ على ص ٣٦٠
من الجزء الثاني من الأصول لابن السراج ، ماهو الا إشارة الى
(من) الموصولة . ولكن هذا الاحتمال يتلاشى ويبطل اذا علمنا
ان صاحب هذا الزعم لم يكن على علم بأن ابن السراج يتحدث
عن (من) الموصولة في هذه الصفحة ، فظن أنه (أي
ابن السراج) يتحدث عن (من) الاستفهامية ، وأحال القارئ
على هذه الصفحة على أنها مصدر من مصادر (من)
الاستفهامية ، بدليل أنه أحال عليها عندما قال : « والذي يعني
هنا ورودها للاستفهام » . هذه نتيجة رابعة .

إذا علمنا ان مرجعين من المراجع الثلاثة السابقة ، لا تذكر
شيئاً عن (من) الموصولة في الصفحات التي أحيل عليها
القارئ ، وإذا علمنا أن صاحب النقول السابقة ، لم يكن على
وعي بأن ابن السراج يتحدث عن (من) الموصولة في ص ٣٦٠
من الجزء الثاني من الأصول ، أقول : اذا علمنا هذا كله ، عرفنا
ان العبارة التالية : « تأتي (مَنْ) في العربية على أوجه :
للشرط ، ونكرة موصولة ، واسماً موصولاً ، وللإستفهام » هي
عبارة هذا الذي ينكر اسمية أسماء الإستفهام ، والنقول قوله ،
وان مضمون هذه العبارة غير منقول من أية صفحة من

الصفحات المذكورة أعلاه . فإذا علم هذا ، فإن صاحب هذه العبارة نفسه يحكم بأن (من) تكون اسماً موصولاً ، تماماً كما يحكم النحاة بذلك . فإذا علم هذا أيضاً ، تبين لنا أي تناقض يوقع نفسه فيه عندما يحكم بعدم اسمية (من) ، اللهم الا اذا كان يريد أن يقول ان (من) تكون اسماً عندما تكون للوصول ، ولا تكون اسماً عندما تكون للاستفهام ، فأي أمر ادعى للمعجب بعد ذلك ؟

٣ - اذا لم تكن (من) اسماً ، كما ذهب الى ذلك النحاة ، واذا كانت لا تحتاج الى اعراب ، أو محل من الاعراب ، كما يقول ، فكيف تثني وتجمع اذن ؟ ألم يقرأ مقاله سيويه في ص ٤٠٨ من الجزء الثاني من الكتاب : « اعلم انك تثني (من) اذا قلت : رأيت رجلين ، كما تثني (آيا) وذلك قولك : رأيت رجلين ، فنقول : مَنَيْنَ ؟ كما تقول : أَيْنَ ؟ وأنا في رجلان ، فنقول : مَنان ؟ وأنا في رجال ، فنقول : مَنون ؟ واذا قال : رأيت رجالاً ، قلت : مَنين ؟ كما تقول أَيْنَ ؟ أو بعد هذا يزعم أن (مَن) لا تحتاج الى اعراب ، أو محل من الاعراب ؟ أو ليس الاسم هو الذي يثنى ، ويكون اعراب مثناه بالالف رفعاً ، وبالياء نصباً وجراً ؟ أو ليس الاسم هو الذي يجمع جمع مذكر سالماً ، ويكون اعراب جمعه السالم بالواو رفعاً ، وبالياء نصباً وجراً ؟ واذا لم تكن (من) اسماً ، فكيف تثني وتجمع جمع مذكر سالماً ؟ قد يقال : ان نون المثنى تكون مبنية على الكسر ، وتكون نون جمع المذكر السالم مبنية على الفتح ، بينما تكون نون (منان) و (مَنَيْنَ) و (مَنون) و (مَنين) ساكنة . اذا قيل ذلك ، قلنا : أهذا هو الاعراب ؟ ليست الالف في (منان) تثنية لـ (من) في حال الرفع ، كما كانت الالف تثنية في (ولدان) ؟ أو ليست الياء تثنية لـ (من) في حال النصب والجر ، كما كانت الياء تثنية في (ولدين) ؟ أو ليست الواو هي ضمير الرفع في (منون) كما كانت ضمير رفع في (مؤمنون) ؟

ان ما ادعاه حول عدم اسمية (من) ادعاه حول عدم اسمية سائر أسماء الاستفهام ، ووقع بل أوقع نفسه في التناقضات والمغالطات نفسها التي أوقع نفسه فيها هنا . وسأعود

الى مناقشته بالتفصيل في موطن آخر غير هذا البحث باذن الله .
وأما الجملة الثانية : « من رأيت اليوم من أصدقائك ؟ » فتشجيرها يبين لنا نظير الحقيقة السابقة :



ويعبر عن تحول الجملة الاخبارية الى جملة استفهامية ، على نحو ما هو مبين في الشجر السابق ، بالمعادلة الرياضية التالية :

$$ا + ب + ج + د + هـ = ا + ب + ج + د + هـ$$

وقد تبين لك أن (من) قد قامت في الجملة التحويلية الاستفهامية ، مقام المفعول به ، وهو اسم صريح ، في الجملة الاخبارية . وما يقوم مقام الاسم فهو اسم مثله . لا يضير ذلك الا يدركه من لا يعرف حقيقته .

ونأتي الآن الى مناقشة الأمثلة الثلاثة الأخيرة (٥ ، ٦ ، ٧) . أما الجملة الخامسة ، « أن لك هذا ؟ » ، فأصل التركيب اخبارياً كما يلي : « لك هذا من مكان ما » ، فحذف شبه الجملة « من مكان ما » . ولما كان السائل بحاجة الى معرفة ذلك المكان بالتحديد ، فقد تصدر اسم الاستفهام الجملة . وقد كان هذا التصدر ضرورياً للتعويض كذلك . والمقصود بالتعويض هنا هو التعويض عن المحذوف الذي من أجله ينشأ السؤال . وعلى هذا ، فليس اسم الاستفهام « أن » مجرد أداة للاستفهام ، كما زعم عميرة . وإنما هو ، الى جانب ذلك ، لأداء وظيفة المسؤول عنه ، وبيان حقيقته . فهو اذن اسم . واذا عدنا الى مقاله العلامة Pike من أن كل كلمة لابد أن تشمل خانات أربعاً هي الرتبة والدور والصنف والتماسك ، تبين لنا أن أسماء الاستفهام ، ومن جملتها (أن) ، لابد أن تشغل في التركيب ، الحيز الذي يشغله الاسم ، وهي تقوم بالدور الذي يقوم به الاسم ، فهل من الغريب بعد ذلك ، أن

يكون تصنيفها في قائمة الأسماء ؟ الجواب بكل تأكيد : « لا » ، بل الغريب هو خلاف ذلك .

يتبين لك مما سبق ان التركيب الاستفهامي : « أنى لك هذا ؟ » يدل على التصور حين يستعمل في الاستفهام . ولكنه قد يخرج عن اطار الاستفهام ، ليدل على النفي . وساعتئذ ، فان هذا التركيب يتضمن بالضرورة أن المتكلم :

أ - ينفي أن يكون المخاطب (بفتح الطاء) قد حصل على الشيء المشار اليه باسم الإشارة (هذا) .

ب - يستنكر أن يكون في مقدور المخاطب (بفتح الطاء أيضاً) الحصول على الشيء المشار اليه .

فاذا أمنت النظر في حقيقة هذين الأمرين ، تبين لك الفرق واضحاً بين مجرد النفي بـ (ليس) مثلاً ، والنفي بـ (أنى) . فاذا قلت : « ليس لك هذا » ، فانك تنفي أن يكون للمخاطب أن يفعل المشار اليه أو يناله . انك هنا تنفي وحسب . فاذا أكدت ذلك بأي صورة من صور التوكيد ، خرج تعبيرك من مجرد النفي ، الى النفي مؤكداً . ولكنك عندما تقول : « أنى لك هذا ؟ » فانك تخرج بالتركيب من اطار النفي مجرداً ، أو حتى مؤكداً ، الى اطار جديد يتضمن النفي أولاً ، واستنكار أن يكون هذا للمخاطب ثانياً . وقد أجاد البلاغيون عندما سمو هذا اللون من الاستفهام بالاستفهام الانكاري .

وهناك فرق آخر بين التعبيرين السابقين اللذين أدبا وظيفتين مختلفتين في النفي : « ليس لك هذا » ، و « أنى لك هذا » . يظهر هذا الفرق في قبول التركيب الأول تقديم « ليس » وتأخيرها ، وذلك كما في : « هذا ليس لك » ، ويكون التعبير مستقيماً سائغاً ، بينما لا يقبل التركيب الثاني تغييراً في موضع (أنى) بأي حال . فاذا قلت : « هذا أنى لك ؟ » أو « لك هذا أنى ؟ » أو « هذا لك أنى ؟ » خرج ذلك كله من الكلام المفيد ، لاجراج (أنى) عن حقها في تصدر الجملة . وهذا يؤكد ماقلناه سابقاً من أن أسماء الاستفهام ، تصدر الجملة التحويلية الاستفهامية . هذا هو الأصل . وحتى عندما تخرج الجملة الاستفهامية من اطارها الاستفهامي ، الى اطار وظيفي آخر ،

كالنفي الذي نجده في : « أنى لك هذا ؟ » فان (أنى) تظل صاحبة الحق في تصدر الجملة ، شأنها في ذلك شأن سائر أسماء الاستفهام ، وهي تصدر التراكيب ، حتى عند خروج الجملة من وظيفة الاستفهام ، الى وظائف دلالية أخرى .

ولكن هذا لا يمنع أن يتقدم عنصر من عناصر التركيب ، ويتأخر آخر ، بشرط أن تصدر (أنى) الجملة ، فكما يجوز أن تقول : « أنى لك مثل هذا ؟ » يجوز أن تقول : « أنى مثل هذا لك ؟ » مع التسليم بأن هذا التغير يقتضي تغييراً في الدلالة ، ويقتضيه تغير فيها .

وأما اسم الاستفهام (كم) ، فانه يؤدي وظيفتين كذلك ، فهو يؤدي في الجملة التحويلية الاستفهامية ، الوظيفة التي يؤديها العدد في الجملة الخبرية . ولما كان العدد لا يقع موقعاً اعرابياً واحداً ، بل يتعدد اعرابه ، فان اسم الاستفهام (كم) تتعدد مواقعه الاعرابية كذلك . وسنوضح هذا بالتفصيل بعد قليل . لكننا نود أن ننبه قبل ذلك الى ان (كم) تستخدم لوظيفتين دلالتين هما الاستفهام والاخبار بالكثرة . وقد سمي النحاة (كم) التي تستخدم للاستفهام عن العدد بـ (كم) الاستفهامية ، وسموا الثانية بالخبرية . وفي الحالين ، فانها تستخدم لاداء وظيفة العدد ، بالسؤال عنه مرة ، وبتكثيره مرة أخرى ، واعتباره ، بعد ذلك ، مجرد أداة استفهام خارجة عن اطار الاسمية ، اعتبار غير ذي قيمة من الناحية الوظيفية في الدراسة العلمية للغة ، بمعنى أنه لا يسلم الى نتائج تبني عليها حقائق ذات قيمة ، اللهم الا مجرد المخالفة .

أما أن (كم) تؤدي في الجملة الاستفهامية ، ما يؤديه العدد من وظيفة في الجملة الخبرية ، فامر فصل النحاة فيه القول ، وأظن أنه أجاد بذلك . ولذلك تراهم يعربون هذا الاسم تبعاً لموقع العدد في الجملة الاخبارية . فاذا وقعت على زمان ، أو مكان ، فهي ظرف ، وذلك مثل : « كم يوماً صمت ؟ » « كم ميلاً مشيت ؟ » واذا وقعت على معنى مجرد (أي : حدث) فهي مفعول مطلق ، نحو : « كم زيارة زرت المريض ؟ » واذا وقعت على ذات ، وكان الفعل بعدها متعدياً

لواحد أو أكثر ، ولم يستوف مفعوله ، فهي مفعول به ، نحو :
« كم درهماً بذلت للسائل المحتاج ؟ » وإن سبقها حرف جر ، أو
مضاف ، فهي في محل جر ، نحو : « في كم ساعة تطوف الطائرة
حول الأرض ؟ » وماعدا ذلك تكون مبتدأ غالباً ، نحو : « كم
مهاجراً حضر ؟ » و « كم مهاجراً سيحضر ؟ » ومن هذا قول
الشاعر :

وكم صاحب قد جلّ عن قدر صاحب

فسألني له الأسباب ، فارتفعما معا
وقد تكون (كم) معمولاً لناسخ يعمل فيما قبله مثل
(كان) و (ظن) دون (أن) ، وذلك نحو : « كم كان
مالك ؟ » وقد تصلح مبتدأ أو خبراً في مثل : « كم مالك ؟ » قال
النحاة : وما يوضح محلها الأعرابي ، ويسهل أعرابها ، أن
نفترض عدم وجودها ، ونجعل التمييز محل في مكانها ، ونعرف
موقعها الأعرابي ، ونجري عليها حكمه ، ففي مثل : « كم يوماً
صمت ؟ » نفترض أن أصل الكلام : « يوماً صمت » أو
« صمت يوماً » . ولما كانت « يوماً » ظرف زمان ، فإن (كم)
تكون ظرف زمان . وفي مثل « كم ميلاً مشيت ؟ » نتخيل أن
الأصل : « ميلاً مشيت » أو « مشيت ميلاً » . فكلمة « ميل »
ظرف مكان . واذن ، نعربها ظرف مكان ، وهكذا^(٣) .

وملخص ذلك ، أن (كم) اسم استفهام ، وإن له حق
الصدارة في الجملة ، بغض النظر عن موقع نظيره في الجملة
الانخبارية . ولا يصح تخلف (كم) عن موقعها في صدر
الجملة ، إلا إذا كانت مجرورة بحرف جر أو إضافة ، نحو :
« بكم ديناراً تبرعت ؟ » ونحو : « مرضى كم مستشفى
ساعدت ؟ » أما فيما عدا ذلك ، فلا تتخلف (كم) عن صدر
الجملة . ولذلك ، فقد حكم ابن هشام بأن خلاف ذلك خطأ
عظيم^(٤) .

أن تخلف (كم) عن موقع الصدارة في الجملتين السابقتين
ناجم عما يمكن أن يسمى بالطرد الموقفي للكلمة . وهو طرد
تركبي دلالي في الجملة الأولى ، وطرد تركيبني فقط في الجملة
الثانية . أما بيان حقيقة الطرد في الجملة الأولى ، فيمكن تبينها

إذا عرفنا أن تغير موقع (كم) في هذه الجملة ، مرتبط بتغير
الدلالة . فانت حين تسأل : « مرضى كم مستشفى زرت ؟ » ،
فإنك تضمن سؤالك أمرين هما :

أ - أن المسؤول زار المرضى في المستشفيات .

ب - وإنك لاتعرف عدد المستشفيات التي زارها المسؤول .

لكنك إذا غيرت موقع (كم) ، من موقع المضاف إليه ،
إلى موقع المفعولية : « كم مريض مستشفى زرت » ، فإنك
تضمن سؤالك مايلي :

أ - أن المسؤول زار عدداً من المرضى في المستشفيات .

ب - أن المسؤول عنه هو عدد المرضى في المستشفيات ، لاعدد
المستشفيات .

وهذا يعني بوضوح ، أن تغير موقع (كم) في نحو
قولك : « مرضى كم مستشفى زرت ؟ » ناجم عن تغير المسؤول
عنه . فتغير الموقع اذن ، تغير تركيبني دلالي .

أما تغير موقع (كم) في : « بكم ديناراً تبرعت ؟ » ، فهو
تغير تركيبني فقط . وبيان ذلك أن تقدم حرف الجر (الباء) على
اسم الاستفهام (كم) ، إنما كان لداع تركيبني فقط ، لأن
حروف الجر لاتقوم وحدها في العربية ، بل لابد أن تسبق اسماً أو
حرفاً مصدرياً . وليس شأن حروف الجر كذلك في اللغات
جميعاً ، فإن حروف الجر قد تقوم وحدها في اللغة الانكليزية
مثلاً ، فهم يقولون : What are we waiting for? ويقولون Where are
you from? باقامة كل من for و From وحدهما ، دون أن تسبقا
اسماً . أما العربية فإنها لاتقبل أن يقوم حرف الجر وحده ، على
نحو ما هو معروف في الانكليزية مثلاً . ومن أجل ذلك فقط ،
تقدم حرف الجر (الباء) على اسم الاستفهام (كيف) في
قولك : « بكم ديناراً تبرعت ؟ » .

وسواء أكان الداعي إلى تخلف (كم) عن موقع الصدارة
في الجملة الاستفهامية سبباً دلالياً تركيبياً ، أم كان سبباً تركيبياً
فقط ، فهو داعي الوجوب ، لا الجواز ، أي أن تخلف (كم)
عن موقع الصدارة هنا واجب لصحة التركيب الاستفهامي .
وهذا كاف لرد مزاعم من ذهب إلى جواز تخلف (كم) عن موقع

الصدارة . والخطأ في هذا الزعم المبني على غير علم ، خطأ مركب . فقد عرفنا ان تخلف (كم) في الحالين السابقين تخلف واجب لاجائز . وعرفنا قبل ذلك ، أن تقدم (كم) في ماعدا هذين الحالين ، تقدم واجب . ولا ترد حالة يجوز فيها تخلف هذا الاسم عن موقع الصدارة . ويكفيك قول ابن هشام الذي أوردناه ، والذي يقول فيه ان خلاف ذلك خطأ عظيم . والذي يقول بجواز تخلف (كم) عن موقع الصدارة ، يجهل بالضرورة الحقيقتين اللتين أثبتناهما قبل قليل . ولا عجب ، فالمجازفة بإطلاق الأحكام ، هي السمة الأساسية لمن ابتلي بهم العمل الأكاديمي هذه الأيام .

أما الجملة الأخيرة : « أين الثرى من الثريا ؟ » فانها تمثل نمطاً آخر من الاستفهام ، غير الأنماط التي شرحناها . فقد خرج اسم الاستفهام فيها عن وظيفته الاستفهامية ، ليؤدي وظيفة اخبارية تعجبية . وقد يكون من الغريب أن يوصف تركيب بأنه اخباري تعجبي ، فالمعروف ان التعجب أسلوب انشائي ، بمعنى أنه لا يوصف بصدق أو كذب . والحق أن هذه المسألة مما تلبس فيه البنية السطحية بالبنية العميقة . فالبنية السطحية للتركيب الانشائية التعجبية ، ومن جعلتها قولك : « أين الثرى من الثريا ؟ » لا توصف بأنها صادقة أو كاذبة . هذا حق . ولكن البنية العميقة لهذه التركيب تتضمن إخباراً ، فانت عندما تقول : « أين الثرى من الثريا » تريد أن تخبرنا بوجود فرق هائل بين الثرى والثريا ، وأنت من أجل هذا الفرق تعجب ، واذن ، فالبنية العميقة لمثل هذا التركيب ، تتضمن الإخبار والتعجب جميعاً . ومن أجل ذلك ، وصفنا هذا التركيب بأنه إخباري تعجبي .

قلنا ان اسم الاستفهام (أين) قد خرج عن حقيقته الاستفهامية ، ليؤدي وظيفة اخبارية تعجبية . وقد تصدر اسم الاستفهام هذه الجملة ، كما تصدر (ما) التعجبية الجملة التعجبية : « ما أجل السماء ! » ، ذلك أن الجملة انما انشئت من أجل تلك الوظيفة . ولذلك ، فان تصدر (أين) جملة :

« أين الثرى من الثريا » يشعر بتحقيق تلك الوظيفة ، وتختلف يشعر بتخلفها .

هذا الذي أفضينا به حتى الآن ، يمثل ظاهرة مهمة في الأنماط العربية ، وهو وجوب تقدم أسماء الاستفهام في التركيب الاستفهامية ، ويرتبط بقضية التقدم والتأخر في التركيب الاستفهامية ، تقدم أحد عناصر التركيب على عناصر أخرى . فاذا قلت مثلاً : « أحضر محمد ؟ » بتقديم الفعل على الفاعل ، فانك تسأل ، في المقام الأول ، عن حصول فعل القدوم أو عدم حصوله . أي أن طلب التصديق منصب على الفعل لاعلى الفاعل ، باعتباره (أي اعتبار الفعل) هو المجهول الذي تنشأ السؤال من أجل معرفته والعلم به . فاذا قلت : « أحمد حضر ؟ » فانت تسأل عن الفاعل لاعن الفعل ، كأنك تسأل بوقوع فعل الحضور ، دون أن تعرف من الذي حضر على وجه الحقيقة واليقين . وقد ألم الجرجاني بأبعاد هذه القضية حين قال : « . . ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة ، فان موضع الكلام على أنك اذا قلت : أفعلت ؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده . واذا قلت : « أنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم ، كان الشك في الفاعل من هو ، وكان التردد فيه . ومثال ذلك أنك تقول : أبنييت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله ؟ أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه ؟ تبدأ في هذا ونحوه بالفعل ، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه ، لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتضائه ، مجوز أن يكون قد كان ، وأن يكون لم يكن »^(٣٨) . وتقول : أنت بنيت هذه الدار ؟ أنت قلت هذا الشعر ؟ أنت كتبت هذا الكتاب ؟ فبدأ في ذلك كله بالاسم . ذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان . كيف ؟ وقد أشرت الى الدار مبنية ، والشعر مقولاً ، والكتاب مكتوباً ؟ وانما شككت في الفاعل من هو . فهذا من الفرق لا يدفعه دافع ، ولا يشك فيه شك »^(٣٩) .

وسترسل الجرجاني في توضيح هذه الظاهرة التحويلية فيقول : « ولا يخفى فساد أحدهما »^(٤٠) في موضع الآخر . فلو

قلت : أنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ أنت قلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله ؟ أنت فرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه ؟ خرجت من كلام الناس . وكذلك لو قلت : أبنيته هذه الدار ؟ أقلت هذا الشعر ؟ أكتبته هذا الكتاب ؟ قلت ما ليس بقول ، ذاك لفساد ان تقول في الشيء المشاهد الذي هو نصب عينيك . أموجود ، أم لا ؟^(١) .

ويضيف الجرجاني قائلاً : « وما يعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم أنك تقول : أقلت شعراً قط ؟ أرايت اليوم انساناً ؟ فيكون كلاماً مستقيماً . ولو قلت : أنت قلت شعراً قط ؟ أنت رأيت انساناً ؟ أخطأت ، وذلك أنه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا^(٢) .

ونوافق الإمام الجرجاني في كل ماذهب اليه ، الا في قوله : « ولو قلت : أنت قلت شعراً قط ؟ أنت رأيت انساناً ؟ أخطأت » . فحكمه هذا صحيح فقط عندما يكون قصد السائل انشاء السؤال للتصديق . وحين يكون الامر على هذا النحو ، فالتركيب خطأ كما صرح بذلك الامام الجرجاني . وحقيقة الخطأ في هذا التركيب تظهر لك اذا عرفت ان السائل عندما يسأل : أنت قلت شعراً ؟ فانه يقرر ضمناً حقيقة مؤداها ان الشعر قد قيل ، ولكنه يريد أن يعرف ما اذا كان المسؤول هو الذي كان قد قال ذلك الشعر أم غيره من الناس . ولكنه عندما يقول : « أنت قلت هذا الشعر قط ؟ » بزيادة (قط) في الجملة ، فانه يخرج السؤال والاستفهام عن الفاعل ، ليكون سؤالاً عن الفعل والفاعل في آن معاً . غير أن هذه الجملة تكون صحيحة تماماً ، اذا كان المقصود من السؤال هو النفي ، لا التصديق . فيصبح معنى الجملة على هذا : أنت لم تقل هذا الشعر قط ، فكان الاستخفاف بالمخاطب حمل القائل على أن ينفي عنه قول الشعر . وهذا معنى لا غبار عليه ، وتركيب سليم لا تشوب شائبة . وكذلك الشأن بالنسبة للتركيب الثاني : « أنت رأيت انساناً ؟ » فانه يكون صحيحاً اذا كان المقصود به أن المخاطب (بفتح الطاء) يتصرف وكأنه لم ير في حياته انساناً قط .

ذهب بعض العلماء الى ان ورود المسؤول عنه بعد همزة

الاستفهام مباشرة مقصور على التصور دون التصديق^(٣) . ومعنى هذا أنك اذا اردت مثلاً أن تسأل شخصاً أقال الشعر أم كتب النثر ، فقد تعين أن تقول : « أقلت شعراً أم كتبت نثراً ؟ » وذلك بأن تجعل الفعل (قلت) بعد همزة الاستفهام المستعملة هنا للتصور ، وبأن تجعل المعادل (كتبت) بعد (أم) مباشرة كذلك ، ولا يجوز أن تقول ، وأنت تريد ما أسلفناه : « أشعراً قلت أم نثراً ؟ » فهذا التركيب وان كان صحيحاً في مقام تجعل السؤال فيه منصّباً على الشعر والنثر جميعاً ، غير صحيح في مقام تجعل السؤال فيه منصّباً على الفعلين (قلت) و (كتبت) . ولا يجوز كذلك أن تقول : « أشعر قلت أم كتبت نثراً ؟ » اذ الخطأ هنا مزدوج ، فالخطأ الأول هو أنك لم تجعل المسؤول عنه بعد همزة التصور مباشرة ، بل جعلت المفعول بعدها ، وليس هو المراد من السؤال . والخطأ الثاني هو أنك جعلت الفعل (كتبت) معادلاً للمفعول (شعراً) ، وليس هو المعادل له . فالصحيح اذن ان تقول : « أقلت شعراً أم كتبت نثراً ؟ » بجعل المسؤول عنه (قلت) بعد همزة مباشرة ، وبجعل (قلت) معادلاً للمسؤول عنه ، بحيث يلي (أم) مباشرة . وصحيح ان تقول : « أشعراً قلت أم نثراً ؟ » اذا كان المفعول به (شعراً) ومعادله (نثراً) هما المسؤول عنهما ، على نحو ماوضحنا . وملخص ذلك ، أن التركيبين التاليين صحيحان ، اذا استعمل كل منهما في سياقه :

١ - أقلت شعراً أم كتبت نثراً ؟

٢ - أشعراً قلت أم نثراً ؟

وأن التركيب التالي : « أشعراً قلت أم كتبت نثراً ؟ » غير صحيح . وقد ذهب المالقي (ت ٧٠٢ هـ) الى انه من الجائز أن نقول : « أقام زيد أم عمرو ؟ »^(٤) . وبناء على ذلك ، فانه يجوز أن تقول : « أقلت شعراً أم نثراً ؟ » ويكون هذا خلاف الأولى ، كما ذهب المالقي نفسه الى ذلك .

غير أنك اذا اردت ان تسأل المخاطب ايقول الشعر أم لا ، فقد جاز ان تقول : « أتقول الشعر ؟ » وه أنت تقول الشعر ؟ ، ذلك أن ورود الاسم بعد همزة ، أو ورود الفعل

بعدها ، لم يخرج السؤال عن كونه سؤال تصديق ، مع التسليم بأن تقديم الفعل أو الاسم ، له دلالة خاصة ، أسلفنا الحديث عنها في موطن سابق . ومثل هذا الجواز غير وارد في السؤال الذي ترد فيه الهمزة للتصور دون التصديق ، فأنت غير مختار في أن تقدم المسؤول عنه أو تؤخره ، إذا كانت الهمزة للتصور ، بل لا بد من أن يرد المسؤول عنه بعد أداة الاستفهام ، وهي الهمزة .

هذا إذن ، مفهوم قولهم ان ورود المسؤول عنه بعد همزة الاستفهام مقصور على التصور دون التصديق . وبغير هذا الفهم لا يستقيم القول ، ولا يعتدل الكلام ، إذ ان المسؤول عنه يرد مباشرة بعد الهمزة ، في الحالين تصوراً وتصديقاً . ولكن وروده على هذا النحو ورود وجوب في التصور ، وورود جواز في التصديق . إذا علم هذا ، فقد تبين لك عدم صحة ماذهب إليه محمد عبدالمنعم خفاجي ، حين علق على قول بعض العلماء في هذه القضية قائلاً : « انني لا أخصه بالتصور »^(١٨) ظناً منه أنهم يخصونه بالتصور على كل حال . فهم يخصصون وجوبه بالتصور ، وهذا هو مفهوم كلامهم .

هذه الأنماط من الجمل التحويلية الاستفهامية ، وهي الأنماط التي يتقدم فيها أحد عناصر التركيب ، ويتأخر عنصر آخر ، لا يتعارض مع حقيقة أخرى ، وهي أن أدوات الاستفهام ، بما فيها الهمزة و (هل) ، لا يتقدم عليها عنصر آخر من عناصر التركيب الاستفهامي . هذا هو الأصل .

غير أننا إذا نظرنا في التركيب التالي : « ... ثم ألم أقل لك : لا تهمل واجباتك ؟ » تبادر الى الذهن أن حرف العطف (ثم) قد سبق همزة الاستفهام ، فأوهم ذلك أن ماسبق أن أكدناه من أن أدوات الاستفهام لا يتقدم عليها أي عنصر من عناصر التركيب غير صحيح . والحق أن وجود (ثم) في هذا التركيب شيء ، وماقلناه شيء آخر لا يعارض أحدهما الآخر ، فحرف العطف (ثم) ليس جزءاً من هذا التركيب ، وإنما هو حرف يعطف هذا التركيب على تركيب آخر قبله .

وبما ان حرف العطف ليس جزءاً من الجملة المفردة المعطوفة ، فان تقديم حرف العطف لا يعني انه يتقدم على أداة الاستفهام في تلك الجملة . فهو ليس جزءاً من الجملة المعطوفة

حتى يعتد تقدمه تقدماً على جزء آخر من تلك الجملة . ومعنى هذا أن تقدم الفاء على اسم الاستفهام (أين) في الآية الكريمة : « فأين تذهبون ؟ »^(١٩) وعلى (أنى) في الآية الكريمة التالية : « فأن تؤفكون ؟ »^(٢٠) وعلى اسم الاستفهام (أي) في الآية الكريمة : « فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ؟ »^(٢١) لا يصح أن يستشهد به على تقدم حرف العطف على أسماء الاستفهام تلك . فان حرف العطف هذا يربط بين الجملة المفردة المعطوفة في الآيات الكريمة السابقة وجمل أخرى سابقة عليها .

إذا علمت هذا ، عجبت كيف يزعم أحدهم أن حرف العطف يتقدم على أدوات الاستفهام ، ومن ضمنها الأدوات السابقة ، دون الهمزة ، فالهمزة فقط هي التي تتقدم على حرف العطف ، أما الأدوات الأخرى ، فان حرف العطف يتقدم عليها ، واستدل على ذلك بالآيات الثلاث السابقة^(٢٢) . والرد على ماذهب اليه يتلخص فيما هوأت :

١ - إما أن حرف العطف (الفاء) في الآيات الثلاث السابقة ، قد تقدم على أدوات الاستفهام ، فمردود ماقلناه من أن حرف العطف هذا ، ليس جزءاً من الجمل المعطوفة ، وإنما هو فاصل بين جملتين ، ورابط بينهما .

٢ - إذا كان تقدم حرف العطف على أسماء الاستفهام في التراكيب السابقة ، لا يعتبر فيه أن حرف العطف فاصل بين جملتين ، ولا يعتبر فيه أن حرف العطف ليس جزءاً من الجمل المعطوفة ، إذا كان هذا كله لا يعتبر ، فكيف يصر على أن الهمزة فقط هي التي تتقدم على حروف العطف ، مع أنها لم تتقدم على تلك الحروف في مثل التراكيب التالية :

... ثم ألم تسمع ما قال صاحبك ؟

... ثم أنت الذي يطاول الجبال ؟

بل ألم أقل لك ذلك في حينه ؟

نعم ، ذهبت ، لكن ألم تتأخر ؟

لقد تقدمت حروف العطف (ثم) و (بل) و (لكن)

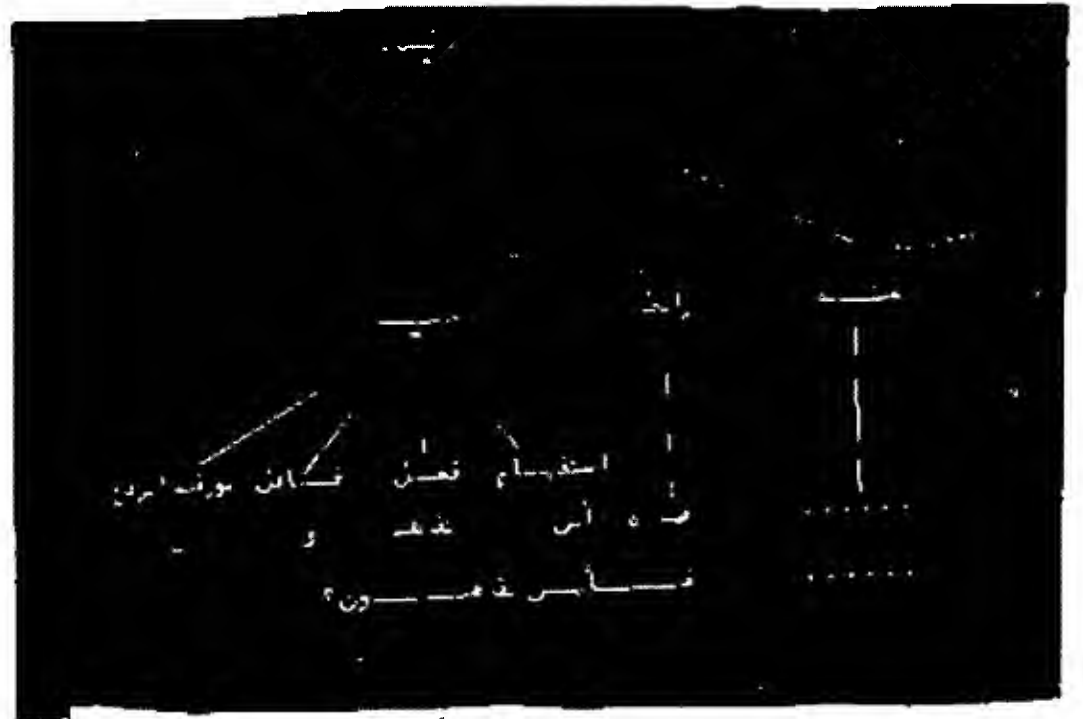
على همزة الاستفهام في التراكيب السابقة . غير أنه لا فرق بين تقدمها على همزة الاستفهام وتقدم الفاء العاطفة على أسماء الاستفهام في مثل الآيات الثلاث السابقة ، من حيث ان حروف

العطف جميعاً ، ليست جزءاً من الجمل المعطوفة ، لافي الآيات الثلاث ، ولا في الجمل التي سقناها لك .

واذن ، فان الاستشهاد بهذه الآيات على تقدم حرف العطف على أدوات الاستفهام غير الهمزة ، استشهاد غير صحيح ، بسبب وضع الدليل في غير موره .

٣ - وحتى يتبين لك أن الفاء في الآيات الثلاث : « فابن تذهبون ؟ » و « أنى تؤفكون ؟ » و « فابى الفريقين أحق بالأمن ؟ » ليست أجزاء من هذه الآيات ، وانما هي روابط لها بما قبلها ، حتى يتبين لك ذلك بصورة قاطعة ، فإليك الا ان نجيب هذا السؤال : أين هي الجملة العربية التي تبدأ بحرف العطف ؟ ولماذا سمي العطف عطفاً ؟ اليس لأنه يربط بين وحدتين تركيبيتين احدهما جملة بالضرورة اذا تناولناه من زاوية تركيبية ؟

هذا ، وان التشجير التالي يوضح لنا الصورة التي عليها الآية الأولى : « فابن تذهبون ؟ » وعلاقتها بما قبلها :



ومع ان حرف العطف ليس جزءاً من الجملة المفردة ، وانما هو ، كما هو معلوم ، مجرد رابط يربط بين وحدتين ، فانه قد يبدو وكأنه جزء من الجملة . فاذا وجد ما يدعوا الى اعتباره وكأنه جزء من الجملة المفردة ، فان تقديم أداة الاستفهام يصبح أمراً لا مفر منه . والسبب في ذلك ، أن حرف العطف قد اتخذ مجالاً جديداً يبدو فيه أكثر التحاماً بالجملة ، ولم يعد مجرد رابط بين وحدتين

لغويتين . من ذلك مثلاً حرف العطف (ثم) في الآية الكريمة : « أثم اذا ما وقع آمنتم به ؟ » ، فقد أصبح حرف العطف هنا ، وكأنه جزء أساسي من التركيب ، فكان المعنى على هذا التقدير أبعد ذلك ، اذا وقع ، آمنتم به ؟

وعلى هذا ، فالفرق كبير بين أن تكون (ثم) حرفاً يربط بين وحدتين (كلمتين أو جملتين) ، وأن تبرز وكأنها جزء من الجملة . يوضح لك ذلك أن تقابل بين البناء الدلالي « » والبنية السطحية لكل من التركيبين التاليين : ثم ، اذا وقع صدقتموه ؟ وأثم ، اذا وقع ، صدقتموه ؟ وذلك على نحو ما هو مبين في المقابلة التالية :

البنية السطحية

البناء الدلالي

- ١ - بعد ذلك ، اذا وقع صدقتموه ؟ ثم . اذا وقع صدقتموه ؟
- ٢ - أبعد ذلك ، اذا وقع ، صدقتموه ؟ أثم ، اذا وقع ، صدقتموه ؟

ونظراً لأن ما ندل عليه (ثم) في التركيب الثاني (وهو : بعد ذلك) أصبح وكأنه جزء من الجملة ، فقد جاز اخراج (اذا وقع) من التركيب دون أن يختل المعنى ، لأن جملة (اذا وقع) أصبحت في هذه الحال ، مجرد جملة معترضة ، فكان المعنى هكذا : « أبعد ذلك صدقتموه ؟ » فاسم الإشارة هنا ، يشير الى مضمون الجملة المعترضة (اذا وقع) ، وكأنك تقول : « أبعد وقوعه ، اذا وقع ، صدقتموه ؟ » بينما يشير اسم الإشارة في التركيب الأول الى كلام مقدر قبل (ثم) . ومن أجل ذلك يكون تقدير بنيته السطحية كما يلي : « ثم ، اذا وقع صدقتموه ؟ » .

وتأخر الفاء العاطفة عن همزة الاستفهام ، لدى اجتماعها ، مظهر آخر من مظاهر تقدم أداة الاستفهام على غيرها ، وذلك مثل قوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » ، ومثل قوله تعالى : « أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟ » وقوله سبحانه : « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » ، وقوله : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟ » ومثل ذلك كثير في القرآن الكريم وغيره من مصادر اللغة .

ان ورود الفاء العاطفة بعد همزة الاستفهام في الشواهد السابقة ، وفي غيرها ، أمر بالغ الاهمية من الناحية الدلالية . فالمعروف ان الفاء للتعقيب ، وعلى ذلك يكون معنى الآية الاولى : أيعقب ذلك أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ويكون معنى الآية الثانية : أيعقب ذلك أن تطمعوا بإيمانهم ؟ بينما يكون معنى الآية الثالثة : « أيعقب ذلك أنه مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ويكون معنى الآية الرابعة : « ألا يعقب ذلك أن ينظروا الى الابل كيف خلقت ؟ » .

إذا ورد في الجملة استفهام ونفي ، فإن أداة الاستفهام تنقدم على أداة النفي ، غير أنه ورد في الجملة استفهام ونفي وعطف ؛ فإن العطف يفصل بينهما ، وذلك كما في الآية التي مرت قبل قليل : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟ » وكما في الأمثلة التالية :

أولا تقرأ مايفيدك ؟

أولما تعلم حقيقة الأمر بعد ؟

(أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟)^(١)
أفليست هذه هي الحقيقة ؟

وليس تأخر الشرط عن الاستفهام غريباً إذا عرفنا ان الاستفهام يتقدم في الأصل على غيره . فمن التراكيب التي يتأخر فيها الشرط عن الاستفهام قولك :

إذا دعوتك حضرت ؟

إن أخبرتك بالسركمته علي ؟

أما تأخر أسماء الاستفهام في مثل :

كتاب من أخذت ؟

أرض من اشتريت ؟

الى محاضرة من استمعت ؟

إلام الخلاف بينكم ؟

حتى متى تتناسى واجباتك ؟

فيفسر المبدأ الذي أسلفنا الحديث عنه سابقاً ، وهو الطرد الموقفي للكلمة ، لداع دلالي تركيب ، أو تركيب فقط ، ذلك ان الاستفهام في الجملة الأولى : « كتاب من أخذت ؟ » يدور

حول الكتاب لا المالك ، فكأنك قلت : أي كتاب أخذت ؟ ولما تعدد المالكون ، توجهت الى طلب تحديد أدق فقلت : كتاب من أخذت ؟ فالطرد الموقفي لاسم الاستفهام هنا ، اقتضاه تغير دلالة الجملة ، وتميز تركيبها عن : أي كتاب أخذت ؟ وكذلك الشأن بالنسبة للجمليتين الثانية والثالثة .

أما سائر الجمل ، فالطرد فيها تركيبى اقتضاه ان حرف الجر في العربية ، لا يقوم وحده كما هو الشأن في لغات أخرى ، ومنها الانكليزية .

تغييرات فونولوجية في بعض أسماء الاستفهام :

يخضع بعض أسماء الاستفهام لتغييرات فونولوجية كثيرة منها : حذف بعض الأصوات المكونة لها ، أو تقصير حركة طويلة فيه ، أو حذف مقطع كامل ، أو زيادة صوت جديد فيه . فالحركة الطويلة (الألف) في اسم الاستفهام (ما) تقصر حتى تصبح فتحة ، عندما يكون اسم الاستفهام هذا مسبقاً بحرف الجر ، وذلك كما في : (إلام) والتي أصلها : (إلى ما ؟) و (مم) التي أصلها (من ما ؟) و (فيم ؟) التي أصلها : (في ما ؟) و (عم ؟) التي أصلها : (عن ما ؟) .

وقد ذهب النحاة الى أن الألف هنا محذوفة . ولكنها ليست كذلك من الناحية الصوتية ، فإن الألف قد قصرت ولم تحذف . وإنما ذهب النحاة الى أن الألف قد حذفت ، لأنهم رأوها قد سقطت من الكتابة .

والفرق بين اسم الاستفهام (ما) والتركيب الاستفهامية (إلام ؟) ونظائرها ، أنه لا يجوز اطالة الفتحة في آخر التركيب الاستفهامية (إلام) في المواقع جميعاً ، الا في موقع واحد ، وهو الإطلاق في الشعر ، وذلك كما في قول الشاعر :

إلام الخلف بينكم إلاما ؟

أما (ما) غير مسبوق بحرف جر ، فإن ألفه تقصر فقط عندما تكون متبوعة بصامتين متاليتين دون وجود حركة تفصل بين هذين الصامتين ، وذلك كما في : ما اسمك ؟ فإن ألف اسم الاستفهام (ما) غير مسبوق بحرف جر ، تقصر ألفه ، ولا تسقط كتابة .

تمثيلها هنا سيكون بالكتابة الصوتية :

————— a/h ← —————

« تزداد هاء السكت في الموقع الأخير حين تكون مسبقة بفتحة » .

ومن الجدير بالذكر أن هناك فرقاً كبيراً بين (الام) و (حتام) . أما الأولى ، فقد وضحتنا أن أصلها (الى ما) . أما (حتام) فهي اختصار لـ (حقى مقى) . وهذا يعني أن اسم الاستفهام (مقى) قد سقط منه المقطع الثاني عندما كان هذا الاسم مسبوقاً بحرف الجر (حقى) . واذن ، فإن (حتام) مورفيم مركب من مورفيمين هما (حقى) و (مقى) .

وقد بحذف اسم الإشارة (ذا) من مورفيم الاستفهام المركب (ماذا) ، ومن ذلك : علام ؟ والمقصود : على ماذا ؟ ومنه قول الشاعر :

وهذى الضجة الكبرى علاماً ؟

وقد ورد حذف المقطع الثاني من اسم الاستفهام (كيف) . قال المرادى : « أن تكون (كي) بمعنى (كيف) . وهذه اسم ، يرتفع الفعل بعدها ، كما يرتفع بعد (كيف) ، لأنها محدوفة منها ، كقول الشاعر :

كي تجهنحون الى سلم ، وماثرت قتلاككم ، ولظى الهيجاء تضطرم ؟ أراد : كيف تجهنحون ، فحذف الفاء «^{١٧}» .

واذن ، فانه يمكن حذف المقطع الثاني من أسماء الاستفهام التالية : (مقى ، ماذا ، كيف) اذا كانت أسماء الاستفهام هذه مسبقة بحرف جر . ويمكن تمثيل ذلك بالمعادلة التالية :

————— / ————— { t̄ā
d̄ā
kay } ← ∅
مقطع

(بشرط أن يكون اسم الاستفهام مسبوقاً بحرف جر)

والذي نراه أن الحركة الطويلة في التركيبية الاستفهامية

(الام) ونظائرها قد مرت بثلاث مراحل من التطور ، هي : المرحلة الأولى : تقصيرها في المواطن التي يتبعها ساكنان ، وذلك مثل : فيم اندفعت الى الكلام ؟ وفيم انشئت عن الحديث ؟ وفيم ادعاؤك قول الشعر ؟ جريباً على تقصير هذه الحركة في (ما) غير المسبقة بحرف الجر ، كما في : ما السبب في ذلك ؟ وما الأمر ؟ فان حركة اسم الاستفهام في هاتين الجملتين حركة قصيرة ، برغم أنها تكتب بالألف . ويمكن تمثيل هذه الظاهرة بالمعادلة التالية :

← [+ طويلة] ← [+ قصيرة] / ←

« تقصر الحركة الطويلة (في اسم الاستفهام ما) عندما تكون متبوعة بصامتين » .

وغير خاف أن هذه المعادلة تفسر تقصير الحركة الطويلة سواء أكان اسم الاستفهام مسبوقاً أم غير مسبوق بحرف جر . المرحلة الثانية : تقصير حركة اسم الاستفهام (ما) المسبوق بحرف الجر في كل المواقع (باستثناء حالة الاطلاق في الشعر) . ويمكن تمثيل ذلك بالمعادلة التالية :

ح [+ طويلة] ← [+ قصيرة] / √

« تقصر الحركة الطويلة (حركة اسم الاستفهام ما) في كل المواقع » .

المرحلة الثالثة : وفيها زبدت الهاء التي تسمى هاء السكت ، لاغلاق المقطع المفتوح ، وذلك كما في :

الى	ما	—	إلام ؟	—	إلامة	—
على	ما	—	علام ؟	—	علامة ؟	—
في	ما	—	فيم ؟	—	فيممة ؟	—

ويمكن تمثيل المرحلة الأخيرة من التطور ، وهي مرحلة اغلاق المقطع الأخير بهاء السكت بالمعادلة التالية ، علماً بأن

الهوامش —

- ١٧ - النحل : ٥٩ . ١٨ - آل عمران : ١٠٦ .
- ١٩ - طاهر : ١٦ . ٢٠ - الأحقاف : ٣٤ .
- ٢١ - إبراهيم : ٤٤ . ٢٢ - النمل : ٩٠ .
- ٢٣ - الأحقاف : ٢٠ . ٢٤ - جلال الدين سيوطي ، المرجع السابق ، ص ٣٩٩ .
- ٢٥ - يونس : ٧٧ .
- ٢٦ - أحمد بن عبد النور المالقي . وصف الجاني في شرح حروف المعاني . تحقيق أحمد محمد الخراط . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٥ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .
- ٢٧ - التوبة : ١٢٧ . ٢٨ - طاهر : ٤٣ .
- ٢٩ - لما تعد أدوات الاستفهام سالبة ، لأنها لا تقر أمراً ، بل تنال عن أمر .
- ٣٠ - انظر : John Lyons. Semantics. V2. Cambridge University Press, 1979. p.398.
- ٣١ - أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ، معاني الحروف . تحقيق عبدالفتاح شلبي . القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٣ ، ص ١١٣ - ١١٤ .
- ٣٢ - المرجع السابق ، ص ١٣٢ .
- ٣٣ - انظر : Bertil Malmberg. Phonetics. N.Y., Dover Publications, Inc., 1963. P.52.
- ٣٤ - الواقعة : ٢٧ .
- ٣٥ - يشيء من الاختصار والتصرف من كتاب عبدالسلام هارون . الأساليب الانشائية في النحو العربي ، ط ٢ ، ١٩٨٥ ، ص ٣٥ - ٣٧ .
- خليل حمادة في كتابه : في التحليل اللغوي .
- ٣٦ - عباس حسن . النحو الوافي جزء ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ٤ ، ١٩٧١ ، ص ٥٢٩ .
- ٣٧ - ابن هشام . معني اللبيب ط ٣ ، ص ٢٤٤ .
- ٣٨ - معنى قوله : يجوز أن يكون قد كان ، وأن يكون لم يكن ، هو : يجوز حصوله وعدم حصوله .
- ٣٩ - عبدالقاهر الجرجاني . دلائل الإعجاز . تحقيق محمد عبدالمنعم خلفي ، ط ١ ، مكتبة القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٤١ .
- ٤٠ - أي : لساد أحد الأسلوبين في موضع الآخر .
- ٤١ - المرجع السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ . ٤٢ - المرجع السابق ، ص ١٤٢ .
- ٤٣ - ابن يعقوب المغربي . مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، في : شروح التلخيص ج ٢ . القاهرة ، مكتبة البابي الحلبي ، ١٩٣٧ ، ص ٢٥٣ .
- ١ - علي بن محمد الجرجاني . التعريفات . بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٦٩ ، ص ١٧ - ١٨ .
- ٢ - عبدالعزيز حنيق . علم المعاني . بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٤ ، ص ٩٦ .
- ٣ - الشعراء : ٢٢ .
- ٤ - الحسن بن قاسم الرادي . الجني الداني في حروف المعاني . تحقيق فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل . حلب ، المكتبة العربية ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤ - ٣٥ .
- ٥ - جمال الدين بن هشام . معني اللبيب ط ٣ . تحقيق مازن المبارك ، ومحمد علي حداد . بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٢ ، ص ١٩ - ٢٠ .
- ٦ - المرجع السابق ، ص ٤٥٧ - ٤٦٠ .
- ٧ - زعم خليل حمادة أنه لا يجوز حذف (هل) . انظر كتابه في التحليل اللغوي ، ص ١٤٧ ، يقول : « فلا تحذف هل خشية اللبس وعدم وضوح المراد بالسؤال عند حذفها ، لأن لها معنى خاصاً في الجملة الاستفهامية (الاستفهام عن النسبة) » . ونحن بدورنا نسأل : كيف يجوز إذن حذف الهمزة عندما تستعمل للتصديق ، وليس التصديق إلا ادراك النسبة ؟
- ٨ - انظر : N. Chomsky. Syntactic Structures. Mouton & Co., The Hague, 1957, p.18 — 25.
- ٩ - انظر : J. Katz, & P. Postal. An Integrated Theory of Linguistic Descriptions. The M.I.T. Press, 1964, p.98.
- ١٠ - الرعد : ٣٥ .
- ١١ - انظر : Margaret Berry. Introduction to Systemic Linguistics. Volume 1. N.Y., St. Martin's Press, 1975, p.37.
- ١٢ - القيامة : ٦ .
- ١٣ - انظر : Philip Lieberman. Intonation, Perception, and Language. The M.I.T. Press, 1967, p.138.
- ١٤ - قوانين التحويل هي : ١ . قانون الزيادة ويرمز له بـ : أ ب + ب ، ٢ . قانون الحذف ويرمز له بـ : أ + ب ب (أ ب) ، ٣ . قانون التوسعة ويرمز له بـ : أ ب + ب ، ٤ . قانون التصغير ويرمز له بـ : أ + ب ب ، ٥ . قانون الاحلال ويرمز له بـ : أ ب ب ، ٦ . قانون إعادة الترتيب ويرمز له بـ : أ + ب ب + أ .
- ١٥ - د . فضل حسن عباس . البلاغة - فنونها وألفاظها . عمان ، دار الفرقان ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٠ .
- ١٦ - جلال الدين سيوطي . أساليب الاستفهام في القرآن الكريم . القاهرة : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ص ٣٩٩ .

- ٥٠ - يونس : ٥١ .
٥١ - البناء الدلالي شيء مختلف عن البنية العميقة ، فالاستخدام لا يظهر في البنية العميقة .
٥٢ - يونس : ٩٩ . ٥٣ - البقرة : ٧٥ .
٥٤ - آل عمران : ١٤٤ . ٥٥ - الغاشية : ١٧ .
٥٦ - إبراهيم : ٤٤ . ٥٧ - المرادي . الجنى الداني ، ص ٢٦٥ .

المراجع

- ١٥ - ابن يعقوب المغربي ، مواهب الفتح في شرح تلخيص الفتح . في : شروح التلخيص . القاهرة ، مكتبة البابي الحلبي ، ١٩٣٧ .
المراجع الأجنبية :

1. Akmaijan, A.&F. Heny. An introduction to the Principles of Transformational Syntax. The M.I.T. Press, 1980.
2. Bach, Emmon. An Introduction to Transformational Grammars. New York, Holt, Rinehart & Winston, Inc., 1964.
3. Barry, M. Introduction to Systemic Linguistics. N.Y., St. Martin's Press, 1975.
4. Chomsky, N. Aspects of the Theory of Syntax. The M.I.T. Press, 1962.
5. Hook, J.&M. Crowell. Modern English Grammar for Teachers. N.Y., The Ronald Press Co., 1970.
6. Jacobs, R., & P. Rosenbaum. Readings in English Transformational Grammar. Ginn & Co., 1970.
7. Katz, J. & P. Postal. An Integrated Theory of Linguistic Descriptions. The M.I.T. Press, 1974.
8. Koutsoudas, A. Writing Transformational Grammar. N.Y., McGraw — Hill & Co., 1966.
9. LaPalombara, L. An Introduction to Grammar. Winthrop Publishers, 1976.
10. Lieberman, P. Intonation, Perception, and Language. The M.I.T. Press, 1967.
11. Lyons, J. Semantics. Cambridge University Press, 1979.
12. Matthews, P. Syntax. Cambridge University Press, 1960.
13. Pike, K. Grammatical Analysis. Summer Institute of Linguistics, 1980.
14. Radford, A. Transformational Syntax. Cambridge University Press, 1966.
15. Wright, W. Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages. Amsterdam, 1969.

- ٤٤ - المألقي . وصف المباني ، تحقيق أحمد الخراط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٥ ، ص ٩٣ .
٤٥ - انظر تعليقه على حاشية ص ١٤٣ من كتاب عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز .
٤٦ - التكويز : ٢٦ . ٤٧ - الأنعام : ٩٥ ، يونس : ٣٤ ، فاطر : ٣ ، خافر : ٦٢ .
٤٨ - الأنعام : ٨١ . ٤٩ - خليل عميرة : في التحليل اللغوي ، ص ١١١ .

المراجع العربية :

- ١ - الجرجاني ، عبدالقاهر . دلائل الإعجاز . تحقيق محمد عبدالمنعم خلفي ، ط ١ ، مكتبة القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٢ - الجرجاني ، علي بن محمد . التمريرات . بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٦٩ .
- ٣ - حسن ، عباس . النحو الوافي ط ٤ ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١ .
- ٤ - الرماني ، علي بن عيسى . معاني الحروف . تحقيق عبدالفتاح شليبي . القاهرة ، دار النهضة مصر ، ١٩٧٣ .
- ٥ - ابن السراج ، محمد بن سهل . الأصول في النحو . تحقيق عبدالحسين الفتلي . النجف ، مطبعة النعمان ، ١٩٧٣ .
- ٦ - سيويه ، الكتاب . طبعة بولاق ، وطبعة عبدالسلام هارون . الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٥ .
- ٧ - عباس ، حسن فضل . البلاغة - فنونها وأقسامها . عمان ، دار الفرقان ، ١٩٨٥ .
- ٨ - عتيق ، عبدالعزيز . علم المعاني . بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٤ .
- ٩ - فودة ، عبدالمليم . أساليب الاستفهام في القرآن الكريم . القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .
- ١٠ - المألقي ، أحمد بن عبدالنور . وصف المباني في شرح حروف المعاني . تحقيق أحمد محمد الخراط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٥ .
- ١١ - المبرد ، محمد بن يزيد . المبرد . القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٣٨٨ هـ .
- ١٢ - المرادي ، الحسن . الجنى الداني في حروف المعاني . تحقيق د . فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل . حلب ، المكتبة العربية ، ١٩٧٣ .
- ١٣ - هارون ، عبدالسلام . الأساليب الانشائية في النحو العربي . القاهرة ، ١٩٨٥ .
- ١٤ - ابن هشام ، جمال الدين . مفتي اللبيب ط ٣ . تحقيق د . مازن المبارك ، ومحمد علي حداد ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٢ .

دراسة في معلومات العهد القديم التاريخية عن فلسطين

بقلم

د . سامي سعيد الأحمـد

كلية الآداب - جامعة بغداد

اعتمدت الغالبية العظمى من الباحثين الغربيين العهد القديم كمصدر لتاريخ فلسطين القديم رغم معرفتهم طبيعة هذا الكتاب والدراسات النقدية الخاصة به والطعنات التي وجهت الى محتوياته ابتداء من الحبر اليهودي ابن عزرة الذي اعلن سنة ١١٥٠ عن شكه بكتابة موسى للافكار الخمس الاولى منه (التوراة) . وقد تزامن اهتمام الغربيين بالتركيز على برهنة مضامين العهد القديم ، وجميعها مرتبطة بفلسطين ، مع حركة التشكيك بالعهد القديم وميلاد الدراسات المعروفة بنقد العهد القديم . فمارتين لوتر المصلح البروتستنتي ، الذي رفض سبعة من الكتب المحاطة بالقدسية والمعروفة باسم الرؤى الرمزية (ابوكريفا) كان معاصراً لفليكس شميت الكاتب الديني المتعصب وأبي الدراسات المدافعة عن محتويات العهد القديم . وتوالى حركة نقد العهد القديم في القرنين السادس عشر والسابع عشر فظهرت نتائج دراسات لتوماس هوبز في كتابه الليثياتان سنة ١٦٦١ ثم بنديكت سپنوزا سنة ١٦٧٠ وريتشارد سيمون وجان ليكليرك وغيرهم" . ويتوالي هذه الدراسات تكشف التركيز على برهنة ماورد بالعهد القديم حول فلسطين

كدليل على صحة معلوماته الموضحة في دراسات ليون هارت وراوخ فولف من المانيا وجان زولارت وجان فان كوتفليك من هولندا وأدريان ريلاند الأقل تعصباً منها . وكان الاهتمام الغربي في التحريات الأثرية بفلسطين ، الذي بدأ منذ القرن التاسع عشر ، موجهاً نحو غاية واحدة هي التأكيد على صحة معلومات العهد القديم المتعلقة بهذا البلد العربي . فأسسوا الجمعيات المتعددة والتي كانت علمية في الظاهر وبالواقع تخرص على كشف الأدلة الأثرية لاثبات صحة معلومات العهد القديم لايجاد المبررات النظرية التي تدعم المزاعم اليهودية بارتباطهم الباطل بالأرض المقدسة وبالتالي اسناد هدفهم في تأسيس كيان يهودي فيها . وأنبروا يضعون التفسيرات الخاصة لقصص العهد القديم ويحاولوا بكل صورة ربطها بالمكتشفات الأثرية" .

يتألف العهد القديم من أربعة وأربعين سفرًا لم تدون كلها بوقت واحد . وقد ميز الباحثون حتى الآن جملة وثائق أساسية لها دونت بأزمان متفاوتة ابتداء من حوالي أواسط القرن العاشر ق . م . (زمن الملك سليمان) حتى حوالي منتصف القرن الثاني ق . م . (فترة الاحتلال السلوقي لفلسطين) . وان اقدم

كتابه عبرية وصلتنا الى حد الآن جاءت في تقويم جرز من حوالي منتصف القرن العاشر ق . م . وليس هناك أي دليل في الوقت الحاضر يشير الى معرفة العبريين للكتابة قبل هذا التاريخ وهو تاريخ ليس بعيد عن بداية تدوين أول وثيقة من العهد القديم (المعروفة بالياهوية) . وتختلف كتب العهد القديم في طبيعتها فكتب يوشع والقضاة وسموئيل واخبار الأيام ذات طبيعة تاريخية ، أما أسفار أيوب والمزامير والأمثال فشعرية وأسفار أشعيا وأورميا وحزقيال ودانيال فخاصة بالأنبياء . وأظهرت الدراسات الحديثة ان كتب الأنبياء قد دونت بعد الزمن المنسوب لهؤلاء الأنبياء فوي العلاقة . وان عناوين المزامير ليست بالأصيلة ولا يمكن الاعتماد عليها . أما الكتابات المنسوبة الى الملك سليمان نفسه فانها ، بشكلها الحالي ، ترجع لتاريخ متأخر جداً . وان كل كتاب الجامعة وأكثر كتاب الأمثال قد دونت زمن الاحتلال الفارسي والسلوقي لفلسطين^(١) . وتوضح هذه الحقائق البعد الزمني بين الأحداث التي تروى وأوقات تدوينها الأمر الذي يقلل من أهميتها كمصادر تاريخية أساسية ، وان العهد القديم على هيئته الحالية ليس بالكامل حيث هناك ستة عشر كتاباً مفقوداً منه منها على سبيل المثال كتاب حروب الرب^(٢) وكتاب جوشر^(٣) وكتاب حالة المملكة تأليف سموئيل^(٤) وكتاب أعمال سليمان^(٥) وغيرها^(٦) .

ان حل رموز الكتابات القديمة في المنطقة العربية كاهيروغليفيه المصرية والمسمارية (التي دونت بها اللغات السومرية والاكادية والحيتية والهورية) والفينيقية والالفبائية الاوغاريتية وغيرها والتي مكتتنا من قراءة النصوص المدونة بهذه اللغات قد أضافت اللثام عن خلفيات مدونات العهد القديم ووضوح تأثيرات هذه الحضارات الكبير على ماسطرته اجزائه . ووضح ان حتى بعض عناصر المبالغة والخرافق في العهد القديم مسترعة من أساطير هذه الحضارات وظفت فيه لغرض خاص مقصود . فذكر العهد القديم مثلاً لايقاف بشوع للشمس بمائل ماذكرته اسطورة سومرية تصف توقف الشمس (شمش) في أفقها لاتتحرك من هول مآسي غزو الكوتين لجنوب العراق . وان

ارتداء الملك العراقي گلگامش عاهل الوركاء في العصر السومري القديم ، كما ورد في الملحمة ، خلال سفره البعيد والطويل الأمد لبدلة من صفاتها الاحتفاظ بجودتها حيث تمتاز البدلات التي لبسها العبريون باحتفاظها لحالتها وعدم ظهور أي أثر للبلل عليها طوال فترة بقائهم في سيناء ويتجوالهم التي دامت أربعين سنة . وكان على الأمير كيرت في الأسطورة الكنعانية من اوغاريت (رأس شمرة في شمال غرب سورية) ان يحصل على أميرة عن طريق حرب لها شبه بقتل داود فلسطين للحصول على الأميرة ميكال ابنة الملك شاؤول برواية العهد القديم ، وكل هذه أوضحت ، وبرهنت على ذلك الآثار المكتشفة والنصوص ، بأن فلسطين كانت ذات أهمية لها ارتباطات مع العراق ومصر وأجزاء سورية الأخرى وآسيا الصغرى والعالم الايجي . وقد مكتتنا النصوص والآثار سواء التي عثر عليها في فلسطين والمناطق المجاورة من تفحص تفسيرات مدوني العهد القديم ومعلوماته وإعادة النظر فيها مما أعطتنا منظوراً مهماً اجتهد الباحثون الغربيون على حجه لانه لاينجذم غرضهم . وقد برهنت بصورة لاتقبل الشك الشخصية الكنعانية لفلسطين طوال العصر القديم وتأثر العبريين الكبير حتى خلال فترة تسلطهم القصيرة في فلسطين بتلك الحضارة وذويانهم في بودقتها .

يغطي التاريخ الذي يقدمه العهد القديم فترات طويلة نظراً لدخول فلسطين جماعات وقبائل وأقوام من الصحراء بين آونة وأخرى للاستقرار . لذا حوى وجهات نظر متباينة وحتى متضاربة عدة . فالى جانب تلك لسكان المدن والمناطق الحضرية هناك عبارات عدة توضح ميزات سكان البوادي كخوفهم من المدن ذات الأسوار ومهيهم من حياة المدن .

كما تبين اهتمام العهد القديم بالتوازن في العلاقات الدولية وتعدد جوانب السلطة مما يدل على عدم عزلة مدونية عن المجتمعات الأخرى سواء ثقافياً أو سياسياً . وتضمن العهد القديم أيضاً تفصيلات عرضية كثيرة الا ان المشاكل الجوهرية التي ركز عليها الاهتمام كانت مسائل الحياة والمصير البشري دون اجمال للتفسيرات الخاصة ذات النطاق المحدود . ففي الكثير من

الأحيان يقدم تفسيرات شعبية أمثال تحليله لأصول الأعياد والمراسيم الدينية والعادات الاجتماعية . وبذلك فالعهد القديم ليس بوثيقة معلومات حوت أخباراً اعتقد المدونون بجداره ذكرها وتدوينها مثل كونه تفسيراً لأحداث مهمة ، وبذلك فانه بصورة أساسية نظرة للتاريخ . ويلزم دراسة هذه النظرة ضمن جميع الأفكار القديمة الخاصة بالكون والالهيات والدولة والانسان التي يتوجب الحكم عليها وموازنتها ضمن نطاق الشرق الأدنى بحكم حقيقة كون عالم العهد القديم جزء من هذه المنطقة . وقد دون العهد القديم ليكون تاريخاً من نوع خاص ، والتاريخ بمنظوره جزائياً حيث صور الأسباب والنتائج بشكل حدث الهي لاطاقة للانسان فيه . ولأول مرة نرى وثيقة تعالج التاريخ على نطاق عالمي ولنا خير مثال منه في سفر الخليفة الذي يعكس معرفة الكاتب بالعالم زمانه واعترافه بالوحدة الأساسية للحياة البشرية . والتاريخ برأي مدوني العهد القديم عملية كبرى تحت امرة وتوجيه الله وانه يسير نحو غرض معين . وعندما اعترضت ذلك الغرض صعوبات نتيجة عصيان الانسان أن الله بجماعة خاصة ووضعها بمجرى الأحداث اتخذت الارادة الالهية بواسطتها دافعاً جديداً باتجاه تحقيق هدفها .

جاءت معلومات العهد القديم متفاوتة فمنها ما برهنت الأدلة الأثرية والنصوصية على صحتها وهي قليلة جداً وعامة وتستلزم الحذر في دراستها لاحتوائها على أخطاء كرونولوجية وهناك حقائق عرضت بصورة مرتبكة غير متعمدة تضلل غير العارف بتاريخ البلاد بسهولة ، الى جانب تفسيرات غيبية لحقائق مهمة تعتمد الكاتب على اخفائها وعرضها في الجلباب الذي يرتضيه . ثم مبالغات فظيعة واختلافات واختلاقات وتناقضات سواء بين كتاب وآخر أو حتى في الكتاب الواحد وغيرها سوف تأتي عليها أدناه .

فمن الحقائق القليلة التي عرضها العهد القديم بصورة عامة غير مفصلة وظهرت صحتها آثارياً ونصوصياً طبيعة البنية السكانية لفلسطين الأولى فقد بين كثرة الجماعات المتباينة الخلفية

أمثال الحوريين ومنهم الحيثيون واليبوسيين الذين نعرف عن كون الفترة من أواسط الألف الثالث ق . م . حتى نهاية الألف الثاني ق . م عصر ازدهارهم ويربطهم مع بلاد جبل صير وهو جبل يشكل القسم الشمالي من هضبة فلسطين الوسطى والذي قد يكون جبل ساريس قرب كسلة على بعد تسعة أميال شمال القدس ولوان صير نفسه قد اطلق ايضاً على سلسلة جبال ابدوم أي جبل الشراع الحالي جنوب فلسطين . وعرفتنا النصوص القديمة ومثلها رسائل العمارنة التي تبودلت بين ملوك وامراء أقطار آسيا الغربية مثل العراق وسورية - فلسطين والحيثيين مع ملوك مصر عن وجود الحوريين في فلسطين وحتى ان اسم حاكم القدس كان عبدوخييا (معناه عبدالربة الحورية - الحيشية جييا) . كما وصلت اسماء حورية كثيرة في العهد القديم ونصوص عثر عليها في مواقع تاناخ وشيخيم قرب نابلس من القرن الثاني عشر ق . م . وظهرت هذه النصوص بأن نسبة الكنعانيين الى غير الكنعانيين كانت كبيرة وان غير الكنعانيين كانوا عبارة عن طبقة عسكرية ومن نسل الجنود المرتزقة التي دخلت فلسطين قبل واثناء الوجه الأول من عصر الاضطراب السياسي والمقاومة (١٥٥٠ - ١١٥٠ ق . م) . كما نعرف ان فلسطين قد سكنها حيثيون وذكر العهد القديم بضع أسماء حيثية . وربما يكون الحيثيون في فلسطين هم من بقايا العصر الذي سيطر فيه الحيثيون على كل سورية بما فيها فلسطين . واطلقت بعض النصوص الآشورية من عصر سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق . م) على مدينة اشلود في فلسطين اسم الحيثية . وفي نص حيثي عثر عليه في بوغازكوي (حاتوشاش العاصمة الحيثية في بلاد الأناضول) جاء عن الحيثيين انهم نزحوا من المدينة الحيثية كوروستاما (التي لاتعرف موقعها في الوقت الحاضر) وانهم عاشوا في أراضي مصر أيام الملك مورميلييس الثاني الحيثي (١٣٣٩ - ١٣٠٦ ق . م) ويقصد هذا النص بالأراضي المصرية تلك التي تسيطر عليها مصر ومن ضمنها فلسطين . ولم يذكر العهد القديم أي شيء عن أسباب سكن هؤلاء الحيثيون في فلسطين أو زمن قدومهم . ولاتعرف أسباب

هجرة الحثيين زمن مورسليس من بلادهم الى فلسطين^(١) . كما ذكر العهد القديم سكنى الكينزيون في فلسطين وهم بالواقع القينيون وهم من القبائل البدوية الرحالة أو شبه الرحالة مارست أعمال السباكة وصناعة الأدوات المعدنية وكانوا يتركزون في جبل أرتقاد على المنحدرات الغربية لوادي عرابة . اما الكركاشيون الذين ذكرهم العهد القديم فهم من الكنعانيين والعمالقة الذين سكنوا واحات النقب والصحراء جنوب فلسطين . اما الاركيون في العهد القديم فهم بالأصل من حرقا (ارقا) وهو تل عرفة الواقع على بعد أميال قليلة الى شمال غرب طرابلس الشام في لبنان . ووجود مثل هؤلاء في فلسطين شيء طبيعي للعلاقة القوية بين كافة اجزاء سورية فلسطين ولكنه ترك أسماها كلها لوحدها دون ايضاح او دونها بصورة مختلفة تضلل القارئ غير العارف بكل سهولة . ثم ذكر الفلسطينيين الذين يحمل اسفار أورميا وعاموس^(٢) أصلهم من كفتور (طابقها البعض مع جزيرة قبرص وآخرون مع كريت واعتقد غيرهم باحتمال كونها منطقة كبادوكية بآسيا الصغرى) ويسمى سفر التثنية الكفتوريين^(٣) .

وفعلًا كان الفلسطينيون غرباء عن فلسطين دخلوها في بداية الوجه الثاني من عصر الاضطراب والمقاومة (١٢٠٠ - ١٠٢٠ ق . م) ويحمل البعض موطنهم الأصلي جنوب غرب بلاد الاناضول^(٤) . ووجد بروس راهتجن^(٥) قوة العلاقة بين نظم الأحلاف الفلسية واليونانية غير ان عاداتهم وطرق دفنهم واستعمالهم العربات وتنقلهم تدل بأنهم من الجماعات الهندية الأوربية . وقورن القصر الفلسى الكبير بغزة الذي وصفه سفر القضاة ١٦ مع نوع العمارة المعروف باسم الميكارون الشائع في منطقة بحر ايجة خاصة بالعصر المايستيفي .

علماً بان معلومات العهد القديم حول وقت دخول الفلسطينيين البلاد على غاية من الارتباك وعدم الصحة . فقد ذكر تغرب ابراهيم (التخليل) الذي يفترض الباحثون المحدثون وجوده بين حوالي ٢١٠٠ - ١٥٥٠ ق . م . في أرض الفلسطينيين وحتى عن ذهب اسحق بن ابراهيم الى الملك الفلسيتي في جزار^(٦) (تل أبو هريرة الواقع على بعد ١٥ ميل شمال غرب بئر السبع) أي أن

العهد القديم ذكر وجود الفلسطينيين بفلسطين قبل دخولهم الحقيقي اليها ما بين ١٥٥٠ - ٤٠٠ سنة على الأقل . وأوضح العهد القديم تأثر الفلسطينيين بالدين الكنعاني حيث ذكر وجود معبد للاله داگون خاص بالفلسطينيين في غزة وآخر لبعل زبوب في ايكرون^(٧) . غير ان العهد القديم لم يذكر جماعة العابيرو (الأبيرو) التي اختلف الباحثون المحدثون حول طبيعتهم ومعنى تسميتهم ولكن الغالب انهم سكان خارج المدن الذين لا يتبعون اعرافها وقوانينها ولا يعترفون بسلطة دولة وبذلك صارت تسميتهم مرادفة لكلمة خارج على القانون وعاصي ودخيل وحددت نصوص نوزي (موقع يورغان تبة في كركوك) معنى عابيرو بالغريب الذي لا مألوف له . وأرجح ان العبريين كانوا من هؤلاء حيث الى جانب تشابه اللفظة فقد أدى العابيرو دورهم في فترة مقارنة - معاصرة لدخول المحتلين العبريين فلسطين فصاروا يعرفون بهذا الاسم الى جانب عدم سكتهم في مدن خلال مدة طويلة تلت فترة غزوهم فلسطين . وان عدم ذكر العهد القديم للعابيرو - العابيرو رغم أهمية الدور الذي أدوه ابان طلائع الاحتلال العبري يؤكد هذه الحقيقة الى جانب كون المرتزقة العبريين الذين انخرطوا في سلك جيش الفلسطينيين قد أطلق عليهم اسم الغرباء الأجانب تسمية مرادفة لكلمة عابيرو في نصوص نوزي . ونعرف من رسائل العمارنة التي وردت الى ملوك مصر من أمراء فلسطين بان عصابات العابيرو كانت تعيش بالأرض فساداً وتهدد الأمن والسلام بمهاجمتهم المدن واحتلالهم الأراضي ونشرهم الرعب بين الناس . كل ذلك نتيجة ضعف الادارة المصرية التي كانت تسيطر على فلسطين وقتذاك لانشغال الفرعون المصري اخناتون بثورته الدينية وبدعته الآتونية الجديدة . وكانت الحاميات المصرية المتمركزة في المواقع الحيوية قليلة وهذا ما يعلل طلب حكام المدن الفلسطينية دعماً للتجدة .

ويبدو ان هؤلاء العابيرو لم يكونوا من القوة وكثرة العدد بمكان بل انها استغلت ضعف الادارة المصرية وقلة عدد جنود حاميات المدن لأن التعزيزات التي كان يطلبها حكام المدن الفلسطينية من الملك المصري تتراوح بين عشرة وخمسين ومرة كان الطلب لمائة

ارادها عبدي خييا حاكم القدس من اخناتون . وهذه حقيقة مهمة تصور كون فلسطين اiban الغزو العبري تعصف بها الاضطرابات وتفتقر الى الاستقرار وتعيش بها عصابات العابرو بحيث ان عدداً قليلاً من الجنود كانت كافية لارجاع الأمور الى نصابها في مدينة القدس الكبيرة ودرء الخطر عنها . وهذا يعلل سر نجاح العبريين في احتلال اجزاء من فلسطين وهم بعدد لايزيد عن ثلاثة عشر ألف برجالهم ونسائهم واطفالهم . وهذه الحقيقة تفند القصص الخاصة بالبطولة والشجاعة التي يسطرها العهد القديم . فلذا كانت قوة تتألف من خمسين جندياً قادرة على حماية القدس ودفع أي خطر عنها فكيف لا يكون بوسع قوة منظمة يقارب عددها خمسة آلاف مسلح ان تحتل منطقة من البلاد . وبذلك فان غض كاتب العهد القديم النظر عن وصف الحالة في فلسطين اiban الاحتلال كان متعمداً لتثبيت ادعاءاته بالنصر ومزاعم البطولة وتغطية السهولة التي تم بها الاحتلال لاقتدار البلد للامن والنظام .

يجعل العهد القديم شخصاً باسم يشوع قائداً للجُموع العبرية التي غزت فلسطين . وليس لدينا عن يشوع ، حياته وانجازاته اي نص معاصر له بل ان العهد القديم (الجزء الخاص منه بيشوع) قد كتب بأكثر من ثلثمائة سنة بعده . غير ان هذه الحقيقة لم تمنع بعض كبار باحثي العهد القديم من التأكيد على أهميته وتعميم اعماله التي ليس لدينا عنها أي دليل تاريخي معاصر لها يمكن الركون اليه . فهذا الباحث المعروف ويليام سميث من النصف الثاني للقرن التاسع عشر يقول عنه (لقد جاءت شخصيته على اتفاق مع مهمته واعماله : محارب مخلص لا يعرف الملامة والخوف يمزج القوة مع الرقة . . انه واحد من رجالات العهد القديم القليلين الذين لاغبار على شخصيتهم من أي نوع)^(١١) . ويصفه باحث آخر بأنه قائد شجاع وحاكم حصيف^(١٢) . ويفصل العهد القديم عن دخوله وجماعته من العبريين فلسطين بعد عبورهم نهر الأردن فيذكر احتلاله لمدينة أريحا وتهديده لأسوارها . ولكن المنبعثين في موقع أريحا القديم

(تل السلطان) يؤكدون بأن زلزالاً شديداً كان قد ضرب أريحا فهدم أسوارها وهجرها سكانها .

واذا كان الآثارى كاستانك قد وجد آثار تحريب وحرق في موقع أريحا من ذلك الوقت فانها تعود الى ذلك الزلزال وما صاحبه من تحريبات بالمدينة وبذلك فان أريحا كانت خالية من السكان في العصر الذي ينسب الى يشوع . ثم يذكر العهد القديم تقدم يشوع وجماعته الى مدينة عاي (موقع التل على بعد ميل ونصف جنوب شرق بثل) واحتلاله لها بما نصه (فبكر يشوع في الغد . . الى عاي وجميع رجال الحرب الذين معه صعدوا وأتوا الى مقابل المدينة . ونزلوا شمالي عاي والوادي بينهم وبين عاي . فاخذ نحو خمسة آلاف رجل وجعلهم كميناً بين بيت ايل وعاي غربي المدينة . وأقاموا الشعب أي كل الجيش الذي الى شمالي المدينة وكمينه غربي المدينة وسار يشوع تلك الليلة الى وسط الوادي . . وكان لما رأى ملك عاي ذلك انهم أسرعوا وبكروا وخرج رجال المدينة . . للحرب . . الى قدام السهل وهو لا يعلم ان عليه كميناً وراء المدينة . . ودخل (العبريون) المدينة وأخذوها وأسرعوا واحرقوا المدينة بالنار)^(١٣) فاحتلال عاي ، بزعم العهد القديم ، كان بحيلة حبكها يشوع نفسه انتهت باحتلاله المدينة وحرقه لها . واذا رجعنا الى الحفريات في موقع عاي والتي قامت بها ماركيت كراوس بين ١٩٢٣ - ١٩٣٥ نجدها قد دلت بأن عاي قد ضربت حوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م . اي قبل الزمن المفترض ليشوع بأكثر من ٧٥٠ سنة وظلت غير مسكونة لحوالي ألف سنة ثم سكنتها جماعات بعد ذلك . وبذلك تكون عاي قد هجرت بفترة طويلة قبل هجوم يشوع المفترض عليها . ولأجل مطابقة مادة العهد القديم مع الحفريات فقد طرح ميلر باروز الرأي باحتمال استعمال يشوع وجماعته خرائب عاي كمعقل يصدوا منها أي هجوم ضدهم ، ولكن وصف العهد القديم لحرق يشوع الموقع وخروج ملك عاي للحرب واضح . ثم يذكر العهد القديم هجوم يشوع على مدينة بثل وتحريبه لها . غير أن بثل قد خربت في القرن الثالث عشر ق . م . ولم تسكن الا بعد فترة غير قليلة من هجر الموقع^(١٤) . وربما يكون الحرق الذي يعود

الى النصف الثاني من العصر البرونزي المتأخر (حوالي ١٢٥٠ ق . م) ناتج عن هجوم يشوع اذ ليس هناك أي دليل يثبت ان الحرق يعود الى حركات يشوع سوى الاحتمال ويستمر العهد القديم بوصف تقدم يشوع وزمرته الى مدينة لاخيش . وقد نقب هنري ويلكوم لاخيش سنة ١٩٣٢ ثم ستاركي حتى سنة ١٩٣٨ وظهر ان المدينة قد احرقت خلال العصر البرونزي المتأخر ويصعب القول جداً بأن الحرق يعود الى حركات يشوع^(١) . ثم يتعرض العهد القديم الى حرق يشوع لموقع عجلون واظهرت تنقييات فنلدرزيتري فيه ثم بليس بان الموقع قد خرب حوالي سنة ١٢٣٠ ق . م . ولكن ليست هناك أية أدلة تثبت بأنها كانت نتيجة حركات يشوع وان حكم بعض الاثاريين على كونها كذلك كان مجرد حدس^(٢) . وبعد تهديم هذه المدن وحرقها يذكر العهد القديم رجوع يشوع الى الشرق لاحتلال حبرون ثم دبير (تل بيت مرسيم) . وقد نقب ويليام فوكسويل البرايت موقع دبير خلال السنوات ١٩٢٦ - ١٩٣٢ فظهر ان المدينة قد خربت في القرن الثالث عشر ق . م . ولكن ليس هناك مايدل على أن التخريب ناتج عن هجمات العبريين بل انها في الغالب نتيجة حركات الفرعون مارنبتاح^(٣) . اما مدينة شمروم (في الغالب تل السيمونية الواقع على بعد سبعة أميال غرب مدينة الناصرة الحالية) فقد اظهرت التحريات المبدئية في الموقع بأنه كان مهجوراً في الوقت المفترض لهجوم يشوع . اما خاصور (موقع تل القداح) الذي يذكر العهد القديم هجوم يشوع وجماعته عليها وتخريبها فقد ظهر خلال تنقيتها بين السنوات ١٩٥٥ - ١٩٥٨ بأن منطقة الهضبة من الموقع والتي اطلق عليها المتقنون المنطقة جـ وقد احرقت احدى طبقاتها في نهاية العصر البرونزي المتأخر ولكن ليس هناك أي برهان يثبت كون هذا الحرق نتيجة هجوم يشوع عليها . علماً بأن المدينة قد قاست حرقاً في السنوات التي تلت فترة العمارة عزاء يادين الى هجوم الفرعون سبتي الأول الذي كتب عنه في نصوصه^(٤) . وقدر يادين مكان خاصور في نهاية القرن الثالث عشر بحوالي ٤٠ ألف نسمة وهي مبالغه الا انها كانت مدينة كبيرة . ثم هاجم

يشوع ، برواية العهد القديم ، مدينة مجيدو وكانت هي الأخرى مدينة كبيرة تقع على الحد الفاصل بين جبل الكرمل والسامرة وبها يمر الطريق الذي يربط مصر بسهل مرج بني عامر فالأردن وسوريا فالعراق . وظهر من الحفريات انها قد خربت في القرن الثالث عشر ق . م . ولكن ليس هناك أي دليل يثبت بأن العبريين هم المسؤولون عن تخريبها هذا . فالعهد القديم ، كما رأينا ، قد صور الغزو العبري بقيادة يشوع مستهدفاً المدن في وقت نعرف به من عبارات أخرى من العهد القديم نفسه بأن الغزو العبري لفلسطين لم يبدأ بغزو المدن بل ان مهاجمة المدن الكنعانية المتفرقة أتى بعد ان استقرت القبائل العبرية في المناطق القريبة من تلك المدن وبعد اتصال العبريين من السكان الأصليين بعد استقرارهم^(٥) . الى جانب عدم وجود آثار حرق أو تخريب في المواقع التي يذكر العهد هجوم يشوع عليها أو عدم توفر أي دليل يثبت بأنه هو المسؤول عن آثار الدمار والنار التي وجدت في طبقات مدن أخرى ذكر العهد القديم هجوم يشوع وجماعته عليها . واذا ناقشنا عبارة الفرعون المصري مارنبتاح (١٢٣٥ - ١٢٢٤ ق . م .) في لوحته التي وضعها بمعبد الكرنك والتي تذكر الاسم اسرائيل لأول مرة حسب معرفتنا الحالية بأن العبريين كانوا ضمن منطقة محدودة ليست بواسعة المساحة دوغماً أهمية تذكر . وان المدن الفلسطينية التي ذكرت مثل عسقلان وجزر كانت من الثقة بنفسها وقوتها بحيث شهرت السلاح ضد السلطة المصرية حيث تقرأ فيها مانصه (. . . لقد اخذت كنعان بقسوة واسترجعت عسقلان كما اخذ جلالته جزر واستولى عليها . أما قوم اسرائيل فقد اتلفت بقاعهم ولم يعد لهم محصول . . . واتحدت البلاد ثانية ونخيم السلام على الجميع^(٦) . علماً بأن هناك من يشك في صحة المعلومات الواردة بهذه اللوحة ويعتقد بأنها وضعت للفخر والمباهاة .

برزت بعض الحقائق المهمة في العهد القديم بصورة مرتبكة مما يدل على عدم احاطة الكاتب العبري بالحقيقة التاريخية . فكثيراً مايقرن العهد القديم العموريين بالكنعانيين وحتى انه ذكر مرة^(٧) كون العموريين من القبائل الكنعانية وهي

خطاة بالغة وفي عبارة غيرها نقرأ كون سكان فلسطين ابان الاحتلال العبري من العموريين^(٣٠) . والحقيقة هي ان العموريين قد سبقوا الكنعانيين بسكنى فلسطين وأظهرت آثارهم الأولى اختلاف فخارهم واسلحتهم وطرق دفنهم وكون الآخرين أكثر تقدماً من الناحية الحضارية الا ان دخولها المتقارب زمنياً وعلاقة لغتيهما الوثيقة (كلتيهما لغة جزرية شمالية غربية) جعلت الشعبين كثيراً ما يقرنان سوياً . وان اطلاق سفر حزقيال^(٣١) الاسم عمورية على مدينة القدس بدل الكنعانية يدل على استمرار المصطلحين بمداول واحد حتى عصر متأخر ومن أن غالبية السكان العظمى فيها ظلت كنعانية ويعمل هذا بكاء سكانها على الرب الكنعاني تموز والذي تقرأ عنه بنفس السفر وتالم مؤلف السفر من اشتراك الاقلية اليهودية فيه .

نلاحظ اختلافات في المعلومات التاريخية بين كتب العهد القديم . فعند مقارنة أسفار صموئيل الأول والثاني وأسفار الملوك الأول والثاني بسفري أخبار الأيام الأول والثاني نجد اختلافات واضحة . فقد أخذ كاتب السفرين الآخرين يطلق الحرية لنفسه لكتابة المعلومات التاريخية بما يلائم أفكاره الخاصة ومعتقداته . فحذف منها ما لا يتفق وإراءه حول الملك داود وعلاقته ببيات شيا وثورة ولده أيسالوم ضده وصعود سليمان على العرش وما إلى ذلك وأعاد كتابة المعلومات حسب نظراته الدينية وظروفه . فسفر أخبار الأيام الأول والثاني قد دونا حوالي سنة ٢٥٠ ق . م . وكان غرض مدونيهما الرئيسي هو تعظيم يهود الجالية اليهودية في فلسطين والرفع من معنوياتهم المنهارة . ففي الوقت الذي كانت فيه العبارة الأولى من سفر صموئيل الثاني كآلتي (وعاد فحمى غضب الرب على اسرائيل فأهاج عليهم داود قائلاً أمضى واحصي اسرائيل ويهوذا) أوردها مدون سفر الأخبار الأول كما يلي (ووقف الشيطان ضد اسرائيل وأضوى داود ليحصى اسرائيل)^(٣٢) ثم قوله في سفر صموئيل الثاني ٢١ : ١٠ (ثم كانت أيضاً حرب في جوب مع الفلسطينيين فالحانان بن يعري ارجوم اليتلحمي قتل جليات الحيثي وكانت قنات رعمه كنول النساجين) ورويت في سفر أخبار أيام الأول ٢٠ : ٥ (وكانت

أيضاً حرب مع الفلسطينيين فقتل الحانان بن يعصور لحمي أخاجليات الحيثي وكانت قنات رعمه كنول النساجين) . ونلاحظ أحياناً التناقض في نفس السفر فقد ورد في سفر الأخبار الأول ١٠ : ٤ بأن الملك شاؤول قد انتحر حيث أمر حامل سيفه بقطعته ولما خاف الأخير حمل شاؤول سيفه وسقط عليه فمات . ولكن العبارة ١٣ - ١٤ من سفر الأخبار الأول ١٠ تذكر القول (فمات شاؤول بخيائته التي خان بها الرب من أجل كلام الرب الذي لم يحفظه . وأيضاً لأجل طلبه الى الجان للسؤال ولم يسأل من الرب فأماته وحول المملكة الى داود بن يسي) . وكذلك ماجاء عن هويداوم حيث جاء في سفر أخبار الأيام الأول ١٣ : ١٤ - ١٤ بأنه فلسقي من مدينة جاث بينما ورد في نفس السفر ١٥ : ١٨ ، ٢٤ و ١٦) ٣٨ بأنه الجدد الذي تربط جماعة حراس الأبواب من بيت لادي نسبها به ، بينما ذكر العبارة ٢١ من سفر أخبار الأيام الأول ١٥ بأنه موسيقار معبد من بيت لاوي . وعندما يذكر سفر الملوك الثاني أن يورياكين كان عمره ثماني عشرة سنة عند صعوده العرش يؤكد سفر أخبار الأيام الثاني بأنه كان ابن ثماني سنين حين ملك^(٣٣) . الى جانب كثرة المبالغات مثل قول سفر أخبار الأيام الأول ١٢ : ٢٣ - ٤٠ بأن ٣٥٠ ألف اسرائيلي فقط أتوا لتتويج داود في حبرون في حين قد يكون كل نفوس سورية - لبنان - فلسطين حوالي هذا العدد . وقول سفر أخبار الأيام الأول ٢١ : ٥ - ٦ بأن داود كانت تحت قيادته في القدس مليون ونصف مليون جندي والتي وردت في سفر صموئيل الثاني ٢٤ : ٩ مليون وثلاثمائة ألف جندي . واذا ما درست هذه الأرقام في ضوء عدد اليهود الذين أجلاهم نبوخذ نصر الثاني في سنوات ٥٩٨ و ٥٨٧ ق . م . وعدد جيوش الدول الكبرى في العراق لوضحت المبالغة وقد يصل عدد سكان العراق وسورية - لبنان - فلسطين الى ما يقارب هذه الأرقام . ثم القول في سفر أخبار الأيام الثاني ١٣ : ٣ - ٢٠ بأن ابيجا قتل خمسمائة ألف فرد من جنود يرويعام .

أطلق العهد القديم على الوجه الثاني من فترة الاضطراب والمقاومة (حوالي ١٢٠٠ - ١٠٢٠ ق . م) اسم عصر القضاة

ويبدأ سفر القضاة بالعبارة (وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعلليم وتركوا الرب اله آبائهم . . وساروا وراء آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها واغاضوا الرب . تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت . . غضب الرب على اسرائيل فدفعهم بأيدي ناهيين نهبوهم . . ولم يقتلوا على الوقوف امام اعدائهم . . فضاق بهم الامر وامام الرب قضاة فخلصوهم من ايدي ناهيبيهم . ولقضائهم ايضاً لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها ، حادوا سريعاً عن الطريق الذي سار بها اباؤهم . .)^{٣١} . فالعبارة توضح طبيعة الكتاب في الايمان بالحقائق والغيبيات وترينا كيف ان العبريين قد تأثروا بحضارة الاكثرية الكنعانية في البلاد فانحدوا بمعالم الدين الكنعاني ومظاهره . والمعروف ان التأثير على العقيدة يكون عادة ابطاً من التأثير بالعبادات والتقاليد وهذا يدل على مدى تأثير العبريين العميق بحضارة سكان البلاد وهو امر فسر كاتب العهد القديم في ضوئه ما حدث للعبريين من الاحداث المأساوية . وكلمة (سريعاً) التي وردت في العبارة توضح مدى التأثير السريع والواسع النطاق لمعالم الحضارة الكنعانية (خاصة الدينية التي يهتم بها كاتب السفر أكثر من غيرها) على العبريين . كما توضح العبارة شدة مقاومة سكان فلسطين وكلمة اعداء التي وردت بالجمع في النص تبين كثرة عناصر المقاومة وتنوع هوياتهم . وهذا التأثير لم يوضحه كاتب العهد القديم بل تركه يفهمه الغموض وعدم الوضوح بصورة متعمدة دون شك ، وقد القت الآثار المكتشفة الضوء الكافي على عبارات العهد القديم . فقد بدأ العبريون يقدمون الآلهة الكنعانية ومنها بعل واعطوا للاله جاهولة بعض صفات رب الارباب الكنعاني ايل فصوروه كرجل ملتح جالس على عرشه وأطلقوا عليه مثله الاسم اي السنين . واتبسوا من الكنعانيين البغاء المقدس والبكاء على الاله تموز وصار العبريون يصنعون التماثيل لاله الخصب (التيرافيم) التي وجد الكثير منها في المواقع الأثرية . كما اخلوا يستنبتون الأشجار المقدسة لدى الكنعانيين المسماة أشيرا ويستعملون مذابح البخور وانتشرت بينهم استخارة الموت وانبروا بضحون الابن البكر الى

الرب الكنعاني مولوخ . وان يوم الكفارة عند العبريين (يوم ها كيپور) مأخوذ من طقس غفران الروح الكنعاني (سلخ نيش)^{٣٢} . والبقايا الكنعانية المأخوذة من طقس الرب أدونيس (تموز السوري) يمكن ملاحظتها في الطقوس الخاصة بعيد السككوت (العرازيل)^{٣٣} .

فرق سفر القضاة من العهد القديم بين قضاة ستة كبار وآخرين صغار بنفس العدد يختلفون عن بعضهم بالاهمية والمهمة . وأول القضاة الكبار كان اوثنيل الذي يربط العهد القديم حركته بالقوى الالهية وخلص العبريين من خطر كوشان ريشائيم (في الغالب الآراميين) . ثم القاضي إهود الذي خلصهم من المويين ثم ديسورا التي حاربت الكنعانيين ثم جدعون ويفتاح اللذان خلصا العبريين من المدينيين والعمونييين ، وشمشون المعروف بالجبار الذي انقلمهم من الفلسطينيين . وليس لدينا عن كل هؤلاء القضاة الاثنى عشرة أية وثيقة تاريخية معاصرة والمعلومات عنهم مقتصرة على العهد القديم . ويوضح اسم شمشون الذي لم نقرأ عنه هو الآخر في أية وثيقة تاريخية حتى الآن عبادة الاله شمش رب الحق والعدالة . ويظهر العنصر الأسطوري واضحاً في جميع القصص التي يرويها العهد القديم عنه . فقد صور سفر القضاة ولادته بصورة اعجازية من امرأة عقيمة وارتباطه قبل ولادته بالقوى غير المنظورة ثم ذكر أعماله الخارقة كقلعة مصراحي باب غزة وقائميتها والعارضة وصعوده بها الى الجبل مقابل الخليل . ومن بين القضاة الصغار واحد باسم شامگار ابن أناث الذي يظهر اسمه واسم والده بأنه ليس عبري حيث ان اسمه ربما حوري (معناه الاله الحوري شميگ قد أعطى) واسم والده كنعاني . ثم ترد العبارة في نفس السفر (وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعلليم (جمع بعل ويقصد به تماثيل الرب بعل الكنعاني) والعشتاروت وآلهة آرام (الآراميين) وآلهة صيدون (صيدا) وآلهة موبآب وآلهة العمونييين (سكان الاردن) وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه) وهي حقيقة تؤكد تأثير العبريين باديان سكان فلسطين وربما يكون التعبد ترفاً هؤلاء السكان حتى يأمنوا

٦ بطشهم ويتجنبوا اذاهم . ومن القضاة الصغار أبصان من بيت لحم وربما يكون بدليل اسمه (الذي معناه الحصان السريع العدو) عربياً .

يؤكد العهد القديم ان في وسط اشتداد مقاومة سكان فلسطين للعبريين ظهر شخص يطلق عليه اسم سموئيل ويقرنه بسلسلة من الأعمال الاعجازية والطارقة وهو الذي أخبر العبريين بموافقة الله لاعلان الملكية عليهم وأمرهم باختيار شخص من بينهم يكون ملكاً عليهم يقودهم ضد أخطار مقاومة أهل البلاد وتزايدها . فاختاروا شاؤول ومسحه سموئيل نفسه بالزيت (توجه) . وكل هذه الأحداث التي يفصل بها العهد القديم مقتصرة الذكر عليه فقط . والمهم هو انه رغم العنصر الأسطوري الذي تمتاز به الفصول الخاصة بصموئيل هذه واعتماده الخوارق فانها توضح اشتداد المقاومة المحلية من قبل سكان فلسطين ضد العبريين وشعور الأخيرين بضرورة توحيد الجهود لمواجهةهم والتي كان لها أثر كبير في صد المقاومة لمدة من الزمن . وان معلوماتنا عن شاؤول مستقاة من العهد القديم فقط حيث لم تذكره أية نصوص من داخل أو خارج فلسطين . غير ان الكتابات الخاصة بشاؤول في العهد القديم قد دونت في فترة ليست بعيدة عن الأحداث . ونقرأ في العهد القديم عبارة لها دلالتها (والعبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين)^(١٣) التي تؤكد فقدان بعض العبريين للثقة ربما لكثرة واشتداد المقاومة أو لاستنكارهم تصرفات بني جلدتهم التي يلحقون بها الأذى بالسكان فالتحقوا بالمقاومة ، ونقرأ في العهد القديم أيضاً عن حرب شاؤول للعمالقة الذين باتوا معروفين من مجهولهم في مناطق فلسطين الجنوبية وهي حقيقة تدل على تقدم العمالقة في هذه الفترة الى الشمال ومساهماتهم الفاعلة مع اخوانهم من سكان البلاد في مقاومة العبريين .

نقرأ في العهد القديم عن شاؤول الأقوال في الرب ندم لأنه ملك شاؤول على اسرائيل) و (ذهب روح الرب من عند شاؤول وبخه روح ردي من قبل الرب)^(١٤) والتي اذا ما درست في ضوء حدة الخلاف بين شاؤول وصموئيل الخاص باحجام

الأول عن قتل عجاج ملك العمالقة قد تكون مؤشرات على احتمال تأثر شاؤول بالسكان المحليين وحضارتهم خاصة ويذكر نفس السفر طرب شاؤول بالموسيقى التي اخذها العبريون من الكنعانيين . ولم يعثر على أي أثر يعود الى شاؤول هذا وان برج الزاوية والجزء المتبقي من جدار في قلعة عثر عليها البرابيت في تل القول والتي عزاها المنقبون الى فترة شاؤول كان الدليل فيها كون الفخار يعود الى تلك الفترة فقط . علماً بأن القلعة ذات عمارة شبيهة بالأبنية الحيثية من آسيا الصغرى . ومن الجدير بالذكر ان الاسم سالوم المشابه الى شاؤول الذي عثر عليه في نص عند موقع ابلا (تل مردوخ الواقعة على بعد ٦٠ ميلاً شمال غربي حلب في سورية) هو ملك سوري من بداية الألف الثاني ق . م . ولعلاقة له مع الملك شاؤول مطلقاً والبعد الزمني كبير بينهما^(١٥) .

جاء بعد شاؤول الملك داود الذي يذكر سفر صموئيل الأول (١٦ : ١٠ و ١٧ : ١٢) بأنه الابن الأصغر من ثمانية اولاد ليسي من بيت لحم بينما أكد سفر اخبار الأيام الأول ٢ : ٥ بأنه الابن الأصغر من سبعة اولاد . ويذكر العهد القديم هربه الى معسكر المقاومة والتحاقه بالفلسطين وأخيراً ترأسه لعصابة من قطاع الطرق . وقد يكون عمل داود الأخير جزء من المهمة التي انيطت به من المقاومة وقد يكون اختيار العبريين له متأثراً من اشتداد خطره وكنوع من الاغراء حتى يترك الفئة التي انضم اليها أو انهم فكروا باحتمال تحسن العلاقة بينهم وبين المقاومة باختيارهم ملكاً يثقون هم به وتعاون معهم لفترة . ومن الجدير بالذكر ان كتاب اخبار الأيام من العهد القديم قد دون يقرون بعد موت داود كما ذكرنا لذا يصعب الاعتداد باخباره . واعتمد مدونوه اعطاء صورة طيبة عن داود تختلف عن الصورة التي تعكسها اسفار صموئيل الثاني والملوك مع كثرة التناقضات فيها . ومن الأحداث التي يذكرها العهد القديم زمن داود احتلاله القدس في السنة السابعة من حكمه وجعله اياها عاصمة للمنطقة التي يسيطر عليها ويدل اسمها من واراوشاليم ومعناها التي أسسها شليم الى مدينة داود . والتسمية واراوشليم والتي منها

التسمية الحالية اورشليم مشتقة في الأغلب من أور ومعناها مدينة ثم شليم وهو الاله الغروب الكنعاني الذي نعرفه من نصوص رأس شمرة (اوغاريت) الدينية مع أخيه وتوأمه الاله شحررب الفجر فيكون معناها مدينة الاله شليم . وقيل ان شليم يمثل سلام المساء . ولا بد وان كان شليم الذي دخل اسمه في تركيب المدينة نصير مدينة القدس . والاله شليم هو نفسه الاله العربي عشتار . وفي كتابة للملك ميشع عاهل موآب من القرن التاسع ق . م . مزج عشتار مع رب موآب القومي كيموش وسمي كيموش عشتار . وورد في حوليات الملك الآشوري تجلات پليزر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٤ ق . م .) الاسم شليمانو (سلمان) كملك على موآب نرى دخول اسم الاله شليم في تركيب اسمه وكذلك في الاسم الآشوري شلمانيزر . وطوبق الاله شليم ، شليمان مع الاله العراقي نينورتا . وكان احتلال داود للقدس يخدعه ، حسب قول العهد القديم ، ضمنت وصوله لها بواسطة نفق يوصل الى عين الدرج (جيجون) التي تزود المدينة بالماء . ولم يعثر المنقبون على أي أثر في القدس يعود الى زمن داود في الأجزاء القديمة التي عثر عليها من المدينة^(٣) . وكانت القدس التي احتلها داود صغيرة جداً عند المنحدر الشرقي للحافة الشرقية حيث عين الدرج فقط أي عند منطقة اوفيل جنوب الحرم الشريف . وقد أخطأ الكثيرون حتى من القدامى بتصويرهم القدس زمن داود تشمل كل القدس الحالية بسبب عدم وضوح الأقسام الخاصة بذلك في العهد القديم . فال مؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيفوس (٣٨ - ١٠٠) جعل القدس زمن داود تقسم القدس كلها . وموت داود توقف استعمال التسمية مدينة داود التي أطلقها هو على القدس . ورغم ان فترة حكم داود لم تكن بعيدة عن زمن تدوين الوثيقة الياهوية وبذلك يمكن اعتبار كتابات العهد القديم عنه تاريخية الا ان تفاصيل علاقاته مع حيرام ملك صور (٩٨١ - ٩٤٧ ق . م .) ابن أبي بعل لم تذكرها النصوص الفينيقية بل ظلت مقتصرة على العهد القديم . ورغم معرفتنا بحركات داود العسكرية في سورية - الأردن - فلسطين الا انه لم يذكر في أية نصوص معاصرة له أو مقاربة لزمنه في العراق أو مصر أو سورية - فلسطين - لبنان - الأردن حتى الآن .

يظهر ان كاتب العهد القديم جاهل بالتأثيرات الكنعانية على المعبد الذي شيده سليمان في القدس رغم وصفه لها . فلا نقراً فيه دلالة عمودا ياكين ويواز في المعبد وماذا يمثلان ؟ فربما يرمزان الى القمر والشمس على التوالي أو كما يقول أحبار اليهود ان معناها (فيه القوة) و (يقيم)^(٤) وربما يشبهان الشيدو واللاماسو في المعابد الآشورية . وبماثل معبد سليمان في خطته تماماً المعابد السورية المعروفة من اوغاريت وقطنة (تل مشرفة قرب حمص) وتاعينات ومجدو مع بعض المزايا المعينة مثل النقوش ورؤوس الأعمدة التي ترينا التأثر بالآشوري والمصري عليها . ويوضح المعبد ومحتوياته بوصف العهد القديم الرمزية الكنعانية مما يدل على التأثير الكنعاني الكبير الى جانب التأثيرات الأخرى . ومن المظاهر العمارية فيه البحر المسبوك من البرونز الذي يرتكز على اثني عشر ثوراً من البرونز وهو من صنع معمار فينيقي اسمه حيرام . وفي الغالب يرمز هذا البحر للكون أو انه مجرد حوض يغسل به الكهنة وقد قارنه بعض الباحثين بالحوض الذي يرمز الى ماء الأعماق (أبسو) في المعابد الآشورية والبابلية . ولا بد وان كانت للثيران المستندة عليها معاني رمزية وربما ترمز الى الاله ايل رب الأرباب الكنعاني الذي نعرف عن كون رمزه الثور المقدس . ولم يكن معبد سليمان الا جزء من سلسلة بنايات ، يقع الى جانبه قصر سليمان وقيل ان المعبد بالاساس كان مصل مرتبطاً بقصره . وربما كان معبد سليمان من نوع ذو البنايات الثلاثة المتداخلة التي تنتهي بالزار الداخلي المعروف في فلسطين منذ الألف الثالث ق . م .^(٥)

ذكر العهد القديم زواج سليمان من ابنة الفرعون المصري غير ان الاسم سليمان لم يرد حتى الآن في أية وثيقة مصرية قديمة وبذلك تكون علاقته وزواجه من الأميرة المصرية مقتصر على العهد القديم . ويصعب قبول زواج سليمان من ابنة الفرعون المصري في ضوء الوضع الاجتماعي للعائلة المالكة المصرية وتعذر تزويجهم لبنات أسرهم المالكة لغيرهم حتى من ملوك الدول المجاورة المساوين لهم في القوة . ولدينا رسالة من عصر العمارنة يرفض بها الفرعون تزويج بنت له من ملك بابل وحتى انه رفض طلب الأخير بارسال مصرية اعتيادية له يدعى لشعبة

كونها أميرة مصرية . وربما تزوج سليمان من امرأة مصرية لاهلاقة لها بالبيت المالک . ثم معاهدة سليمان مع الملك حيرام السوري التي اقتصر ذكرها على العهد القديم . وقد كشف دانارد سنة ١٩٢٣ قبر الملك حيرام هذا ولوحة قبره مدونة بالفينيقية التي تعتبر أقدم كتابة فينيقية تكتشف حتى الآن (حوالي ١٠٠٠ ق . م .) ويحمل العهد القديم سليمان وكأنه هو الذي بدأ بتعدين النحاس عند عصيون جابر في الوقت الذي نعرف فيه بأنه موجود منذ العصر السابق وزاد سليمان طاقته الانتاجية فقط . ويتحدث العهد القديم بعلاقة سليمان مع ملكة سبأ^(١) ويذكر زيارتها لسليمان بموكب عظيم دون ان يعطي أية تفاصيل عنها ولم يذكر حتى اسمها الامر الذي اثار الجدل وكثرة الاختلافات حولها بالمصادر اللاحقة . فجوزيفوس جعل اصلها مصري وسماها نيقوليس وأخذ بعضهم اسم بلقيس الذي ذكرته المصادر العربية كتحويل لاسم نيقوليس وجعلتها تلك المصادر ابنة الهداد بن شرحبيل بن حير صارت ملكة بعد والدها وحاربت عمرو بن ابرمه فدهرها ثم هزمت . كما تذكر مقابلة سليمان لها في تدمر بعد ان سيطرت على بابل وفارس وكونها قد آمنت بدين سليمان الذي دخل سبأ ولما ماتت دفنها بتدمر . وكل هذه الاخبار تقتصر الى السند التاريخي ويسميا ابن خلدون بلقمة او بلقمة . وجرد الكثير من كتاب اليهود قصة العلاقة بينها وبين سليمان من مغزاها الروحي واستدلوا منها على علاقة حب بينهما الخ .

وصلت التأثيرات الكنعانية في زمن داود وسليمان درجة كبيرة وهذا امر طبيعي نظراً لكون البلد كنعاني الحضارة والسكان وان الحقائق التي سطرها العهد القديم عن سليمان تجعلنا نستدل بأنه لم يكن عبري الدين بل كنعاني الثقافة والاتجاه . فقد ذكر العهد القديم^(٢) عن عبادة سليمان لعشتورت ربة صيدا الفينيقية والرب ملكوم اله العمونيين وبناء معابداً لعبادة الرب كيموش اله الموآبين ومولك اله الموآبي الآخر حيث جاء (. . . وهكذا لجميع نساؤه الاجنبيات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لاهتهن فغضب الرب على سليمان . . . فقال الرب لسليمان من أجل ان ذلك عندك ولم تحفظ فرائضي وعهدي) وحتى نقرأ عن زيارة

سليمان لصور وتعبده في معبد ملكارت اله المدينة الرئيس . ونقرأ في العهد القديم عن تقديم سليمان لحيرام عشرين قرية من القرى التي يملكها في منطقة الجليل ولم تكن لترضي هذه العطية الملك الفينيقي ثم عن زواج سليمان من ابنة الأخير . وأخبرنا لوقيانوس السوري من سميساط بالجزيرة الفراتية بأن الملك حيرام بعث من توج سليمان (مسحه بالزيت) وهذا الخبر يدل على تبعية سليمان الى ملك صور الفينيقي وهذا ما أرجحه . فالسياسة التي اتبعها سليمان ، بدليل العهد القديم ، كانت مستندة على ربط نفسه مع جميع البلدان المجاورة فلذلك تقرأ في العهد القديم عن زواجه بنساء من هذه المناطق واحترامه لاديانته وبنائه معابداً لاهتهن . كل ذلك حتى تسهل عليه ادارة البلد وتشير الى انصهاره الكلي في بودقة حضارة البلد الكنعانية ، انقسمت المملكة المحتلة بعد وفاة سليمان الى منطقتين شمالية باسم اسرائيل وجنوبية دصيت يهوذا . وعلى كاتب سفر الملوك الأول من العهد القديم اسباب الانقسام الى الكلمات الجارحة التي اطلقها ابن وخليفة سليمان عند توليه الملك من ناحية والى عصيان سليمان اوامر الرب متجاهلاً او غير عارف بالاسباب الاقتصادية والفكرية والاجتماعية الكثيرة التي أدت الى ذلك الانقسام حيث تقرأ القول (فقال الرب لسليمان من أجل ذلك عندك لم تحفظ عهدي وفرائضي . . . فاني امزق المملكة تمزيقاً واعطيها لعبلك الا اني لم افعل ذلك في ايامك من أجل داود ابيك بل في يد ابنك امزقها . . .) وفي الوقت الذي يذكر سفر الملوك الأول فيه كون عمر رحبعام بن سليمان واحد واربعين سنة^(٣) وقت صعوده العرش يؤكد سفر اخبار الايام كونه صغير السن عند تتويجه بحيث انه ترك مشورة الشيوخ وصار يسترشد بالأحداث الذين نشأوا معه^(٤) . واراد كاتب سفر اخبار الايام بذلك ان يؤكد عدم نضوجه وتبصره بالأمور عند توليه مما أدى بالدولة الى الانقسام وانه هو الآخر قد غرض النظر عن الاسباب الحقيقية التي وراء الانقسام .

يذكر العهد القديم ان مؤسس المملكة المحتلة الشمالية كان متزوجاً من مصرية ولم تقرأ في أي نص اسمه (يربعام) كما

يصعب تصور زواجه من مصرية . ويظهر انه قد تأثر بالمدينة الكنعانية الى حد كبير بحيث ان مدون سفر التثنية صار ينعت كل ملك يخرج عن التقاليد العبرية بكونه مشى في طريق يربعام ربما نتيجة حرص الأخير على مجارة الأكثرية الساحقة من سكان البلاد . ويذكر سفر التثنية وضعه لثورين من الذهب في معبدين شيدهما بمدينتي بثل ودان وربما كان هذا الثوران لتمجيد الاله ايل الرب الكنعاني الذي كان رمزه الثور . وربما اراد يربعام ان يمزج عبادة جاهوثة بعبادة ايل الكنعاني ويجعل الثور رمزاً الى جاهوثة وبذلك ربما طابق جاهوثة مع الاله ايل الكنعاني . وبالوقت الذي يؤكد العهد القديم هجوم الفرعون المصري على المملكة الجنوبية المحتلة فقط بينما نلاحظ في قوائم الفرعون شيشنق بالكرك انخله مدناً فلسطينية ضمن المملكة الشمالية مثل مجيدو وفنوثيل وتاناخ وغيرها . كما يبدو من القائمة والآثار ان هذه الحملة كانت واسعة النطاق وافرحت نتائجها الملك المصري بحيث صور فنانوه على جدران معبد الكبير في الكرك بعض مناظر الحملة . ففيها نرى الملك المصري يضرب الأسويين بحضور الاله عمون الذي رسم وبصحبه ربه يقدم للفرعون شيشنق عشرة صفوف من الأسرى وكل أسير يمثل موقفاً او مدينة الى جانب الكتابة تحت الصور . ومن هذه الأسماء نستنتج بأنها شملت كل فلسطين . فقد ضربت دبير وتل جنة جنوب غزة ومراكز التمدين في عصبون جابر وحق عثر على تحصينات ضخمة في شارو حين يعتقد ان شيشنق قد امر ببنائها . وربما تدل هذه الحملة بانها ليست مجرد غزوة عابرة بل انه كان يريد منها تحرير الأجزاء التي يمتثلها العبريون في فلسطين وربما أحياء معالم الامبراطورية المصرية السابقة في المنطقة . ويظهر ان خلفاء شيشنق لم يكونوا مهتمين باستمرار وجودهم في فلسطين مما أدى الى زوال نفوذهم^(١٢) . ويذكر سفر الملوك الأول (١٢ : ٣١) تشييد يربعام لمزارات عبادة في كثير من المدن التي يمتثلها خلافاً للمعتقد العبري والتي اعتبرها السفر كفرأ وهي بالواقع تدل على تأثره بحضارة أكثرية السكان الكنعانية وحرصه الشديد على احترام شعور الشعب في فلسطين .

لم يذكر العهد القديم أي اخبار عن عائلة الملك عمري التي كانت في الغالب عربية . وكان مدون سفر الملوك أكثر ولعاً في اتجاهااته الدينية . فقد اخبرنا بأن عمري عمل ماهو شر في نظر الرب وارثكب من الشرور مافاق بها كل من سبقه (الملوك الأول ١٦ : ٢٥) وهي تدل على تأثره بحضارة البلاد الكنعانية سواء عن شعور حقيقي خالص أو مسايرة لشعور الشعب الذي يسيطر على أرضه . وقد يكون عمري نفسه عربياً اعتنق اليهودية لسبب خاص لانعرفه وقد يكون حبه في التدرج والتقدم وهذا قد يكون السبب في عدم ذكر اسم والده الذي لانعرف عنه حالياً أي شيء . وأعقب عمري ولده أخاب وكان اول ملك نعرفه ورد اسمه في نصوص دول مجاورة (العراق ومصر) . ويؤكد العهد القديم انه ذهب بعيداً في أخذ معالم حضارة البلاد الكنعانية حيث قوى علاقته بفينيقية وسجد للاله بعل وادخل عبادته الى السامرة وبني معبداً ومذبحاً له وللاله ملكارت^(١٣) . وفي عهد السلالة ، ثما يظهر من العهد القديم ، صارت عبادة الاله بعل ترمي بحماية الدولة أي ديانة رسمية حيث تقرأ في سفر أورميا (١١ : ١٣) (بعلد مدلك صار عند آلتك) . وربما يكون هذا هو السبب الذي دفع الملك الى تهدئة الخواطر في تسمية اولاده بأسماء تتضمن جاهوثة مثل أخزيا (جاهوثة ملك) ، يهورام (جاهوثة عالي) وعثليا (جاهوثة عظيم) . ولم يذكر العهد القديم حلف أخاب مع الأراميين وجنديب العربي ضد شيلمنصر الثالث ومعاربتهم له في موقعة قرقر . وان اشترك أخاب مع جنديب في حلف يؤكد افتراضاً باحتمال كون أسرته عربية . ويظهر ان اصول اسرة عمري ومجاراتها لحضارة الأكثرية الكنعانية وعلاقاتها مع الدول المجاورة جر على الأسرة المعارضة . وان الطريقة الشنيعة التي قضى بها على أسرة عمري والتمثيل بأفرادها قد يكون سببها أصل هذه العائلة . ولم يذكر العهد القديم تسليم الملك ياهو الى الملك الأشوري شليمنصر الثالث والذي نراه راعياً أمامه مستسلماً في مسلة الملك الأشوري السوداء . وذكر العهد القديم بأن في عهد الملك يربعام الثاني (٧٨٥ - ٧٤٦ ق . م .) استرجعت عبادة جاهوثة قوتها غير

اننا نعرف بأن عبادة الاله بعل الكنعاني كانت هي السائدة بين الغالبية العظمى زمانه لما شعبية بالغة بين العبريين وتوضع قطع السامرة التي تعود الى الفترة بين ٧٧٨ - ٧٧٠ ق. م. بأن نسبة كبيرة جداً من الأسماء يدخل فيها اسم الاله بعل. وفي الوقت الذي يذكر العهد القديم دفع الملك مناحيم (٧٤٥ - ٧٣٨ ق. م.) الجزية للأشوريين فقد غض النظر عن حرب الملك الأشوري بالمناجيم وهرب الأخير أمامه وتهجير الأشوريين لكثير من سكان المملكة الشمالية وحملهم الى بلاد آشور.

يجبرنا العهد القديم عن انتزاع الملك أسا (٩١١ - ٨٧١ ق. م.) عامل المملكة الجنوبية (يهوذا) عن أمه معكة لقب الملكة الأم لأنها صنعت تمثالاً قدمته الى أشعراوية الحصب الكنعانية مما يدل على استمرار تقديسها لها وتعلقها بها. وهذا أمر مهم يصور تغلغل معالم الدين الكنعاني بالعائلة المالكة نفسها وليس هناك ما يدل على غضب الملكة الوالدة هذه عن تصرف ابنها ومحاولتها كسب رضاه ثانية بالعدول عن عبادتها للربة الكنعانية كما تسترجع اللقب الفخم مما يدل على تغلغل العقيدة الكنعانية في نفس الملك الوالدة التي لن ترضى عنها بدلاً.

ويتعرض سفر الأخبار الثاني الى ارسال خليفته ياهورشافات ٨٧٠ - ٨٤٩ ق. م. الموظفين والكهنة للوعظ بالبلاد وحث العبريين على عبادة جاهوثة وكان الملك نفسه يتلقى أيضاً بعض المواقظ. وهذه أمور مهمة تصور ادراك الملك بالخطر المخلق بالعبريين. فلذا درسنا اوجه حياة العبريين الآن نجدهم قد تأثروا كلياً بحضارة الأغلبية الكنعانية بحيث لم يبق لهم ما يميزهم سوى هذا الدين الذي صار باعتقادهم هو الآخر في خطر لذا نرى الآن حتى الملك نفسه ينزل للوعظ. ونقرأ في العهد القديم عن الغاء الكثير من مظاهر العبادة الكنعانية التي كان يمارسها العبريون والأمر برفع بعض أماكن العبادة العليا. وما يسترعي الانتباه ان كاتب العهد القديم قد ذكر الغاء مثل هذه المظاهر مرات عدة من قبل ملوك كثيرين مما يدل على أنها قد تركزت عند جبهة العبريين بحيث صار من الصعب جداً على السلطة العبرية انتزاعها فلذا ألغاه ملك فأنها سرعان ما تعود قوية

كما كانت. ونلاحظ بأن كل الغاء جديد يكون باجراءات اشد مما يدل على زيادة تمسك العبريين عند كل اجراء يتخله الملك ضد معبوداتهم الكنعانية. وخلف ياهورشافات ولده يهورام (٨٤٨ - ٨٤٢ ق. م.) ويظهر انه ادخل بعض الطقوس الكنعانية وصفها العهد القديم بالغربة دون ان يقدم أي شيء عن طبيعتها. ولهذا السبب نعت كاتب السفر بالكفر وفسر عدم انتقام جاهوثة منه تفسيراً هزياً (لكونه من نسل داود). كما فسر المرض الذي انتابه في نهاية حياته بكونه انتقام من جاهوثة لشروعه وسيره في درب الشرك والوثنية. وبذلك فان لكل ملك عبري نظرة خاصة لترسيخ السيطرة العبرية فهناك من يريد مقاومة كل شكل من أشكال التأثير الحضاري خاصة بالدين. ورأى قسم من الملوك ضرورة السير وراء الأخذ بمعالم حضارة البلاد الكنعانية بما في ذلك الدينية لجلب رضا الناس ومحاولة اجتذابهم لتأييد السلطة.

انتعشت في عهد الملكة عثليا (٨٤١ - ٨٣٥ ق. م.) عبادة الاله بعل وكان كاهن معبده الاعلى متان الذي يظهر من اسمه كونه فينيقياً او كنعانياً من فلسطين وربما يكون الاله بعل هو بعل ملكارت اله صور. ويذكر سفر الملوك الثاني ان بعد مقتل عثليا وصعود يواش هدم الناس بيت بعل في القدس وكسروا تماثيله وخربوا مذابحه والتي لا بد وان كانت كثيرة وقتلوا متان. وربما كان هذا الاجراء قد دبرته الدولة. علماً بأن السفر نفسه قد ذكر بان معبد سليمان في القدس قد وضع بالوقت نفسه تحت الحراسة وهي حقيقة مهمة تشير الى خوف السلطة من احتمال هجوم عباد بعل ومناصريه عليه. وسواء كان هؤلاء المناصرون من العبريين او الأكثرية الكنعانية فانه يدل على مدى شعبية وقوة عبادة بعل بحيث صار يهدد عبادة جاهوثة بين المحتلين العبريين. كما نقرأ في العهد القديم عن تنظيم مدخولات المعبد زمن الملك يواش وكون الأخير قد وضع حداً للعبث في مدخولات المعبد وسرقة الكهنة لها وتلاعبهم فيها مما يدل على

فساد الطبقة الكهنوتية المشرفة على المعبد وإدارته وقد يكون ذلك ناتجاً عن قلة مدخولاتهم لانصراف الأكثرية لعبادة بعل الكنعاني واتجاههم نحو طقوس الدين الكنعاني وتدخل الملوك الآن لوضع

حد لتصرف الكهنة الشائن . وذكر سفر أخبار الأيام الثاني عن رجم الناس لزكريا بن يهودا الكاهن الأعلى حتى الموت ربما من قبل المتحمسين لعبادة بعل الذين قتلوه انتقاماً من أبيه الكاهن الأعلى الذي كان وراء الأحداث التي أدت إلى قتل عثليا والحق الضرر بعبادة بعل . وربما كان مقتل الملك يواش بإشارة من الكهنة الذين صار يحاسبهم على مصروفاتهم البائسة ويشرف بنفسه عليها . وسمح الملك عزازيا (٧٦٦ - ٧٣٩ ق . م .) للناس بتقديم الأضاحي وحرق البخور عند الأماكن العليا الكنعانية مما يدل على رسوخ هذه العبادة وعدم القدرة على الاستمرار في محاربتها . وربما يكون قد منع العبريين فقط من التبعّد عندها وجعلها مقتصرة على سكان البلاد . كما نقرأ في العهد القديم عن صنع الملك أحاز (٧٣٥ - ٧١٦ ق . م .) التماثيل المعدنية للاله بعل واستمراره في تقديم التلحور والطقوس في وادي هنوم والأماكن العليا وعند الأشجار المقدسة .

ذكر العهد القديم بصورة مقتضبة جداً حركات الملك الآشوري تيجلات پليزر الثالث في فلسطين وتحريره أجزاء عدة . وأكدت حركات هذا الملك بأن غالبية أجزاء فلسطين لم تكن ضمن الدولتين العبريتين إلى جانب كثرة العناصر المعادية لهن . فحرب تيجلات پليزر للفلسطين أعداء العبريين والذين لم يذكر عنهم العهد القديم في هذا الوقت شيئاً يدل على استمرار مقاومتهم (العبريين وربما كانوا يتخوفون من الملك الآشوري لذا هاجم مدنها . فمستقلان كانت دويلة مدينة منيعة يحكمها حنون (اسمه كنعاني معناه نعمة) ثم أرفاد تحت حكم ملكها متين بعل وفي اشدود الملك أزوري وهناك مدن لاخيش والعقير . ولم يذكر العهد القديم حركات سرجون الثاني وسنحاريب في فلسطين ومنجزاتهم فيها بل قصر كلامه على الجزء القليل المساحة من فلسطين حيث يتشر العبريون . ومن ملوك الفترة الآشورية في يهوذا الملك يوشع (٦٣٨ - ٦٠٨ ق . م .) واهم جديدة التي قد تكون بدليل اسمها عربية . ونقرأ أن في زمانه تم العثور على كتاب ادعى الكاهن هكلايا أن موسى قد أتاه في حلم وأخبره بكتابه له وأخفائه إياه في المعبد وأمره بحفر مكان أخفائه والسير بموجبه . وفعلاً عثر على الكتاب وطبق الملك مافيه . وبرهنت

البحوث الحديثة أن الكتاب قد دون خلال فترة مقارنة لحكم الملك يوشع . وهناك اختلاف في العهد القديم حول الاشارات التي أمر يوشع برفعها من المعبد . فسفر الملوك الثاني يؤكد بأنه أزال جميع الطقوس الكنعانية والآشورية بينما يصر سفر أخبار الأيام على إزالته الطقوس الكنعانية فقط وربما يكون الأخير أكثر صحة لأن يوشع كان حاكماً تابعاً لآشور ويخاف أن عمل ذلك بعالم الطقوس الآشورية مغبة العمل . وإن قول العهد القديم بأن يوشع قتل بعض الكهنة ونهب وهدم مزاراتهم والأماكن العليا فتدل على أن إصلاحه لم يمر بسلام بل كان مصحوباً باراقة دماء . وقد عثر خلال الحفريات عند قمة المنحدر الشرقي في القدس على أجزاء من تماثيل لأشخاص وحيوانات تعود إلى القرن السابع ق . م . وأغلب تماثيل الأشخاص تمثل الرببة الأم معبرة عن طقوس الخصب نراها واضحة ايدياً فوق الصدر دلالة على شيوع الطقوس الكنعانية في هذا الوقت .

وإذا درسنا الأرقام المختلفة لعهد الذين أجلاهم الملك نبوخذ نصر الثاني عن فلسطين من اليهود نحكم بقلة عدد اليهود في فلسطين . فقد ذكر سفر الملوك الثاني (٢٤ : ١٤) بأنه (أخرج كل القدس وكل الرؤساء وجميع الجبابرة البأس عشرة آلاف وجميع الصناع والأقبان ولم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض) ويعود نفس السفر (٢٤ : ١٦) ويذكر كون عدد المرحلين ثمانية آلاف في وقت ذكر سفر أورميا كون عدد اليهود الذين أجلاهم نبوخذ نصر بلغ عددهم ٣٠٢٣ لا بد وأن زيدوا في الترحيل الثاني سنة ٥٨٧ ق . م .

إن معلومات العهد القديم عن فلسطين مقتضرة على العبريين ويعبر عن وجهة نظرهم فقط ، وبذلك لم يذكر أي شيء عن غالبية سكان فلسطين العظمى . غير أننا نقرأ هنا وهناك فيه شذرات متناثرة تلقي ضوءاً على أوضاع الأكثرية أو أحوال البلد العامة . فنقرأ مثلاً عن جوع أصاب فلسطين لثلاث سنوات متواليات وهي حقيقة فسرها العهد القديم بالقسوة اللامتناهية التي عامل بها الملك داود إهالي مدينة جبعة الكنعانية (ولو أن العهد القديم يجعلهم عموريين) عند احتلال لمدينتهم . ولا نعرف ماذا حدث لأهالي جبعة ولا بد وأن كان ماجرى عليهم من المأساة لشديد جداً بحيث أدت إلى اعتراف كاتب العهد

والأموريين والفرزيين « سكان القرى المكشوفة » والحيويين واليبوسيين الذين ليسوا من إسرائيل الذين بقوا بملهم في الأرض اللذين لم يفهم بنو إسرائيل فجعل سليمان عليهم السخرة الى هذا اليوم . واما بنو إسرائيل فلم يجعل سليمان منهم عبيداً لشغلهم لأنهم رجال القتال ورؤساء قواده ورؤساء مركباته وفرسانه (٧) . وقد عرفت هذه الأعمال بشدتها اللامتناهية وتوضح هذه مدى الاضطهاد الذي كانت تلاقه الأغلبية الساحقة من سكان فلسطين تحت الاحتلال العبري زمن سليمان (على الأقل) واحتكار الوظائف المهمة والمراكز في جماعته العبرية .

القديم يهولها . ثم عن احصاء قام به داود وطاعون حل بكل فلسطين يقول العهد القديم ان حوالي سبعين ألفاً من السكان قد ذهبوا ضحايا فيه . ويظهر ان هذا الطاعون قد بدأ في نهاية حكم داود واستمر مدة طويلة بدليل ادعاء العهد القديم بأن سليمان أقام مذبحاً في القدس كي يوقف الطاعون الذي حل بالبلاد . وهذا المذبح هو بالطبع المعبد المعروف بمعبد سليمان . ثم صراحة سفر اخبار الأيام الثاني بأن أعمال السخرة لم يفرضها سليمان على العبريين ابناء جلدته بل على أغلبية سكان فلسطين . حيث تقرأ (اما جميع الشعب الباقي من الحيثيين

الهوامش

21. G.E. Wright and F.V. Fleen, the Westminster Historical Atlas, (Philadelphia, 1946), p.140.

22. Kathleen Kenyon, Archaeology in the Holy Land, (N.Y., 1960), p.214.

23. Y. Yadin, Hazor 1, (Jerusalem, 1956), p.159.

24. Martin Noth, History of Israel, transl. by Stanley Goodman, (London, 1966), p.149.

٢٥ - الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، سورية (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٧٨ .

٢٦ - سفر الخلق ١٠ : ١٦ ، سفر الخروج ٣ : ١٨ ، سفر اخبار الأيام الأول ١ : ١٤ .

٢٧ - سفر الخلق ٥ : ١٦ . ٢٨ - سفر حزقيال ١٦ : ٣ .

٢٩ - سفر اخبار الأيام الأول ٢١ : ١ .

٣٠ - ٣٥ : ٩ . ٣١ - سفر القضاة ٢ : ١١ - ١٧ .

32. John Gray, The Legacy of Canaan, (London, 1967), p.141.

33. Theodor Reik, Pagan Rites in Judaism, (N.Y., 1969), p.8.

٣٤ - سفر صموئيل الأول ١٤ : ١٢ . ٣٥ - سفر صموئيل الأول ١٥ : ١٦ ، ٣٤ : ١٤ .

36. Howard La Fay, Ebla, Splendor of an Unknown Empire, NGM, No. 154 (1978), p.739.

37. Kathleen M. Kenyon, Jerusalem, 3000 years of history (N.Y., 1967) p.50.

38. Robert Graves, the White Goddess, (London, n.d.), p.119.

39. Kenyon, Jerusalem, op. cit. p.58.

٤٠ - سفر الملوك الأول ١٠ : ١ ، سفر اخبار الأيام الثاني ٩ .

٤١ - سفر الملوك الأول ١١ : ٤ - ١٣ .

٤٢ - ١٤ : ٢١ . ٤٣ - ١٠ : ١ - ١٥ .

44. George E. Wright, Biblical Archaeology, (Philadelphia, 1967) pp.148 — 149.

٤٥ - سفر اخبار الأيام الثاني ٨ : ٧ - ٨ .

١ - الدكتور سامي سعيد الأحمد ، نقد العهد القديم ، المؤرخ العربي جلد ٢١ (١٩٨٢) ص ٢١٥ - ٢٣٨ .

٢ - الدكتور عز الدين خيرية ، فلسطين تاريخها وحضارتها (بغداد ، ١٩٨١) ص ٧ .

3. George Arthur Buttrick and others, eds. The Interpreters Dictionary of the Bible (N.Y., 1962), Vol. 1, pp.407ff.

٤ - اشيراليه في سفر العدد ٢١ : ١٤ . ٥ - ذكر في سفر يشوع ١٣ : ١٠ .

٦ - اشيراليه في سفر صموئيل الأول ١٠ : ٢٥ . ٧ - ذكر في سفر الملوك الأول ١١ : ٤١ .

8. Taber T. Sunder Land, The Origin and Character of the Bible, (Boston, 1947), pp.166—169.

9. E.O. Foner, The Hittites in Palestine, PEQ, Vol. 66(1938), pp.190—207; Vol.69 (1937), pp.100—106.

١٠ - سفر اورشليم ٤٧ : ٤ ، سفر عاموس ٩ : ٧ . ١١ - ٢ : ٢٣ .

12. Andrew Burn, Mizrahs, Philistines and Greeks, (N.Y., 1930); F.A.S. Macalister, The Philistines, (London, 1913).

13. Bruce Rastgen, Philistines and Hebrew amphictionies, JNES, Vol. 24 (1965), pp.100—104.

١٤ - سفر الخلق ٢١ : ٢٤ ، ٢٦ : ١ .

١٥ - سفر القضاة ١٦ : ٢٣ ، صموئيل الأول ٥ : ١ - ٧ .

16. William Smith, A Samler Scripture History, (N.Y., 1888), p.113.

17. Robert Tuck, Revelation by Character, (N.Y., n.d.), p.108.

١٨ - سفر يشوع ٨ : ١٠ - ١٥ .

19. U.J. Franken, Palestine in the Time of the Nineteenth Dynasty, Archaeological Evidence, (Cambridge, 1966, p.6).

20. G.F. Owen, Archaeology and the Bible (N.Y., 1961), pp.320 ff.

التجديد الحضري لقلعة كركوك

دراسة

زين العابدين علي صحر

المعهد الفني / كركوك

يؤكد أغلب المعنيين بشؤون التخطيط الحضري بأن فكرة التجديد الحضري كانت قائمة منذ مدة طويلة ولكن الناس والحكومات أبدت في القرن العشرين اهتماماً بالغاً من أجل تنظيم الحياة العامة لسكان المدن الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية ، وأصبح اليوم للتجديد الحضري برامج علمية خاصة تهتم بالقيم التراثية لتحقيق تواصل حضاري مستمر بين الماضي والحاضر وفي الوقت نفسه تعمل على تحسين وتطوير مساحات واسعة من الأحياء القديمة المتخلفة ، وقد عرف بأنه « مجموعة اجراءات اجتماعية واقتصادية وعمرانية من أجل خلق الهيكل المعقول والمثالي للمدينة وتأمين أحسن الظروف البيئية والحضرية لسكانها »^(١) ، ويعرف أيضاً « بالتهديم الشامل للمناطق القديمة بطريقة تؤدي الى ازالة مجموعة كبيرة من المباني والدور السكنية وبناء مباني حديثة وفتح طرق جديدة وتخصيص فضاءات خضراء للمنطقة »^(٢) .

وبعد الحفاظ من أهم المبادئ الأساسية لمناهج التجديد الحضري والذي يتعامل مع الأبنية ذات القيمة التاريخية والمعمارية العالية من العقود والقباب والأقواس والزخارف

البنائية والكتابية وأضرحة الشخصيات والنصب التذكارية ، والبنائات التاريخية والدينية ... الخ^(٣) وعليها هناك طرق مختلفة للحفاظ من كالترميم ، وإعادة البناء ، والصيانة والتي تستهدف الحفاظ على التراث التاريخي القديم ، والاستلها من هذا الخزين التراثي العريق في خلق البيئة العمرانية الحديثة للمجتمع^(٤) .

وقسم من مناهج التجديد الحضري يتعامل مع مبادئ إعادة التأهيل والتطوير من أجل رفع كفاءة بعض المباني المتهورة وادخال بعض الوظائف الجديدة استجابة للحاجات العصرية من مواقف السيارات وتوفير الحدائق والمتنزهات والتسهيلات الصحية وتوفير الخدمات والشوارع ... الخ^(٥) وفق مخططات حضرية حديثة تستهدف إعادة بناء حي سكني بكامله وتحقيق أهداف اجتماعية وعمرانية وسياحية وثقافية وتؤدي الى تحسين وضع العائلة والبناء^(٦) .

ففي العراق بدأ الاهتمام بالتجديد الحضري واتبعت في اجزاء مختلفة من مدن القطر سياسات عمرانية تهدف الى الحفاظ على الدور والأحياء التي لها قيمة تراثية وتاريخية .

ففي مدينة كركوك والتي هي من احدى مدن العراق الكبرى فيها منطقة أثرية قديمة وتقع في مركزها وتسمى بالقلعة والتي هي مستوطن أثري يرجع تاريخه الى الالف الثاني قبل الميلاد يوم كانت القلعة هي المدينة ، وان أقدم اسم لها في المصادر الارامية^(١) (كرخايت سلوخ) اي مدينة السلوقين ، ويذكر بأنه بعد سقوط نينوى عام ٦١٢ ق . م . وجه الاسكندر المقدوني اهتمامه الى كركوك وقام بتجميلها وبقي حول قلعتها سوراً عالياً محصناً بأبراج وجعلها مركز اقليم تابع لمملكته وحصناً له ولحلفائه من بعده وعرفت بعد ذلك التاريخ باسم كرخ - سلوخ اي حصن سلوخ .

والقلعة تركت لنا آثاراً مهمة تعبر عن ماهية مدينة كركوك خلال العصور الماضية بكل ما تحويها من شواخص تراثية ، وتتخذ شكلاً دائرياً تقريباً وترتفع ١٨ م فوق مستوى سطح الأرض المجاورة لها ، وتشغل مساحة تقدر بـ ٢٢ هكتاراً ومع محيطها المجاور تكون ٢٤ هكتاراً من الأرض الحضرية^(٢) ، ولها أربعة مداخل رئيسية (الباب الحجرية ، داش قابو) باب الطوب (طوب قابو) من الجهة الغربية ، وسبع بنات ، باب الحلوجية من الجانب الشرقي ، وتضم القلعة ثلاث محلات سكنية وهي محلة حمام ، واغاليق ، وميدان ، وتضم ٥٦٠ وحدة سكنية يسكنها ٤٠٠٠ شخص . وتحوي القلعة على العديد من المباني الاثرية ذات القيمة التراثية والمعمارية العالية بمعقودها وأقواسها وقبابها وزخارفها وهي :

١ - جامع النبي دانيال / يمتاز بمثلثته العالية المبنية من الطابوق وهي بمثابة نقطة استدلال تشاهد من جميع اجزاء القلعة وفي الجامع أقواس وعقود مازال قائمة وجالسة على قاعدة مشتمة بجانبها المنارة ، وتحوي الجامع على مشهدين متجاورين ومصلان تطل جميعاً على فناء مكشوف ، وللجامع قيمة اجتماعية كبيرة حيث يزوره الناس باستمرار وخاصة أيام السبت ، ويعتقد بأن الانبياء حنين وهزير ودانيال مدفونون فيه .

٢ - جامع المريان / يعود تاريخه الى ١١٤٢ هـ ويحتوي على قبتين

مختلفتين في الحجم وان جدرانها مزخرفة بزخارف جصية حجرية ذات أشكال بنائية وهندسية جميلة .

٣ - الجامع الكبير (اولو جامع) المعروف بجامع المرجانة / يتألف الجامع من أربعة أروقة ترتكز على دعائم تتصل الواحدة بالأخرى بمنافذ معقودة على شكل أقواس انصاف دائرية .

٤ - القبة الخضراء / تقع في وسط القلعة وهو بناء مشتمل الشكل من الخارج ومربع من الداخل وله طراز معماري خاص مبني من الطابوق والنوره والجص تزين جدرانها بزخارف أجبرية بنائية وهندسية مطعمة بالقاشاني الملون ، وان القبة عبارة عن موقع لضريح احدى السيدات وان بناءها قد تم في سنة ٧٦٢ هـ كما هو مكتوب على الجدران الداخلية منها .

٥ - بوابة (طوب قابو) / وهي البوابة الوحيدة التي مازالت شاخصة الى اليوم ويعود تاريخها الى ١٥٠ سنة ، وهي من البوابات الحجرية ذات أقواس مدببة الشكل نصف دائرية .

٦ - السوق القيصري / يقع السوق في أسفل القلعة عبارة عن سوق قديم مسقف كان مركزاً تجارياً رئيساً للمدينة يحوي على ٣٠٠ دكان فيه من المعالم المعمارية الفريدة من القباب والأقواس المدببة والزخارف ، وتم الآن الحفاظ على بعض أجزاء السوق ، وتهدم الجزء الآخر . وتحوي القلعة أيضاً على العديد من الدور السكنية التي لها قيمة تراثية مهمة والتي قدرت بأكثر من ١٧ ألف متر مربع^(٣) .

وعند دراسة استعمالات الأرض والتي هي الوجه الطبيعي المرتبط بالأبنية والشوارع والمتزهات والمرافق العامة وانها ذات علاقة بنشاط الانسان المتمثل بكافة الفعاليات الممارسة في وحدة مساحة معينة من سكن وصناعة وتجارة . الخ^(٤) فنجد في قلعة كركوك الاستعمال السكني يحتل الجزء الأكبر من مساحة القلعة وهو بحالة غير مستقرة يتقلص يوماً بعد آخر بسبب زيادة نسبة الدور المتهللة نتيجة تسرب المياه الى أسس مبانيها لانعدام المجاري الصحية فتحدث فجوات تؤدي الى انهيارات مستمرة في أسس ابنتها ، وإهمال صيانة الدور وتوسيع الشوارع الداخلية على حساب الأرض السكنية وأصبحت الآن تمثل فقط ٤٢ ٪ من

مجموع مساحة القلعة ، وتمثل الدور التي هي بحالة انشائية جيدة منها ٤ ٪ فقط والدور التي بحالة انشائية متوسطة ٤٥ ٪. ولتحتاج الى اصلاحات وصيانة بسيطة لكي تستطيع ان تتحمل الأثقال وتقاوم المناخ والطبيعة لفترة أطول ، وكما أن ٨ ٪ من مجموع الدور السكنية وهي دور تراثية لها قيمة تاريخية ومعمارية فتم صيانة ٤ ٪ منها من قبل الهيئة الفنية لتطوير القلعة والجزء الآخر تحت التنفيذ ، وكما أن ٣١ ٪ من الدور السكنية فيها بحالة انشائية رديئة جداً تشكو من رطوبة مزمنة وتفتقر الى شبكة المياه الصحية والمجاري وانعدام التهوية والاضاءة الطبيعية ، وأن ١٢ ٪ من الدور السكنية عبارة عن دور متهللة غير صالحة للسكن^(١١) .

اما المناطق المفتوحة فتشكل ٢٢ ٪ من مساحة القلعة وهي ناتجة عن تهدم الدور السكنية بمرور الزمن وأن وجودها غير المنظم له تأثير كبير على حياة ساكنيها صحياً ونفسياً واجتماعياً .

أما المناطق الخضراء فتشغل ٦ ٪ من مساحة القلعة وتقع على واجهتها الشمالية على السطوح المدرجة وهي الوسيلة المتبعة الوحيدة للقلعة وفي طريقها الى الجفاف بسبب الإهمال .

اما الحرفيات والمحلات التجارية فتشكل ٨ ٪ تمثل ببعض الدكاكين في اجزاء متفرقة من القلعة وبعض الحرفيات والحدادة والسمكرة ، بينما تشكل الأزقة الضيقة الملتوية ١٢ ٪ من مساحة القلعة والشوارع تمثل ١٠ ٪ من مساحتها وهي عبارة عن شوارع حولية حول القلعة والشوارع المارة من خلالها ، وفي القلعة مدرستان ابتدائيتان احدهما في وسطها والاخرى في الجانب الغربي منها وبنائاتها محورة من دور سكنية ، وتخلو القلعة من المدارس الثانوية ، ودور الحضانة والروضة كما تخلو من ملاعب الأطفال والمكتبات وشبكات المياه الثقيلة حيث تتداخل المياه القذرة الخارجة من الدور مع تصريف مياه المطر وتصرف داخل القلعة وأزقتها وتتجه نحو حافاتها .

السياسة التخطيطية المقترحة لتطوير القلعة :

اعتماداً على الأبحاث والدراسات التي أجريت حول تطوير المناطق القديمة والمتخلفة ، نستخلص بعض المبادئ التي

يمكن اعتمادها لضبط سياسة عملية ومجدية لتجديد وتطوير القلعة منها :

- ١ - ان عملية اعادة الاعتبار الى هذا الجزء من المدينة باحياء معالمها الاثرية وصيانة وتحسين أوضاعها السكنية لايجدي ثمارها الا اذا ربطت نشاطاتها بالأجزاء الأخرى من المدينة وضمن التصميم الاساسي^(١٢) .
 - ٢ - الابتعاد عن الحل الجراحي للمنطقة عند التطوير أي قطع بعض الأجزاء بفتح شارع أو تعريض آخر أو الاهتمام ببنائها لها قيمة تراثية وفصلها عما يحيط بها .
 - ٣ - هنالك معالم ومساحات واحياء سكنية بكاملها لها دور تاريخي وقيمة هندسية كبيرة يجب احترامها وعدم المساس بشكلها وحمايتها وتطويرها عن طريق ترميم البنايات ذات الطابع التقليدي والازالة التدريجية بالبنايات غير المنسجمة مع النسيج الحضري للمنطقة^(١٣) .
 - ٤ - بعض المباني السكنية متروكة كخرائب ومباني أخرى جرى عليها تغير مشوه فيجب اعادة تخطيطها وانخضاعها لشروط وقواعد معمارية تخص تصاميم الدور وارتفاعاتها ومواد البناء المستعملة ، وادخال بعض الوظائف الحضرية الضرورية لتنمية وتطوير المنطقة^(١٤) .
- وعلى ضوء المبادئ المذكورة فان السياسة التخطيطية المفضلة للتجديد الحضري للقطعة هي دمج مناهج الحفاظ واعادة التأهيل والتطوير لانقاذ تراثنا المعماري والتاريخي المهتد بالزوال والتي هي ليست ملكاً لسكان القلعة فقط بل هي ملك العراقيين جميعاً ملك الجيل الحالي والاجيال القادمة ، لذا فان مسؤولية احيائها ليست سهلة فيجب التعامل معها بكل احتراس واحترام لتحقيق تواصل حضاري مع تاريخنا العريق مع توفير كافة المستلزمات الفنية والاجتماعية لمجتمع القلعة وبالشكل الذي يحقق الموازنة المطلوبة بين مستلزمات العصر الحديث وبين ضرورة الابقاء على الطابع التاريخي العام لها .

وان عملية الحفاظ تتم في المجالات التالية :

١ - الحفاظ على الدور التي لها قيمة تراثية ومعمارية عالية من القباب والعقود والأقواس والزخارف^(١) ومن هذه الدور في القلعة (جامع النبي دانيال ، جامع مرجانه ، جامع حسن مكي ، جامع هريان ، القبة الخضراء ، كنيسة الكلدان ، جامع اليحوي ، جامع زيدان ، سوق القيصرية ، وبعض الدور السكنية الموضحة في الشكل (١) .

٢ - اعادة بناء مداخل القلعة الأربعة بنفس مواد البناء المستعملة في القلعة (الحجر والجص) ووضع تصاميم خاصة لمداخلها تعكس تاريخها وتجلب اهتمام الناس المارين بقربها مع نصب لوحة بارزة في مدخلها الغربي (باب الطوب) تحكي تاريخ القلعة .

٣ - صيانة وتطوير السلم الحجري للصعود والنزول وتلوين أحجارها وتسلط الأضواء عليها واعادة ليخ ونثر واجهات الدور الواقعة على السلم وتلوينها بالشكل الذي يعطي قيمة جمالية أكثر للسلم الحجري .

أما عملية اعادة التأهيل فتشمل ٥٠٪ من الدور السكنية في القلعة والتي بحاجة الى اعادة بناء بعض أجزائها وإضافة بعض الوظائف التي تنقصها الدور لكي تزداد كفاءتها وتكون قادرة على أداء وظيفتها السكنية وتستجيب للحاجات المعاصرة المتنوعة .

أما عملية اعادة التطوير المكتملة لمناهج الحفاظ واعادة التأهيل فتضمن ادخال بعض الوظائف الحضرية للقلعة والتي تستجيب للحاجات المعاصرة وتساهم في تنمية وتطوير القلعة والمدينة وحصر هذه الوظائف الجديدة ضمن رقعة جغرافية بحدود (١١) ألف متر مربع أي بحدود ٤,٨٪ من مساحة القلعة وواقعة بين السلم الحجري وباب الطوب على الواجهة الغربية على نهر الخاصة كما في الشكل (٢) ، مع ادخال الوظائف التالية في المركز الحضري المقترح :

- كازينو ومطعم سياحي .

- دار استراحة على ان توفر خدمات ومائل الراحة .

- فندق سياحي على ان لا يتجاوز طابقين .

- مكتب لشركة السياحة والسفر .

- محلات تجارية عدد (١٠) لعرض وبيع التحفيات والهدايا النحاسية والبرونزية .

- نادي اجتماعي على ان يحتوي على بعض الفعاليات والأنشطة الرياضية .

- فرع لدائرة البريد والبريد ، ومصرف الرافدين ، ومركز اطفاء وشرطة .

- موقف لسيارات الزوار .

- حدائق جميلة ومشجرة مع توفير مسطبات للراحة .

وكما يشمل هذا المنهج ربط جميع أجزاء القلعة بشبكة حديثة للمجاري وضمن التصميم الأساسي للمدينة ، واعادة بناء الأجزاء المتهدمة من القلعة والتي هي أكثر من ١٢٪ من مساحتها ونفس الطراز الكركوكي القديم المتبع مع بقية الدور القائمة في القلعة مع توفير كافة الشروط الملائمة للسكن المريح والتي تتناسب مع المتطلبات الحديثة للعائلة العراقية وعرضها للايجار لمن يرغب السكن في مناطق تاريخية وحديثة في مركز المدينة لتحسين الوضع الاجتماعي لسكان القلعة .

أما الدور المتهدمة والتي نسبتها (٣١٪) بحالة عمرانية رديئة فيتم استبدالها بوحدات سكنية حديثة تتألف مع الباني القائمة من حيث الشكل ومواد البناء وعند الطوابق ، لأن ترك امرها يسيء الى منظر القلعة من الداخل والخارج .

وضمن عملية اعادة التطوير نقترح الاجراءات التخطيطية التالية لتنظيم القلعة :

١ - تطوير نقاط الجذب الرئيسة في القلعة منها :

أ - نقطة الجذب الدينية / وتشتمل بالجامع نبي دانيال ، وذلك بخلق فضاءات مفتوحة مناسبة أمام مدخل الجامع ، لتصبح نقطة تجمع خاصة بالجامع مع توفير كازينو ومطعم بالقرب منه .

ب - نقطة الجذب الترفيهية / تتمثل بالمنطقة الخضراء الواقعة على المنحدر الشمالي للقلعة فيجب زراعتها بأشجار دائمة الخضرة ومن الأنواع التي لا تحتاج الى كميات كبيرة من المياه مع زراعة سفوح القلعة الغربية والجنوبية بعمل مدرجات ومقايها بشكل مستمر . ومع توفير أرض خضراء داخل القلعة لافتقارها

اليها ومساحة لا تقل عن ٢٠٠٠ م^٢ للاستعمال العام وفي منطقة قريبة من مركز القلعة .

ج - نقطة الجلب التجارية : تتمثل بالسوق الكبير المحيطة بالقلعة والذي يحوي على محلات تجارية تخدم المدينة بكاملها ويشكون :

- ضيق الشارع والرصيف وكثرة اختناقات المرور .

- فوضى سير السيارات والمشاة ، وعدم توفر مواقف للسيارات .
- عدم وجود منافذ مفتوحة على القلعة لأظهار معالمها للامتداد المتواصل للمحلات التجارية .

- سوء الحالة الانشائية للمحلات التجارية المتصلة بالقلعة .
- كثرة الخانات في السوق التي حالها الانشائية رديشة جداً وتستخدم لحزن المواد .

ولتجاوز الحالات السلبية المذكورة لابد من القيام بالاجراءات التخطيطية التالية :

١ - تحويل شارع السوق الى طريق للمشاة فقط واعادة تبليطه بالمواد التي لا تسمح بمرور السيارات أو فرشته بالطابوق أو الحجر الملون والذي يعطي قيمة جمالية أكثر للسوق .
٢ - توفير مواقف سيارات كافية للمتسوقين ضمن الشوارع الفرعية التي تربط السوق بشارع صلاح الدين والاستفادة من وجود بعض الدور المهدمة لتغير وظيفتها لهذا الغرض .
٣ - استغلال الخانات المتروكة وتأهيلها وتحويلها الى فنادق درجة ثانية أو مطاعم .

٤ - كسر الملل المتكون لدى المتسوق بتكرار المحلات التجارية في السوق بعمل بعض الفتحات للاستراحة (مطاعم وكازينوهات) اضافة الى وظيفتها فتؤدي الى خلق نوع من الارتباط البصري مع المدمرات والقلعة والسوق .

٥ - توسيع الفضاءات أمام أبواب القلعة من السوق للاحساس بوجودها .

د - تنظيم حركة السير داخل القلعة :

١ - حركة المشاة / وهي الحركة الرئيسة المقترحة في القلعة والتي تعبر عن المقياس الانساني وشخصية القلعة في آن واحد وتتمثل بالأزقة الضيقة والتي لم تصف الى خدمة رئيسة كأية مدينة عربية قديمة ، وعليه نجد بأن حركة المشاة يجب ان تبدأ من البوابة الرئيسة الغربية (السلم الحجري) باتجاه البوابات الشرقية عدا الرئيسة المقترحة لسيارات ، والاهتمام بفرش أرضية الأزقة بالطابوق أو الحجر الملون .

٢ - حركة السيارات / حفاظاً على الطابع السكني العام للقلعة لذا يجب ان تكون حركة السيارات محددة وان لا تفتح جميع أزقة القلعة أمام السيارة بل تحدد حركتها الى المركز الحضري المقترح من البوابة الغربية الرئيسة للسيارة وتوزع حركة المرور الى شارعين يخترقان مركز القلعة ويلتقيان عند المدخل الشرقي (باب الحلوحية) وتخدم المحلات السكنية بواسطة الشوارع الفرعية ذات النهايات المغلقة - - - - - كما في الشكل (٧) ، والتي تستخدم أيضاً كمواقف لسيارات الدور الواقعة على بعد مسافة قريبة منها ، وكما تخصص مساحات أخرى كمواقف سيارات وخاصة في المركز الحضري المقترح .

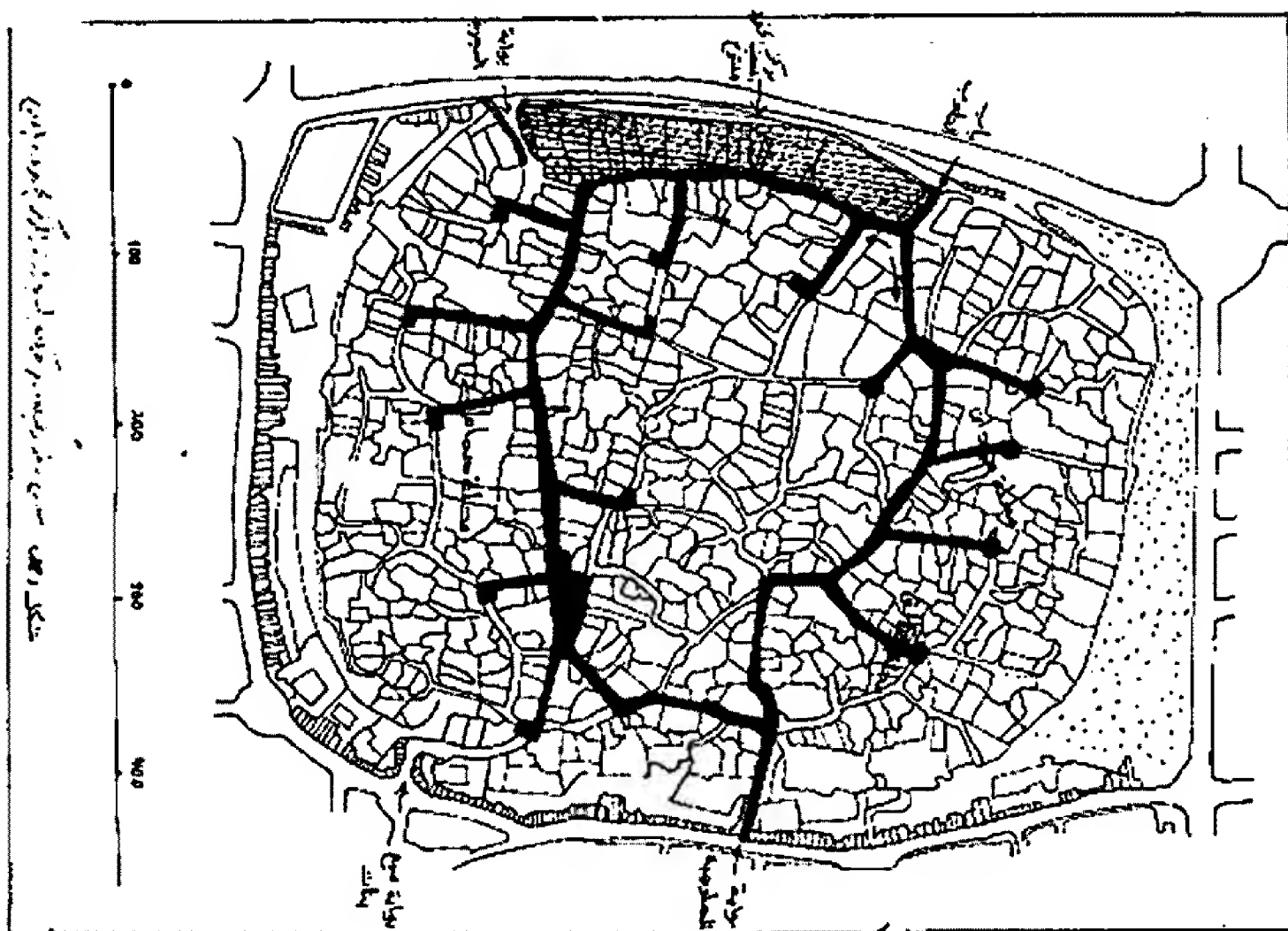
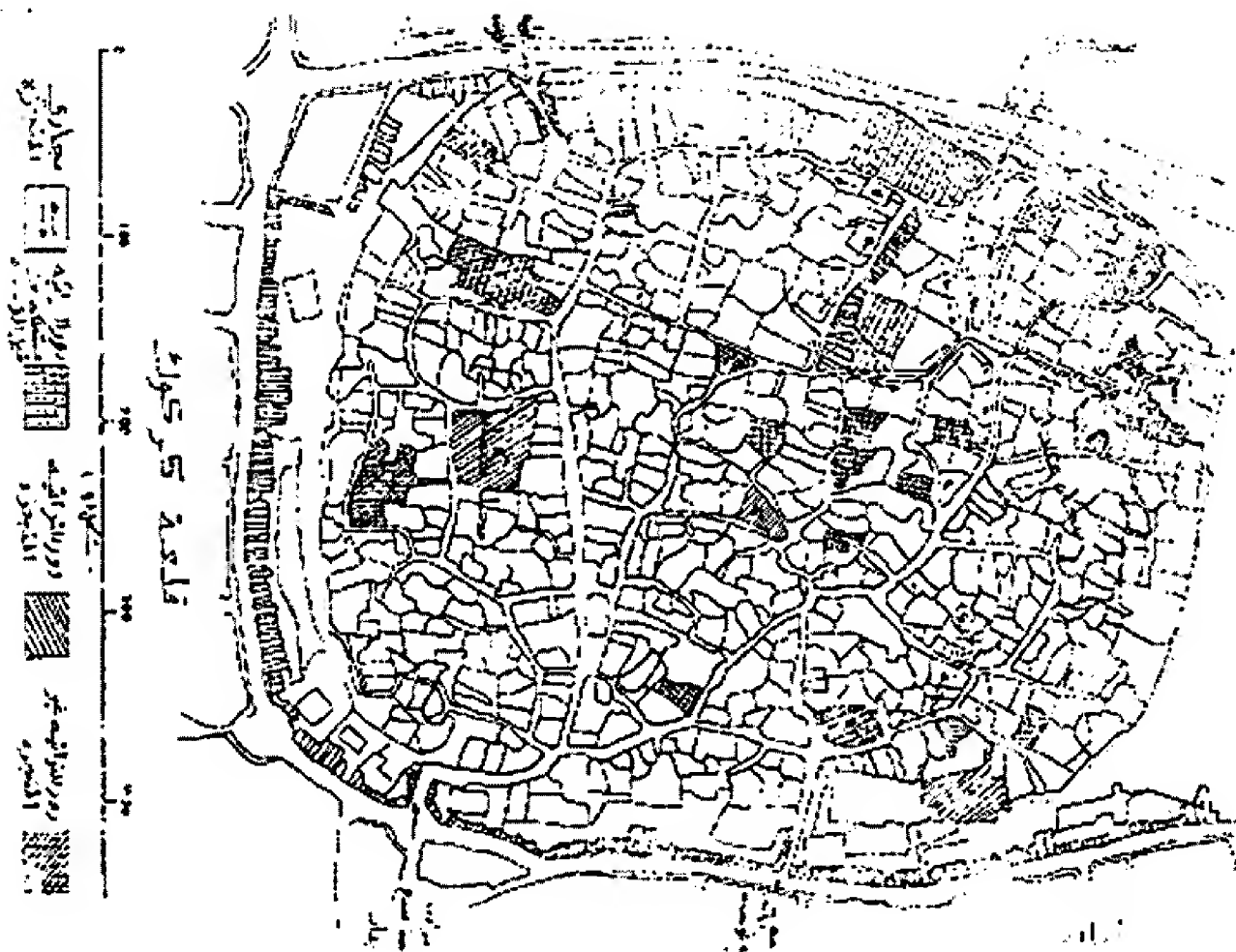
هـ - تنظيم السكن / لتحسين البيئة السكنية في القلعة باعادة بناء القطع المهدمة والمتروكة وصيانة الدور الأخرى ، نرى من الضروري التعامل مع القلعة على اعتبارها حي سكني واحد مقسم الى محلتين سكنيتين بواقع ٢٠٠٠ شخص لكل محله وعلى أن يكون لكل محله وحي مركز يحتوي على فعاليات وخدمات يومية وأسبوعية لسكان القلعة .

الهوامش

- ١ - رمشا ، انتولي ، تخطيط وبناء المدن في المناطق الحارة ، ترجمة الدكتور داود سليمان المنير موسكو ، ١٩٧٧ ، ص ٣٥٢ .
2. Culling Worth, J.B. (Town and Country Planning in England and Wales), London, 1970.
- ٣ - فتحي ، د . احسان ، الصيانة المعمارية للأبنية التراثية ، بحث مقدم الى جامعة بغداد - كلية الهندسة دورة التعليم المستمر حول الحفاظ بتاريخ ١٢ - ١٧ / ٣ / ١٩٨٣ .
4. Chapin, F. Stuart, Urban Land Use Planning, University of Illinois, Press, 1965, p.308.
5. Beyer, Glenn, H. Housing and Society, The macmillan Company, 1965, p.344.
- ٦ - شريف ، يوسف ، مدن العراق القديمة ، تخطيطها ومبانيها وماحصل من تطور في بعضها ، آفاق عربية ، السنة الثامنة ، العدد ٦ ، شباط .
- ٨ - المسح الميداني للباحث في نيسان ١٩٨٦ .
- ٩ - المسح الميداني للباحث .
- ١٠ - الجنابي ، د . صلاح حميد ، التغير في استعمالات الأرض حول المدينة العراقية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، قسم الجغرافيا ، ١٩٧٧ ، ص ٨٤ .
- ١١ - المسح الميداني للباحث .
- ١٢ - كمونه ، د . حيدر عبدالرزاق ، أسلوب احادة تخطيط المدينة العربية القديمة ، نقابة المهندسين ، ندوة التراث المعماري والعمارة العربية المعاصرة ، ١٥ - ١٧ ايلول ١٩٨٠ ، بغداد .
13. Unesco, (Protection of Manikinds Cultural Heritage), Paris, 1970.
14. Beyer, Glenn, H. Housing and Society, The macmillan company, 1965, p.344.
15. Chapin, F. Stuart, Urban Land Use Planning, Second edition, University of Illinois, Press, 1972.

المصادر

- المصادر العربية :**
- ١ - انتولي رمشا ، تخطيط وبناء المدن في المناطق الحارة ، ترجمة الدكتور داود سليمان المنير ، موسكو ، ١٩٧٧ .
 - ٢ - د . احسان فتحي ، الصيانة المعمارية للأبنية التراثية ، جامعة بغداد ، كلية الهندسة ، دورة التعليم المستمر ، ١٩٨٣ .
 - ٣ - يوسف شريف ، مدن العراق القديمة ، تخطيطها ومبانيها وماحصل من تطور في بعضها ، آفاق عربية ، السنة الثامنة ، العدد ٦ ، شباط .
 - ٤ - د . صلاح حميد الجنابي / التغير في استعمالات الأرض حول المدينة العراقية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب ، ١٩٧٧ .
 - ٥ - د . حيدر عبدالرزاق كمونه ، أسلوب احادة تخطيط المدينة العربية القديمة ، نقابة المهندسية ، ندوة التراث المعماري والعمارة العربية المعاصرة ، بغداد ، ايلول ١٩٨٠ .
 - ٦ - المسح الميداني للباحث في نيسان ١٩٨٦ .
- المصادر الأجنبية :**
1. Richardson, Harry W. Urban economics, penguin modern economics texts, London, 1978.
 2. Culling worth, J.B. (Town and Country planning in England and Wales), London, 1970.
 3. Chapin, F. Stuart (Urban Land use Planning, University of Illinois), Press, 1965.
 4. Beyer, Glenn, H. Housing and Society, The macmillan Company, 1965.
 5. Unesco, (Protection of Manikinds cultural Heritage) paris, 1970.



شكل (٢) مقترح تطوير القلعة / حركة السيارات والمركز الحضاري المقترح

نظام البريد في الحضارة العربية دراسة

د. حسين علي الدانوقي

كلية التربية / جامعة بغداد

البغال والخيول والجمال في البر ، واستخدموا السفن البريدية كما استخدموا الحمام الهوائي لنفس الغرض^(١) .

اهتم الكتاب العرب في مؤلفاتهم بالبريد . ففي مؤلف لابي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٥٨ / ٩٥٠) عنوانه صناعة الكتاب ، معلومات عن تنظيم البريد ، وما يجب ان يتعلمه كتاب هذا الديوان .

وفي مؤلفات الجغرافيين العرب خلال القرنين : التاسع والعاشر توجد معلومات حول طرق البريد ، والمنازل ، والتنفقات التي تصرف على ادارتها . راجع في هذا الصدد الى :

Springer, Die Post und Reiseruten des Orients, Leipzig, 1884.

ونجد عن البريد ذكراً مفصلاً بعض التفصيل في كتاب الخراج لقدامه ، الباب الحادي عشر من ص ٧٧ - ١٢٠ (راجع الطبعة الحديثة في بغداد ، تحقيق الدكتور الزبيدي) .

وفي كتاب (مفاتيح العلوم) للخوارزمي (نشره فان قلوطن ص ٦٣) ، وطبعة مصر ، ٤ ، بعض المعلومات وشرح الاصطلاحات المستخدمة في هذا الديوان .

ومن المؤلفات المتأخرة كتاب عن البريد بعنوان (آثار الأول في ترتيب الدول) للحسن بن عبدالله العباسي . ابتداء تأليفه ٧٠٨ هـ . ومن المؤلفين المهتمين بالبريد أيضاً الفلقشندي في كتابه صبح الأعي ١٤ / ٩٣٦٦ .

البريد من مؤسسات الحضارة العربية الاسلامية ، وجانب مهم من جوانب النظام الاداري السائد في العالم الاسلامي ، شرقاً وغرباً . فكان شأنه شأن المؤسسات الأخرى تتقدم بتعلم الدولة وتطورها وازدهارها .

ولهذا فان نظاماً امبراطورياً لطرق البريد كان قد ربط المناطق المتباعدة بالعاصمة العربية ، أصبح من واجبه جمع اخبار هذه الولايات وتقديمها الى الخليفة^(٢) .

البريد باعتباره التراسل بين البشر قديم جداً . ويمكن القول إنه وجد منذ ان شعر الانسان بحاجة الى المخابرة ، ومن أقدم نماذجها ما يعود الى زمن الآشوريين^(٣) ، ومن قبلهم البابليين والسومريين في عهد سلالة أور الثالثة . وجد البريد عند الصينيين ، ووجد في امبراطورية روما ، وظل قائماً بعد انقسامها الى دولتين ، فنجد عند بيزنطة بريداً رسمياً منظماً^(٤) . كما وجد عند العرب قبل الاسلام^(٥) .

ان حيوان البريد في تلك الاثناء يكون عادة مخلوف اللذب ليعرف به . فقد استخدم البيزنطيون البراذين التي يقول عنها ابن خردادبه : « ويريد الروم براذين لطاف مخلوفة الأذنان »^(٦) . أما الصينيون والعرب قبل الاسلام ، والمسلمون من بعد ذلك فاستخدموا البغال مخلوفة الأذنان^(٧) . وكذا استخدم المسلمون

ان كلمة (Veredus) في اللاتينية تعني حيوان البريد . اما البريد فقد تداول استعمالها منذ العصر الاسلامي الاول ، وشاع في العصور الاسلامية الاولى بعدة معاني : حيوان البريد أو ساعي البريد الخيال ، أو بريد الدولة ، وأحياناً بمعنى منزل البريد والمسافة بين منزلي البريد^(١) . أما أصل الكلمة فقد دارت حولها آراء مختلفة^(٢) .

قال الخليل انه مشتق من بردت الحديد اذا ارسلت ما يخرج منه (القلقشندي) ١٤ / ٣٦٦ . فقيل انه لفظة Feret تحدثت من الساميين (العرب الجزيريين) بمعنى البغل^(٣) .

يقول بوزورب : ان الكلمة اللاتينية المتأخرة Veredus معناها خيل البريد ، والساعي Courier Seneclarius . كذلك قيل انها : يونانية أو مصرية قديمة أو آشورية فانها في الوقت نفسه ذات علاقة بلفظة PFerd الالمانية وبكلمة bardox التي تفيد معنى نوع من البغل^(٤) .

جاء في القلقشندي : البريد لغة : المراد منه مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً . . قدرها علماء المسالك أو الممالك بأنه أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي ، وهو (٢٤) اصبعاً ، وكل اصبع ست شعيرات معترضات ظهر احداها لبطن الأخرى .

قال الجوهري : ويقال ايضاً على البريد المرتب ، ويطلق ايضاً على الرسول بريد^(٥) .

كانت الأبعاد في غربي الفرات تقاس بالأميال ، وفي شرقية بالفرسخ ، والفرسخ يعادل ثلاثة أميال . وعند كل ميل من المسافة تسند صخرة ، وهي طريقة كانت شائعة في العالم^(٦) ، بحيث أن استخدام الميل وجد في مناطق عديدة منها ما لم تتعرض الى السيطرة الرومانية - كما في جنوب جزيرة العرب .

وفي طرقي الدولة العربية كانت توجد لدى كل فرسخين محطات (سكك) لاستراحة ركاب البغال^(٧) .

يقول المقدسي : ان الميل ثلث الفرسخ ، وفي البريد خلاف بالبادية . والعراق اثنا عشر ميلاً . وبالشام وخراسان ستة^(٨) .

ويقول الخوارزمي : « كان يربط في كل سبب - وبعد ما بين السكتين فرسخان بالتقريب . وتتوقف البغال عند كل منزل بريد (سكة) والمسافة بين هذين البريدين تقريباً فرسخان^(٩) .

ذكر ابن خردادبه (توفي في حدود ٣٠٠ هـ) : سكك البريد في المملكة تسع مائة وثلثون سكة . ونفقات الدواب واثمان ارزاق البنادرة والفرانقين لسنة مائة ألف دينار وتسعة وخمسين ألف ومائة دينار^(١٠) .

راجع للتفصيل :

M.A. Sauvage, Matériaux pour servir à l'histoire et de la Metrologie Musulmanes, J.A. Nov.

dec. 1886, 483 (apud: Koprulu, op. cit).

ذكر هيرودوت انه شاهد البريد في الشرق الأوسط . كذلك كان للرومان - كما أردنا - بريد رسمي واسع ومنظم . وقد صرفوا جهوداً كبيرة في سبيل تنظيم الطرق ووسائل المواصلات فاعادوا بذلك أهمية كبيرة لهذا التنظيم الجديد Curia Publiana بما في ذلك الاهتمام بالمنازل وحيوانات البريد وما يؤمن من راحته المسافرين من الوسائل . وكان المستفيد من كل ذلك الحاكم ورجال الحكم والأشخاص الذين حصلوا من الدولة اجازات خاصة في هذا الصدد . راجع حول هذه :

Paul Huvelin, Etude d'histoire de Droit Commercial Romain, Paris, 1929, 42.

استمر تنظيم البريد (Veradartu, Veredus) (ساعي البريد ، البريدي) في عهد روما الشرقية . وكان قائماً في عهد قسطنطين الكبير . وبعد ذلك ورد ذكره في قانون ثيودوسيوس وكانت له أحكام :

(Cod Theod., VIII, V, 51)

كان البريد بالإضافة الى اعماله يؤدي حمل الاستخبارات الا ان هذه الأخيرة قد الغيت فترة من الزمان في عهد جستنيان ثم انبعثت ، لأن ظروفها استجدت أدت الى إحيائها من جديد Bolesannada.

راجع :

Le Travail dan L'Europe Chrestienne au Moyen — Age, Paris, 1921, p.66.

لم يعد البريد على الرغم من كل المحاولات كسابق عهده بسبب الأزمات المالية الخائفة التي كانت تعانيها للدولة . بيد أنه من المحقق أن هذا الجهاز كان موجوداً في مصر أثناء الإدارة البيزنطية . راجع حول ذلك^(١٨) :

G. Rouillard, L'Administration Civile de L'Egypte Byzantine, Paris, 1928, p.113.

يرى ديمومين وعدد غيره من الباحثين أن معاوية اقتبس نظام البريد من البيزنطيين . غير أن المنطق التاريخي يذكرنا بأن الحضارة العربية قبل الإسلام في بلاد اليمن وتدمر والغساسنة والمنافرة ازدهرت في بيئات حضرية . ففي هذه المناطق المدنية لا بد من وجود نظام البريد الذي يفرض نفسه على كل المجتمعات . وقد أشار الأستاذ مارغوليث في مقالة له نشرتها مجلة (Islamic Culture) ١٩٣٣ ، إلى البريد العربي قبل الإسلام . اهتمت الدولة الأموية اهتماماً كبيراً بنظام البريد ، وأراد معاوية أن تصل إليه الأخبار بسرعة (أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل)^(١٩) . ولذلك استخدم البريد في تأمين الامدادات السريعة من الجند إلى مناطق القتال في الحالات الطارئة^(٢٠) .

يقول Guyard أن معاوية أول من أسس سرعة الاتصال بين المسلمين في مناطقهم المختلفة^(٢١) .

وذكر أ. ف. حسيني : كان معاوية أول حاكم مسلم أنشأ نظاماً للبريد مخصصاً لأغراض الدولة ، ثم أبيع للرعية فيما بعد أن يتنفعوا به في نقل رسائلهم . وقسمت المسالك الرئيسة إلى مراحل أو منازل ، لكل مرحلة أو منزلة خيل معهده لحمل البريد واستخدمت الأبل في بلاد العرب والشام (ابن الأثير ٦ / ٤٩) وعرف هذا النظام بالبريد (المسعودي ، ٤ / ٩٣)^(٢٢) .

وفي عهد عبد الملك تحسن نظام البريد وتوسع من جراء الأوضاع الداخلية والحركات العسكرية . وأمر أن يحضر إليه البريد متى جاء من ليل أو نهار^(٢٣) . وقدم إلى هذا النظام مساعدات قيمة^(٢٤) .

قدم البريد خدمة كبيرة للحجاج إبان ثورة ابن الأشعث فكان عبد الملك يبعث إلى الحجاج الرجال بواسطة دواب البريد

السريعة^(٢٥) .

عزز الحجاج هذا الجهاز بنظام سريع من المراسلات من المنارات والمناظر بين واسط والثغور النائية فتدل أشارتها الضوئية في الليل والدخان المنبعث عنها في النهار على الوضع في الأقاليم المتاحة للأعداء وحاجاتها إلى المدد^(٢٦) . وكانت كتب الحجاج ترد على محمد بن القاسم الثقفي ويرد عليه الثاني ويستطلع رأي الحجاج فيما يعمل به في كل ثلاثة أيام^(٢٧) .

وفي أيام الطواري كانت عربات البريد تستخدم في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة . وفي عهد يوسف بن عمر والي العراق بلغت تكاليف البريد في هذه الولاية وحدها أربعة ملايين درهم في السنة^(٢٨) .

وفي عهد عمر بن عبدالعزيز أصابت البريد تغييرات جديدة فكتب عمر إلى سليمان بن أبي السري أن اصطلح خانات في بلادك فمن مرّ بك من المسلمين فاقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علة فاقروه يومين وليتين ، فإن كان منقطعاً به فقلوه بما يصل به إلى بلده^(٢٩) .

وكذا قام عمر بن عبدالعزيز بتقوية البريد عندما شاهد القلاقل في خراسان . فاقام المنازل على الطرق الرئيسة وقد صرفت في هذا الشأن مبالغ كبيرة تقدر بأربعة ملايين درهم .

ومن الطريف أن نذكر أن عمر بن عبدالعزيز كان يرفق بالحيوان وقد نهى أن يجعل البريد في طرف السوط حديقة ينخس بها الدابة ، ونهى عن اللجم الثقيل^(٣٠) .

وفي وثيقة - الحفظانها بهذه المقالة - تعود إلى ٩٩ هـ - ١٠٠ هـ كشفت عنها التنقيبات الأثرية التي جرت قرب سمرقند ، أن نظام البريد لم يكن قاصراً على خراسان إنما كان موجوداً في ما وراء النهر أي اتضح وجوده في سمرقند وورد في الوثيقة اسم سليمان بن أبي السري الذي عهد إليه عمر الثاني هذه المهمة في الوثيقة^(٣١) .

ويبدو أن نظام البريد كان قائماً في الأندلس كما كان عند الأمويين في الشرق ومن بعدهم العباسيين . ويبدو من الوثائق التاريخية أنه كان على رأس هذا الجهاز في أواسط القرن

الثالث موظف يعرف بصاحب البريد^(٣٣) . ومن المحتمل وجود النظام قبل هذا التاريخ^(٣٤) .

أما في العصر العباسي فكان الاهتمام بهذا الجهاز كبيراً جداً بحيث يذكر عن أبي جعفر المنصور قوله المشهور : « أركان الملك الأربعة : القاضي ، صاحب الشرطة ، وصاحب الخراج والرابع صاحب البريد »^(٣٥) .

وكان المنصور يختار للبريد من أصلح العمال ديانة وأكملهم أمانة وأظهرهم صيانة لأنه عين الوزير ، صادقاً ثقة^(٣٦) .

كما استخدم المنصور نفسه ولاية البريد عيوناً على الولاة والقضاة وأصحاب الشرطة وغيرهم من عمال الدولة فكان البريد والحالة هذه دعامة مهمة من دعائم الأمن في البلاد^(٣٧) . انتظم البريد في عهد هارون الرشيد أكثر من ذي قبل ويدل على ذلك تخصيص (٨) ملايين درهم من خزانة الدولة لهذا الغرض^(٣٨) .

أما طبيعة العمل في جهاز البريد أيام العباسيين ، فكان بين الدواوين التي تشكل الإدارة المركزية في بغداد إدارة مختصة بنقل الأخبار بين الولايات والمركز وبالإطلاع على الموظفين الكبار ومتابعة ما يجري في الولايات . هذه الإدارة هي ما يسمى بالبريد وعلى رأسه (صاحب البريد) فكان صاحب البريد يتلقى تقارير من الولايات ويقوم بتلخيصها وإيداعها في أرشيف الديوان المركزي^(٣٩) .

يقول قدامه انه يعمل جوامع لكتب أصحاب البريد ويكون اليه النظر في أمر جملة الخرائط والموقعين والسكك ، كذلك يدفع رواتبهم ويتولى تعيين عمال البريد في سائر الأمصار^(٤٠) .

ومن أعماله أيضاً انه يراقب طرق البريد^(٤١) ، ونقل الضرائب الى الخزانة المركزية . وبجانب إشرافه على إدارات البريد فانه يتولى استحداث منازل جديدة وتوفير الخيول والبغال والجمال والاستفادة من السفن في موطن معينة ، وينظر في أمر أبراج الحمام (الموائد) (الزاجل) وذلك لاستخدامها في

إيصال الرسائل الصغيرة المستعملة أو تلقيها .

كذلك هو الآخر يتولى تنظيم أمر القصاد وهم الرجال الذين يحملون الرسائل السرية عند تعذر إيصالها بالبريد في حالة الخوف من العدو ، فيمشون ليلاً ويكمنون نهاراً^(٤٢) . ويعرفون بالسعاة (القصاد) ويعرفون في بعض مناطق الدولة باسم (بيك) أو (فيج)^(٤٣) .

ان تنظيم البريد بالإضافة الى انه يؤمن الاتصالات والمخابرات بين المركز والولايات فانه يتولى نقل الأشياء الحكومية ونقل الموظفين لالتحاقهم بوظائفهم بين الولايات . ومن بين كل هذه الاختصاصات كما أسلفنا هي اخبار المركز بأخبار الموظفين الكبار في الولايات من الولاة والقواد والقضاة وموظفي المالية وتتبع حركاتهم ونياتهم تجاه الحكم القائم آنذاك ومراقبتهم مراقبة دقيقة^(٤٤) .

كذلك كان صاحب البريد يضطلع بمهام نظام الجاسوسية الشديد الدقة لذا يسمى رئيس البريد باسم صاحب البريد والأخبار^(٤٥) . لذلك ينبغي ان يكون ثقة . وقد اسند هذا المنصب أحياناً لبعض القضاة اعتماداً على أمانتهم^(٤٦) . وأحياناً كانت تأتي عليهم شكايات لتحيزهم أو سوء تصرفهم كما شكا منهم القاضي أبو يوسف (ت ١٨٢) في كتابه الخراج^(٤٧) . ويدعو الى تعيين أشخاص ثقات .

وجد التنظيم العباسي نفسه لدى السامانيين فيما وراء النهر وخراسان ، فكان مسؤول البريد يمارس وظيفة الاستخبارات .

أما في الدولة الغزنوية التي تأثرت بالنظم السامانية ، فان البريد كانت له أهمية كبيرة حيث يمارس صاحبه شؤون الجاسوسية والاستخبارات . وفي عهد محمود ومسعود الغزنويين كان بجانب كل والٍ شخص يتم تعيينه من قبل الإدارة المركزية يقوم عادة بمراقبة إدارة الوالي ، ويسمى (كتحدا) معاون الوالي ، وعدها كان صاحب البريد أو (نائب البريد) عليه ان يخبر المركز بكل ما يحصل في المنطقة من الأحداث الجسام وهو الآخر ينتخب من المعتمدين عليهم وقد كان يتوصل في إرسال تقاريره بوسائل عديدة منها يسلم البريد الى شخص متكرر وأحياناً

يغطيه بالشمع ويدعه في داخل عصا والى غير ذلك من الوسائل السرية .

أما في العهد السلجوقي ، فإن السلاجقة أخذوا بالنظام العباسي . غير أن الب أرسلان في عهده أمر بالغائه وبقي ملفياً مدة من الزمان ثم أعيد إلى سابق شأنه (البنداري ، نشره هوتسما ص ٦٧) وذلك أن الب أرسلان كان متعلقاً بالتقاليد القبلية القديمة ويكره الجاسوسية كرهاً شديداً يؤيد ذلك وزيره نظام الملك حين يذكر أنه لم يكن في زمانه (صاحب خبر) . ولكن على الرغم من كل ذلك كان نظام الملك يؤمن بأهمية البريد كتنظيم إداري أساسي ، ويعتقد أن من المهم انتخاب صاحبه من الأشخاص المتدينين ومن المستقيمين (سياست نامه ، نشره الخليلي ١٣١٠ ، الفصل العاشر ، ص ٥٠ ومابعده) .

لذلك لم يلبث نظام البريد أن عاد كما كان قائماً في العصور العباسية السالفة : فرتبت المنازل في الأطراف وعلى الطرق السالكة وتم تعيين موظفين يأتون بالأخبار . وكان للسلاجقة في عهد ملكشاه ووزيره نظام الملك جواسيس يعملون لمصالح الدولة .

كان الخليفة المستنجد العباسي يكره الجاسوسية بينما حمل الناصر لدين الله على تقويتها وتقوية نظام البريد .

وفي عهد الزنكيين الذين دخلوا في صراع مع الصليبيين انتظم النقل والبريد . فأنشأ نور الدين زنكي خانات على الطرق الرئيسة وإبراجاً على الحدود للحراسة واستحدث بريد الحمام الزاجل^(٣) .

كان البريد في العصر العباسي ، بالإضافة إلى الطرق البرية ، يسير بالسفن عند السواحل أو في الأنهر . فكان في نهري النيل ودجلة سفن بريدية سريعة جداً ، وكان بوسع المسافرين أيضاً الركوب في هذه السفن .

يقول الحسن بن عبد الله العباسي . في كتابه (آثار الأول في ترتيب الدول) - ابتداء تأليفه سنة ٧٠٨ هـ : « يتولى صاحب البريد باتخاذ المراقب والمشارف والاعلام عليها النيران بالليل ، والدخان في النهار . والطلائع بتحفظها وتقرير الإشارة بينهم بها

هذا كله من وظائف صاحب البريد^(٤) .

وكان البرق يتم عن طريق اشارات ضوئية في القسم الغربي من الدولة^(٥) . يقول العباسي : « يجب أن يكون صاحب الخبر له توصل وتلطف وحذر من المكائد ، والمستحب أن يكون بين البريد الملك وبين البريد صاحب الخبر ترجمة لا يطلع عليها غيره - أي يجب أن يكون هناك شفرة^(٦) » .

وبهذه الوسائل كان نقل الخبر من سبته إلى الاسكندرية يستغرق ليلة واحدة^(٧) . كما أن الخبر من طرابلس الغرب إلى المدينة ينقل خلال ثلاث أو أربع ساعات^(٨) .

ومن الطريف أن ترجع مرة أخرى إلى استخدام الحمام في شؤون البريد . فقد استخدم لهذا الغرض في جميع مناطق الدولة العباسية . يقول مسكويه : ففي كل ساعة أحياناً تأتي الحمام من مختلف أسواق البلاد حائلة إلى بيوتها^(٩) .

وقد استفاد السامانيون من الحمام لنقل الرسائل^(١٠) ، وأحياناً كان التجار يملكون حماماً للبريد خاصة بهم .

والحمام الرسائل ويعبر عنه بـ (الهنئ) اعتنى به خلفاء بني العباس كالمهدي والناصر . كما اعتنى به نور الدين زنكي الشهيد - كما أسلفنا - وحافظ عليه الفاطميون . صنف فيه يحيى الدين بن عبد الظاهر كتاباً سماه (ثنائيم الحمام) . يقول القلقشندي : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك أبو الحسن بن ملاعب الفوارس البغدادي ، فصنف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، أما مسافات طيرانه فإن الطائر الذي يبع بألف دينار طار من القسطنطينية إلى البصرة وأرسل من مصر إلى البصرة بحضرة قاضي مصر^(١١) . وفي عام ٣١٣ هـ / ٩٢٧ م أرسل ابن مقله (الوزير فيما بعد) خلال حرب القرامطة (٥٠) حمامة بريد إلى الأنبار . وكانت له استخبارات يرسلها إلى بغداد بانتظام (ابن الأثير ١٥٣/٣) وفي نفس السنة أسس الوزير البريد ضد القرامطة في عفرقوف مع ١٠٠ شخص و ١٠٠ حمامة . وطلب بريداً كل ساعة (مسكويه ٢٩٨/٥) .

وكانت الرسائل تصل من الموصل والرقه في هذا الوقت إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الحمام خلال (٢٤)

ساعة . يقول الثعالبي في ثمار القلوب :

« هذبة الحمام : يضرب بها المثل . والحمام الهدى معروف بأرض الشام والعراق يشترى بالاثمان الغالية ويوسل من الغايات [مدى الشيء وآخر الأبعاد] البعيدة يكتب الأخبار ويؤديها ويعود بأجوبة عنها . قال الجاحظ لولا الحمام الهدى التي تجعل برداً لما جاز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ماكان بالبصرة . وحدث بالكوفة في يوم واحد حتى أن الحادثة لتكون بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة عشية ذلك اليوم . وهذا مشهور ومتعارف »^(١) .

كانت الرزم البريدية ترتب على أشكال اسطوانية وتختتم بالشمع وترزم . أن شمع العسل المستخدم في أسبانيا تختتم الرسائل يقابل ذلك في الشرق نوع من الشمع الأحمر المماثل لما يستخدم حالياً في صناعة الاختام ، كان يستورد عن طريق سيراف فقد كانت الدولة تشتري منه في عهد المأمون حوالي (١٢٠) كيلو سنوياً^(٢) .

وكان للتجار في هذا العصر ولعدد من الأشخاص اختام خاصة بهم ، منها محفورة على النحاس أو الفضة أو الذهب أو على العقيق وغيره .

وكان لكل حكومة اسلامية شفرة خاصة تجري بواسطتها المخابرات السرية ولا يعلم مغاليقها ومفاتيحها الا رجال الدول المختصون^(٣) .

وثيقة بريدية

من التنقيحات الأثرية المهمة في آسيا الوسطى ماكان في عام ١٩٣٣ عند خرائب موغ - قلعة ، الواقعة على مسافة ١٢٠ كم شرقي سمرقند .

درسها أساتذة مختصون ونشرت الأكاديمية السوفياتية عام ١٩٣٤ نتائج هذه الدراسة .

من ضمن هذه الوثائق مايتعلق (بديواسيتيج) الذي يسمى نفسه في الوثائق الصفدية بـ (ملك الصفد وسيد سمرقند) . كان اسم ديواسيتيج يرد في المصادر الكلاسيكية على

عدة اوجه ، ويفضل هذه الوثائق أمكن ضبط الاسم وتشكيله . ويهنا هنا الوثيقة العربية التي عثر عليها أحد الرعاة قبل حفريات (موغ - قلعة) بجملة قصيرة واتضح فيها بعد أن هذه أيضاً من وثائق حصن ديواسيتيج في (موغ - قلعة) . وفيما يلي نص الوثيقة العربية ، نعرضها من غير تحقيق إذ يهنا منها الآن وجود نظام البريد في آسيا الوسطى .

ولأجل التوسع في هذه الوثيقة والوثائق الصفدية الأخرى نحبذ مراجعة رسالة كرانشفونسكي المشهورة ، ومقالة :

W.Z. Henning, A Sogdian God, BSOAS, 242 — 254.

والمجلة الصفدية Sogdyskig Sbornik

مع المراجعة الى المصادر العربية الأساسية عن هذه الفترة .

الوثيقة العربية :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم .

٢ - للأمير الجراح بن عبدالله من مولا ديو .

٣ - سقى السلام عليك أيها الأمير .

٤ - ورحمة الله فاني أحمد اليك .

٥ - الله الذي لا اله الا هو .

٦ - أما بعد [. .] أصلح الله الأمير وأمنع .

٧ - به فاني [. . .] .

٨ - للأمير حاجتي وحاجة ابن طرخون وابن الا .

٩ - مير امنع الله به ذكر ابن طرخون بخير .

١٠ - فان را الأمير من الراي ان يكتب .

١١ - الى سليمان بن أبي السرى فبعث بها الى الأمير .

١٢ - فليعمل أو يأمري الأمير بدابة من دواب .

١٣ - البريد فابعث عليها غلامي بات بهما .

١٤ - الأمير فان الله جعل قدم الأمير لاهل .

١٥ - المظ [. . .] غياث ورحمه .

١٦ - اسأل الله لـ [. . .] والسلام عليك أيها الأمير ورحمة

الله^(٤) .

الموقع : الذي يقع على الاسكندرية اذا مر به يوقف وروده وصدوره .
السكة : الموضع الذي يسكنه الفوج المرتبون من رباط أو قبة أو بيت
أو نحو ذلك .

الاسكندرية : هو مخرج يكتب فيه عدد الخرافات والكتب الواردة
والنافذة وأسامي أربابها كذلك انه مخرج يكتب فيه جوامع الكتب
المنقلة للنظم . الخوارزمي ، مفاتيح ، ص ٤٢ - ٥٠ .

ولي ص ٧٩٩ من تاريخ البيهقي ترجمة يحيى الحشاش وزميله : انه
ساحي البريد الذي يدير دابته كل منزل والذي يتمتع بحزام حتى
لا يتعب .

والاسكندرية : هو Scroll يسجل فيه عناوين وتواريخ الوثائق المرسلة
للختم ، هذا في ص ١٦٤ وفي نفس المقالة لبوزورث ص ١٤٢
الاسكندرية حيث يسجل فيه أرقام الأكياس المرسلة والرسائل الواردة
والصادرة واسماء مرسلها والمستلمين وأربابها . وليس من الضروري
أن يكون الاسكندرية مخرجاً كما يقول الخوارزمي ، وفي المصور
الاسلامية المتأخرة أصبح الاسكندرية كيس الرسائل حيث توضع
الرسائل (خريطة) .

يرى ميتورسكي ان الكلمة من أصل يوناني . راجع ص ١٤٣ من
مقالة C.F. Bosworth حول تصانير الخوارزمي في مفاتيح العلوم
(بالانكليزية) .

Journal of the Economic and Social History of the Orient. Vol. XII, Part I,
January 1969.

كذلك راجع حول البريد والاسكندرية والمعا ، ص ٣٥٩ من كتاب
تركستان (الترجمة العربية) لبارتولد حيث يرد تفصيل البريد عند
المغول ، ص ٦٥٦ .

التيج :
وهو خادم الديوان الذي يدفع الكتب ويحضر بها . والجمع فيج .
والفيج الذي يحمل الكتب من بلد الى بلد .

أبو القاسم عبدالله بن عبدالعزيز البغدادي مؤيد المهدي بالله ، كتاب
الكتاب ، ص ١٣٧ راجع :

Bull. Etud. Orient. 1952 — 4.

١٨ - مأسلاته مقتبس من البروفسور Koprulu نفس الفصل . ويفضل
الرجوع أيضاً الى : رنيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبدالعزيز
جاويد ، ص ٩٤ .

١٩ - القلقشندي ، نفس المجلد ، ١٤ / ص ٣٦٨ .
٢٠ - د . خالد الجنابي ، تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر
الأموي .

Guyard, Ibid. - ٢١

٢٢ - حسبي ، الامارة المصرية ، ترجمة ابراهيم العلوي ،
ص ١٦٩ - ١٧٠ .

١ - Gullford A. Dudley, A History of Eastern Civilization. New York, p.238.

٢ - İsmet Kayaoglu, İslam Kurumlar. Tarih. İstanbul, 5.64 — 67.

نشرت مجلة (آفاق عربية) البغدادية ، ١٩٨٣ مقالاً قياً عن البريد
بمنوان : البريد في العالم القديم ، بقلم الدكتور كامل مصطفى
الشمي ، فنذكر القارئ الكريم بأهميتها .

Kayaoglu, op. cit. - ٣

Islamic Culture, 1933. - ٤

٥ - ابن خردادبه (ت في حدود ٣٠٠ هـ) ، المسالك والممالك ،
ص ١١٢ .

Islamic Culture, 1933. - ٦

A. Mazaheri, Orta Çağda Müslümanların yazışmaları. İri. Dr. Behriye Uçok, - ٧
İstanbul.

قسم البريد .

وأحياناً يرد تعبير الجمالز ، وهو الجمل السريع الذي يحمل البريد ،
ويقصد به الساعي السريع ، تاريخ البيهقي ، ص ٨٠ .

٨ - في تعليقاته على الطبعة الحديثة ١٩٧٧ Koprulu من كتاب تاريخ
(الحضارة الاسلامية) لبارتولد ص ٩٢١ - ٩٣٩ .

٩ - مادة (البريد) في دائرة المعارف الاسلامية ، راجع :

P. Hugonnet, La Post des Calices ... Paris, 1884.

Nicola Elisséeff, L'Orient Musulman au Moyen Age 622 — 1280 Paris,
1877.

أشار إليها البروفسور Koprulu ، نفس المصدر .

١٠ - من ترجمة نصر الدين Stanislas Guyard طباطبائي ، الحاشية ،
ص ٢٠ .

١١ - حول رأي بوزورث

C.F. Bosworth, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. XII,
Part I, 1969.

وحول الآراء الأخرى

Kayaoglu, op. cit., Guyard, Ibid

١٢ - القلقشندي ، نفس الصفحة .

Mazaheri, Ibid. - ١٣

Islamic Culture

Mazaheri

١٤ - مقالة مارغوليث في

وفصل البريد في كتاب

١٥ - المجلد ، أحسن التقاسيم ، ٦٥ - ٦٦ .

١٦ - الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٤٢ .

١٧ - ابن خردادبه ، ص ١٥٣ .

توجد مصطلحات خاصة بالبريد الرسمي منها :

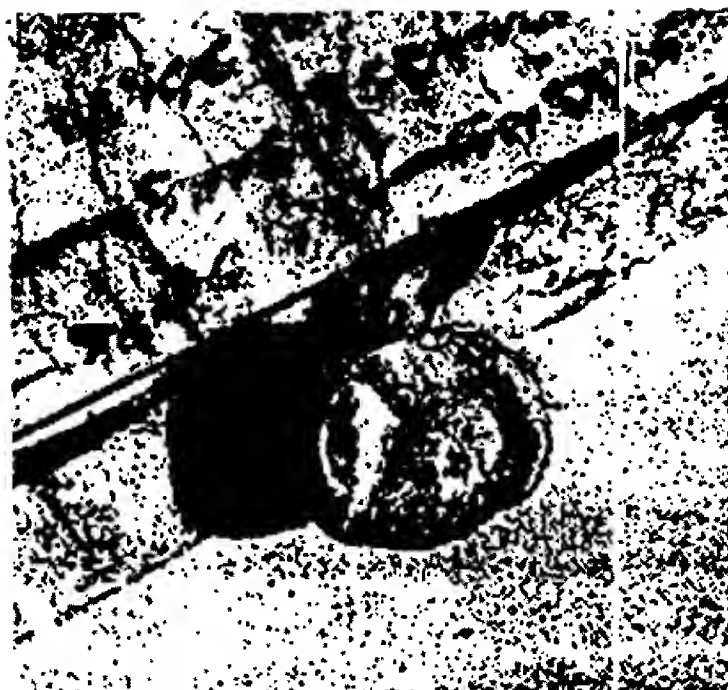
الفراتق : حامل الخرافات .

مشورات المكتبة . القاهرة (١٩٠٨) يضم وثيقة مفصلة حول
الاستخبارات الإسلامية . راجع ص ٧٧-٧٨ . وحول الموضوع
نفسه من المقيد مراجعة كتاب :
علي بن أبي بكر الهروي ٦١١ هـ / ١٢١٥ م .
كتاب التذكرة الهروية في الحيل الخفية .
Bull. Etud. Orien. XVII

- رقم ١٧ ، سنة ١٩٦١-١٩٦٢ .
٤٥ - السمعاني ، الاتساع ١٤/٥ .
٤٦ - أبو يوسف ، الخراج ، القاهرة ١٣٤٦ المطبعة السلفية ، ص ٢٢٢ .
٤٧ - الفصل نفسه
Kopulu
٤٨ - الحسن بن هبة الله العباسي (ابتداء تأليفه ٧٠٨ هـ) ، آثار الأول
في ترتيب الدول ، ص ٦٦-٨٤ .
٤٩ - وهو يشير إلى المراكشي . ترجمة Mazaheri, Fagnan ، ص ٢٩٩ .
٥٠ - العباسي ، ص ٨٩-٩٠ .
٥١ - أبو المعاسن ، النجوم ، ١٧٤/١ .
٥٢ - الفصل نفسه
Mazaheri
٥٣ - مسكويه ، تحارب الأمم ، ٢٩٨/٥ .
٥٤ - السمرقندي ، جهاز مقاله ، ص ٥٦ .
٥٥ - القلقشندي ، ١٤ / ٣٨٩-٣٩١ .
٥٦ - الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٣٧٠ .
٥٧ - ابن خلدون ١ / ٣٢١ ، ٥٧ والفصل نفسه Mazaheri .
٥٨ - الفصل نفسه
Mazaheri
وله الإشارة إلى البيهقي ، ١٩٤٦ ، ص ٦٤١-٦٤٧ .
٥٩ - نقلنا الوثيقة وجميع المعلومات التي أوردناها حولها من مقالة البروفسور
Amen المنشورة في مجلة Bulletin .
7, no.27. 1943.
٦٠ - صورة (حجر المسافة) - من مجلة معهد الدراسات الشرقية بإستانبول
المعد (٣) .

- ٢٣ - القلقشندي ، ١٤ / ٣٦٩ .
٢٤ - المعد ، الحجاج ، ص ٣٨٥ .
٢٥ - خالد الجنابي ، المصدر نفسه .
٢٦ - المعد ، الكتاب نفسه ، ص ٣٨٥-٣٨٦ .
٢٧ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ٢ / ٥٣٥ .
٢٨ - حسبي ، ١٧٠-١٧١ .
٢٩ - الطبري ، ١٣٦٤/٢ أخبار عام ١٠١ هـ .
٣٠ - أبو يوسف ، الخراج ، القاهرة ١٣٤٦ المطبعة السلفية ص ٢٢١ .
٣١ - الطبري ١٣٦٤/٢ ومجلة (Bulletin) ٢٧ ، ١٩٤٣ ص ٦١٥-٦١٩ .
٣٢ - G. Levi Provencal, L'Espagne Musulmane au Xème siècle, Paris, 1832, p.65.
من البروفسور Kopulu .
٣٣ - Kopulu ، الفصل نفسه في الكتاب نفسه قسم التعليقات .
٣٤ - الفخري ، الآداب السلطانية ، ص ١٠٤-١٠٥ .
٣٥ - ابن خردادبه ، ١٨٤-١٨٥ .
٣٦ - محمد الشريف الرحولي ، نظام الشرطة في الإسلام إلى أواخر القرن
الرابع الهجري . الدار العربية للكتاب ، ص ١٤١ .
Kopulu, op. cit.
٣٧ -
٣٨ - حسبي ، ص ٣٠١ .
٣٩ - لدامة ، الخراج ، ص ٧٧ .
٤٠ - مقالة خلدابخش في Islamic Culture سنة ١٩٢٨ ص ٤٣٣-٤٣٤ .
(بالانكليزية) .
٤١ - منير المعجلاني ، عبقرية الإسلام في أصول الحكم . دمشق ،
ص ٢٩٩ .
E. Merat, Kerman Belouduler.
٤٢ - ص ٢٨٠-٢٨١ .
Prod. Kopulu
٤٣ - الفصل نفسه
٤٤ - حسبي ، ن . ص .
ومن الجدير بالذكر أن كتاب رسائل البلغاء / القسم الأول من





Divançe yazılmış bir mektup 5 B 4

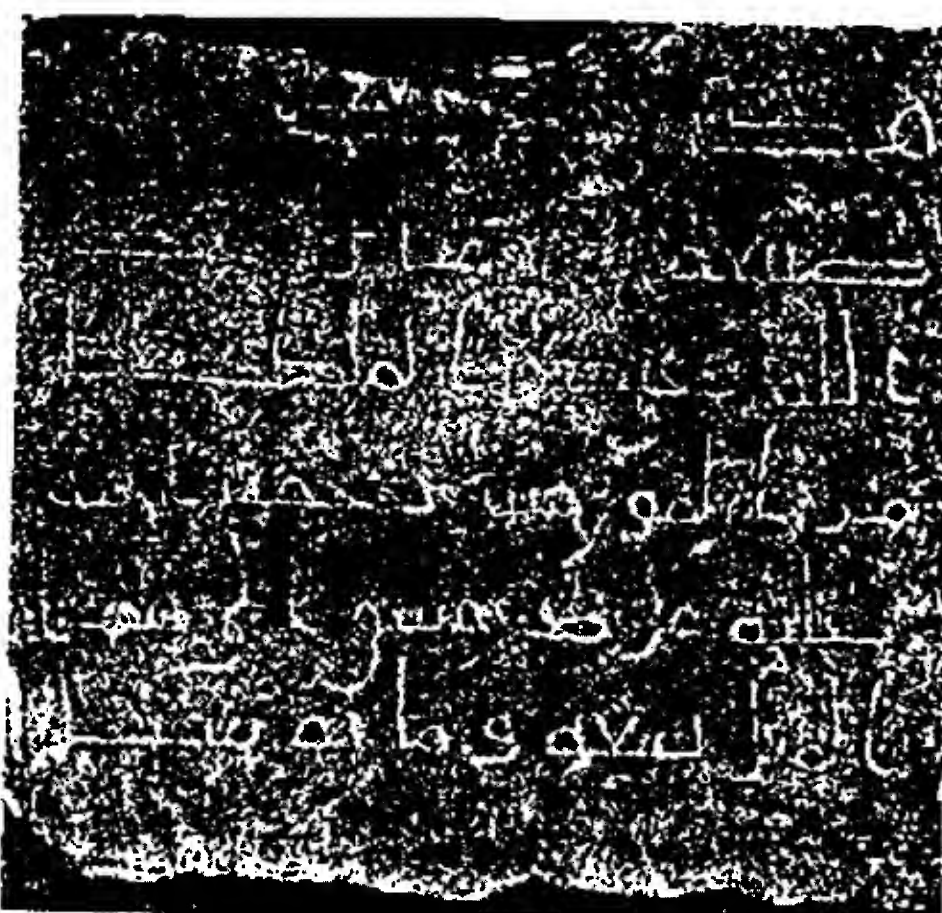
Lev. XXXVII



رسالة مبراسة وختمه



الخط المبرور من ولات اللغة مبراسة



حجر المساة من القرن الثامن عليها كتابة كوفية الباقية منها سبعة أسطر من الأسفل منصوبة على الطريق بين دمشق والقدس حث عليها في فلسطين عام ١٨٨٤ وهي الآن في متحف الآثار الإسلامية رقم (٢٥١١) نقلًا من مجلة معهد الدراسات الشرقية - إستانبول ، (المجلد ٣) .

كلمات من (وبستر) (لسان العرب)

بقلم

ناجية مراني

بغداد

تحتويها ، وتذكر إزادها اللغات التي تداولتها حتى أوصلتها الى الانجليزية . ويستطيع الباحث ان يجد في تلك المصادر المفردات التي كانت قد انحلت من اصول عربية^(١) .

أما لغتنا العربية التي أعطت الكثير ، فقد أعطت الكثير ، شأنها بذلك شأن اللغات الحية المتطورة . وقد فطن أسلافنا إلى هذه الظاهرة ، وعني بها الخليل بن أحمد الفراهيدي منذ القرن الثاني للهجرة ، حيث أشار في « كتاب العين » إلى الكلمات المعربة أو الدخيلة . ثم أتى بعده أصحاب المعاجم وكذلك أصحاب الموسوعات اللغوية . ونجد في القرن السادس للهجرة الكتاب الأول المتخصص بالمفردات المعربة وهو كتاب « المعرب من الكلام الأعجمي » لأبي منصور الجواليقي (١٠٧٣ - ١١٤٤ م) وهو أكبر الكتب التي عنيت بهذا النوع من الدراسات . ثم ألف عبدالله بن محمد العنزي المعروف بالبشيشي في القرن الثامن للهجرة كتاب « التذيل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل » كما ألف شهاب الدين الحفاجي في القرن الثاني عشر للهجرة كتاب « شفاء الغليل فيما كلام العرب من الدخيل » . ومن الرسائل التي عالجت هذا الموضوع رسالة الأسقف الكلداني أدري شير التي طبعت في بيروت عام ١٩٠٨ م تحت عنوان : « كتاب الألفاظ الفارسية المعربة » . وظهرت

من المعروف أن البحوث اللغوية المعاصرة صنفت لغات العالم إلى أصناف أو عوائل مختلفة ، أهمها عائلتان : الأولى هي العائلة التي أطلقوا عليها اسم السامية ، وهي عائلة اللغة العربية ، والثانية هي التي أطلقوا عليها اسم الهندية أوروبية ، وإليها تنسب اللغة الانجليزية . إلا أن هذا التصنيف لا يعني وجود جدار حديدي يمنع التبادل بين البشر ، ذلك لأن الدراسات القديمة منها والحديثة ، تثبت أن المفردات تسافر عبر الحدود الجغرافية ، وتتخلل مع الأشياء المادية ، أو مع الفكر والشعائر والتقاليد التي وضعت لها . ويعين المتخصصون بدراسة نشوء اللغات وتطورها ، علماً من اللغات التي كان لها أثر عظيم في نقل الحضارات ، وبالتالي في التأثير على لغات الأقوام ، ومن بين تلك اللغات ، اللغتان الإفريقية واللاتينية ، كما أن من بينها اللغة العربية التي أثرت على أوربا ، بالإضافة إلى تأثيرها على لغات الأمم المجاورة^(٢) . وقد أدرك اللغويون الأوروبيون المعاصرون هذه الحقيقة ، فعملوا إلى دراسة مفرداتهم وتصنيف ما بها من غريب ، وظهرت مؤلفات تجمع ذلك الغريب وتتحرى أصوله ، كما أن القواميس الإنجليزية الحديثة ، كقاموس أوكسفورد وقاموس وبستر ، تشير إلى أصول الكلمات التي

كذلك في مستهل هذا القرن كتابات تدور حول هذا الموضوع منها أعمال الأب أنستاس الكرملي (١٨٦٦ - ١٩٤٧ م) ، تلا ذلك اجتهاد الأساتذة والآباء المشرفين على قاموس المنجد ، في ذكر اللغة الأم التي ينتمي إليها الكلام الدخيل^(١) .

ومن يجدر بالملاحظة في هذا الباب هو التغير الذي يطرا على الكلمات عند انتقالها من لغة إلى أخرى . وقد انتبه اللغويون العرب إلى تلك الظاهرة قبل مئات السنين ، وقالوا إن العرب كثيراً ما يغيرون الأسماء الأعجمية إذا استعملوها ، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً ، وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً ، والإبدال لازم لتلا يدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم ، وربما غيروا البناء إلى أبنية العرب^(٢) . وإن نحن قرأنا الدراسات الأوربية الحديثة المتخصصة بهذا الحقل ، لوجدنا أن اللغويين المعاصرين يؤيدون هذه المقولة ويذكرون أن الكلمات الدخيلة تخضع للقوانين اللغوية السائدة في اللغة الجديدة التي تصبح جزءاً منها^(٣) . وهذا الأمر يتسبب بتغير لفظ الكلمة أو لفظها ومعناها أحياناً إلى درجة تجعل أهل اللغة التي انحدرت منها تلك الكلمة غير قادرين على تمييزها متى عادت إليهم بصفتها الجديدة . وقد حصل التباس لدى اللغويين الأوربيين قديماً ، فنقلوا إلى لغاتهم كلمات عن العربية ، واتضح بعد الدراسات الحديثة أن تلك الكلمات إغريقية أو لاتينية الأصل . نذكر أدناه نماذج من تلك الكلمات :

- كلمة المجسطى Almagest ، والمجسطى هي الكلمة التي وضعها العرب عنواناً لترجمتهم كتاب بطليموس في الفلك والحساب عام ٨٢٧ م . وقد أورد ابن النديم في الفهرست ذكر الكتاب في معرض حديثه عن بطليموس^(٤) . والكلمة منقولة إلى العربية على لفظها الإغريقي Magista بعد إدخال ال التعريف وإبدال صوت (ي) بصوت (ط) وفقاً لما تقتضيه قوانين اللغة العربية . ولما أعيدت ترجمة الكتاب من العربية إلى اللاتينية في عصر النهضة الأوربية ، نقل المترجمون الأوربيون آنذاك عنوان الكتاب على لفظه في العربية ، وانتقلت الكلمة إلى اللغات الأوربية ، ولم تزل في قواميسها تطلق على أي مؤلف من مؤلفات العصر الوسيط التي تعنى بحقول المعرفة المختلفة^(٥) .

- كلمة قيثارة Psalter التي دخلت في اللغة الفرنسية نقلاً عن الإسبانية التي أخذتها عن العربية ، علماً بأن الكلمة منحجرة من أصل إغريقي .

- كلمة إكسير Elixir التي أخذتها اللاتينية محلاة بال التعريف عن العربية ، فنقلتها الإنجليزية عن اللاتينية على لفظها بعد التعريب ، علماً بأن الكلمة منحجرة عن الإغريقية .

- وكلمة طلمس Tallman التي دخلت في الفرنسية والإسبانية والإيطالية منقولة عن العربية ، والكلمة بالأصل منحجرة عن الإغريقية .

وهناك عدد كبير من الكلمات التي مرّت بأطوار مشابهة لما رأينا أعلاه ، وسوف نتطرق إلى ذكرها في فقرة الكلمات المتداخلة أدناه .

ولو تصفحنا المصادر اللغوية العربية ، لوجدنا وقوع مثل هذا الالتباس في القديم ، واستمرار وقوعه حتى في المصادر والمقالات اللغوية المعاصرة . نذكر أمثلة لبعض الكلمات المنحجرة من أصول عربية ، ومع ذلك فقد أعيد تعريبها على ألفاظها الأجنبية أو اختلقت لها كلمات تغاير أصلها ، منها مايلي :

- كلمة Amber دخلت في اللغات الأوربية نقلاً عن كلمة (عنبر) العربية ، ولما أعدنا تعريبها قلنا : كهرمان^(٦) .

- كلمة Antimony وأصلها كلمة (إثمند) العربية ، ولكننا عربناها على لفظها الأجنبي قلنا : أنتيمون^(٧) .

- كلمة Seta منحجرة عن كلمة (صُفَّة) العربية ، وقد اجتهد أحد الباحثين المعاصرين فجاء بأريكة صوف ، تعريباً لها^(٨) .

- أما كلمة (الخرشوف) فقد دخلت إلى أوروبا وأصبحت في القاموس الإنجليزي كلمة Antichoke ، وعربت فقيل : أرضي شوكي ، وتخير اللغويون العرب بعدئذ في هذا الأرضي الشوكي . فكتب أدي شير يقول إن الأرضي شوكي نبات معروف ، إنما الصيغة غريبة ، فلو كان الاسم عربياً لقليل الشوك الأرضي ، وهو معرب عن الفرنسية^(٩) . وتناقص الكلمة الأب أنستاس الكرملي ، فذكر أنها من الألفاظ التي اختلقها الياس بقطر في معجمه الفرنسي العربي ، وأن ليس لها وجود في العربية

ولم يعرفها أجدادنا ولم يذكروها في ديوان من دواوينهم^(١) . وكتبها صاحب « القاموس العصري » عربي - انجليزي في حقلين : أرضي شوكي ، وخرشوف ، وذلك عام ١٩٥٩ . كما ذكرها صاحب « المنجد » في طبعته الثانية والعشرين بعد عام ١٩٧٣ ، في مكانين أيضاً ونحت الاسمين . إلا أن صاحب « المورد » نسب الكلمة إلى أصلها العربي وذكر التفسيرين : الصحيح والمختلف .

إن القواميس الانجليزية الحديثة ، والمعاجم العربية القديمة ، على السواء ، تضم مفردات دخلت في السابقة من اللاحقة وبالعكس ، وقد تغيرت تلك الكلمات الدخيلة وفقاً للأنظمة اللغوية التي تتبعها كلتا اللغتين ، كما رأينا أعلاه . وسنقوم في هذه الدراسة المقتضية بالتعرف على الأصول التي انحدرت منها بعض تلك الكلمات ، وذلك في محاولة لتوضيح ما أنجزه أسلافنا في هذا الحقل قبل عدة قرون ، مع نماذج مما أضيف إلى الانجاز القديم لاحقاً . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، سنبين الكيفية التي يعالج بها اللغويون والأوربيون المعاصرون أصول مفرداتهم . وقد اخترنا لهذه الغاية « لسان العرب » الذي ألفه ابن منظور في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد (٦٣٠ - ٧١١ هـ) ، وهو كما يقول الدكتور نصار ، من أهم معاجم التراثية لاستقصائه الصيغ والمعاني ، واتساع المواد ، ومهولة ترتيب الأبواب والفصول ، وهو يعتبر أشمل المعاجم للألفاظ ومعانيها ، فقد جمع المفرق في المعاجم والمراجع التي سبقته^(٢) . كما اخترنا بالمقابل « قاموس ويستر الدولي الثالث الجديد » الذي رتب وأعد وفقاً لنظام حديث ، وأشرف على إعداده عدد كبير من اللغويين المتخصصين في علم اللغة الحديث بفروعه المختلفة ، بالإضافة إلى مستشارين من ذوي التخصص في حقول المعرفة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والفلسفة والعلوم السياسية والديانات والتاريخ وغيرها^(٣) . ويجد القارئ أدناه ثلاثة أنواع من الكلمات هي :

أ - كلمات عربية الأصل في « قاموس ويستر » .

ب - كلمات أوربية الأصل في « لسان العرب » .
ج - كلمات متداخلة .

كلمات عربية الأصل في « قاموس ويستر » :

الإنجليزية ، كما يقول أهلها ، أكثر اللغات قابلية لاستعارة الكلمات النافعة من كل الألسنة التي انتشرت من برج بابل إلى الإسكيمو^(٤) . وعلى الرغم من كثرة تلك الكلمات الدخيلة ، فإن اللغويين والباحثين الأوربيين المعاصرين ، استطاعوا أن يتوصلوا إلى تحديد أصول معظم المفردات الواردة في قواميسهم ، وصار بمقدور طالب المعرفة اليوم أن يتصفح القواميس الإنجليزية الحديثة وسواها من المراجع المشابهة ، ليجد عدداً كبيراً من المفردات التي ترجع إلى أصول عربية . وسوف نعرض أدناه نماذج من تلك المفردات ونبين إزاءها شيئاً مما ورد حولها من قبل المتخصصين في هذه الدراسات .

الغطاس : Alcatraz

or

Alcatraz

برتغالية أو إسبانية ، عن العربية : الغطاس . وهو طائر بحري كبير .

ملاحظة : لم يشر « لسان العرب » إلى طائر بهذا الاسم . (باب غطس) ولكن الدميري ذكره باسم الغواص ، وقال إنه طائر تسمية أهل مصر : الغطاس ، يوجد بأطراف الأنهار ، يغطس في الماء ويصطاد السمك فيفتق منه^(٥) . ومن الجدير بالذكر هنا ، أن قاموس « المورد » عرّب الكلمة على لفظها الأجنبي ، فكتب إزاءها : القطرس ، ثم شرحها ، (وقد لاحظت أن كلمة القطرس قد درجت على مستوى الإعلام العربي) .

المناخ : Almenac

إنجليزية عن اللاتينية عن العربية : المناخ ، وتعني

التقويم . ترادفها كلمة Calender التي تشترك بالتأسيس مع (low) بمعنى أصوات الحيوانات .

ملاحظة : المناخ في العربية هو الموضع الذي تنأخ فيه الإبل . (باب نوح) ، وتضغ علاقة الكلمة بالحيوان في كلتا اللغتين .

عنبر Amber :

إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن العربية : عنبر ؛ معناها القديم (Ambergis) يتفق مع المفهوم القائل بأن العنبر مادة شمعية عطرة توجد طافية في شواطئ البحار الإستوائية ويظن أنها تنشأ في أمعاء حوت العنبر . أما معناها الحديث فهو تلك المستحجرات الصمغية نصف الشفافة ذات اللون الأصفر الضارب للسمر ، وقد عربناها بكلمة : كهرمان ، كما ذكرنا سابقاً .

ملاحظة : العنبر وفقاً للسان العرب هو شيء دسره البحر . (باب عنبر) وتذكر المصادر العربية الأخرى أن حوت العنبر يسمى البال أو الوال ، وهو سمكة كبيرة في البحر الأعظم إذا شقوا بطنها استخرجوا منها العنبر^(١٤) .

إثمد Antimony :

إنجليزية عن اللاتينية عن العربية : إثمد ، شبيهة بالكلمة المصرية القديمة (sm) التي أعطت إلى إفريقية فاللاتينية ، مفردات أخذتها عنها الإنجليزية Subnita ، وهي مرادفة للكلمة أعلاه .

ملاحظة : يقول « لسان العرب » إن الإثمد حجر يتخذ منه الكحل . (باب ثمذ) وترادفها كلمة صدود (باب صدد) والصدود مادلكته على مرآة ثم كحلت به عيناً . ومن الملاحظ هنا أن جنر (صدد) مشابه للكلمة المصرية التي انحدرت عنها الكلمة الأوربية المرادفة .

عوار Average :

فرنسية عن الإيطالية عن العربية : عوار ، ومعناها

الحديث : معدّل ، وكانت تعني في قانون الملاحة ما يترتب دفعه كتمريض لما يصيب السفن التجارية من خلل أو ضرر نتيجة إبحارها .

ملاحظة : في « لسان العرب » العوار أو العوار يعني الحرق أو العيب أو الخلل . (باب عور) .

بغدادى Beldachin :

إيطالية عن العربية : بغدادى ، قماش منسوب إلى بغداد ، وتعني حديثاً النسيج الحريري المقصب ، كما تعني مظلة تحمل في المناسبات الدينية .

قندي Candy :

فرنسية وإيطالية عن العربية : قندي ، نسبة إلى القند وهو عصير قصب السكر إذا جمد ، وللكلمة علاقة بالسكربتية ولغات هندية أخرى . وتعني حديثاً : سكر نبات ، حلوى .

ملاحظة : لم يشر « ويستر » ولا « لسان العرب » إلى علاقة الكلمة بالفارسية ، لكن الجواليقي ويعدّه أدبي شير ، نسبها إلى تلك اللغة^(١٥) . وكذلك فعل « المنجد » .

قناة ، قصبه Cane :

إنجليزية عن الفرنسية عن البروفنسية عن اللاتينية عن الإغريقية ، من أصل سام ، مماثلة للعربية : قناة ، بمعنى قصبه أو عصا . وقد وردت من تأسيسها كلمات منها :

قناة ، يشق قناة Canal

قناة ، مجرى Channel

قناة ، أنبوب مجوف Cannon

تطلق خلاله القذائف .

ملاحظة : في « لسان العرب » القناة : الرمح ، وقيل : كل عصا مستوية فهي قناة ، وقيل : كل عصا مستوية أو معوجة فهي قناة . وقال أبو منصور : القناة من الرماح ما كان أجوف كالقصب ، ولذلك قيل للكظائم التي تجري تحت الأرض قنوات ، وأحدثها قناة ، ويقال لمجاري مائها قصب تشبيهاً بالقصب الأجوف . (باب قنا) .

صفر Cipher :

إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن العربية : صفر
Zero ، وتعني الكلمة أعلاه : حرفاً أو علامة رمزية ، بالإضافة
إلى معنى الصفر والفراغ .

ملاحظة : اعتدنا على استعمال كلمة شفرة أو شيفرة
لتعريبها ، وقد وضع صاحب « المورد » هذا اللفظ إزاءها
كواحد من معانيها .

قهوة Coffee :

إيطالية عن التركية عن العربية : قهوة .

ملاحظة : القهوة في « لسان العرب » تعني الخمر .
(باب قها) . وتذكر المصادر الحديثة أن القهوة بمفهومها الحالي
دخلت إلى الحضارة العربية في القرن الخامس عشر للميلاد ،
ومنها انتقلت إلى أوروبا . وقد أسس أول مقهى في لندن عام
١٦٥٢ م^(١) . علماً بأننا مازلنا نلفظ الكلمات الواردة من نفس
التأسيس بصيغها الأجنبية فنقول مثلاً : كافيتريا ، كافاين .

قرمزي Crimson :

إنجليزية عن الأسبانية عن العربية : قرمز Karmoz .
والكلمة أعلاه منسوبة إليه .

ملاحظة : لم يشر « ويستر » أعلاه إلى اللغة الفارسية
كأصل لهذه الكلمة ، ولكن « لسان العرب » يذكر أن القرمز
فارسي معرب . (باب قرمز) ويذكر كل من الجواليقي
والخفاجي أن الكلمة معربة^(٢) .

كركم Crocus :

لاتينية عن الإغريقية عن اللغات السامية ، لها مماثل في
الآشورية البابلية بمعنى زعفران ، وكذلك في العبرية والآرامية
والعربية .

ملاحظة : الكلمة كما هو واضح أعلاه وليدة المنطقة
العربية ، ولكن « لسان العرب » يشير إلى قول بعضهم بأنها

فارسية . (باب كركم) ، كما يذكر الخفاجي أن الكلمة
معربة^(٣) .

ددا Dado :

إنجليزية عن الفرنسية عن العربية ، دد بمعنى لعب ،
وتطلق حالياً في فن العمارة على جزء من قاعدة العمود ، أو على
الجزء الأدنى المزخرف من جدار الغرفة . وورد من تأسيسها :
Die وجمعها Dice وتطلق على مكعبات النرد التي تستعمل في
اللعب .

ملاحظة : الدد في « لسان العرب » تعني اللهو واللعب .
(باب دد ، ددا) ومن الملاحظ أن هذه الكلمة لم تعد مستعملة في
لساننا اليوم ، ويحتمل أن كلمة (داس) التي نستعملها على
مستوى شعبي في اللعب مأخوذة عن اللفظ الأجنبي لكلمة dice
أعلاه .

دمشقي Damask :

إنجليزية عن اللاتينية : دمشقي ، قماش منسوب إلى
دمشق .

ملاحظة : يفسرها اللغويون العرب بكلمة :
دمقس^(١) . ويذكر « لسان العرب » أنهم قالوا للإبريسم ديمقس
ودقمس (باب ديمقس) لكنه لم يشر إلى علاقة الكلمة بدمشق .

زرافة Giraffe :

إيطالية عن العربية ، ويحتمل أن تكون مصرية ،
إفريقية .

ملاحظة : يتفق ماورد في « ويستر » أعلاه مع الذي جاء
في « لسان العرب » إذ يقول إن الزرافة دابة حسنة الخلق من
ناحية الحبش . (باب زرف) لكنني أدي شير يذكر أن الكلمة
فارسية ومنها أخذ الآرامي والفرنسي والإيطالي^(٢) .

جبس Gypsum :

لاتينية عن الإغريقية من أصل سام ، مماثلة لكلمة

(جيس) العربية ، وتعني الجيس أو الجص .

ملاحظة : الكلمة كما هو واضح أعلاه وليدة منطقتنا ، ولكن الخفاجي يقول إن الكلمة معربة ، ويقول أدبي شير إنها معربة عن اليونانية^(١١) .

الزهر Hazard :

إنجليزية عن الفرنسية عن العربية : الزهر ، بمعنى زهر الترد أو الكعب الذي يلعب به . وتعني الكلمة حالياً : لعبة الحظ أو المصادفة أو المجازفة^(١٢) .

جرة Jar :

فرنسية عن البروفنسية عن العربية : جرة .
ملاحظة : في « لسان العرب » : الجرّة : إناء من خزف كالنفخار : (بساب جرر) ، لكن أدبي شير ينسبها إلى الفارسية^(١٣) .

العود Lute :

إنجليزية عن الفرنسية عن البروفنسية عن العربية : العود ، آلة الطرب المعروفة .

مسّ Message :

فرنسية عن العربية : مسّ ، بمعنى ضرب ، وتعني حديثاً التدليك الطبي .

ملاحظة : مسته في « لسان العرب » ، أمسه مساً ومسيساً : لمسته ، ويقال : مسست الشيء أمسه مساً إذا لمسته بيديك ، ثم استعير للأخذ والضرب لأنها باليد . (باب مسس) . لكن أحد الباحثين المعاصرين وضع كلمة (مسد) مقابلة لها^(١٤) . كما أن صاحب « المنجد » استعمل كلمة (مسد) للمعنى المستحدث إزاء الكلمة في اللغات الأوربية .

غبر Mohair :

إيطالية عن العربية : غبر ، وهو نسيج من وبر معزة

أنقرة .

ملاحظة : اعتدنا أن نلفظ الكلمة أعلاه على صيغتها الأجنبية فنقول : موهر ، كما نلفظ القماش المشابه على صيغته الأوربية أيضاً فنقول : انكورا ، وهو اللفظ الأوربي لكلمة : أنقرة عاصمة تركيا .

موصلي Mousli :

فرنسية عن الإيطالية عن العربية : موصلي : قماش منسوب للموصل ، وتطلق الكلمة حالياً على نسيج قطني رقيق .
ملاحظة : اعتدنا أن نلفظ الكلمة على صيغتها الأجنبية فنقول : موصلين ، كما أن صاحب « المنجد » نسبها إلى الفرنسية . (باب موس) .

راحة Racht :

فرنسية عن العربية : راحة اليد ، وتعني حالياً مضرب الكرة .

رزمة Ream :

إنجليزية عن الفرنسية عن العربية : رزمة .
ملاحظة : الرزمة في « لسان العرب » ما شد من الثياب في ثوب واحد . وقد رزمتها ترزماً إذا شدتها رزماً . (باب رزم) . لكن الخفاجي يضعها مع الدخيل^(١٥) .

رطل Rotla :

ينسبها « ويستر » إلى العربية .
ملاحظة : الرطل في « لسان العرب » هو الذي يوزن به ويكال . (باب رطل) ، لكن أدبي شير يقول : لست أدري هل أصله يوناني أم فارسي^(١٦) .

زيتوني Stain :

إنجليزية عن الفرنسية ، يحتمل أن تكون من أصل عربي ، تدل على قماش حريري منسوب إلى زيتون ، وهو مرقا

صيني عرف في العصر الوسيط ، وصفه الرحالة الإيطالي ماركوبولو (١٢٥٤ - ١٣٢٣ م) بأنه أعظم الموانيء في الشرق . وتدل الكلمة حالياً على نوع من القماش الحريري الصقيل .

ملاحظة : يشير الجغرافي العربي ياقوت الحموي (١١٧٩ - ١٢٢٩ م) إلى مدينة باسم : زيتان ، ويقول إنها تقع إلى الشرق ناحية أرجان المشهورة بصناعة الحرير^(٣) . علماً بأننا نسمي هذا القماش في الوقت الحاضر بلفظه الأجنبي : ساتان .

سكة Sequin :

فرنسية عن الإيطالية عن العربية : سكة ، وتطلق على نقد إيطالي تركي قديم ، كما تطلق على قطع معدنية لصافة تزين بها الملابس .

ملاحظة : ترجمها أحد الباحثين المعاصرين على لفظها ونسبها إلى التركية^(٣) .

سواد Soda :

إيطالية عن اللاتينية عن العربية : سواد بمعنى الحرص الذي تستخرج منه هذه المادة .

ملاحظة : من المعروف أننا أخذنا الكلمة على لفظها الأجنبي قلنا : صودا .

عتابي Tabby :

فرنسية عن اللاتينية عن العربية : عتابي ، نسبة إلى العتابة وهي إحدى محلات بغداد القديمة . وتعني الكلمة حالياً نوعاً من القماش الحريري الموج أو المخطط ، كما تطلق على الحر الرماذي المخطط .

إن النماذج المبينة أعلاه لتظهر أن « قاموس ويستر » قد تتبع مسيرة تلك الكلمات عبر اللغات التي تداولتها ، ثم نسبها أخيراً إلى اللغة العربية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن « لسان العرب » ذكر أصولاً أجنبية لاثنين فقط هما : قرمز وكركم . لكن المصادر العربية اللاحقة نسبت أكثر من ثلث تلك

الكلمات (١٠ من أصل ٢٩) إلى لغات أجنبية . وسوف نرى في الفقرة التالية مجموعة أخرى من المفردات الواردة في « لسان العرب » وما يقابلها في « قاموس ويستر » .

كلمات أوربية الأصل في « لسان العرب » :

اللغة العربية ، كما قلنا ، لغة حية أعطت الكثير كما أخذت الكثير أثناء مسيرتها الحضارية عبر القرون ، وهي وريثة جميع اللغات التي سادت المنطقة خلال حقب التاريخ التي مرت بها ، فقد استوعبتها وطغت عليها منذ ظهور الإسلام وحتى يومنا هذا ، إذ أنها اللغة الوحيدة ، من بين تلك اللغات ، التي استمرت على الصعيدين الديني والسياسي ، وواصلت تطورها على الصعيدين الثقافي والإقتصادي^(٣) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن اللغة العربية غنية بتراتها المسجل في المجالات اللغوية والأدبية الغزيرة التي احتوتها ، متبعاً ما ذكره القدماء حول هوية تلك الكلمات ، ومستفيداً في الوقت ذاته من الدراسات الأوربية الحديثة ، للتوصل إلى تحديد الأصول التي انحدرت عنها . وسوف نعرض أدناه نماذج من الكلمات التي أشار السلف إلى كونها دخيلة أو معربة ، ونذكر شيئاً مما ورد حولها في مراجعنا القديمة ، وما استجد من قول في المصادر اللاحقة المتوفرة لدينا . وسنرمز إلى « لسان العرب » اختصاراً بحرفي : ل ع ، كما أننا لاندكر ماورد في كتاب أبي نصر الجواليقي المشار إليه سابقاً إلا إذا خالفه « لسان العرب » لأنه واحد من المصادر التي اعتمد عليها .

دينار :

ل ع : الدينار فارسي معرب . قال أبو منصور : دينار وقيراط وديباج أصلها أعجمية ، غير أن العرب تكلمت بها قديماً فصارت عربية . (باب دئر) .

يقول الخفاجي إن الكلمة معربة عن الفارسية^(٣) ويذكر صاحب المنجد أنها لاتينية .

ملاحظة : تقابلها في « ويستر » : Dinarius لاتينية .

عسكر :

كَنْدَر :

ل ع : العسكر الجمع ، فارسي ، وعسكر بالمكان :
تجمع ، والعسكر مجتمع الجيش ، والعسكر : الجيش ،
والموضع المسكر . (باب عسكر) .
يقول الخفاجي انها معربة عن الفارسية^(٣١) . ويذكر
« المنجد » أيضاً أنها فارسية .

ملاحظة : تقابلها في « قاموس ويستر » Escort فرنسية عن
الإيطالية عن اللاتينية ، وتعني جمعاً من المسلحين للحراسة أو
الحماية أو المرافقة للتكريم .

مرمر :

ل ع : المرمر : الرخام ، وفي الحديث : كأن هناك
مرمرة ، هي واحدة المرمر ، وهو نوع من الرخام الصلب .
(باب مرر) .

يذكر « المنجد » أنها يونانية .

ملاحظة : تقابلها في « ويستر » Marble إنجليزية عن
الفرنسية عن اللاتينية عن الإغريقية .
أنجر :

ل ع : الأنجر : مرسة السفينة ، فارسي معرب ، وفي
التهذيب : هو اسم عراقي . (باب نجر)
يقول « المنجد » : فارسية .

قسطر :

ل ع : القسطر والقسطري والقسطار : متقد الدراهم .
وفي التهذيب : الجهد ، بلغة أهل الشام ، وهم القساطرة .
(باب قسطر) .

ملاحظة : يقابلها في « ويستر » Tester إنجليزية عن
الفرنسية عن اللاتينية . وتعني الشخص الذي يختبر أو يفحص أو
يحلل المعادن أو المواد^(٣٢) .

قيصر :

ل ع : قيصر اسم ملك يلي الروم ، وقيل : قيصر ملك
الروم . (باب قاصر) .

ملاحظة : تقابلها في « ويستر » Caesar لقب أباطرة
الرومان بعد أوغسطس قيصر . وقد أخذت (العملية
القيصرية) اسمها من نفس الكلمة .

كبر :

ل ع : الكبر الأصف ، فارسي معرب . والكبرنيات له
شوك . (باب كبر) .

يقول أدبي شير إن الكلمة فارسية^(٣٣) . ولكن المنجد يذكر
أنها إغريقية .

ملاحظة : تقابلها في « ويستر » Coper إنجليزية عن
اللاتينية عن الإغريقية .

خندريس :

ل ع : الخندريس : الحمر القديمة ، قال ابن دريد :
أحسبه معرباً ، سميت بذلك لقدمها . (باب خندرس) يقول

خندريس :

الخفاجي إنها رومية معربة ، ويذكر الكرملّي وكذلك صاحب المنجد ان الكلمة يونانية^(٣٨) .

ملاحظة : تقابلها في « ويستر » Cantharus لاتينية عن الإغريقية ، وتطلق على كأس مصنوعة على شكل نخاص ، وكان الإغريق يطلقونها على جرن الشراب المقدس .

مغنطيس :

ل ع : المغنطيس : حجر يجذب الحديد ، وهو معرب . (باب غطس) .

يقول « المنجد » : يونانية .

ملاحظة : تقابلها في ويستر Magnet ، وهو حجر منسوب الى مدينة مغنيزيا في آسيا الصغرى . وقد دخلت الكلمة في الانجليزية عن الفرنسية التي أخذتها عن اللاتينية عن الإغريقية .

قبرصي :

ل ع : قبرس موضع ، قال ابن دريد : لا احسبه عربياً ، وفي التهذيب : في ثغور الشام موضع يقال له قبرس . والقبرسي من النحاس أجوده ، قال : وأراه منسوباً إلى قبرس هذه . (باب قبرس) .

ملاحظة : تقابلها Copper إنجليزية عن اللاتينية عن الإغريقية ، وتعني النحاس ، نسبة إلى قبرص في البحر الأبيض المتوسط .

كيموس :

ل ع : الكيموس في عبارة الأطباء هو الطعام إذا انهمض في المعدة قبل أن ينصرف عنها ويصير دماً ، ويسمونه أيضاً : الكيلوس . قال أبو منصور : لم أجد فيه من كلام العرب المحض شيئاً صحيحاً ، قال : وأما قول الأطباء في الكيموسات وهي الطبائع الأربع فكانها من لغات اليونانيين . (باب كمس) .

يقول الخفاجي إن الكلمة معربة ، ويذكر المنجد انها يونانية^(٣٩) .

ملاحظة : تقابل كيموس Chyme وكيلوس Chyle وكلتاها من أصل إغريقي .

دلفين :

ل ع : الدلفين سمكة بحرية ، وفي الصحاح : دابة في البحر تنجي الغريق . (باب دلف) . يذكر « المنجد » أنها يونانية .

ملاحظة : تقابلها Dolphin إنجليزية عن الفرنسية عن البروفنسية عن اللاتينية عن الإغريقية .

فلسفة :

ل ع : الفلسفة : الحكمة ، أعجمي ، وهو الفيلسوف وقد تفلسف . (باب فلسف) . قال « المنجد » : يونانية^(٤٠) .

ملاحظة : تقابلها في ويستر Philosophy إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن الإغريقية . تتكون من مقطعين بمعنى : حب الحكمة .

بطريق :

ل ع : البطريق بلغة أهل الشام والروم : هو القائد . معرب ، وقيل : البطريق العظيم من الروم . (باب بطرق) . ذكر الخفاجي أن البطريق قائد الروم وهو معرب ، وقال أدي شير إنها رومية^(٤١) .

ملاحظة : تقابلها في « ويستر » Patrician إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية .

ترياق :

ل ع : الترياق معروف ، فارسي معرب ، هو دواء السموم لغة في الترياق ، والعرب تسمي الحمر ترياقاً لأنها تذهب بالهم . (باب ترق) . يذكر المنجد أنها يونانية .

ملاحظة : تقابلها في ويستر Theriaca;treacle لاتينية بمعنى مضاد للسم .

بطرك :

ل ع : البطرك : معروف مقدم النصارى . قيل : وهو دخيل . (باب بطرك) .

ملاحظة : تقابلها في « وستر » *Patriarch* إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن الإغريقية ، وهي تشترك بالتأسيس مع *Patrician* أعلاه وكناتهما من تأسيس كلمة بمعنى أب *Father* .

إصطبل :

ل ع : الإصطبل موقف الدابة ، وفي التهذيب : موقف الفرس ، شامية ، وقال أبو عمرو : الإصطبل ليس من كلام العرب . (باب اصطبل) .

قول الخفاجي إنها معربة ، ويذكر الكرمل أنها يونانية^(١) ويقول « المنجد » : لاتينية .

ملاحظة : تقابلها *Stable* إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية .

بال :

ل ع : البال سمكة غليظة تدعى جل البحر ، وقيل : البال الحوت العظيم من حيتان البحر ، وليس بعربي . (باب بول) .

ويذكر الجواليقي أن البالة سمكة تكون بالبحر الأعظم يبلغ طولها خمسين ذراعاً يقال لها العنبر ، وليس بعربية ، ويقول إن بعض من ركب في البحر يسميها (وال) كأنها أصربت فقيل : بال . ويذكر الخفاجي أن البالة سمكة عظيمة ويقال إن أصلها والة . كما يذكره الهميري ويقول إنه ليس بعربي ، ويذكر أدي شير أنها يونانية^(٢) .

ملاحظة : تقابلها في « وستر » *Whale* إنجليزية مماثلة لكلمات جرمانية قديمة ولاتينية .

بالسة :

ل ع : البالة : القارورة والجراب ، وقيل وعاء الطيب ، فارسي معرب . (باب بول) ، يقول الخفاجي إن البالة هي

الجراب ، معرب في قول . ويذكر أدي شير أن البالة وعاء الطيب والقارورة والجراب ، وينسبها إلى الفارسية^(٣) . ويقول « المنجد » إنها إيطالية .

ملاحظة : تقابلها *Bale* إنجليزية عن الفرنسية عن الجرمانية ، بمعنى رزمة .
زنجبيل :

ل ع : الزنجبيل : مما ينبت في بلاد العرب بأرض عمان ، وهو عروق تسري في الأرض ، يؤكل رطباً كما يؤكل البقل ، ويستعمل يابساً ، وأجوده مايؤتى به من الزنج وبلاد الصين . وزعم قوم أن الخمر تسمى زنجبيل . (باب زنجبيل) .

يقول أدي شير إنها معربة عن الفارسية^(٤) . ويذكر « المنجد » أيضاً أنها فارسية .

ملاحظة : تقابلها *Ginger* إنجليزية عن اللاتينية عن الإغريقية *Zingiber* وربما كانت معدلة عن السنسكريتية .

قرنفل :

ل ع : القرنفل والقرنفول : شجر هندي ليس من نبات أرض العرب ، ذكره امرؤ القيس في شعره . (باب قرنفل) . يقول « المنجد » : يونانية .

ملاحظة : تقابلها *Caryophyllus* فرنسية عن الإيطالية عن اللاتينية *Caryophyllus* .

إنجيل :

ل ع : الإنجيل كتاب عيسى على نبينا وعليه السلام ، هو اسم عبراني أو سرياني ، وقيل هو عربي . (باب نجل) . يذكر الجواليقي بأن الكلمة معربة ، ويقول الكرمل بأنها يونانية^(٥) . ويقول « المنجد » يونانية .

ملاحظة : تقابلها في « وستر » *Evangel* إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن الإغريقية .

بلغم :

ل ع : البلغم خلط من أخلاط الجسد ، وهو أحد الطبائع

الأربعة . (باب بلغم) .

ملاحظة : تقابلها في « ويستر » Phlegm إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن الإغريقية .
درهم :

ل ع : الدرهم : فارسي معرب ، وجمع الدرهم دراهم . (باب درهم) .

يقول أدي شير ان الدرهم تعريب دَوم ، ومنه اليوناني والسرياني^(١) . ويذكر المنجد أنها يونانية .

ملاحظة : تقابلها في « ويستر » Drachma لاتينية عن الإغريقية .

إقليم :

ل ع : الإقليم : أحد الأقاليم السبعة ، وأقاليم الأرض أقسامها . قال ابن دريد : لا أحسب الإقليم عربياً ، قال الأزهري : وأحسبه عربياً . (باب قلم) .

يقول « المنجد » : يونانية .

ملاحظة : تقابلها Clima إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية ، وتعني وفقاً للقدمى ، أحد أقسام الأرض السبعة التي يقع كل منها ضمن حكم كوكب من الكواكب . وتعني حالياً : المناخ ، أو الاقليم ذا المناخ الخاص .

صابون :

ل ع : الصابون الذي تغسل به الثياب ، معروف ، وليس من كلام العرب . (باب صبن) .

يقول أدي شير أن الصابون وارد بالفارسية والتركية والكردية ، وهو في الرومية Sapo وفي الإنجليزية Soap وصيغته آرامية ، والعلم عند الله^(٢) ويقول « المنجد » : فارسية .

ملاحظة : تقابلها Soap إنجليزية مشابهة لكلمات واردة في الجرمانية واللاتينية .

فرن :

ل ع : الفرن الذي يخبز عليه الفرن ، وهو غير التنور ، قال ابن دريد : الفرن شيء يختبئ فيه ، ولا أحسبه عربياً ، وقال

غيره : الفرن : المخبز ، شامية . (باب فرن) .

يلذكر الخفاجي أن الكلمة معربة^(٣) . ويقول « المنجد » إنها لاتينية .

ملاحظة : تقابلها Fumenco إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية .

قلية :

ل ع : القلية كالصومعة ، واسمها عند النصارى القلاية وهي تعريب كلافة ، وهي من بيوت عبادتهم . (باب قلا) .
يقول الخفاجي إنها رومية^(٤) ويذكر « المنجد » أنها يونانية .

ملاحظة : تقابلها في ويستر Cell إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية ، وتعني حجيرة منزلة ، صومعة .

إن المعلومات الواردة حول الكلمات الدخيلة أعلاه لتظهر أن « لسان العرب » اعتماداً على من سبقه من اللغويين والباحثين ، استطاع أن يميز معظم الكلمات الدخيلة أو المعربة ، كما تمكن أن يميز الأصول الأوربية لعدد منها بالإشارة الى كونها يونانية أو رومية أو مستعملة في الشام وذلك لقرب الشام من بلاد الروم وعلاقتها القديمة بهم . وقد حصل التباس بنسبة عدد من الكلمات المنحدرة من أصول أوربية إلى اللغة الفارسية ، ويمكن ان يعزى ذلك إلى عدم توفر مصادر مكتوبة يعتمد عليها آنذاك مما جعل المشتغلين في هذا الحقل يعتمدون على الاجتهاد^(٥) ، ووقع مثل ذلك الالتباس في المصادر العربية اللاحقة ، كما رأينا أعلاه ، بما في ذلك « قاموس المنجد » في السبعينات ، فإن هذا القاموس ، وإن كان أقربها جميعاً إلى الصواب في تعيين الكلمات المنحدرة من أصول أوربية ، إلا أن اعتماده على الاجتهاد ، كما أخبرنا أصحابه في المقدمة^(٦) جعله لا يخلو من الالتباس . كل ذلك يبرز القول بأننا مفتقرون إلى دراسات علمية تعيد النظر وتجليو الغموض والالتباس في هذا الحقل .

كلمات متداخلة :

نقصد بالكلمات المتداخلة تلك الكلمات التي انتقل -

لغتها الأم إلى لغة أخرى ، وطراً عليها تغيير بعد خضوعها لنظام اللغة الجديدة ، ثم استحدثت ظروف أصادت بعض تلك الكلمات إلى لغتها الأصلية ، فلم يتعرف عليها أهلها لأول وهلة ، وأخذوها بصيغتها المستحدثة وربما بدالاتها المستحدثة واعتبروها دخيلة ، كما رأينا في النماذج التي عرضناها في مستهل هذه المقالة . إلا أن الدراسات اللغوية المعاصرة صححت كثيراً من أخطاء الماضي وعينت مسيرة الكلمة بين لغتين أو أكثر وحددت الأصل الذي انحدرت منه . ويجد القاري أدناه عدداً من الكلمات المتداخلة بين العربية واللغات الأوربية ، معتمدين بذلك على « قاموس ويستر » وذاكرين في الوقت نفسه ماورد حول الكلمة في « لسان العرب » وفي سواء من المصادر العربية اللاحقة .

الكيمياء : Alchemy, Chemistry :

إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن العربية :
الكيمياء ، عن الإغريقية .
ل ع : الكيمياء معروفة مثل السيمياء : اسم صنعة ، قال الجوهري : هو عربي ، وقال ابن سيّد : أحسبها أصحجية . (باب كمي) .
يقول الخفاجي أن كيمياء لغة مولدة من اليونانية ، وأصل معناها الحيلة والخلق^(١) ، ويذكر « المنجد » أيضاً أنها يونانية .

المصطكا : almecio, mastic :

إسبانية عن العربية : مصطكا ، عن الإغريقية .
ل ع : المصطكا : العلك الرومي ، وليس بسرري . (باب مصطك) .
يقول الخفاجي إن الكلمة دخيلة تكلمت بها العرب^(٢) .
ويذكر « المنجد » أنها يونانية .

ألوة : Aloa :

إنجليزية عن اللاتينية عن الإغريقية ، يحتمل أن تكون من أصل سام ، مماثلة لكلمة عبرية ، ربما كانت مأخوذة من

السنسكريتية .

ل ع : الألوة : العود الذي يتبخريه . فارسي معرب . (باب ألا) .

يلذكر أدي شير أن الألوة وفقاً للأصمعي ، هو فارسي معرب ، وهو الصير ، كما يقول إن الأب انستاس الكرمليني نسبها إلى اليونانية ، ويضيف بأن اليوناني مأخوذ من الآرامي ، لاعتقاده بأن أصله من اللغة^(٣) .

الجماعة : Amalgam :

إنجليزية عن الفرنسية من اللاتينية عن العربية :
الجماعة ، وتعني الكلمة الزئبق المزوج بمعدن من المعادن وهو مانسميه بالملغم .

ل ع : الملغم كل ج وشر ذواب كالذهب ونحوه بالزأروق . (باب لغم) .

ملاحظة : يتضح مما ورد أعلاه أن كلمة (الجماعة) العربية أطلقت في اللغات الأوربية على جمع الزئبق بمعدن آخر ، وتغير اللفظ فأصبح كما نراه في الانجليزية ، ومن المحتمل أن الكلمة الأوربية عادت إلى العربية بلائها الجديد ومعناها المستحدث فقلنا : ملغم . لكني لم أجد في « لسان العرب » أو المصادر اللاحقة شيئاً يحول أصل الكلمة .

برنس : Rumous :

فرنسية عن العربية : برنس ، عن الإغريقية .
ل ع : البرنس كل ثوب رأسه ملتزق به ، دراعة كان أو معطراً أو جبة . ويقول الجوهري : البرنس ثلثسوة طويلة وكان النساءك يلبسونها في صدر الإسلام ، وقد تبرز الرجل إذا لبسه ، قال : وهو من البرنس ، وهو القطن ، والنون زائدة ، وقيل إنه غير عربي . (باب برنس) .
يلذكر الخفاجي أن البرنس لباس مع وف ، وهو غير عربي ، ويقول الكرمليني إن الكلمة لاتينية^(٤) .

ملاحظة : تشترك الكلمة أعلاه بالتأسيس مع كلمة Brette ، ومن المعروف أننا أخذنا هذه الكلمة على لفظها ومعناها

واستعملناها في اللباس العسكري فقلنا : بيرئة ، وفسرها صاحب « المورد » بكلمة : بيرئة ، ويقول إنها قلنسوة مربعة يعتمد بها رجال الدين الكاثوليك .

قالب Calber :

فرنسية عن الإيطالية عن العربية : قالب ، يحتمل أنها عن الإغريقية .

ل ع : القالب والقالب : الشيء الذي تفرغ فيه الجواهر ليكون مثلاً لما يصاغ منها ، وكذلك قالب الخف ونحوه ، وهو دخيل . (باب قلب) .

يقول أدبي شير إن القالب معرب كالب ، وإن الفارسي مأخوذ عن اليوناني^(٣٧) .

قنب Cannabla, hemp :

لاتينية عن الإغريقية والآرامية ، ليست من أصل اللغات الهندية أوروبية .

ملاحظة : تقابلها في « لسان العرب » : القنب ، وهو الأبق ، عربي صحيح ، والقنب : ضرب من الكتان . (باب قنب) .

يذكر أدبي شير أن القنب معربة عن الفارسية ، ومنها السرياني ومن السرياني مأخوذ اليوناني فالرومي^(٣٨) . يقول « المنجد » : يونانية .

قانون Canon :

إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن الإغريقية من أصل سام ، تشترك بالتأسيس مع كلمة Cano المماثلة لكلمة : قناة العربية .

ملاحظة : تقابلها في « لسان العرب » : قانون ، والقوانين الأصول ، الواحد قانون ، وليس بعربي . (باب قنن) .

ويقول الخفاجي : إن (قانون) لفظ رومي معرب ،

معناه الأصل والقاعة ، وأصل معناه المسطرة ثم سمي به آلة من آلات الطرب على التشبيه كأنه مسطر مخروجات النغم^(٣٩) . ويذكر « المنجد » أنها يونانية .

قيراط Carat, Karat :

يحتمل أن تكون لاتينية عن العربية : قيراط ، عن الإغريقية .

ل ع : القيراط والقيراط من الوزن معروف وهو نصف دانق ، والقيراط جزء من أجزاء الدينار . وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين . قال أبو منصور : دينار وقيراط وديجاج أصلها أعجمية غير أن العرب تكلمت بها قديماً فصارت عربية (باب قرط) ، يقول المنجد إنها يونانية .

كرويا Carway :

إنجليزية عن اللاتينية عن العربية (كرويا) عن الإغريقية .

ل ع : الكرويا من البزر ، وليست عربية . (باب كرا) . يقول « المنجد » إنها يونانية .

دفتر Dafter :

هندية بمعنى سجل ، عن الفارسية ، عن العربية : دفتر ، عن الإغريقية بمعنى رِقْ أو جلد ، من تأسيس Diphtheria ، مماثلة لكلمة آرامية بمعنى : دف أو طبل بسبب جفاف الأغشية المتسبب عن المرض . (مرض الخناق) .

ملاحظة : تقابلها في « لسان العرب » كلمة : دفتر ، والدفتر يعني جماعة الصحف المضمومة ، ويقول الجوهري إن الدفتر واحد الدفاتر وهي الكراريس . (باب دفتر) .

يذكر أدبي شير أن بعضهم ينسب الدفتر للفارسية ، ولكنه يرجح الأصل اليوناني^(٤٠) ، يقول « المنجد » إنها فارسية .

زمرّد Emerald :

إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن الإغريقية ،
يحتمل أنها من أصل سام ، مماثلة لكلمة عبرية .

ملاحظة : تقابلها في « لبيان العرب » زبرجد ، زبردج ،
وزمرّد ، والزمرّد معروف ، واحدته زمرّة . (باب زمرّد) .

يقول الخفاجي إن اللفظ «عرب»^(١) . ويقول المنجد إنه
فارسي .

غربل Garbio :

إنجليزية عن الإيطالية عن العربية : غربل ، عن
اللاتينية .

ل ع : غربل الشيء : نخله ، والغربال ماغربل به .
(باب غربل) .

يذكر الخفاجي أن اللفظ «عرب»^(٢) .

قنطار Kantar, quintal :

إنجليزية عن الفرنسية عن اللاتينية عن العربية : قنطار ،
عن الإغريقية ، ويساوي ١٠٠ كغم ، علماً بأن الكلمة اللاتينية
تعني مائة .

ل ع : القنطار : معيار ، قيل وزن أربعين أوقية من
ذهب ، وقيل ألف ومائة دينار ، وهو بلغة بربر ألف مثقال من
ذهب أو فضة . قال أبو عبيدة : القناطير واحدها قنطار ،
ولانجد العرب تعرف وزنه ولا واحد من لفظه . (باب قنطر) .

إن النماذج التي قدمناها أعلاه ، لتظهر بجلاء مدى الجهد
الذي بذله الباحثون الأوربيون المعاصرون في هذا الحقل لكي
يتوصلوا إلى النتائج التي نصت عليها قواميسهم الحديثة ، علماً
بأن الدراسات الأوربية المعاصرة في هذا المجال لا تعتمد على
وجود تشابه لفظي ، أو لفظي معنوي بين كلمات من لغات
مختلفة لكي تقرر أن تلك الكلمات قد استعيرت أو انتقلت من
لغة إلى أخرى ، حيث أن هذا العامل وحده لا يكفي مالم يدعمه

شاهد مادي في مصدر أو وثيقة من الوثائق يثبت وجود كلمة من
الكلمات في لغة من اللغات سابقاً ، ثم انتقالها إلى اللغة الأخرى
بشكل من الأشكال ، فإذا لم تكن مثل تلك الوثيقة متوفرة ،
اكتفى الباحثون بالقول إن الكلمة مشابهة لما ورد في لغات
أخرى ، وإذا لم يجدوها في أصول لغاتهم ، اكتفوا بالقول إنها
ليست من أصل اللغات الأوربية ، أو قالوا إنها مجهولة الأصل .
فكلمة Cannabis كما رأينا أعلاه ، وجدت في وثائق آرامية
وإغريقية بنفس ، وهي ليست من أصل اللغات الهندية أوربية ،
كما لا توجد أدلة تؤكد أنها آرامية أو محدد أصلها ، لذلك اكتفي

بذكر المعلومات الموثقة فقط . وكلمة (اب ، أبا) دخلت من
اللغة الآرامية إلى الإغريقية عند ترجمة الأسفار المقدسة ،
فأصبحت تحمل مدلولات دينية انتقلت معها إلى اللغات الأوربية
الحديثة مثل abbot, abbey وغيرهما^(٣) . وكلمة سكر Sugar دخلت
من العربية إلى اللغات الأوربية عن طريقين ، فقد أخذتها
الإيطالية في صقلية خالية من أداة التعريف العربية فكانت
Zucchero ، وأخذتها إسبانيا محلات بآل وهي a Zucar ، وكان
ذلك إبان الفتح العربي ، وتشير المصادر الأوربية الحديثة إلى
مئات الكلمات الحضارية : علمية وفنية وعمرانية وزراعية
وغيرها ، دخلت إلى أوروبا في تلك الفترة المشرقة من تاريخنا ،
منقولة عن العربية^(٤) . وتحدث المصادر عن مجموعة أخرى من
المفردات التي استعارتها أوروبا من لغات منطقتنا بما في ذلك أسماء
حروف الألف باء وطريقة كتابتها^(٥) ومازالت الدراسات
متواصلة في هذا الحقل وسينكشف المزيد من المعلومات المتعلقة
بأصول الكلمات . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن
النماذج المعروضة في الصفحات السابقة ، لتشير إلى أن لغتنا
العربية قد استعارت عدداً من الكلمات النافعة من الألسنة
الأخرى ، بما في ذلك اللغات الأوربية ، وقد عرّبت تلك
الكلمات لتوافق أنظمتها ، ووجدت طريقها إلى الكلام العربي
والشعر العربي منذ أقدم الأزمنة . واستطاع أسلافنا أن يميزوا
معظم تلك الكلمات الدخيلة ، كما رأينا أعلاه ، كما أنهم حددوا

أصول عدد من المفردات الأوربية بالإشارة إلى كونها يونانية أو رومانية أو أنها مستعملة في الشام ، تنقل أدناه نماذج ما ذكرناه سابقاً وهي مستمدة من « لسان العرب » كما قلنا :
قسطر : القسطر متقد الدراشم ، وفي التهذيب الجهبذ ، بلغة أهل الشام .

گندر : الكندر ضرب من حساب الروم .

كيموسات : كأنها من لغات اليونانيين .

بطريق : البطريق العتليم من الروم .

اسطبل : الاسطبل : موقف النرس ، شامية .

فرن : الفرن : الذي يختبئ عليه ، شامية .

لكن عدم توفر مصادر مكتوبة آنذاك ، أوقع التباساً في التعرف على أصول الكثير من تلك الكلمات فنسبت إلى الفارسية ، أو قيل إنها أعجمية أو معربة أو ليست من كلام العرب . وقد تمكن بعض اللغويين اللاحقين أمثال أدي شير والكرملي وأصحاب قاموس « المنجد » ، من تعيين جانب من

الكلمات الأوربية . إلا أن مبدأ الاجتهاد ظل سائداً حتى مع أصحاب « المنجد » في السبعينات ، وبقيت كلمات مثل : أنجر ، إغريز ، صابون ، دقتر ، وغيرها ، تنسب للفارسية على الرغم من وجود أصولها في اللغات الأوربية ، كما أن أصحاب ذلك القاموس الحديث ، لم يلتزموا كما وعدوا في المقدمة ، بذكر أصول الكلمات الأوربية المستحدثة الواردة في متنها ، بل أشاروا إلى بعضها وتركوا البعض الآخر ، مما يسبب الارتباك لدى من يعتمدون عليه وهم كثراً^(١) .

وختاماً نقول بأن مجامعنا التراثية وما يتعلق بها من كتب لغوية ، بحاجة إلى دراسة علمية تهمي عليها من قبل لجان متخصصة ، يكون بمقدورها وضع الحقائق المتعاقبة بأصول الكلمات في نصابها ، لاسيما ونحن في عصر يفرض علينا كل يوم مفردات جديدة تدخل في لساننا وكتابتنا ولانكاد نحس بأنها ليست منا ، فإن نحن وجدنا طريقنا إلى معرفة القديم معرفة صحيحة ، سهل أمامنا أمر الجديد .

— المواصلات —

- ١ - الطبعية ، الرباط ، ١٩٧١ ، ١٠ ، وكذلك حُرِّيت من قبل مجمع اللغة العربية بالقاهرة . أنظر : منير يمللي ، المورد ، بيروت ، ١٩٧٧ .
- ٢ - حُرِّيت كذلك من قبل مجمع اللغة العربية بالقاهرة . أنظر : المورد ، المصدر المذكور .
- ٣ - عبدالمزيز بن عبد الله ، « الدلالات المقارنة في خدمة تاريخ الحضارة المقارن » ، مجلة اللسان العربي ، الرباط ، العدد ٢٣ لسنة ١٩٨٤ ، ١٨٢ .
- ٤ - أدي شير ، نفس المصدر أعلاه ، ٨ .
- ٥ - انتساق الكرملي ، الأب ، المساعد ، لتحقيق كوركيس حواد وعبد الحميد علوجي ، بغداد ، ١٩٧٢ ، الجزء الأول ، ١٨٧ .
- ٦ - حسين نصار ، المصدر نفسه ، الجزء الثاني ، ٥٣٦ - ٥٣٧ . علماً بأن الطبعة المعتمدة من « لسان العرب » هي طبعة صادر ، بيروت ، لاتاريخ .

١٤ - Webster's Third New International Dictionary, 1970, Vol., 1, 12a - 12b .

١٥ - Philip Howard, Words Fail me, London, 1980, 21 .

١٦ - كمال الدين الدميري ، حياة الحيوان الكبير ، بيروت ، لاتاريخ ، الجزء الثاني ، ١٩٢ .

١٧ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٣٤ ، الدميري ، المصدر نفسه ، الجزء

١ - E. Sapir, Language, London, 1970, 192 - 209 .

٢ - W.D.Elcock, The Romance Languages, Faber and Faber, 1958, 272 - 290; W.Taylor, Arabic Words in English, London, 1833; L.R.Palmer, Descriptive and Comparative Linguistics, Faber and Faber, 1972, 348 - 351.

٣ - حسين نصار ، الدكتور ، المعجم العربي ، نشأته وتطوره ، دار الكتاب العربي بمصر ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، الجزء الأول ، ٨٤ - ٨٨ .

٤ - وأنظر : أبو منصور الجواليقي ، المترجم من الكلام الأعجمي ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ ، شهاب الدين أحمد الخفاجي ، شفاء الغليل فيما كلام العرب من الدخيل ، القاهرة ، ١٨٦٥ م ، أدي شير ، كتاب الألفاظ الأوربية الممربة ، بيروت ، ١٩٠٨ ، وانتار كذلك : المنجد في اللغة والإعلام ، الطبعة الثانية والمشرعون ، دار المشرق ، بيروت ، لاتاريخ .

٥ - الجواليقي ، المصدر المذكور أعلاه ، ٦ - ١٠ .

٦ - Plamer, op.Cit., 23; L.Bloomfield, Language, London, 1962, 453 .

٧ - ابن النديم ، الفهرست ، بيروت ، لاتاريخ ، ٢٧٤ .

٨ - Encyclopaedia Iranica, 1977, 1977, Vol., 1, 282 .

٩ - المكتب الدائم لتنسيق التريب في الوطن العربي ، معجم الفيزياء أو

- ١٨ - الجوالقي ، المصدر نفسه ، ٢٦١ ، أدب شير ، المصدر نفسه ، ١٢٩ .
- ١٩ - R. Costa, (Coffee Production), Encyclopedia Britannica, 11th ed., vol. 4, 818 — 819.
- ٢٠ - الجوالقي ، المصدر نفسه ، ٢٦٩ ، الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٥٨ .
- ٢١ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٧٠ .
- ٢٢ - لمر صاحب المورد ، الكلمة الإنجليزية بكلمة مدق ، و لمر صاحب القاموس المصري ، عربي - انجليزي ، كلمة مدق ، نفس اللفظ الإنجليزي المذكور . انظر الكلمة في قاموس المورد أعلاه ، وكذلك في القاموس المصري ، الياس انطون الياس وادوارد ا . الياس ، المطبعة المصرية بالقاهرة ، ١٠٥٤ ، علماً بأن كلاً من الجوالقي ، المصدر نفسه ، ١٥١ ، والخفاجي ، المصدر نفسه ، ٨٥ ، يقولان إن الكلمة معربة .
- ٢٣ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ٧٨ .
- ٢٤ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٥٨ ، أدب شير ، المصدر نفسه ، ٣٨ .
- ٢٥ - صريت في المورد ، على لفظها ، وكتب إزاهها : المزرد ، ثم شرحت .
- ٢٦ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ٣٩ .
- ٢٧ - عبدالعزيز بن عبدالله ، المصدر نفسه ، ١٧٧ ، وانظر كلمة (مسد) في المتجدد .
- ٢٨ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٩٤ .
- ٢٩ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ٧٣ .
- ٣٠ - ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، المجلد الثالث ، ١٦٣ .
- ٣١ - عبدالعزيز بن عبدالله ، المصدر المذكور ، ١٨١ .
- ٣٢ - P.A. Mario, The World's Chief Languages, London, 1964, 38.
- ٣٣ - الجوالقي ، المصدر نفسه ، ١٣٩ ، الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٨٦ .
- ٣٤ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٣٤ .
- ٣٥ - أخذ صاحب القاموس المصري المذكور أعلاه ، كلمة قسطن مقابل كلمة Test ، بمعنى فحص الدراهم مما يلائم مصادرنا التراثية ، ولكن استحدثت مؤخراً كلمة (قسطرة) لتعني طريقة علاجية خاصة وتقابلها Castor ولا علاقة لها بالمعنى ولا باللفظ الوارد بالاصل .
- ٣٦ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ١٣١ .
- ٣٧ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ٢٢ .
- ٣٨ - الكرمل ، نشوء اللغة العربية ونموها واكتماها ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ٣٩ ، الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٧٦ .
- ٣٩ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٧٢ .
- ٤٠ - كان أبو عبدالله الخوارزمي (ت ٩٩٧) قد كتب بأن الفلسفة مشقة

- من كلمة يونانية وهي ليلامونيا وتعبر بها : سرب الجمعية . انظر : مفتاح التارخ ، مصدر نفسه ، ١٢٩ .
- ٤١ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٣٨ ، أدب شير ، المصدر نفسه ، ٢٤ .
- ٤٢ - الكرمل ، المساعد ، الجزء الأول ، ٢٣٨ ، الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٣٢ .
- ٤٣ - الجوالقي ، المصدر نفسه ، ٥٢ ، الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٢٤ ، الميمري ، المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ١١٢ ، أدب شير ، المصدر نفسه ، ١٦ .
- ٤٤ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٣٢ ، أدب شير ، المصدر نفسه ، ١٦ .
- ٤٥ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ٨٠ .
- ٤٦ - الكرمل ، المساعد ، الجزء الثاني ، ٥٤ ، الجوالقي ، المصدر نفسه ، ٢٢ .
- ٤٧ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ١٢ ، ٤٨ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ١٠٦ .
- ٤٩ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٤٧ ، ٥٠ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٦٦ .
- ٥١ - الدكتور حسين تيسار ، المصدر نفسه ، ٨٧ ، وانظر رأي الدكتور عبدالوهاب عزام في مقدمة السبب من الكلام الأجنبي ، نفس المصدر ، ٨ - ٣ .
- ٥٢ - المتجدد ، ١ . ٥٣ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٦٧ .
- ٥٤ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٨٧ ، ٥٥ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ١٢ .
- ٥٦ - الكرمل ، المساعد ، الجزء الثاني ، ٢٢٢ ، الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٦٥ .
- ٥٧ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ٢٢٧ ، ٥٨ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ١٢٨ .
- ٥٩ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ٢٥٦ ، ٦٠ - أدب شير ، المصدر نفسه ، ٦٥ .
- ٦١ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٠٠ ، ٦٢ - الخفاجي ، المصدر نفسه ، ١٤٣ .
- ٦٣ - Encyclopedia Britannica, 1977, 11th ed., Vol. 1, 8.
- ٦٤ - Pedra, op. cit., 341 — 351; Elcock, op. cit., 272 — 288.
- ٦٥ - Thomas Pyles, The Origins and Development of the English Language, New York, 1974, 15 — 20.
- ٦٦ - وردت مثلاً ص ١٠ ، كلمات مثل اسيداج ، استاذ ، استراتيجية ، اسرب ، اسطبل . . فكتب إزاه كل واحدة منها اسم لغة أجنبية انحدرت منها ، وفي نفس الصفحة ، وردت كلمات مثل : اسبغ ، اسبرين ، استوديو ، استيلين ، اسطر المين ، ولم يكتب إزاهها ما يشير الى كونها دخيلة .

الفارابي وآراؤه اللغوية في كتاب الحروف

دراسة

د. عدنان محمد سلمان

كلية الآداب / جامعة بغداد

الفارابي هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان ، كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره ، وُلد في (فاراب) على نهر (جيحون) سنة (٢٦٠ هـ)^(١) ، وانتقل الى بغداد ، وفيها نشأ ، وألف أكثر كتبه فيها أيضاً ، ورحل الى مصر والشام ، واتصل بسيف الدولة الحمداني . ومات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ^(٢) .

ويعد الفارابي من أئمة الفلاسفة الاسلاميين^(٣) ، وعرف بالمعلم الثاني ، لشرحه كتب أرسطو المعروف بالمعلم الأول^(٤) ، وكان زاهداً في أمور الدنيا وزخارفها ، ويميل الى الانفراد بنفسه^(٥) . وله ما يقرب من مائة مؤلف في الفلسفة والمنطق والموسيقى ، وغيرها من علوم عصره^(٦) ، ويقال : إن الآلة الموسيقية المعروفة بالقانون هي من وضعه^(٧) .

وكتابه « الحروف » هو تفسير لكتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو^(٨) ، والكتب التي تناولت منطق أرسطو وما يتصل به من دراسات زاخرة بالمباحث اللغوية إلا أن الباحثين اللغويين العراقيين لم يستفيدوا من هذه المباحث الاستفادة التي تتناسب وقيمتها العلمية .

وعلى الرغم من ان هناك باحثين معاصرين قد اطلعوا على نص من نصوص كتاب « الحروف » يتصل بتقويم لغات القبائل العربية ، إلا أنهم لم يأخذوا هذا النص من « كتاب الحروف » نفسه ، بل أخذوه من كتاب السيوطي الاقتراح والمزهر^(٩) ، وذلك لأنهم لم يطلعوا على هذا الكتاب ، إذ لم ينشر إلا في سنة ١٩٧٠ م . وجلّ هذه الكتب الحديثة التي ورد فيها هذا النص قد نشرت قبل هذا التاريخ ، فلم يكن في مقدور مؤلفيها الاطلاع على هذا الكتاب ، لاسيما أن نسخة المخطوطة غير متيسرة في خزائن الكتب العربية ، إذ لم يعثر محققه إلا على نسخة واحدة فريدة في المكتبة المركزية لجامعة طهران^(١٠) .

ووهم قسم من العلماء المتأخرين والمحدثين فنسبوا كتاب « الحروف » هذا إلى غير الفارابي الفيلسوف ، فنسبه محمد بن الطيب الفاسي (المتوفى سنة ١١٧٠ هـ) في شرحه اقتراح السيوطي الى صاحب (ديوان الأدب) اسحق بن ابراهيم الفارابي (المتوفى في حدود سنة ٣٥٠ هـ)^(١١) ، ووافقه في هذه النسبة من المحدثين كل من الدكتور ابراهيم أنيس والدكتور أحمد مختار عمر^(١٢) ، ونسبه الى الجوهري صاحب الصحاح (المتوفى

سنة ٣٩٨ هـ) كل من الدكتور علي عبدالواحد وافي ، والدكتور صبحي الصالح^(١) - رحمه الله - وقد كان في نشر الكتاب محققاً قول جازم في نسبه إلى الفارابي الفيلسوف ، فقد ورد في مباحثه ذكر لكتب مبنوت في نسبتها إليه مثل : كتاب القياس ، وكتاب (باري أرميناس) وكتاب الجدل^(٢) .

وقد سُمي السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) كتاب الفارابي هذا بـ «الألفاظ والحروف»^(٣) ، إلا أن محقق الكتاب قد قطع بأن اسمه «الحروف» من غير ذكر لفظة «الألفاظ» ، وذكر أن للفارابي كتاباً آخر وردت فيه لفظة «الألفاظ» وهو «كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق»^(٤) ، سبق أن نشره المحقق نفسه سنة ١٩٦٨ م ، أي قبل نشره كتاب الحروف .

ولم ينفرد السيوطي بتسمية كتاب الفارابي هذا بـ «الألفاظ والحروف» ، فقد سبقه إلى هذه التسمية ابن أبي أصيبعة (المتوفى سنة ٦٦٨ هـ) عندما ترجم للفارابي^(٥) . والذي جعل المحقق يقطع بأن اسمه «الحروف» أمور منها : أن النسخة الخطية الوحيدة من هذا الكتاب تسميه «رسالة الحروف»^(٦) ، فقد جاء في آخرها : «تحت رسالة الحروف للفيلسوف أبي نصر الفارابي»^(٧) ، وأن أقدم فهرس كتب الفارابي تسميه بهذا الاسم ، وكذلك سماء بهذا الاسم أقدم الذين اقتطفوا شيئاً من نصوصه^(٨) ، مثل : أبي الوليد محمد بن أحمد حفيد ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ وأبي عمران موسى بن عبيد الله بن ميمون القرطبي المتوفى سنة ٦٠١ هـ وفات المحقق أن يذكر أن ابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ كان ضمن الذين سموا كتاب الفارابي هذا باسم «الحروف» فقد نقل منه في كتابه «المسائل والأجوبة»^(٩) رأياً للفارابي يتصل بحقيقة (رُب) حيث قال : «ورأيت الفارابي قد ذكر في كتاب الحروف أنها تكون تكثيراً وتقليلاً»^(١٠) .

ولفظة «الحروف» التي جعلها الفارابي عنواناً لكتابه هذا قد استعملها علماء العربية للدلالة على معانٍ مختلفة ، وهي : حروف الهجاء ، وحروف المعجم ، وحروف المباني التي تأتلف منها بنية المفردات العربية ، مثل : الزاي والياء والذال في زيد ،

وحروف المعاني التي هي قسيمة الأسماء والأفعال في أنماط الكلم العربي^(١١) ، واستعملوها أيضاً مرادفة للقراءات^(١٢) ، واطلقوها كذلك على الألفاظ سواء أكانت حروف معانٍ أم أسماء أم أفعالاً ، وقد تردد مثل هذا الاستعمال في كتاب سيبويه وغيره من كتب العربية^(١٣) ، ويبدو لي أن الفارابي قد قصد هذا المعنى في تسميته كتابه هذا بالحروف ؛ لأنه لم يقتصر فيه على تناول نمط واحد من أنماط الكلم ، بل تناول فيه أنماطاً شتى من الكلم ، ففيه حديث عن قسم من الأسماء ، كما فيه حديث عن جملة من حروف المعاني ، ولم يخل كتابه أيضاً عن تناول مفردات هي أفعال ، فقد تناول مثلاً الحديث عن جملة من الأسماء مثل : الذات والجوهر والعرض والموجود والهوية ، وابن ومنى ، وكيف وما ولم وأني ، وتحدث عن : هل والهمزة وأوأم ونعم ولا وبيل ، وهي حروف ، وتحدث كذلك عن بعض من أفعال الكون (كان - يكون)^(١٤) ، فهو إذن ليس كتاباً خاصاً بحروف المعاني كما ذهب إلى ذلك محقق الكتاب^(١٥) ، بل هو كتاب يتصل بدراسة الألفاظ سواء أكانت حروف معانٍ أم أسماء ، والألفاظ التي بحثها كلها مرتبطة بمقولات أرسطو العشر . وما يقطع في دلالة هذه اللفظة عند الفارابي ، وأن معناها غير منحصر بحروف المعاني بل يشمل أنماط الكلم الثلاثة ، الأسماء والأفعال وحروف المعاني ، هو أن الفارابي نفسه قد صرح في : «كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق» : أن هناك فرقاً بين معنى الحروف عند أهل المنطق ومعناها عند علماء العربية فقال : «وليس [يعني الفعل ليس] يرتبه كثير من أصحاب النحو في الكلم»^(١٦) لافي الحروف وكذلك كثير مما سنعه في الحروف يرتبه كثير من النحويين لافي الحروف ، لكن إمّا في الاسم ، وإمّا في الكلم ، ونحن إنما نرتب هذه الأشياء بحسب الأنفع في هذه الصناعة التي نحن بسبيلها»^(١٧) . وقد عدّ الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة كلها حروفاً ، ودرسها ضمن هذا المصطلح في كتابه «الألفاظ» ، بل جعل قسماً من الألفاظ التي لا يختلف في اسميتها ضمن الحروف ، مثل : كل وبعض ، فقال : «ومنها الحروف التي تقرر بالاسم فتدل على أن الحكم الواقع على المسمى هو حكم واقع على جميع

أجزاء المسمى ، وحروف مثل : التي ، ومثلها ، لعل الله يحكم على شيء من أجزائه لآكله ، وهو قولنا : بعض ، وإيقام مقامه (٣٠) .

وقد نبغ الفارابي في أواسر القرون الثالث وأوائل القرن الرابع البحريين (٣١) . وكانت بغداد في هذه الحقبة موطن علماء العربية ، وفيها جبهة من مشاهير هوسها ، إلا أن الذين ترجعوا للفارابي لم يذكروا أنه اتصل بأحد من هؤلاء العلماء ، سوى ماذكروه عن حملته القرية بأبي بكر بن السراج صاحب كتاب الأصول في النسخ والمخوف في سنة ٣١٦ هـ ، فقد صرح الذين ترجعوا لكل من الفارابي وأبي بكر بن السراج أنهما كانا يجتمعان ، فيقرأ كل منهما على صاحبه منه ، فقرأ ابن السراج المنطق على الفارابي ، وقرأ الفارابي العربية على ابن السراج (٣٢) ، وقد استفاد كل منهما من صاحبه ، والذين ترجعوا لابن السراج أكدوا أنه قد تأثر بفن المنطق ، فجاء كتابه الأصول على وفق تقاسيم أهل هذا الفن (٣٣) ، قال أبو عبد الله المرزباني : « صنف - يعني ابن السراج - كتاباً في النحو سماه الأصول ، انتزعه من أبواب كتاب سيبويه ، وجعل أصنافه بالتقاسيم على لفظ المنطقيين ، فأعجب بهذا اللفظ الفيلسوفون » (٣٤) . وقد صرح أبو بكر بن السراج بأنه انشغل بالمنطق حقبة من الزمن ابتعدته عن دراسة العربية ، إلا أنه لم يذكر في كتبه التي بين أيدينا أي مسألة نحوية أو لغوية أخذها من الفارابي أو غيره من علماء المنطق أو الفلسفة ، ويقابل هذا أن الفارابي لم يورد في كتابه الحروف أي نقل عن أبي بكر أو غيره من علماء العربية ، فالكتاب خال من الإشارة إلى أي عالم من علماء العربية . إلا أن فيه ذكراً للنحاة بلفظ عام في مواضع متفرقة (٣٥) ، وترجع عندي أن جل ماأورده في كتابه من قضايا لغوية إنما هو من تأملاته الفكرية في هدي من ثقافته المنطقية . ولكن هذا لا يعني أنه لم ينتفع بأراء النحاة واللغويين الذين عاصروه أو سبقوه ، ولا سيما آراء أبي بكر بن السراج الذي جالسه كثيراً وقرأ عليه علم العربية ، وينحصر هذا التأثير في المسائل الجزئية لاسيما مايتعلق باستعمال الأدوات المرتبطة بمقولات أرسطو ، مثل : أدوات الاستفهام ، وحروف النفي والجواب والسطف .

وكان علماء العربية الذين عاصروا الفارابي أو جاؤوا بعده

قد أغفلوا كتابه هذا ، فلم يصرحوا بأنهم قد نقلوا منه ، أو انتفعوا به ، وترجع عندي أن ابن السيد البطليوسي المتوفى سنة (٥٢١ هـ) هو أقدم من صرح بالنقل منه (٣٦) ، ثم أعقبه في ذلك السيوطي المتوفى سنة (٩١١ هـ) ، إذ نقل منه في كتابه : الاقتراح والمزهر (٣٧) .

والذي يعنينا من كتاب « الحروف » هو ماورد فيه من آراء تتصل باللغة ، فقد وردت فيه أقوال قيمة قلما يعثر الباحث على نظائرها في كتب النحو واللغة التي سبقتة أو وضعت في عصره . من أمثال : كتاب العين ، وكتاب سيبويه ومعاني القرآن للفراء ، ومعاني القرآن للأخفش ، والتصريف للمازني والمقتضب للمبرد ، والأصول لابن السراج . وهذه الكتب هي أصول المؤلفات النحوية واللغوية وكل منها كنز من كنوز التراث العربي الإسلامي .

وكتاب « الحروف » وغيره من كتب المنطق لاتعالج قضايا الإعراب أو مايتعلق به مما يتصل بمسألة العامل والمعمول ، التي تعد أساس البحث النحوي قديماً وحديثاً ، وهذا يعني أن طبيعة البحث اللغوي والنحوي عند المناطقة تختلف عن طبيعة هذا البحث عند علماء العربية ، فالبحث النحوي قائم على الاستقراء والوصف وتتبع كلام العرب في مظانه المختلفة ومن ثم وضع الضوابط والقواعد والقوانين التي تندرج تحتها لغة العرب في جزئياتها وكملياتها ، لتكون معالماً يقاس عليها ، أما البحث النحوي واللغوي عند المناطقة فهو قائم في غالب أمره على التأمل والنظر في القوانين الكلية التي تخضع لها اللغات في هدي من التفكير العقلي بعيداً عن الخوض في الجزئيات أو تتبع القواعد التي تستقرى من النماذج اللغوية . فالبحث في اللغة عند علماء المنطق إذن يختلف عما هو عليه عند علماء العربية ، من حيث المنهج والغرض ، فمنهج علماء العربية قائم على الاستقراء والوصف في غالب أمره ، أما منهج المناطقة فهو قائم على التأمل العقلي في غالب الأمر ، وغرض علماء العربية مقتصر ، في جل الأمر ، على وضع القوانين والقواعد القياسية الكلية والجزئية ، التي تحصر كلام العرب ، من أجل ألا يزيغ لسان العربي أو المستعرب ، أو قلمهما ، عن سنن العرب في كلامها ، فهو غرض تعليمي في

جوهره وأصل وضعه . أما فرض المناطقة فهو في جل الأمر منحصر في تتبع أنماط أجزاء العبارة ، ولهذا كانت مباحثهم لا تخرج عن المباحث اللغوية المرتبطة بمقولات أرسطو ، مثل : القضية والموضوع والمحمول ، والنسبة (الإضافة) ، والكمية ، والكيفية ، والسلب والإيجاب ، والخبر الصادق والكاذب ، والجوهر والعرض ، والرباط^(٣٧) . ودعاهم ذلك الى البحث في الأدوات وأجزاء الكلام والعلاقة بين تلك الأجزاء ، فضلاً عما تناولوه من حقائق لغوية عامة تتصل بأصل اللغة ونشأتها وتدرجها . وعوامل نموها واكتمالها وأسباب قوتها وضعفها^(٣٨) .

واختلاف البحث اللغوي والنحوي عند علماء العربية عما هو عليه عند علماء المنطق يجعلنا نقرر بأن النحاة واللغويين العرب قد سلكوا منهجاً أصيلاً ابتدعوه لأنفسهم ، ولم يتأثر هذا المنهج في وضعه العام بأي أصول فكرية وافدة ، ولكن هذا لا يعني أبداً أن علماء العربية لم يستفيدوا من مناهج البحث العلمي المتقول من الأمم الأخرى ، فهذا أمر محال ومخالف لقوانين الحياة العامة التي تقضي بأن التأثير والتأثيرين الأمم المختلفة قائم ومستمر ، وأن تبادل المعرفة بين الأمم لا يقف دونه أي حاجز جنسي أو فكري . وتبادل المعرفة هذا هو سبب من أسباب نمو الحضارة الانسانية وتقومها . فعلماء العربية قد استفادوا قطعاً مما نُقِلَ عن الأمم الأخرى المحيطة بهم ، إلا أن هذا التأثير كان منحصراً في قضايا جزئية ، ضالها مأخوذ من كتب المنطق والفلسفة ، ولا سيما ما يتصل منها بالتعليل والتقسيم ، وبعض من المصطلحات مثل : الحد والرسم والجنس والنوع والفصل والجوهر والعرض ، والموضوع والمحمول ، والقيّد ، والعام والخاص فهذه كلها في الأصل مصطلحات منطقية نفذت الى كتب النحو واللغة^(٣٩) . ويعدّ كل من الفراء^(٤٠) وابن السراج^(٤١) والرماني^(٤٢) أقدم النحاة الذين نُسِبَ اليهم أنهم تأثروا بالمنطق في مؤلفاتهم النحوية واللغوية .

ويعد كتاب « الحروف » للفارابي من أمثل كتب الفلسفة والمنطق التي عاجلت قضايا لغوية ذات بال ، يحسن بالباحثين اللغويين المعاصرين أن يفتقروا عليها ، ففي الكتاب مسائل متفرقة تناول فيها الفارابي كثيراً من مباحث الدلالة المنطقية . وقد بث في

أثناء ذلك آراء لغوية ابتدعها فكره النير ، فضلاً عما اكتسبه من صحبته لأبي بكر بن السراج من ثقافة لغوية أعانت على تقيب النظر في لغة العرب ، لاستخلاص شيء مما من قوانينها وقواعدها وظواهرها اللغوية .

وتعد ظاهرة الاشتقاق من الظواهر اللغوية التي أولاهما الفارابي عنايته في كتابه هذا ، فقد تناول فيه مباحث متفرقة تتصل بهذه الظاهرة ، ونثر فيها آراءه ، فهو يرى أن الألفاظ بعضها مشتق وبعضها غير مشتق^(٤٣) ، وأن اللفظ قد يأتي شكله شكل المشتق إلا أن معناه ليس مشتقاً ، ومثل له بلفظه (حي)^(٤٤) ، وأحسب أن الفارابي قد وهم في تمثيله هذا ، لأن المعنى الذي تدل عليه هذه اللفظة من المعاني الاشتقاقية ، لأنها صفة مشبهة باسم الفاعل ، فاللفظ والمعنى مشتقان ، ولو مثل لذلك بـ (الميسور والميسور) لكان تمثيله صحيحاً ، فلنظّمها لفظ المشتق فهما على صيغة (اسم المفعول) إلا أن معناهما معنى المصدر ، وهو غير مشتق^(٤٥) .

ونذهب الفارابي الى أن اللفظ قد يأتي غير مشتق إلا أن معناه معنى المشتق^(٤٦) ، مثل لفظة (عدل) في قولنا (هذا رجل عدل) ، فعدل مصدر غير مشتق إلا أن معناه معنى (عادل) وهو اسم فاعل مشتق ، ومثل ذلك لفظة (خلق) في قوله « هذا خلق الله » ، فلفظة (خلق) غير مشتقة لأنها مصدر إلا أن معناها معنى المشتق ، فهي في معنى (مخلوق) ، وهو اسم مفعول ، واسم المفعول مشتق^(٤٧) .

ويرى الفارابي أن المصدر هو أصل المشتقات^(٤٨) ، ولم يرسل هذا الرأي إرسالاً ، بل احتج له بحجة عقلية قوية فقال : « ... يجب أن تكون التسمية التي تدل على تركيب بتغيير شكل متأخرة ومأخوذة عن لفظ ما علم وحده بسيطاً بلا تركيب ... » فلذلك يجب أن تجعل الدالة عليها [أي على المعاني] وهي مفردة مثال أول وباقيها مشتقة منها ، مثل : الضرب ، فانه مثال أول ، والضارب ويضرب وضرب وسيضرب ومضروب وأشياء ذلك مشتقة^(٤٩) .

فالمصدر عند الفارابي هو الأصل ، لأنه يدل على معنى مفرد بسيط ، وغيره يدل على معنى مركب ، والمفرد البسيط أصل

للمركب ، لأن المركب يدل على ما يدل عليه البسيط مع زيادة معنى ، وهذه الزيادة هي التي جرى تغيير اللفظ من أجلها ، وقد اختص كل معنى زائد على معنى المصدر بصيغة ، فاختلقت الصيغ باختلاف المعاني ، ولكن الصيغ كلها تبقى دالة على المعنى الأول الذي دل عليه المصدر ، فكل مشتق عند الفارابي يدل على معنيين ، هما : المعنى الأول الذي دل عليه المصدر ، والمعنى الآخر هو : المعنى الذي اشتق بسببه ذلك اللفظ ، وجاءت بنيته دالة عليه^(١) ، كدلالة اسم الفاعل - مثلاً - على المعنى المجرد الذي دل عليه المصدر ، وعلى الذات المتلبسة بهذا المعنى .

والاشتقاق عند الفارابي قد لا يكون من المصادر وحدها ، بل يكون أيضاً من الأسماء الأول التي لا مصادر لها ، ولا تصريف^(٢) ، ويعني بهذه الأسماء أسماء الذوات ، مثل : الإنسان والرجل ، فقد اشتقوا منها ألفاظاً على هيئة المصادر ، فقالوا : الإنسانية والرجولية^(٣) .

وقد يكون الاشتقاق من ألفاظ جامدة غير متحركة للأغراض أو من الأدوات ، مثل اشتقاق « الهوية » من « هو »^(٤) و « الإنثى » من « إن »^(٥) ، وهذا النوع من الاشتقاق خاص بالمناطق ، وعلماء المنطق والفلسفة أجروا على الاشتقاق من علماء العربية ، ويترجح عندي أن الألفاظ المشتقة من الأدوات ، مثل : الكيفية والكمية ، والماهية ، والهوية^(٦) . قد انتقلت إلى العربية من كتب المنطق والفلسفة . وهي في حقيقة أمرها ألفاظ مولدة ، وليست من صميم كلام العرب ، وقد شاع استعمالها بعد عصر الترجمة والنقل ، فتردد ذكرها في كتب العربية وآدابها^(٧) . ولكن أصحاب المعجمات العربية أحجموا عن ذكر قسم من هذه الألفاظ ، فليس في أي معجم من المعجمات المتداولة ذكر للفظ (الماهية) المشتقة من (ماهو ؟) . وليس في جلها ذكر للفظ (الهوية) المشتقة من (هو) ، وأول من ذكرها من أصحاب المعجمات هو الزبيدي^(٨) .

والفارابي لم يقف عند مسائل اللغة الجزئية في كتابه « الحروف » قدر وقوفه عند المسائل اللغوية العامة ، المتصلة باللغة ونشأتها ونموها واكتمالها وضعفها ، فقد تحدث عن هذه المسائل حديثاً واسعاً ، ونبّه في أثناء ذلك آراء قيمة ، فهو يرى

- مثلاً - أن اللغة تنشأ بالتدريج شيئاً فشيئاً ، وأنها لا تقع مرة واحدة . وأن اللغة تنمو وتتسع باتساع الحاجة والادراك ، وأن الألفاظ الأول التي نطق بها الإنسان هي الألفاظ المعبرة عن الأشياء القريبة منه ، والمحيط به ، والتي يدركها نظره^(٩) . فقد عقد لهذه المسائل فصلاً سماه : « أصل لغة الأمة واكتمالها »^(١٠) ، قال فيه : « ويكون ذلك أولاً لما عرفوه ببادئ الرأي المشترك ، وما يخص من الأمور التي هي محسوسات من الأمور النظرية مثل : السماء والكواكب والأرض وما فيها ، ثم لما استنبطوه عنه ، ثم من بعد ذلك للأفعال الكائنة عن قواهم التي هي لهم بالفطرة ، ثم للملكات الحاصلة عن اعتياد تلك الأفعال من أخلاق أو صنائع ، وللأفعال الكائنة عنها بعد أن حصلت ملكات عن اعتيادهم ، ثم من بعد ذلك لما تحصل لهم معرفته بالتجربة ، أولاً أولاً ، ولما يستنبط عما حصلت معرفته بالتجربة من الأمور المشتركة لهم أجمعين ، ثم من بعد ذلك للأشياء التي تخص صناعة صناعة من الصنائع العملية من الآلات وغيرها ، ثم لما يستخرج ويوجد بصناعة صناعة ، إلى أن يؤتى على ما يحتاج إليه تلك الأمة »^(١١) .

ولا أظن أن أحداً من اللغويين السابقين للفارابي أو المعاصرين له أو المتأخرين عنه ، قد تناول موضوع تدرج وضع اللغة بهذا الأسلوب المتين المبني على التأمل الصرف لأوضاع نشأة اللغة ، واتساعها ، ولا سيما ما يتصل بأثر الصناعة في وضع المفردات ، وهانحن نلمس ذلك في عصرنا ، حيث أدت الصناعة إلى ظهور مفردات كثيرة ، وضعت بازاء المعاني التي استحدثت بسبب اتساع الآلات الصناعية وما يتصل بها من أغراض .

وإذا كان ابن جني (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) قد نصح في كتابه الخصائص على أن اللغة لم تقع مرة واحدة ، بل وقعت بالتدريج^(١٢) ، فهو لاحق بالفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩ هـ) ، وأحسب أنه قد تأثر به ، بل أرجح أنه قد أطلع على كتابه « الحروف » ، فقد عاشا في عصر واحد ، وأدرك كل منهما زمن الآخر ، إلا أنه لم يذكر أحد عن ترجمهما أنها التقيا ، وهذا لا يمنع تأثر المتأخر منهما بالمقدم ، لا سيما أن هناك ما يرجح هذا

التأثر ، ويتمثل هذا الترجيح عندي في أمرين ، أحدهما : أن ابن جني قد تردد على بلاط سيف الدولة الحمداني عند ذهابه إلى حلب مع شيخه أبي علي^(١٣) ، والفارابي كان من المتسقين لهذا البلاط^(١٤) ، ويفترض أن كتبه كانت في خزائنه ، وابن جني من رواد المعرفة ، فغالب الظن أنه قد أطلع عليها . والأمر الثاني : هو أن أبا علي شيخ ابن جني قد أخذ العربية عن أبي بكر بن السراج ، الذي قرأ المنطق على الفارابي ، وتأثر بهذا الفن ، وسرى هذا التأثر إلى ما كتبه في العربية ، فلا استبعد أن أبا علي قد تأثر أيضاً بالفارابي ، أو أطلع على كتبه ، ومنها كتاب « الحروف » . وابن جني تابع لشيخه ينهل من فكره ، ويفتقر من موارده ، فليس بمستبعد أن يكون هو أيضاً قد تأثر بالفارابي ، ويقوي هذا الظن عندي أن الناظر في كتاب الخصائص يلمح عظيم تأثير ابن جني بالمنطق وعلم الكلام ، في مواضع متفرقة من هذا السفر العظيم^(١٥) .

وتناول الفارابي في كتابه « الحروف » مسألة وضع اللغة ، فذهب إلى أن التواضع والتواطؤ أصلان مكينان في ذلك الأمر^(١٦) ، وهو في هذا ينهج نهج أهل المنطق والكلام . وأحسب أن ما أورده ابن جني في كتابه الخصائص مما يتصل بالتواطؤ والتواضع في وضع اللغة قد أخذه عن علماء المنطق ، ومنهم الفارابي ، وقد كان ابن جني منصفاً ، فهو لما تحدث في كتابه الخصائص عن هذه المسألة لم ينسب القول بالمواضعة والاصطلاح لنفسه ، بل نسب إلى غيره فقال : « . . . إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي ولا توقيف »^(١٧) وأرجح أن ابن جني يقصد بقوله « أهل النظر » الفلاسفة وأهل المنطق .

وحديث الفارابي عن وضع اللغة حديث رائق ، خال من التكلف ، وقريب إلى النفس ، وقد عقد لذلك فصلاً سماه : « حدوث حروف الأمة والفاظها »^(١٨) . قال فيه : « وإذا احتاج [يعني الإنسان] أن يُعرف غيره ما في ضميره أو مقصوده بضميره ، استعمل الإشارة أولاً في الدلالة على ما كان يريد من يلتمس تفهيمه ، إذا كان من يلتمس تفهيمه بحيث يبصر

إشارته ، ثم استعمل بعد ذلك التصويت ، وأول التصويتات النداء ، فإنه بهذا يلتمس تفهيمه أنه هو المقصود بالتفهم لاسواه ، وذلك حينما يقتصر في الدلالة على ما في ضميره بالإشارة إلى المدحوسات ، ثم من بعد ذلك يستعمل تصويتات مختلفة ، يدلّ بواحد واحد منها على واحد واحد مما يدلّ عليه بالإشارة إليه وإلى محسوساته ، فيجعل لكلّ مشار إليه محدود تصويماً محدوداً ، ولا يستعمل ذلك التصويت في غيره »^(١٩) . وقد تناول هذا الموضوع في فصل آخر سماه : « أصل لغة الأمة واكتمالها »^(٢٠) قال فيه وهو يعقب على المبحث السابق : « وهكذا تحدث أولاً حروف تلك الأمة والفاظها الكائنة عن تلك الحروف ، ويكون ذلك أولاً من اتفاق منهم ، فيتفق أن يستعمل الواحد تصويماً أو لفظة دالة على شيء ما عندما يخاطب غيره ، فيحفظ السامع ذلك . فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأول لتلك اللفظة ، ويكون السامع الأول قد احتذى بذلك فيقع به ، فيكونان قد اصطالحا وتواطأ على تلك اللفظة ، فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند جماعة ، ثم كلما حدث في ضمير إنسان منهم شيء احتاج أن يفهمه غيره من يجاوره اخترع تصويماً قد دلّ صاحبه عليه ، وسمعه منه فيحفظ كلّ واحد منها ذلك وجعله تصويماً دالاً على ذلك الشيء »^(٢١) .

لقد كان الفارابي راعياً في تصويره نشأة اللغة ، ولاظن أن أحداً من اللغويين الذين عاصروه أو سبقوه قد صور هذه المسألة في هذه الصورة ، القرينة من حقيقة تعامل الإنسان مع من يختلط بهم ، فيما يتصل بالتعبير عن المعاني التي يريد أن ينقلها إليهم ، فالإشارة والتصويت والنداء هي الوسائل الأولية التي يستعين بها الإنسان في مخاطبته غيره ، وشاهد الحال يعزز ذلك ، فهي مازالت إلى الآن من جملة الدوال التي يتوصل بها الإنسان إلى الإبانة عن أغراضه .

وإذا كان أهل النظر وقسم من اللغويين قد قالوا بأن اللغة اصطلاح وتواضع^(٢٢) ، فإن قولهم رائق للنفس ، ولكنه يصطدم بحقيقة عقلية يُسميها علماء المنطق الدور والتسلسل ، إذ كيف تسنى للإنسان الأول أن يتواطأ ويصطلح على وضع الألفاظ بازاء

المعاني ، ما لم يكن قادراً على الوضع والاصطلاح مسبقاً^(٣٣) ، وهذا يعني أن كل تواضع واصطلاح لابد أن يكون مبنياً على تواضع واصطلاح سابق ، وفي هذا ما فيه من التسلسل والدور^(٣٤) .

والقول بالتوقيف المطلق وأن اللغة كلها وحي من الله يصطلم بانشاعته ، ففي كل عصر تستجد معاني ، لم تكن معروفة فيما سبقه من عصور ، فيضطر الانسان إلى وضع ألفاظ بازاء تلك المعاني الجديدة ، وهو إما أن يرتجلها ارتجالياً ، وإما أن ينقلها من دلالتها القديمة إلى دلالة جديدة ، كالألفاظ المولدة قديماً وحديثاً ، وهانحن نرى في عصرنا هذا كيف تغيرت دلالة ألفاظ كثيرة ، بسبب الحضارة والتقدم العلمي ، وكيف اضطررنا إلى إضفاء معاني جديدة على ألفاظ لم تكن دالة عليها في ما نقل من كلامنا الموروث . بل أصبح المعنى القديم مهجوراً ، ولا يلتصق إليه ، وخير مثال على ذلك هذه الألفاظ المولدة حديثاً ، مثل : القطار والسيارة ، والكلية والجامعة ، والاذاعة . وقد جرى مثل هذا النقل في العهود الأولى من نهضة الأمة العلمية ، بعد البعثة المحمدية ، فصار لكثير من الألفاظ مدلول لم يكن مقترناً به في أصل الوضع ، كالصلاة والزكاة والفقه والنحو والصرف والمنطق ، وغير ذلك من الألفاظ الدينية والعلمية والفلسفية^(٣٥) . وهذا كله يندش في كون اللغة كلها توقيفاً ووحياً . ولعل أقرب رأي للحقيقة والعقل في هذه المسألة هو قول أبي اسحق الاسفراييني (المتوفى سنة ٤١٨ هـ) حيث ذهب إلى أن الأصل الأول للغة توقيف ووحى من الله ، وذلك بالقدر الذي استطاع فيه الانسان أن يدعو غيره للتفاهم ، ثم بعد ذلك صار الانسان يصطلح ويتواضع^(٣٦) . فهو مذهب مطلق من مذهبي التوقيف والاصطلاح وخالف عما أورد عليها من إشكال وطعن .

وإذا كان ابن جني - رحمه الله - قد حدّ اللغة بأنها أصوات ، فإني لأظن أن الفارابي هو الذي مهدّ له سبيل ذلك ، إذ نعت على أن الانسان قد استعمل التصويت للإبانة على أغراضه ، وأنه جعل لكل معنى صوتاً ، إذا أطلقه فهم المخاطب

قصده ، وكلما استجد له غرض وضع له تصويماً ليدل عليه^(٣٧) ، وهذا هو مفهوم قول ابن جني في حدّ اللغة : « إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »^(٣٨) .

وقد سبق الفارابي غيره من علماء العربية في تقريره أن الانسان قد استعمل الاشارة للدلالة على الأشياء قبل استعماله الأصوات ، فالانسان إذا احتاج أن يعرف غيره ما في ضميره أو مقصوده بضميره استعمل الاشارة أولاً في الدلالة على ما كان يريد . . ثم استعمل بعد ذلك التصويت^(٣٩) .

وعلماء العربية قد ذكروا الاشارة ضمن الدوال^(٤٠) ، إلا أنهم لم يقولوا بأنها قد سبقت الأصوات ، ولم يغفل ابن جني عن قيمة الاشارة في وضع اللغة ، إلا أنه لم يجعلها سابقة للأصوات ، بل جعلها مقترنة بها ، مفيدة تخصيص الصوت بالشيء المشار إليه . حيث قال : « فكانهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم ، فأومؤوا إليه ، وقالوا : إنسان إنسان إنسان »^(٤١) .

وتناول الفارابي في كتابه « الحروف » الحديث عن أسباب حدوث الأصوات أي الحروف ، وقد هنا ذلك إلى (القرع) ، فقال : « وظاهر أن تلك التصويّات إنما تكون من القرع بهواء النفس بجزء أو أجزاء من حلقة ، أو بشيء من أجزاء ما فيه وباطن أنفه أو شفتيه ، فإن هذه هي الأعضاء المقروعة بهواء النفس ، والقارع أولاً هي القوة التي تسرّب هواء النفس من الرئة وتجويف الحلق أولاً فاولاً إلى طرف الحلق الذي يلي الفم والأنف وإلى ما بين الشفتين ، ثم اللسان يتلقى ذلك الهواء فيضغطه إلى جزء جزء من أجزاء باطن الفم ، وإلى جزء جزء من أجزاء أصول الأسنان وإلى الأسنان ، فيقرع به ذلك الجزء ، فيحدث من كل جزء يضغطه اللسان عليه ويقرعه به تصويت محدود ، وينقله اللسان بالهواء من جزء إلى جزء من أجزاء أصل الفم ، فتحدث تصويّات متوالية كثيرة محدودة »^(٤٢) .

ويرجع عندي أن ابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ)

أطلع على كتاب الحروف للفارابي^(٤٣) لما وضع كتابه :

(أسباب حدوث الحروف) ، فجعله كلامه في بيان

أسباب حدوث الأصوات لا يختلف عن كلام الفارابي السابق

لاسيما انه قد نصّ على أن (القرع) هو سبب حدوث الأصوات ، ولكنه زاد عليه سبباً آخر هو (القلع) ^(١٤١) ، والفارابي لم ينصّ على (القلع) ، لأن أسباب حدوث الأصوات اللغوية منحصرة بالقرع ، ولا صلة لها بالقلع .

ويرى الفارابي أن الأصوات الصادرة عن جهاز النطق بسبب القرع محدودة ، والمعاني التي يعبر عنها الانسان بهذه الأصوات كثيرة غير متناهية ، ولهذا اضطر الانسان الى أن يركب الحروف بعضها مع بعض ، لأن هذه الحروف إذا جعلوها علامات أولاً كانت محدودة العدد ، لم تفي بالدلالة على جميع مايتفق أن يكون في ضمائرهم ، فيضطرون إلى تركيب بعضها إلى بعض بمولات حرف حرفاً ، فتحصل الفاظ من حرفين أو حروف ^(١٤٢) .

وتأليف المفردات من الأصوات المركبة هو السبيل العام الذي سار عليه الناس مهما اختلفت أجناسهم ، ويمثل ذلك القانون العام الذي يخضع له منطق اللغات كلها .

ويرى الفارابي أن من يدبر أمر الجماعة البشرية قد يتدخل في وضع اللغة ، فالألفاظ لا تزال تحدث واحداً بعد الآخر إلى أن يحدث من يدبر أمرهم [أي أمر الجماعة] ، ويضع بالأحداث ما يحتاجون إليه من التصويطات [أي الألفاظ] للأمور الباقية التي لم يتفق لها عندهم تصويطات دالة عليها ، ... فلا يزال منذ أول ذلك يدبر أمرهم إلى أن توضع الألفاظ لكل ما يحتاجون إليه في ضرورة أمرهم ^(١٤٣) .

وهذه الحقيقة عند الفارابي متصلة بحقيقة أخرى ، وهي أن النخبة المختارة من أبناء الأمة كثيراً ما تشارك في إصلاح اللغة وفي وضع ألفاظ لم تكن موضوعاً ، اقتضت الحاجة المستجدة إلى وضعها . وتتمثل هذه النخبة بعظماء الأمة وبلغائها وحكمائها الذين يشتغلون في الخطب والأشعار حتى يقتصوا بها الأخبار عن الأمور السابقة والحاضرة التي يحتاجون إليها ، فيحدث فيهم رواة الخطب ورواة الأشعار وحفاظ الأخبار التي اقتضت بها ، فيكون هؤلاء هم فصحاء الأمة وبلغاؤهم ، ويكونون هم حكماء تلك الأمة أولاً ومُدبروهم والمرجوع إليهم في لسان تلك الأمة ،

وهؤلاء أيضاً هم الذين يركبون لتلك الأمة ألفاظاً كانت غير مركبة قبل ذلك ، ... وأيضاً فانهم مع ذلك يعمدون إلى الأشياء التي لم تكن اتفقت لها تسمية من الأمور الداخلة تحت جنس أو نوع ، وربما شعروا بأعراض فيصترونها لها أسماء ، وكذلك الأشياء التي لم يكن يحتاج إليها ضرورة فلم يكن اتفق لها أسماء لأجل ذلك فانهم يركبون لها أسماء . . . فهؤلاء هم الذين يتأملون ألفاظ هذه الأمة ويصلحون المختل منها . . . وينظرون إلى أصناف التركيبات الممكنة في ألفاظهم والترتيبات فيها ، ويتأملون أيها أكمل دلالة على تركيب المعاني في النفس وترتيبها فيتحررون تلك وينبهون عليها . . . فتصير عندها ألفاظ تلك الأمة أفصح مما كانت ، فتكمل عند ذلك لغتهم ولسانهم ^(١٤٤) .

ولاظن أن أحداً من سبق الفارابي أو لحق به من علماء العربية قد درس اللغة في هذه الصورة القائمة على التأمل الاجتماعي لأوضاع اللغة في نشأتها واكتماها ، أو أشار إلى ما يسيده مدبرو أمر الأمة وفصحاؤها وبلغاؤها من خدمة تتصل بإصلاح اللغة والمحافظة على فصاحتها ، والسمي إلى وضع الألفاظ التي تتطلبها الحاجة على وفق ما يستجد من أمور تتصل بحياة الأمة .

وإن عمل المجامع العلمية واللغوية في عصرنا هذا يمثل أفكار الفارابي هذه خير تمثيل ، وذلك لما تقدمه هذه المجامع من خدمة للغة تتصل بالمحافظة على أصولها وفصاحتها وسلامتها ، وبما تضعه من ألفاظ جديدة مأخوذة من العربية الأصيلة ، لتضعها بازاء المعاني المستجدة ، التي أوجبتها الحضارة الانسانية المعاصرة .

ونظر الفارابي في تاريخ اللغة وما يتصل بذلك من علوم ، فرأى أنها تبدأ بالخطابة ، أي النثر ، ثم ينشأ الشعر ، وبعد ذلك تحدث عند الأمة قوة في حفظ الأخبار والشعر . وبعد ذلك يحدث علم صناعة اللسان وصناعة الكتابة ^(١٤٥) .

والذي يهمنا هنا هو حديث الفارابي عن نشأة علم اللسان وصناعة الكتابة ، لأنها الصق بالمباحث اللغوية من غيرهما . فضلاً عن أن الفارابي - على ما يرجح عندي - هو أقدم من تحدث

عن هذين الأمرين وحديثه عنها قائم على التأمل والتبصير والملاحظة الذاتية ، فهو يرى أن الناس لا يزالون يتداولون الحفظ إلى أن يكثر عليهم ما يلتزمون حفظه ويمسرون ، فيحوجهم ذلك إلى الفكر فيما يسهلونه به على أنفسهم فتستنبط الكتابة . وتكون في أول أمرها متخلفة إلى أن تصلح قليلاً قليلاً على طول الزمان ، ويحاكي بها الألفاظ وتُشبه بها . . فيدونون بها في الكتب ماعسر حفظه عليهم ، ولا يؤمن بأن ينسى على طول الزمان ، وما يلتزمون إبقائها على من بعدهم وما يلتزمون تعليمها وتفهمها من هوانٍ عندهم ، في بلد أو مسكن آخر . . ثم من بعد ذلك يرى أن يحدث صناعة علم اللسان قليلاً قليلاً ، بأن يتشوق إنسان إلى أن يحفظ ألفاظهم المفردة الدالة بعد أن يحفظ الأشعار والخطب والأقوال المركبة ، فيتحرى أن يفردا بعد التركيب ، أو أراد التقاطها بالسمع من جماعتهم ومن المشهورين باستعمال الانصاح من ألفاظهم . . وعن عني بحفظ خطبهم وأشعارهم وأخبارهم أو ممن سمع منهم ، فيسمعها من واحد واحد منهم في زمان طويل ، ويكتب ما يسمعه منهم ويحفظه . . فتؤخذ ألفاظهم المفردة أولاً إلى أن يؤتى عليها ، الغريب والمشهور منها ، فيحفظ أو يكتب ، ثم ألفاظهم المركبة كلها من الأشعار والخطب ، ثم بعد ذلك يحدث للناظر فيها تأمل ما كان منها متشابهاً في المفردة منها وعند التركيب ، ويؤخذ أصناف التشابهات منها ، وبماذا تتشابه في صنف صنف منها ، وما الذي يلحق كل صنف منها ، فيحدث لها عند ذلك في النفس كليات وقوانين كلية ، فيحتاج فيها حدث في النفس من كليات الألفاظ وقوانين الألفاظ إلى ألفاظ يُعبر بها عن تلك الكليات والقوانين ، حتى يمكن تعليمها وتعلمها ، فيعمل عند ذلك أحد شيئين ، إما أن يخترع ويركب من حروفهم ألفاظاً لم ينطق بها أصلاً قبل ذلك ، وإما أن ينقل إليها ألفاظاً من ألفاظهم التي كانوا يستعملونها قبل ذلك في الدلالة على معانٍ آخر غيرها . . وكل ذلك ممكن شائع ، لكن الأجود أن تسمى القوانين ، بأن ينظر أي معنى من المعاني الأول يوجد أقرب شبهاً بقانون من قوانين الألفاظ ، فيسمى ذلك الكلي وذلك القانون باسم ذلك المعنى ، حتى يؤتى من هذا المثال على تسمية جميع تلك

الكليات والقوانين بأسماء أشباهها من المعاني الأول التي كانت لها عندهم أسماء ، فيصيرون عند ذلك لسانهم ولغتهم بصيرة صناعة يمكن أن تتعلم بقول . وحتى يمكن أن تعطى على كل ما يقولون ، كذلك خطوطهم التي بها كانوا يكتبون ألفاظهم ، إذا كانت فيها كليات وقوانين أخذت كلها ، فالتمس ، حتى نصير يُنطق^(١) عنها ويمكن أن تُعلم وتُعلم بقول^(٢) .

فصناعة علم اللسان عند الفارابي تبدأ بالاستقراء والتبصير والحفظ والتدوين ، ويشمل ذلك المفردات والتراكيب ، ثم يبدأ التأمل والدرس لوضع القوانين النحوية واللغوية ، ويصاحب ذلك وضع المصطلحات العلمية ، وهي عنده إما أن ترتجل ارتباطاً ، وإما أن تنقل من ألفاظ موضوعة لمعان لغوية قريبة من المعاني الاصطلاحية المستحدثة والأسلوب الأخير عنده أجود من الأسلوب الأول ، وهذا هو معنى قوله : « . . . لكن الأجود أن تُسمى القوانين بأسماء أقرب المعاني شبهاً بالقوانين »^(٣) .

والألفاظ المستعملة في المصطلحات العلمية عند الفارابي لها معنيان ، الأول لغوي ، والثاني اصطلاح ، والمعنى اللغوي مرتبط بالدلالة الوضعية ، أما المعنى الاصطلاحى فهو معنى ثانٍ نُقل إليه اللفظ عن المعنى الوضعي الأول^(٤) ، وذلك ليعبر به عن مصطلح ما من المصطلحات العلمية ، مثل : النحر ، والإعراب ، والصرف ، والبلاغة ، والبيان ، والبديع .

فهذه الألفاظ وغيرها من ألفاظ المصطلحات لها معنيان . الأول لغوي مرتبط بأصل الوضع والثاني اصطلاحى اكتسبته بنقلها إليه في مرحلة من مراحل تطور الدلالة اللغوية .

والألفاظ المصطلحات عند الفارابي وضعان ، أول وهو الوضع اللغوي ، وثانٍ وهو الوضع الاصطلاحى وقد عبر عن ذلك بقوله : « فتصير الألفاظ التي يعبر بها حيثئذ عن تلك القوانين الألفاظ التي في الوضع الثاني ، والألفاظ الأول هي الألفاظ التي في الوضع الأول ، فالألفاظ التي في الوضع الثاني منقولة عن المعاني التي كنت تدل عليها »^(٥) ، تلك الألفاظ في الوضع الأول .

ويرى الفارابي أن اللغة قد بطراً عليها شيء من اللحن ،

بسبب اختلاط أهلها بأقوام ليسوا منهم ، فيعرض لأستهم شيء من الخروج عن أصول لغتهم في مفرداتها وتراكيبها ، ومن هنا رأى ألا تؤخذ اللغة إلا عن الأقوام الذين لم يختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى ، وقد صاغ سؤالاً يتصل بهذا الأمر ، فقال : « من الذي ينبغي أن يؤخذ عنهم لسان تلك الأمة ؟ » ، ثم أجاب عن هذا السؤال اجابة مفصلة ، فقال : « ... إنه ينبغي أن يؤخذ عن الذين تمكنت عاداتهم لهم على طول الزمان في أستهم وأنفسهم ، تمكناً يحصنون به عن تخيل حروف سوى حروفهم ، والنطق بها ، وعن تحصيل ألفاظ سوى المركبة عن حروفهم ، وعن النطق بها ممن لم يسمع غير لسانهم ولغتهم ، أو ممن سمعها وجفا ذهنه عن تخيلها ولسانه عن النطق بها ، وأما من كان لسانه مطواعاً على النطق بأي حرف شاء مما هو خارج عن حروفهم ، وبأي لفظ شاء من الألفاظ المركبة عن حروف غير حروفهم ، وبأي قول شاء من الأقاويل المركبة من ألفاظ سوى ألفاظهم فانه لا يؤمن أن يجري على لسانه فتصير عبارته خارجة عن عبارة الأمة ويكون خطأً ولحناً وغير فصيح ، فإن كان مع ذلك قد خالط غيرهم من الأمم وسمع أستهم أو نطق بها ، كان الخطأ أقرب منه وأخرى ، ولم يؤمن بما يوجد جارياً في عادته انه لغير تلك الأمة التي هو منهم » .

وفي هذني كما أصله الفارابي في قوله السابق رأى ألا تؤخذ اللغة عن سكان المدن والقرى وأهل المدر : لأنهم : « أطبع ، وكانت نفوسهم أشد انقياداً لتفهم ما لم يتعودوه » ، ومن ثم دعا إلى أن تؤخذ اللغة عن سكان البرية ، لأنهم « أبعد من أن يتركوا ما قد تمكن بالعادة فيهم ، وأخرى أن يحصنوا نفوسهم عن تخيل حروف سائر الأمم والألفاظ ، وأستهم عن النطق بها ، وأخرى ألا يخالطهم غيرهم من الأمم » ، ومن هنا « كان الأفضل أن تؤخذ لغات الأمة عن سكان البراري منهم ، متى كانت الأمم فيها هاتان الطائفتان [يعني سكان المدن وسكان البراري] ، ويتحرى منهم من كان في أوسط بلادهم . فإن من كان في الأطراف منهم أخرى أن يخالطوا مجاورهم من الأمم ، فتختلط لغاتهم بلغات أولئك ، وأن يتخيلوا عجمة من

مجاورهم ، فانهم إذا عاملوهم احتاج أولئك أن يتكلموا بلغة غريبة عن أستهم ، فلا تطاوعهم على كثير من حروف هؤلاء ، فيلنجنوا إلى أن يعبروا بما يتأتى لهم ويتركوا ما يعسر عليهم ، فتكون ألفاظهم عسيرة قبيحة . وتوجد فيها لكنة وعجمة مأخوذة من لغات أولئك ، فإذا كثر سماع هؤلاء عن جاورهم من هذه الأمم للخطأ وتعودوا أن يفهموه على أنه من الصواب لم يؤمن تغير عاداتهم ، فلذلك ليس ينبغي أن تؤخذ عنهم اللغة ، ومن لم يكن فيهم سكان البراري أخذت عن أوسطهم » .

والمشاكل في هذا النص يخلص إلى أن الفارابي قد سبق ابن جني في الدعوة إلى أخذ اللغة من أهل (البر) أي البدو الضاريين في البداوة وترك أخذها عن أهل (المدر) أي سكان المدن والقرى ، « ورب قائل يقول إن الفارابي قد سبق بهذا الرأي ، إذ ورد عن الرياشي (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) قول يتضمن خلاصة ما أورده الفارابي ، إذ نقل عنه أنه قال في معرض تفضيله مذهب البصريين على مذهب الكوفيين : « نحن [يعني البصريين] نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكلة البرابيع [أي : البدو] وأنتم [يعني : الكوفيين] نأخذونها من أكلة الشوايرز وباعة الكواميخ » ، ويعني بهم أهل الأمصار والمتحضرين . والحق أن ما نقل عن الرياشي لا يخرج في مضمونه عما أورده الفارابي ، إلا أن الفارابي قد تناول هذه المسألة بشيء من التفصيل وعززها بذكر حقائق مستندة على طبائع المجتمعات البشرية ، وما يحدث فيها من تأثير وتأثر بسبب الاختلاط الجاري بين الأمم المتجاورة ، ولم يقف الفارابي عند هذا التقرير المتصل بالسبيل القويم الذي يجب اتباعه عند أخذ اللغة ، بل أعقبه ببيان ما قام به علماء اللغة الأوائل من استقراء وتتبّع ، في بدء وضع علم العربية ، ثم حدد من قام بذلك من أهل الأمصار ، وحصر القبائل التي أخذ عنها علماء اللغة ، فقال : « وأنت تتبين ذلك [يعني أخذ اللغة] متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء ، فإن فيهم سكان البراري وفيهم سكان الأمصار ، وأكثر ما شاغلوا بذلك [يعني تتبع اللغة ودراستها] من سنة تسعين إلى سنة مائتين ، وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل

الكوفة والبصرة من أرض العراق . فتعلموا لغتهم والفصح منها
من سكان البراري منهم دون أهل الحضرة ، ثم من سكان
البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدهم . . جفاء ،
وابعدهم إذعاناً وانقياداً ، وهم : قيس وحميم وأسد وطى . ثم
هذيل ، فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب ،
والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء ، لأنهم كانوا في أطراف بلادهم
مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم
للفاظ سائر الأمم المطيعة بهم من الحبشة والهند والفرس
والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر ، (١) .

تحقيق الكتاب غير كاملة ، وأن السيوطي - رحمه الله - قد اطلع على نسخة من كتاب الحروف أتم من مخطوطته الفريدة التي نشر الكتاب اعتماداً عليها^(١٠١) ، وما يقوي هذا الاعتقاد عندني أن السيوطي قد أنهى كلامه بقوله (انتهى) ، وهذا يعني أن جميع ما أورده قد أخذه من كتاب الحروف للفارابي .

النسق الأول الذي كانت عليه قبل التغيير العارض ، وذلك لتبقى الدلالة الأولى للجر اللغوي الأصلي متصورة ومقتربة بالمعنى الجديد ، فصيغة (استعمل) الدالة على طلب الفعل - مثلاً - تبقى محافظة على المعنى الساذج الذي دل عليه الجذر اللغوي (فعل) ، مع دلالتها على المعنى العارض ، الذي أوجبه زيادة (همزة والسين والتاء) ، ويجري هذا الأمر على القوالب اللفظية القياسية المصاغة للدلالة على المعاني الاشتقاقية العامة مثل : اسم الفاعل واسم المفعول واسم التفضيل ، وغير ذلك من المشتقات ، فهي تبقى دالة على المعنى الأول المتصور من الجذر اللغوي الثابت والمتمثل بالفاء والعين واللام ، مع دلالتها على معنى المفعولية أو الفاعلية أو التفضيل أو غير ذلك من المعاني المفهومة من الصيغ التصريفية المختلفة .

لقد تأمل الفارابي اللغة تأملاً هاماً فقرر أحكاماً ندر أن يجد المرء مثيلاً لها في كتب اللغة ، ولا سيما ما يتصل بنظام اللغة العام ، فهو يرى أن اللغة قائمة على نظام يتوخى التناظر في الصيغ التي تشابه فيها الأعراس الطارئة عليها . ولذا كانت المعاني متشابهة بعرض أو حال ما تشترك فيها ، جعلت العبارة عنها بالفاظ متشابهة الأشكال ، . . . ، وجعلت أواخرها كلها أو أولها حرفاً واحداً ، فجعل دالاً على ذلك العرض ، وهكذا يُطلب النظام في الالفاظ^(١١٦) .

والأمثلة على هذا الذي قرره الفارابي كثيرة في العربية ، فصيغة المضارع مبدوءة بحرف من أربعة أحرف ، حُبِرَ عنها بلفظة (أَتَيْتُ) ، وكل حرف منها يدل على معنى ورتب لا يتخلف في أي صيغة من صيغه ، ويجري ذلك كله في نظام متلب وقياس لا يخرج عنه أي صيغة من صيغ هذا الفعل ، ولا أظن أن هناك نظاماً لتصريف الأفعال في أي لغة يرقى إلى هذا النظام البير الذي يخضع له تصريف الفعل في العربية . ولو أنعمنا النظر في الفعل الماضي المجرد المستند للفاعل الظاهر لوجدناه أيضاً يخضع لنظام واحد ، فكل صيغة تبدأ بحرف مفتوح وتنتهي بحرف مفتوح ، تجمعهم هاتان الصيغتان التصريفتان (فَعَلَ وَفَعَّلَ) ، وإذا ما أسند للمفعول جرى له تغير قياسي على وفق نظام

رتب ، وذلك بضم أوله وكسر ما قبل آخره في كلتا صيغتيه الثلاثية والرباعية . ولما يجد الإنسان مثل هذا التنظير في صيغ الأفعال الماضية والمضارعة في غير العربية من اللغات الحية المعروفة .

ومن المؤكد عندني أن الفارابي قد استفاد مما أورده الخليل وسيبويه^(١١٧) وابن السراج^(١١٨) فيما يتصل باتفاق الالفاظ لاتفاق المعاني ، إلا أن الفارابي قد ذكر ما فات أولئك الأعلام أن يذكروه فقد نص بصريح القول على أن اللغة تخضع لنظام تحراه الواضع وتطلبه في الالفاظ تحرياً ، لأن تكون العبارة عن معاني بالفاظ شبيهة بتلك المعاني^(١١٩) ، فالأوزان والصيغ المتشابهة تدل على معاني متشابهة في الأعراس ، وإن اختلفت في أصل الدلالة الوضعية التي يحددها الجذر اللغوي ، وهذا النظام هو الذي مكّن علماء العربية من أن يحدوا المعاني المتشابهة في صيغ متماثلة ، ويمثل ذلك في جوانب كثيرة من أبنية المفردات العربية ، مثل أبنية المصادر والصفات والأفعال ومعاني حروف الزيادة .

وتحدث الفارابي في كتابه الحروف عن تلقي اللغة ، وكيف يأخذها اللاحق عن السابق ، والعلاقة بين الاعتماد على النطق ويمكن اللغة في السنة أبناء الأمة مما يحول دون سريان اللحن إليهم ، وحينئذ من نشأ فيهم على اعتمادهم النطق بحروفهم والفاظهم الكائنة عنها ، وأقاربهم^(١٢٠) المؤلفة من ألفاظهم ، من حيث لا يتعمدون اعتمادهم ، ومن غير أن ينطق عن شيء إلا بما تعلموا استعمالها ، ويمكن ذلك اعتمادهم لها في أنفسهم وعلى ألسنتهم حتى لا يعرفوا غيرها ، حتى تحفوا ألسنتهم من كل لفظ سواها ، ومن كل تشكيل لتلك الالفاظ غير التشكيل الذي يمكن فيهم ، وعن كل ترتيب للأقوال سوى ما اعتادوه ، وهذه التي يمكنت على ألسنتهم وفي أنفسهم بالعادة على ما اعتادوه ممن سلف منهم ، وأولئك أيضاً ممن وضعها لهم أولاً ، بأكمل التي وضعها لهم أولئك ، فهذا هو الفصح والصواب من ألفاظهم ، وتلك الالفاظ هي لغة تلك الأمة ، وما يخالف ذلك فهو الأعجم والخطأ من ألفاظهم^(١٢١) .

ويرى الفارابي أن الألفاظ إذا استقرت دلالتها الحقيقية صار الناطقون بها يتصرفون بها ، فيسعون الى نقل معانيها الى دلالات جديدة قائمة على التجوز والاستعارة . فالدلالة الحقيقية للألفاظ هي الأصل ، وغيرها تابع لها ، ولذا استقرت الألفاظ على المعاني التي جعلت علامات لها ، فصار واحد واحد لواحد واحد . . وصارت رتبة على التي جعلت دالة على فواتها ، صار الناس بعد ذلك إلى النسخ والتجوز في العبارة بالألفاظ ، فعبّر عن المعنى بغير اسمه الذي يجعل له أولاً ، ويجعل الاسم الذي كان لمعنى ما راتباً له فالألفاظ على ذاته ، عبارة عن شيء آخر ، متى كان له به تعلق ولو كان يسيراً ، إنما شبه بعيد ، وإنما لغير ذلك ، من غير أن يحمل ذلك راتباً للثاني فالألفاظ على ذاته ، فيحدث حيث لا يستلزم الاستعارات والمجازات والتحرر بلفظ معنى ما عن التصريح بلفظ المعنى الذي يتلوه متى كان الثاني يفهم من الأول ، وبالألفاظ معان كثيرة يصرح بالألفاظ عن التصريح بالألفاظ معان أخرى إذا كان سبيلها أن تقرر بالمعاني الأول متى كانت تفهم الأخيرة مع فهم الأولى ، والتوسع في العبارة بتكثير الألفاظ وتبديل بعضها ببعض

وترتيبها وتحسينها (١١٧) .
ولعل لا أعدو الحقيقة إذا ماقلت إن الفارابي في كلامه السابق هو أول من تحدث عن العلاقة بين الحقيقة والمجاز ، ونصّ على أن الدلالة الحقيقية للألفاظ هي الدلالة الأولى ، أي الأصل ، وأن الدلالة المجازية ثانية لها ، أي : فرع عليها ، وأن نقل اللفظ من الحقيقة إلى المجاز لا يتم إلا بوجود علاقة ، إذ لا يحصل نقل اللفظ من المعنى الأول إلى المعنى الثاني إلا إذا كان له به تعلق ولو كان يسيراً (١١٨) .

هذه هي إهم آراء الفارابي اللغوية التي بثها في كتابه « الحروف » . وهي تمثل جانباً من جوانب الجهود القيمة التي قدمها الفلاسفة المسلمون للدرس اللغوي ، والتي لم يلتفت إليها الباحثون اللغويون المعاصرون ، ولعل بحثي هذا يلمح غيري من الباحثين للتقريب في كتب المنطق والفلسفة بغية الكشف عما في هذه الكتب من مباحث لغوية ونحوية تشكل جزءاً من جهود علمائنا الأوائل في دراسة هذه اللغة الشريفة .

هوامش البحث

- ١٢ - انظر الدراسات النحوية والصرفية واللغوية في صحاح الجوهري ١١ .
- ١٣ - لغة اللغة ١٦٥ هـ ١ ودراسات في لغة اللغة ١١٢ هـ ٣ .
- ١٤ - كتاب الحروف ١٢٧ و ٢٠٨ وانظر هيون الأبياء في طبقات الأطباء ٦٠٨ - ٦٠٩ .
- ١٥ - انظر الاقتراح ٥٦ ، والمزهر ١ / ٢١١ . ١٦ - كتاب الحروف / مقدمة للمحقق ٣٥ .
- ١٧ - انظر هيون الأبياء في طبقات الأطباء ٦٠٨ . ١٨ - كتاب الحروف / مقدمة للمحقق ٣٤ .
- ١٩ - كتاب الحروف ٢٢٦ . ٢٠ - كتاب الحروف مقدمة للمحقق ٣٤ .
- ٢١ - نشر الدكتور ابراهيم السامرائي قسماً من هذا الكتاب ضمن (وسائل في اللغة) .

- ١ - كتاب معجم البلدان ٣ / ٨٣٤ - ٨٣٥ وانظر وفيات الأعيان ١٥٣ / ٥ .
- ٢ - كتاب معجم البلدان ٣ / ٨٣٤ ، ووفيات الأعيان ١٥٦ / ٥ .
- ٣ - وفيات الأعيان ١٥٣ / ٥ . ٤ - الأعلام للزركلي ٧ / ٢٠ .
- ٥ - هيون الأبياء في طبقات الأطباء ٢٠٤ .
- ٦ - انظر قائمة كتبه في هيون الأبياء في طبقات الأطباء ٦٠٨ - ٦٠٩ .
- ٧ - وفيات الأعيان ١٥٦ / ٥ . ٨ - انظر مقدمة محقق كتاب الحروف ٢٧ .
- ٩ - انظر مغللاً : لغة اللغة للدكتور علي عبد الواحد والي ١٦٥ ، ودراسات في لغة اللغة للدكتور صبحي الصالح ١١٢ - ١١٣ .
- ١٠ - انظر مقدمة محقق كتاب الحروف ٤٩ - ٥٠ .
- ١١ - انظر السوطي: النحوي ٢٦٠ هـ ٣ .

- ٢٢ - رسائل في اللغة ١٣٨ ، وانظر تعليقات محقق كتاب الحروف على نص الكتاب ٢٣٤ ، وهذا النص ساقط من كتاب الحروف المنشور ولم يذكر ذلك في حق الكتاب .
- ٢٣ - الإيضاح في حلال النحو ٥٤ ، وانظر الأخطاء والنظائر ١٠ / ١٠ .
- ٢٤ - انظر كتاب السبعة في القراءات ٤٥ و ٤٦ ، ٤٨ و ٤٩ ، وسر صناعة الأعراب ١٤ / ١٤ .
- ٢٥ - الكتاب ١ / ٤٣ ، و ١٦٠ ، ١٦٨ ، ٢ / ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣٩٠ ، والأصول في النحو ٣ / ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٥١ .
- ٢٦ - انظر كتاب الحروف ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٨ ، ١١٣ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٨٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ .
- ٢٧ - كتاب الحروف / مقدمة المحقق ٣٦ .
- ٢٨ - يستعمل المناطق الأفعال (الكلم) والفعل (الكلمة) وهو مصطلح خاص بهم انظر : كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق ٤١ .
- ٢٩ - كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق ٤٥ - ٤٦ .
- ٣٠ - كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق ٤٤ .
- ٣١ - وفيات الأعيان ٥ / ١٥٧ - ١٥٧ . ٣٢ - انظر حيون الأبياء في طبقات الأطباء ٦٠٦ .
- ٣٣ - إنباء الرواة ٣ / ١٤٩ وانظر مقدمة محقق كتابي ابن السراج : الموجز في النحو والأصول في النحو .
- ٣٤ - إنباء الرواة ٣ / ١٤٩ . ٣٥ - انظر كتاب الحروف ١٣ ، ٢٣ ، ٧٧ ، ٨٤ .
- ٣٦ - رسائل في اللغة ١٣٨ . ٣٧ - الإعراب ٥٦ - ٥٧ والمزهر ١ / ٢١١ - ٢١٢ .
- ٣٨ - انظر كتاب الحروف ٦٢ و ٦٣ و ٨٢ و ٨٢ و ٩٣ و ٩٥ و ٩٧ و ١٠٠ و ١٠٧ و ١١٣ ، ١١٦ - ١٢٧ .
- ٣٩ - انظر مثلاً هذه القصول من كتاب الحروف مثلاً ، و حدوث حروف الأمة ١٢٤ - ١٣٧ ، و أصل لغة الأمة واكتسابها ١٣٧ - ١٤٢ ، وفصل : و حدوث النتائج العامة ١٤٢ - ١٤٩ .
- ٤٠ - انظر الإيضاح في حلال النحو ٤٦ و ٤٨ والخصائص ١ / ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٨ ، و شرح اللامع ١ / ١ ، ٦ ، ١١ ، و شرح اللامعة البلية ١ / ٢٠٠ - ٢٠٩ .
- ٤١ - الفهرست لابن النديم ٦٦ و بنية الرواة ٢ / ٣٣٣ .
- ٤٢ - الفهرست لابن النديم ٦٧ ، وإنباء الرواة ٣ / ١٤٩ .
- ٤٣ - معجم الأبناء ١٤ / ٧٤ - ٧٥ .
- ٤٤ - كتاب الحروف ٧٧ . وانظر الاشتقاق لابن السراج ٣١ - ٤٥ - كتاب الحروف ٨١ .
- ٤٦ - اللسان (صر) . ٤٧ - كتاب الحروف ٧١ و ٨١ .
- ٤٨ - كتاب الحروف ٧١ ، وانظر اللسان (حلق) .
- ٤٩ - كتاب الحروف ٧٤ ، ٧٨ ، وانظر الأصول في النحو ٣ / ٨٥

- والاشتقاق لابن السراج ٣٧ - ٣٨ .
- ٥٠ - كتاب الحروف ٧٣ - ٧٤ وانظر الإيضاح في حلال النحو ٥٩ والتفسير الكبير ١ / ١٠ .
- ٥١ - كتاب الحروف ١١٣ وانظر الانصاف في مسائل الخلاف ١ / ٢٣٧ .
- ٥٢ - كتاب الحروف ١١٢ . ٥٣ - كتاب الحروف ٧٨ و ٨٠ ، ١١١ ، ١١٢ .
- ٥٤ - كتاب الحروف ١١٢ و ١١٤ .
- ٥٥ - قال الفارابي : تستعمل الفلاسفة الوجود الكامل إثبات الشيء ، كتاب الحروف ٦١ .
- ٥٦ - كتاب الحروف ٦٢ و ١١٢ . ٥٧ - انظر البيان والتبيين ١ / ١٣٩ .
- ٥٨ - تلخيص العروس (حور) . ٥٩ - كتاب الحروف ١٣٨ .
- ٦٠ - كتاب الحروف ١٣٧ . ٦١ - كتاب الحروف ١٣٨ .
- ٦٢ - انظر الخصائص ٢ / ٢٨ وما بعدها . فقد عقد ابن جني باباً منه : و باب في هذه اللغة ، التي وقت واحد وُضعت أم تلاحق تتبع منها بطرط ٤٢ .
- ٦٣ - الخصائص ٣ / ٢٦٢ ، والمختص ١ / ٨٣ ، ١٣٣ ، ٢ / ٢٣٥ .
- ٦٤ - حيون الأبياء في طبقات الأطباء ٦٠٢ - ٦٠٤ .
- ٦٥ - انظر - مثلاً - الخصائص ١ / ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٨٨ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ، ١٨١ و ١٨٢ ، ١٩٧ .
- ٦٦ - كتاب الحروف ١٣٧ - ١٣٨ . ٦٧ - الخصائص ١ / ٤٠ .
- ٦٨ - كتاب الحروف ١٣٧ . ٦٩ - كتاب الحروف ١٣٦ .
- ٧٠ - كتاب الحروف ١٣٧ . ٧١ - كتاب الحروف ١٣٧ - ١٣٨ .
- ٧٢ - الخصائص ١ / ٤٠ - ٤٧ ، والمزهر ١ / ٢٨ - ٢٨ .
- ٧٣ - المزهر ١ / ٢١ . ٧٤ - المزهر ١ / ١٨ .
- ٧٥ - انظر مبحث الألفاظ الإسلامية في المزهر ١ / ٢٩٤ - ٣٠٣ .
- ٧٦ - المزهر ١ / ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ . ٧٧ - كتاب الحروف ١٣٧ - ١٣٨ .
- ٧٨ - الخصائص ١ / ٣٣ . ٧٩ - كتاب الحروف ١٣٥ .
- ٨٠ - البيان والتبيين ١ / ٧٦ ، ٧٧ والإيضاح في حلال النحو ٤٢ ، والتفسير الكبير ١ / ٣٥ و شرح اللامعة البلية ١ / ٢٠٧ .
- ٨١ - الخصائص ١ / ٤٤ . ٨٢ - كتاب الحروف ١٣٦ .
- ٨٣ - قال ابن خلكان وهو يترجم للفارابي : « والرئيس أبو علي ابن سينا يكتبه تخرج وبكلامه القبح في كتابه » انظر وفيات الأعيان ٥ / ١٥٣ .
- ٨٤ - أسباب حدوث الحروف ٨ - ٩ . ٨٥ - كتاب الحروف ١٣٧ .
- ٨٦ - كتاب الحروف ١٣٨ . ٨٧ - كتاب الحروف ١٤٣ - ١٤٤ .
- ٨٨ - كتاب الحروف ١٤٤ .

- ٨٩ - يقصد الفارابي بقوله (يتطرق عنها) أنها تصبح علماً يمكن أن يتحدث عنه ويعلم .
- ٩٠ - كتاب الحروف ١٤٤ - ١٤٨ . ٩١ - كتاب الحروف ١٤٨ .
- ٩٢ - كتاب الحروف ١٤٨ . ٩٣ - كتاب الحروف ١٤٨ .
- ٩٤ - كتاب الحروف ١٤٥ . ٩٥ - كتاب الحروف ١٤٥ .
- ٩٦ - كتاب الحروف ١٤٦ . ٩٧ - كتاب الحروف ١٤٦ .
- ٩٨ - كتاب الحروف ١٤٦ . ٩٩ - الخصائص ٢ / ٥ - ١٠ .
- ١٠٠ - أخبار النحويين البصريين ٦٨ . والكاشح آدم يؤكل تشبه الطعم ، والشواريز جمع شيراز وهو اللبن الرائب .
- ١٠١ - كتاب الحروف ١٤٧ . ١٠٢ - الزهر ١ / ٢١٢ .
- ١٠٣ - انظر كتاب الحروف / مقدمة المحقق ٤٠ - ٤١ .
- ١٠٤ - للمفاتيح لابن فلاح الهملي ٢ / ١١ - ١٢ . ١٠٥ - مقدمة ابن خلدون ٥٥٥ .
- ١٠٦ - كتاب الحروف ١٣٩ - ١٤٠ . ١٠٧ - كتاب الحروف ١٤٠ .
- ١٠٨ - الكتب ٢ / ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ .
- ١٠٩ - الأصول في النحو ٣ / ٨٩ - ٩٥ . ١١٠ - كتاب الحروف ١٤٠ .
- ١١١ - يعني الفارابي بالألفاظ الكلام المركب . ١١٢ - كتاب الحروف ١٤١ - ١٤٢ . ١١٣ - كتاب الحروف ١٤١ .
- ١١٤ - كتاب الحروف ١٤١ وانظر نهاية الإيجاز في دراية الأفعال ٨١ .

مصادر البحث

- ١ - أخبار النحويين البصريين / للناضي أبي سعيد السمراني . تحقيق طه محمد الزيني وعبد الحكيم عفاي . طبع ونشر مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطبعة الأولى ٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .
- ٢ - أسباب حدوث الحروف / للرئيس ابن سينا ، راجعه وقدم له طه عبدالرؤوف سعد / الناشر مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- ٣ - الأشباه والنظائر ، للسيوطي / الطبعة الثالثة ١٣٥٩ هـ / دائرة المعارف العثمانية / حيد آباد الدكن / الهند .
- ٤ - الانشقاق / لأبي بكر بن السراج / تحقيق الدكتور محمد صالح التكريتي / الطبعة الأولى / مطبعة المعارف بغداد / ١٩٧٣ م .
- ٥ - الأصول في النحو / لأبي بكر بن السراج / تحقيق الدكتور عبدالحسين المفتلي / الطبعة الأولى / بيروت / مؤسسة الرسالة ١٤١٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٦ - الأعلام / خير الدين الزركلي / الطبعة الرابعة / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٧٩ م .
- ٧ - الاقتراح في علم أصول النحو / للسيوطي / تحقيق الدكتور أحمد محمد قاسم / الطبعة الأولى / مطبعة السعادة القاهرة / ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
- ٨ - إنباء الرواة على أشباه النحاة / للفتني / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / مطبعة دار الكتب المصرية / القاهرة / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .
- ٩ - الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين / لأبي البركات بن الأثيري / تحقيق محمد عيسى الدين عبدالحاميد / نشر المكتبة التجارية / القاهرة / ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م / الطبعة الرابعة .
- ١٠ - الإيضاح في علم النحو / للزجاجي / تحقيق الدكتور ملون المبارك / مطبعة المنشي / ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م / نشر مكتبة دار المعروية / القاهرة .
- ١١ - بقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة / للسيوطي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / الطبعة الأولى / مطبعة عيسى البابي الحلبي / القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ١٢ - البيان والتهيين / للجاحظ / تحقيق محمد عبدالسلام هارون / مكتبة الجاحظ / الطبعة الثالثة / نشر مكتبة الحاتمي / القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ١٣ - تاج العروس من جواهر القاموس / لمحمد مرتضى الزبيدي / الطبعة الأولى / للطبعة الأخيرة / مصر سنة ١٣٠٦ هـ .
- ١٤ - التفسير الكبير / للمفسر الرازي / الطبعة الأولى / ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م / مطبعة البهية المصرية / القاهرة .
- ١٥ - الخصائص / لابن جني / تحقيق محمد علي النجار / دار المنشي للطباعة والنشر / بيروت / الطبعة الثانية / مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
- ١٦ - دراسات في لغة اللغة / للدكتور صبحي الصالح / الطبعة السابعة / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٧٨ م .

- ١٧ - الدراسات النحوية والصرفية واللغوية في صحاح الجوهري / رسالة ماجستير / احمد السيد عبدالرسول سلمان ابراهيم / كلية الآداب - جامعة بغداد / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .
- ١٨ - رسائل في اللغة / حقلها وقدمها الدكتور ابراهيم السامرائي / مطبعة الرشاد / بغداد / سنة ١٩٦٤ م .
- ١٩ - سر صناعة الاحراب / لاين جي / دراسة وتحقيق الدكتور حسن هندلوي / دار القلم دمشق / الطبعة الأولى / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٢٠ - السيوطن النحوي / الدكتور عدنان محمد سلمان / دار الرسالة / بغداد / ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
- ٢١ - شرح اللمعة البهرية في علم اللغة العربية / لاين هشام الأنصاري / تحقيق الدكتور هادي عير / مطبعة الجامعة / بغداد / ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- ٢٢ - شرح اللمع / لاين برهان المكيري / تحقيق الدكتور فخر فارس / الطبعة الأولى / الكويت / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ٢٣ - حيون الأنهاء في طبقات الأطباء / لاين أبي أصيبعة / منشورات مكتبة الحيلة / بيروت / شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا / ١٩٦٥ م .
- ٢٤ - لغة اللغة / الدكتور علي عبدالواحد والي / الطبعة الرابعة / لجنة البيان العربي / القاهرة / ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .
- ٢٥ - الفهرست / لاين النعيم / نشرة مكتبة حياط / بيروت / سنة ١٩٤٦ م .
- ٢٦ - الكتاب / لسويوه / الطبعة الأولى / بولاق / ١٣١٧ هـ .
- ٢٧ - كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق / للفارابي / تحقيق حسن مهدي / دار المشرق / المطبعة الكاثوليكية / بيروت / ١٩٦٨ م .
- ٢٨ - كتاب الحروف / للفارابي / تحقيق حسن مهدي / دار المشرق / المطبعة الكاثوليكية / بيروت / ١٩٧٠ م .
- ٢٩ - كتاب السبعة في القراءات / لاين مجاهد / تحقيق الدكتور شوكي ضيف مطبعة دار المعارف / مصر / ١٩٧٢ م .
- ٣٠ - كتاب معجم البلدان / لياقوت الحموي / طبعة لايزك ١٨٦٨ م .
- ٣١ - اللسان / لاين منظور / طبعة دار صادر / بيروت .
- ٣٢ - المحاسب في تبيين وجوه شواذ القراءات / لاين جي / تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبدالحميد النجار والدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي ، نشر المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية / القاهرة ١٣٨٦ هـ .
- ٣٣ - المزهري في علوم اللغة / للسيوطي / تحقيق محمد أحمد جاد الحولي وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم / دار احياء الكتب العربية / القاهرة .
- ٣٤ - معجم الأدباء / لياقوت الحموي / مطبوعات دار المأمون / مصر .
- ٣٥ - المنى / لاين فلاح الهني / رسالة دكتوراه / احمد الشنيخ عبدالرزاق عبدالرحمن السعدي / كلية اللغة العربية / جامعة أم القرى / مكة المكرمة / سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ٣٦ - مقدمة ابن خلدون / لاين خلدون / دار احياء التراث العربي / الطبعة الرابعة / بيروت .
- ٣٧ - الموجز في النحو / لأبي بكر بن السراج / تحقيق مصطفى الشويخي وابن سالم داودي / طبع ونشر مؤسسة أ . بدران للطباعة والنشر / بيروت / ١٩٦٥ م .
- ٣٨ - نهاية الایجاز في رواية الاصحاح / للفرع المدين الرنزي / تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور محمد بركات حسني أبو علي / دار الفكر / عمان .
- ٣٩ - مع الخواص شرح جمع الجوامع / للسيوطي / تحقيق عبدالعالم سالم مكرم / دار البحوث العلمية / الكويت / ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٥ م .
- ٤٠ - وفیات الأعيان / لاين حلكان / تحقيق الدكتور احسان عباس / دار صادر / بيروت .

- • •

رحلة تاريخية مع تصانيف النباتات الطبية عند العرب

دراسة

د . ناصر حسين صفر

كلية الزراعة - جامعة بغداد

المقدمة :

ان هذه الدراسة استهدفت ما قام به العرب في موضوع تصانيف النباتات الطبية . حيث ارجعت للفترة من ٢٥٥ هـ - ١١٣٠ هـ أي من وفاة سلهور بن سهل وحتى فترة حياة عبدالرزاق الجزائري فعند مطالعتنا لهذه الدراسة نلاحظ ان العرب خلال هذه الفترة قد تعمقوا واجتهدوا في هذا الموضوع بدليل اكتشافهم لأكثر من ألف نبات^(١) تستعمل لعلاج مختلف الأمراض بعد ما كانت النباتات التي تستعمل لهذا الغرض قبل هذه الفترة قليلة كما بينها كتاب الحشائش للعالم اليوناني ديسقوريدس (٧٧ ق . م) . فلكم الكتاب الذي اعتمد عليه العرب كثيراً في هذا الموضوع .



للعرب تصانيف كثيرة في مختلف علوم المعرفة تقدر في ثلاثة ملايين مخطوط موجودة في مكتبات العالم شرقاً وغرباً مكتبة برلين ومكتبة جيسترتين في انكلترا ومكتبة المتحف البريطاني والمكتبة الوطنية بباريس ومكتبة الفاتيكان في إيطاليا والاسكوريال

في أسبانيا وويل في أميركا وكذلك الاتحاد السوفياتي وخاصة في مكتبة لينغراد وطاشقند وكذلك الهند والباكستان وتركيا إضافة الى ما موجود منها في مكتبات الوطن العربي .
ان جزء من هذه التصانيف تبحث في موضوع الأعشاب الطبية والتي نطلق عليها الان النباتات الطبية .
كانت معظم الأدوية القديمة تتخذ من النباتات سواء ما بنت منها في السهل أم في الجبل أم في الصحراء . ومعرفة هذه النباتات ما لها من خواص طبية أمر ضروري لمن يشتم بالطب فكان على الطبيب وقتذاك ان يلم بالنباتات ومنافعها لكي يتخذ منها ما يصلح حال مرضاه ويعود عليهم بالصحة والعافية . وقد اطلق العرب على العقاقير ذات المصادر النباتية اسم المفردات الطبية . لذا لولئى جهابذة الاطباء العرب هذه الناحية جزيل عنايتهم فصنفوا في ذلك تصانيف كثيرة جليلة ضاع منها شيء وانتهى اليها شيء آخر . وقد صار بوسعنا ان نحكم من هذا القدر الذي انتهى اليها منها على مبلغ ما توصل اليه العرب الاقدمون في هذا الشأن . اذ ان خصائص النباتات المختلفة قد

عرفوها معرفة حسنة مبنية على التجربة والاختبار . وكان بعض تلك التأليف مما اقتبسه العرب عن غيرهم من الأمم القديمة كالليونان والهند والنبط وبعضه مما صنفوه على حسب ما وصلت اليه تجاربهم وبلغه علمهم .

ومن الكتب الأجنبية التي لها علاقة بموضوعنا هذا والتي اهتم بها العرب أكثر من اهتمامهم بأي كتاب آخر من كتب النبات كتاب ديسقوريدس (٧٧ ق . م) في الحشائش والأدوية المفردة ، فقد عتوا به عناية كبرى فنقلوه من اللغة اليونانية الى العربية مرتين : المرة الأولى في بغداد والمرة الثانية في الأندلس . وقد كان هذا الكتاب معين العرب في العقاقير في مادته ، نقل عنه كل ما أتى منهم بعد ترجمته ثم زادوا عليه بعد ذلك بقدر ما وصل اليه علمهم . ان هذا الكتاب يدرس النباتات بصورة دقيقة ، وما يستخرج منها من أدوية ويقول جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفي سنة ٦٤٦ هـ في كتابه اخبار العلماء بأخبار الحكماء : ديسقوريدس العين زري حكيم فاضل كامل من أهل مدينة عين زرية شامي يوناني حشائشي ، كان بعد افراط وفسر في كتبه كثيراً وهو أعلم من تكلم في أصل علاج الطب وهو العلامة في العقاقير المفردة وتكلم فيها على سبيل التجنيس والتنويع ولم يتكلم في الدرجات وألف كتاب الخمس مقالات : قال جالينوس تصفحت أربعة عشر مصحفاً في الأدوية المفردة لأقوام شتى فما رأيت فيها أتم من كتاب ديسقوريدس وعليه احتلنى كل من بعده .

ان مقالات هذا الكتاب هي :

الفصل الأول أو المقالة الأولى : الأدوية العطرية والأفاذية والادهان والصبوغ والأشجار الكبار .

المقالة الثانية : الحيوان ورطوبات الحيوان والبقول والحبوب ، والقطاني والبقول الحريفة والأدوية الحريفة .

المقالة الثالثة : أصول النبات والبنات الشوكي والبلور والصبوغ وحشائش لازهرية .

المقالة الرابعة : الأدوية من الحشائش الحارة والمسهلة والمقوية والنافعة من السموم .

المقالة الخامسة : الكرم والأشربة والأدوية المعدنية .

المقالة السادسة : في أجناس الدواب كلها التي في البحر والبر ، وما يصلح لعلاج الطب ، ما كان فيها ذا قشور . شبه الخنزف وجميع الحيتان والسباع والطيروالألبان والصوف والوسخ وجميع الانفعالات والمرارات والشحوم والأدعة وأنواع الدم والزبل والأبوال والحيوان ذات السموم والأصواف وغير ذلك .

المقالة السابعة : الغرض منها امران : أحدهما الاحتراز من الوقوع في تناول الشيء الضار والآخر علاج الضار اذا وقع .

واذا تأملنا في مفردات المقالات التي تخص النباتات على اختلافها وجدنا أكثرها معرباً وقلها نجد اسماً عربياً وهذا يطابق قول ابن جلجل : « فما علم اصطفى من تلك الأسماء اليونانية في وقته له اسم في اللسان العربي فسرّه بالعربية وما لم يعلم له في اللسان العربي اسماً تركه في الكتاب على اسمه اليوناني اتكالاً منه على ان يبحث الخ ... » .

وهذا مثال من الترجمة الأولى من كتاب الحشائش لديسقوريدس فالعمود الأول ، الترجمة التي وضعت والعمود المقابل له هو الألفاظ اليونانية الأصلية التي توصل الى تحقيقها وما بين القوسين اللفظ العربي مما علم اصطفى في وقته .

Aleo	ألوي
Almos	اليموس
Mellilotus	ماليلوطس (اكليل الملك)
Peganum	بيقانون (سداب بري)
Moly	مولو (حرمل)
Atrachyle	اطراقتولس (قرط بري)
Coriander	قورنيون (كزبرة)
Selinum	ساليونس
Daucus	داوقس
Dipsacus	ديصاقوس (رأس القنفذ)
Agaricum	أغاريقون
Acanthion	اقانيثون (رأس الشبغ)

وهذا دليل آخر على ان العرب القداما كانت لهم قوة ملاحظة دقيقة وحادة وتفكير علمي خلاق يضاهي - ان لم نقل يفوق - تفكير العالم المعاصر لأن البيروني قد سبق هذا العالم في اكتشاف أهمية النباتات في شفاء الأمراض بحوالي تسعة قرون .
والآن لنلقي نظرة على هذه التصنيفات ومؤلفيها :
سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

كان فاضلاً عالمياً بقوى الأدوية المفردة وتركيبها ، وتقدم عند المتوكل وكان يرى له وكذلك عند من تولى بعده من الخلفاء . وتوفي في أيام المهدي بالله ومن تصنيفه في هذا الخصوص :

أ - كتاب الاقرباذين الكبير وهو يبحث في المواد الطبية والنباتات التي تستخرج منها . وهو كتاب قيم وتوجد منه نسخة في ميونيخ^(١) .

حنين بن اسحاق العبادي المتوفى سنة ٢٦٤ هـ .

كان فصيحاً لساناً بارعاً اقام مدة في البصرة وكان شيخه في العربية الخليل بن احمد ، واشتغل مع سيوفه ثم انتقل الى بغداد واشتغل فيها بصناعة الطب وسأله المأمون نقل كتب الحكماء اليونانيين الى العربية وبذل له من الأموال والعطايا شيئاً كثيراً . وأورد ابن أبي أصيبعة أكمل قائمة لمؤلفاته العربية وهي تحتوي على أكثر من مائة كتاب في مختلف فروع الطب نذكر بعض منها لاحتوائها على مسائل تتصل بموضوع النباتات الطبية .

أ - كتاب العشر مقالات في العين يذكر في الستة الأولى منها طبيعة العين وتركيبها . أما المقالة السابعة فهي الأدوية المفردة عامة وتتناول المقالة الثامنة أدوية العين وأجناسها وفنون استعمالها . فمنها ماهو من النبات ومنها ماهو من المعادن ومنها ماهو من الحيوان . والتي هي من النبات منها صمغ مثل الحلتيت والسكينج والافريون والمر والكندر والافيون والصمغ والكثيراء والبارزد والانتروث والخصص والاشق . ومنها ماهي عصارات كمصارة المورقسطيداس والاقاقيا وماء اللقاح وماء البابونج والصبر والنشاستج ومنها ماهو ورق مثل الساذج ومنها ماهو خشب مثل السليخة والدار صيني وعيدان البطباط ومنها ماهو قشر مثل قشر الكندر وقشر البيروج ومنها ماهو عقود مثل

Ammoniacum	امونياقن (اشق)
Alyssum	الوسن (مبري الكلب)
Asplenium agrost	اسفليانس اغريا (حشيشة الطحال)
Anethum	إنتون (الشبث)
Ammi	أمي (نانحواء)
Edyocemon	ايدوسمن (نهنج)
Irigoantha	طراخالنتا (الكثيرة)
Leucacantha	لوقالنتا (الشوكة البيضاء)
Colla	قولا (الغرين)
Idos	اسيوس (الدبق)
Cuminum agria	كومنون اغريا (كمون بري)
Cuminum	كومتيون (كمون بستاني)
Selenon Capelone	ساليون قيقابون (كرفس نباتي)
Marathron	مارالرون (رازيانج)
Staphylinos	سطاफलيتس (جزر بري)
Euphorbium	اوفريريون
Iris	ايريس

كذلك نقرأ على سبيل المثال مقالته البيروني في القرن الحادي عشر الميلادي حول هذا الكتاب وكل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم في علم مألو عمل واليونانيون منهم قبل النصرانية موسومون بفضل العناية في المباحث وترقيده الأشياء الى اشرف مراتبها وتقريرها من كمالها ولو كان ديسفوريدس في نواحيها وصرف جهد أهل مافي جبالنا وبلادنا لكانت تصير حشائشها كلها أدوية ومايجتنى بحسب تجارية شاقية^(٢) ان هذا الكلام يشابه مقالته العالم الألماني هيرمان لشتنتشترن في القرن العشرين حول النباتات الطبية في مقدمة كتابه الموسوم « النباتات الطبية » : « دعنا لانتعجب بعيداً فان ماتقدمه الطبيعة لنا من قوى علاجية متعددة ويكميات وفيرة وغير مفسوشة أو مزورة ويلون مقابل غير دليل على ذلك وذلك من خلال جهد بسيط ويعيون فاحصة ومدققة أثناء تجوالنا في الغابات والحقول لأن التعرف على الموسوعة النباتية ليس بالأمر المسير أو الصعب^(٣) .

الحماما ومنها ماهو سنبل مثل سنبل الطيب .

ب - كتاب الأدوية المفردة وكان هذا الكتاب من تأليف جالينوس وقد ترجمه الى اللغة العربية حنين بن اسحاق وولده وشرحه العالم النباتي ابن البيطار .

ج - كتاب في تركيب الأدوية . هذا الكتاب مترجم من جالينوس حيث ترجمه مع ولده وان هذا الكتاب يشرح كيفية تركيب الأدوية من النباتات الطبية .

د - كتاب الأدوية حتى يسهل وجودها من تأليف جالينوس وترجمة حنين بن اسحاق وهو يشرح الأدوية التي تتكون من النباتات والتي يسهل وجودها في اليونان والبلدان المجاورة .

هـ - اختصار كتاب جالينوس في الأدوية المفردة تأليف حنين بن اسحاق .

و - كتاب في الفواكه ومنافعها وهو يبحث عن الفواكه ومنافعها بصورة فنية دقيقة وفيه منافع جمة وتوجد منه نسخة في مكتبة حلب الكبرى^(١) .

أبو حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ .

أحمد بن داود بن وند الملقب بالدينوري ويسمى أيضاً أبو عبدالله بن علي المشاب . أخذ عن البصريين والكوفيين وأكثر أخذه عن ابن السكيت ، وكان نحويّاً لغوياً مهندساً منجماً حاسباً راوية ثقة فيما يرويه ومحكيه . له كتاب لم يصنف في معناه مثله وقد وصفه أبو حيان التوحيدي فقال : فأما كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات . . فهو في الذروة في معرفة النبات وخواص الأدوية ، فلم يترك أبو حنيفة شاردة ولا واردة الا اثبتها في كتابه حتى فاق به من تقدمه من علماء اللغة ومدونيها والباحثين في النبات وقد صار هذا الكتاب عمدة اللغويين والأطباء والعشائين الذين آتوا بعد أبي حنيفة . جاء هذا الكتاب في تسعة مجلدات كبار وقد صار هذا الكتاب عمدة الأطباء والعشائين فلا يخرج طبيب أو يرز عشاب الا بعد ان يستوعب كتاب النبات لأبي حنيفة ويؤدي الامتحان في مراده .

أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني المتوفى ٢٨٨ هـ .

كان جيد النقل الى العربية حسن العبارة وكان قوي المعرفة باللغة السريانية واليونانية . من تصانيفه في هذا الموضوع جوامع

كتاب الأدوية المفردة لجالينوس .

الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي . قد جمع المعرفة بعلوم القدماء ولا سيما الطب وما يؤثر عن الرازي بخصوص النباتات باعتبارها من العقاقير انه قال : « العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض فعليك بالأشهر مما أجمع عليه ودع الشاذ واقتصر على ماجربت » . له كتاب هو سر الأسرار ويشتمل على حد تعبير الرازي على معادن ثلاثة : معرفة العقاقير ومعرفة الآلات ومعرفة التدابير ونحن نلخص من الجدول الآتي هذه الأقسام .

أ - العقاقير الترابية .

ب - العقاقير النباتية .

ج - العقاقير الحيوانية .

وأجل ما استعمل منها : الاثنان السنجي التي كانت تحرق ويستعمل رمادها . كذلك للرازي كتاب ثاني في هذا الخصوص هو كتاب الحاوي في الطب ويشمل على قسم عظيم في النبات والمفردات الطبية من اثني عشر قسماً .

أحمد بن أبي الأشعث المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

كان عالماً يكتب جالينوس خبيراً بها مطلعاً على أسرارها وقد شرح كثيراً منها وفر أيضاً كثير من كتب طاليس وله من الكتب الخاصة بهذا الموضوع : كتاب الأدوية المفردة ثلاث مقالات وقد نقل عنه داود الانطاكي .

التميمي .

هو أبو عبدالله بن أحمد بن سعيد التميمي . كان مقامه أولاً بالقدس ونواحيها وله معرفة جيدة بالنبات وماهياته والكلام فيه وكان متميزاً في أعماله بصناعة الطب وله خبرة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة وانتقل الى مصر واقام بها الى ان توفي .

وكان التميمي موجوداً بمصر سنة ٣٧٠ هـ . له من الكتب في هذا الخصوص كتاب رسالة في صناعة الترياق الفاروقي والتنبية على ما يغفل فيه من أدوية ونعت اشجاره الصحيحة وأوقات جمعها وكيفية حجنه وذكر منافعها ونجربته .

اعتقد ان مقام به التميمي من عمل ماهو الا تطوير

وتحسين للدواء المسمى بالترياق Theriac الذي تم اكتشافه من قبل الطبيب المشهور اندرو ماركو والمولود في القرن الأول الميلادي والمتكون من خليط للنباتات الطبية والعطرية وعددها ٦٤ نبات وأهمها القرفة والزعفران والافيون والشطة .

علي بن عباس المتوفى سنة ٣٨٥ هـ :

علي بن عباس المعروف عند اللاتين باسم Haly Abbas كان لكتابه « كامل الصناعة في الطب » شهرة كبيرة وقد ترجم الى اللاتينية تحت عنوان « الكتاب الملكي » وكان هذا الكتاب يحتوي على جزئين . الجزء الأول وهو الجزء النظري وكان ينحصر الطب أما الجزء الثاني وهو الجزء العملي حيث كان يحتوي على عشر مقالات وكانت المقالتان الثانية والعاشره مخصصتين للأدوية حيث قسم في هاتين المقالتين أنواع الأدوية المفردة الى مايلي :

أ - الأدوية النباتية .

ب - الأدوية الحيوانية .

ج - الأدوية المعدنية .

أما بخصوص الأدوية النباتية فتشمل : في ذكر الحشائش وقواها وفي ذكر قوى البلور والحبوب وفي الأوراق وفي الأزهار وفي الثمار وفي زيوتها وفي الطبائع والعصارات وفي الصمغ والتفرعات الثمرية .

ابن سنجون المتوفى ٣٩٢ هـ :

هو أبو بكر حامد بن سنجون ، فاضل في صناعة الطب ، متميز في قوى الأدوية المفردة ، وأفعالها له من الكتب في هذا الخصوص :

أ - كتاب الأدوية المفردة - هذا الكتاب مشهور بالجودة وقد أجهد نفسه في تأليفه واستوفى فيه كثير من آراء المتقدمين في الأدوية المفردة .

ب - كتاب انتزاعات من كتاب ديسقوريدس في صفات الحشائش .

إبن جلجل :

هو أبو داود سليمان بن حسان ويعرف بابن جلجل ، كان طبيباً خبيراً .

وكان في أيام هشام المؤيد بالله وخدمه بالطب وله بصيرة واعتناء بقوى الأدوية المفردة .

ومن كتبه في هذا الخصوص هي :

أ - كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس الذي أنجزه عام ٣٧٢ هـ .

ب - مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب ويتنفع به . ان ابن جلجل يعتبر من العلماء الذين ألفوا في النبات . ومن ملاحظاته الخاصة وتجاربهم الكثيرة تجمعت لديه المادة لوصف أكثر من ألف وأربعمائة عقار نباتي ومواد أخرى قد يستعاض بها .

ابن الجزار المتوفى في سنة ٤٠٠ هـ :

هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد الطبيب ويعرف بابن الجزار القيرواني . طبيب ابن طبيب وعمه أبو بكر طبيب . كان طبيباً حاذقاً دارساً ، له من الكتب في موضوع النباتات الطبية الكتب التالية :

أ - كتاب في الأدوية المفردة ويعرف بالاعتماد .

ب - كتاب في الأدوية المركبة ويعرف بالبغية .

ابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ :

عن برع وألف في المفردات الطبية أحمد بن محمد بن يعقوب الخازن وقد كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيميائي الرازي عمه في طلبه مفتوناً بكتب أبي زكريا الرازي وجابر بن حيان . ان أهم كتبه في هذا الخصوص هو : كتاب في الأدوية المفردة .

ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ :

هو أبو علي الحسين بن عبدالله الملقب بالشيخ الرئيس . وكان نادرة عصره في علمه ، وذكاؤه وتصانيفه ، ألف ابن سينا في هذا الخصوص جملة كتب منها .

أ - كتاب الأدوية المفردة « القانون في الطب » حيث قسم الجملة الأولى فيه الى ست مقالات في تعرف أمزجة الأدوية المفردة بالتجربة والقياس وقواها . الخ .

كذلك قسم الجملة الثانية الى عدة ألواح وقواعد وذكر في

الحشائش لديسقوريدس والحادي للرازي . له في هذا الخصوص
الكتب التالية :

أ - كتاب فوائد علقها من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس .
ب - كتاب في الأدوية المفردة على حروف المعجم اثنتا عشرة
مقالة .

يحيى بن جزلة المتوفى سنة ٤٧٣ هـ :

هو أبو علي يحيى بن عيسى بن علي بن جزلة . قرأ الطب
على نصارى الكرخ الذين كانوا في زمانه كان طبيب أهل محله
وسائر معارفه بغير أجر ولا جعالة ، بل احتساباً ومروءة ويحمل
اليهم الأدوية بغير عوض . وكان أبو علي يحيى بن جزلة في أيام
الفتدي بأمر الله وله من الكتب في هذا الموضوع كتاب منهاج
البيان فيما يستعمله الانسان ، ضمنه ذكر الأدوية والأشربة
والاغذية وكل مركب بسيط ومفرد ورتبه على حروف المعجم
ويوجد منه نسختان في خزانة المتحف العراقي ببغداد .

البكري المتوفى سنة ٤٨٧ هـ :

هو أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري من
أعيان أهل الأندلس فاضل في معرفة الأدوية المفردة وقواها
ومنافعها وأسمائها ونعوتها وما يتعلق بها . وقد نقل ابن البيطار
عنه في كتابه المفردات نقولاً كثيرة ومن كتبه في هذا المضمار أعيان
النبات والشجيرات الأندلسية .

مروان بن جناح المتوفى سنة ٥١٥ هـ :

أبو الوليد مروان بن جناح . وكان من أهل مرسطة
وكانت له عناية بصناعة المنطق والتوسع في علم لسان العرب
واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب . له تأليف حسنة في ترجمة
الأدوية المفردة منها كتاب التلخيص وقد ضمنه ترجمة الأدوية
المفردة .

أمية بن أبي الصلت المتوفى سنة ٥٢٩ هـ :

هو أبو الصلت أمية بن أبي الصلت من بلد من دانية من
شرقي الأندلس وهو من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفي
غيرها من العلوم . من كتبه في هذا الخصوص كتاب الأدوية
المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية وهو مختصر
قد رتب أحسن ترتيب .

القسم الثاني بيان الأدوية المفردة على ترتيب جيد وجعل هذا
القسم على ثمانية وعشرين فصلاً كل فصل يشتمل على أسماء من
الأدوية معدودة عند آخر كل فصل . أما هذه الفصول فأنها تتبع
حروف الهجاء . من الأول حرف الألف والثاني حرف الباء
وهكذا على ترتيب أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، وذكر في كل
فصل النباتات التي تتخذ منها الأدوية .

ب - كتاب النبات من كتاب الشفاء ولهذا الكتاب نسخ عديدة
في مكاتب الشرق والغرب .

ج - كتاب الهندباء حيث يصف فيه أنواع الهندباء ومنافعها
للكبد وأفعالها وخواصها ضد سدد الأحشاء والعروق ومنافعها
للممد الحار وأورام الحلق ولتنقية المعدة . بالواقع لم يكن
ابن سينا طبيباً وفيلسوفاً فحسب ، بل كان عالماً بالنباتات الطبية
ولقد فاق من تقدموه في دراسة النبات وقرأ أقوال أرسطو
وثيوفراستس وقرأ كذلك ما كتبه ابقراط وجالينوس ومذكرات
بليثي عن الفواكه من تين وعنب وزيتون وتفتح وعن مستخرجات
النبات من أصماغ وروائح .

ابن الهيثم البصري المتوفى سنة ٤٣٠ هـ :

هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم ، أصله من البصرة
ثم انتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى آخر عمره ومصنفات
ابن الهيثم كثيرة ففي أنواع العلم الرياضي والطبيعي بلغت
٢٥ كتاباً أما في هذا المجال فله كتابان هما :

أ - كتاب في قوى الأدوية المفردة حيث يشرح فيه الأدوية
المستعملة في زمانه لمختلف الأمراض وخصوصاً الأعشاب الطبية
وفوائدها وكيفية استعمالها بصورة دقيقة .

ب - أما الكتاب الثاني في قوى الأدوية المركبة يشرح فيه كيفية
تركيب الأدوية خصوصاً الأدوية المركبة من النباتات المختلفة .

ابن رضوان الطبيب المصري المتوفى سنة ٤٥٣ هـ :

هو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر كان
مولوده ومنتشؤه بمصر وبها تعلم الطب والفلسفة وهو ابن ستة عشر
عاماً فما بلغ الثانية والثلاثين حتى أصبحت له في الطب شهرة
عظيمة وكان يديم مطالعة كتب ابقراط وجالينوس وكتاب

ابن باجة المتوفى سنة ٥٣٣ هـ :

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ ويعرف بابن باجة من الأندلس عالم بعلوم الأوائل ويعد من الأفاضل في المفردات . وله من الكتب في هذا الموضوع مايلي :

أ - كلام على شيء من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس .

ب - كتاب التجربتين على أدوية ابن رافد .

الغافقي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ :

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن السيد الغافقي ويعد من الأكابر في الأندلس وكان اعرف اهل زمانه بقوى الأدوية المفردة ومنافعها وخواصها ومعرفة أسمائها من أصلية وبربرية وعربية .

له من الكتب في هذا الخصوص مايلي :

أ - كتاب في الأدوية المفردة لانتظير له في الجودة ولاشبيه له في معناه وقد استقصى فيه ذكر ديسفوريدس والفاضل جالينوس بأجزال لفظ وأتم معنى .

ب - كتاب منتخب جامع المفردات وقد توجا هذا الكتاب بمقدمة عن علوم الطب والنباتات الطبية .

ان هذا الكتاب ماهو الا شرح للترجمة العربية لديسفوريدس زيد عليها أسماء نباتات وأدوية أخرى متخبة . كان الغافقي من أشهر أطباء زمانه عاش في قرطبة وساح كثيراً في أسبانيا وشمال افريقيا وجمع نباتات عديدة ودرس خواصها الطبية وذكر كل نبات باسمه العربي واللاتيني والبربري .

الشریف الادريسي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ :

هو أبو عبيد الله محمد بن عبدالله بن ادريس الحسني الصقلي ، ويلقب بالعالی بالله . وكان عالماً بقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومناباتها وكان لا ينسى أبداً النبات أو العشب أو الشجر الا وذكر نوعه وصفاته العامة وفوائده الاقتصادية أو الطبية . له من الكتب في هذا الخصوص :

أ - كتاب الأدوية المفردة .

ب - كتاب الجامع لصفات اشاتات النبات .

عنوان هذا الكتاب هو الجامع لصفات اشاتات النبات

وضروب أنواع المفردات من الأشجار والثمار والأجزاء الخضرية والازهار واعضاء الحيوان والمعادن والأطيان . ذكر ذلك كله باسمائها العربية والفارسية واليونانية واللاتينية والسريانية والعبرانية والهندية والكردية والتركية والأسمانية والبربرية والقبطية أحياناً . وذكر منافع كل مفرد ومايستخرج منه من صمغ وزيت ويتخذ منه من أصول (أجزاء خضرية) وقشور وفوائدها في العلاج والتداوي .

أبو الوليد بن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ :

هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد مولده ومنشؤه بقرطبة وكان متميزاً في علم الطب جيد التصنيف . من كتبه تلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس .

أبو الفضل بن عبدالكريم المهندس المتوفى سنة ٥٩٩ هـ :

هو مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبدالكريم بن عبدالرحمن الحارثي مولده ومنشؤه بدمشق . وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالمهندسة وشهرته بها قبل ان يتحل بمعرفة صناعة الطب . له من الكتب في هذا الموضوع كتاب في الأدوية المفردة سماه « المختار في الألف عقار » .

ابن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ هـ :

هو عمران موسى بن عبدالله المعروف بابن ميمون القرطبي أو الأندلسي أو المغربي . بذل ابن ميمون لمدة ثلاثين عاماً نشاطاً متواصلاً في ميدان التأليف فكتب كتباً عديدة في الفلسفة وعلم الكلام والطب . ومؤلفاته الخاصة بالطب والعقاقير تناهز العشرة . أما أهم مؤلفاته في هذا الموضوع فهو شرح أسماء العقار . وقد نشره منذ بضع سنين العلامة الدكتور مايرهوف وبذل في نشره كل ما اكتسبه طوال عشرات السنين من علم غزير في تاريخ المفردات الطبية . لقد اعتمد القرطبي في تأليف هذا الكتاب على كتب عديدة منها كتاب ابن جلجل في شرح العقار وكتاب ابن الوليد بن نجاح وكتاب الجامع الذي ألفه الغافقي وعلى ما ذكره ابن رافد وابن سمجون . وقد ذكر أبو عمران في كتابه هذا الكثير من النباتات الطبية والاقتصادية .

حيث ذكر الأس والخشخاش والخولنجان والغبيراء والقيصوم والرازيانج والنرجس والتمر الهندي والغار وعصا الراعي وقاتل أبيه والقصب والقسطل والخردل والخروع والانيسون والاقحوان والبابونج والجرجير والدفلي والمهرطمان والخرمل والمسك والطحلب والكثيراء والكركم والمر والسرخس والسوسن والسذاب والعناب والدوس والدردار والزوان والكزبرة والهندباء . والفرطبي ينهج المنهج المعجمي حيث يبتدئ في ألف ويتهى بحرف العين وقد بلغ عدد النباتات الطبية والاقتصادية التي ذكرها وشرحها في كتابه هذا نحو (٤٠٥) نوعاً .

صدقة السامري المتوفى سنة ٦٢٠ هـ :

هو صدقة بن منجا السامري من الأكابر في صناعة الطب . خدم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب . له من الكتب في هذا الخصوص مقالة في أساس الأدوية المفردة .

موفق الدين عبداللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ .

هو الشيخ الامام الفاضل موفق الدين أبو محمد عبداللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد ويعرف بابن اللباد ، موصل الأصل ببغداد المولد . وكان الشيخ موفق الدين عبداللطيف كثير الاشتغال لا يترك وقتاً من أوقاته دون النظر في الكتب والتصنيف والكتابة وكان كثير العناية يكتب اصططاليس . له من الكتب في موضوع النباتات الطبية مايلي :

أ - اختصار كتاب الأدوية المفردة لابن سنجون .

ب - كتاب اختصار الأدوية المفردة لابن رافد .

ج - كتاب كبير في الأدوية المفردة .

د - كتاب انتراعات من كتاب ديسفوريدس .

هـ - كتاب اختصار كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري .

أبو العباس بن الرومية المتوفى سنة ٦٣٧ هـ :

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل الأموي الأشبيلي النباني المعروف بابن الرومية . قد اتقن علم النبات وركز جل اهتمامه على الأعشاب الطبية ومعرفة اشخاص الأدوية وقواها ومنافعها واختلاط اوصافها وتباين مواطنها . من

مصنفاته في هذا الموضوع تفسير اسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسفوريدس أو شرح حشائش ديسفوريدس . وكان هذا الكتاب منبع حي لابن البيطار الذي استشهد به كثيراً وتأثر بتعاليمه تأثراً بالغاً .

رشيد الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ هـ :

هو أبو المنصور بن أبي الفضل علي الصوري . عالم في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف اسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها ولد بمدينة صور ونشأ بها ثم انتقل الى بغداد ، واشتغل بصناعة الطب على الشيخ موفق الدين عبدالعزيز السلمى والشيخ موفق الدين عبداللطيف البغدادي ، وأقام بالقدس سنين وكان يطيب في البيمارستان الذي كان فيه وصحب الشيخ أبا العباس الجياني وكان شيخاً فاضلاً في الأدوية المفردة ، فانتفع بصحبته وتعلم أكثر ما يفهمه . واطلع رشيد الدين الصوري أيضاً على كثير من خواص الأدوية المفردة حتى يتميز على كثير من أربابها وأرى على سائر من حاولها واشتغل بها . له من الكتب في هذا الموضوع :

أ - كتاب الأدوية المفردة .

ب - كتاب الرد على كتاب التاج البلغاري في الأدوية المفردة .

ج - كتاب للنبات مصور بالألوان واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون .

الصاحب أمين الدولة المتوفى سنة ٦٤٣ هـ :

هو الصاحب الوزير العالم والرئيس الكامل ، افضل الوزراء ، أمين الدولة أبو الحسن بن غزال بن أبي سعيد . كانت له همة عالية في جمع الكتب وتحصيلها واقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم وكان نحو عشرين ألف مجلد . من أهم كتبه النهج الواضح في الطب وهو من أجل الكتب التي صنف في الصناعة الطبية ، وهو ينقسم الى خمسة كتب الكتاب الثاني منها في الأدوية المفردة وقواها والكتاب الثالث في الأدوية المركبة ومنافعها .

ضياء الدين بن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦ هـ :

هو العالم أبو محمد عبدالله بن أحمد المالقي النباني ويعرف

بابن البيطار الملقب بشيخ العطارين . اوجد زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختباره ومواضع نباته ونعت اسمائه على اختلافها وتنوعها . وكان في خدمة الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة والحشائش وجعله في الديار المصرية رئيساً على العشابين وأصحاب البسطات (Apothecaries) .

ومن مؤلفاته في هذا الخصوص هي :

أ - كتاب شرح أدوية كتاب ديسفوريدس .

ب - كتاب المغني في الأدوية المفردة وهو مرتب بحسب مداواة الأعضاء الآلة وقد استعمله تلميذه ابن السويدي لتأليف كتابه الموسوم « السمات في أسماء النبات » .

ج - كتاب الجامع في الأدوية المفردة .

وقد حشر في هذا الكتاب ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة لكتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وكتاب المنهاج لابن جزلة والحايي للرازي والمرشد للتيمي وفصل الخطاب للتيغاشي وكتب ابن باجة وإسحاق بن عمران وأبي حنيفة الدينوري وابن زهير وابن سنجون وثابت بن قرة وأبي العباس النباتي ومسيح بن حكيم والفلاحة اليونانية وابن وحشية وابن العوام وغيرهم . واستوعب فيه جميع ما في الخمس مقالات من كتاب الأفضل ديسفوريدس بنصه .

كذلك فعل أيضاً بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه . وما في كتب أرسطاطاليس وأبقراط وأدوبياسوس وروفس وفولس وغيرهم ، ثم ألحق بقولهم من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكره غيره وشاهده بنفسه في مختلف البلدان وعلى اختلاف الأسماء من بربرية ولاتينية وضبطه على حروف المعجم واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة واسماءها وتحريرها وقواها ومنافعها وبين الصحيح فيها وما وقع الاشتباه فيه . ولم يوجد في الأدوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منه فهو النهاية في مقصوده ولا يفوته كتاب من نوعه من المؤلفات العربية ، وقد ترجم إلى الفرنسية والألمانية وطبع في اللغتين .

ابن وافد المتوفى سنة ٦٤٧ هـ :

هو الوزير أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن عبدالكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي ، أحد أشرف أهل الأندلس . عنى عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها ومطالعة كتب أرسطوطاليس وغيره من الفلاسفة واشتهر في علوم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره وألف فيها كتاباً جليلاً هو كتاب الأدوية المفردة جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسفوريدس وكتاب جالينوس في الأدوية المفردة .

نجم الدين بن المتناخ المتوفى سنة ٦٥٢ هـ :

هو أبو العباس أحمد بن أبي الفضل أسعد بن حلوان ويعرف بابن العالة لأن أمه كانت عالة بدمشق وله من الكتب في هذا الخصوص كتاب الاشارات المرشدة في الأدوية المفردة .

عماد الدين الدنيسري :

هو الحكيم العالم عماد الدين أبو عبدالله محمد بن القاضي الخطيب تقي الدين عباس بن أحمد مولده بمدينة قنيسر سنة ٦٠٥ هـ ونشأ بها واشتغل بصناعة الطب وبرع به فيها ، واشتغل بالأدب والفقه وسافر من دنيسر إلى مصر ، ثم رجع إلى الشام سنة ٦٦٧ هـ وأقام بدمشق وعلم في اليمارستان الكبير النوري . له من الكتب في هذا الموضوع المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة .

رشيد الدين أبو حليقة :

هو الحكيم الأجل العالم رشيد الدين أبو الحسن بن الفارس ابن الخير بن سليمان داود بن أبي الحنفية بن أبي قاتنه ويعرف بأبي حليقة . كان أواخر زمانه في صناعة الطب والعلوم الحكيمة ، اشتغل فيه أول أمره بصناعة الطب على حقه مهذب الدين أبي سعيد بدمشق واشتغل بعد ذلك بالديار المصرية ولد بقلعة جعبر في سنة ٥٩١ هـ . له من الكتب في هذا الموضوع كتاب في الأدوية المفردة سماه « المختار في الألف عقار » .

السلطان المظفر الأشرف صاحب اليمن المتوفى سنة ٦٩٥ هـ :

هو يوسف بن عمر بن علي رسول الغساني ، صاحب

اليمن . له كتاب في هذا الخصوص هو المعتمد في الأدوية المفردة وهو تفسير أسماء الأدوية المفردة مرتبة على حروف المعجم قال انه استخرجه من كتاب الجامع لقوى الأدوية لابن البيطار ومن كتاب المنهاج لابن جزلة ومن كتاب أبي الفضل حسن بن ابراهيم التغلبي ومن ابدال الزهراوي ومن ابدال احمد بن خالد المعروف بالجزار وياخره ذيل يسمى تفسير أسماء الأدوية مرتب على حروف المعجم . وهو اسماء النبات أو العقار مفسر بآخره .

داود الانطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ :

هو داود بن عمر البصير الانطاكي نزيل القاهرة ، الحكيم الطبيب المشهور ، رئيس الأطباء في زمانه ، شيخ العلوم الحكيمة وأصجوبة الدهر ولد بانطاكية . ولم يكن في العرب في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) من علماء النبات من يضاهي داود الانطاكي . وله كثير من التأليف الكبيرة منها تذكرة أولئ الألباب والجامع للمعجب العجائب . وقد استوعب شيئاً كثيراً من أسماء النباتات .

كتاب التذكرة : قال مؤلفه داود الانطاكي : انه بعد ان ألف كثيراً تأقت نفسه الى تأليف كتاب غريب مرتب على نمط عجيب ، لم يسبق الى مثاله ، ولم ينسج على منواله ، يتنوع به العالم والجاهل ، بالغ فيه بالاستقصاء واجتهد في الجمع والاحصاء وقد رتب على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة الباب الثاني منه في القوائين الجامعة لأحوال المفردات والمركبات وما ينبغي لكل منها .

عبد الرزاق الجزائري :

هو عبدالرزاق بن محمد بن حمدوش الجزائري ، خرج الى الحج الى مكة في سنة ١١٣٠ هـ . له من التصانيف في هذا

المضمار كتاب كاشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب .
كتاب كاشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب :

قال لوسيان لكلاز ان كتاب كاشف الرموز اختصره مؤلفه من كتب المفردات وزاد عليه بعض الأدوية الجديدة التي ادخلها الأوربيون باسمائها المعروفة أو المحلية فقد نقل عن داود الانطاكي وعن ابن البيطار وابن سينا بل يمكن القول بأن كاشف الرموز هو مختصر تذكرة داود ورتبه على حروف المعجم وقال مترجم الكتاب الى الفرنسية لوكلاز أن عبدالرزاق لم يكتب بالنقل بل انه ذكر المفردات التي لم يذكرها غيره وهي التي ادخلت الى الجزائر بمعرفة الأديبين مثل هود الأنبياء أو عود الصليب وبلوصانط وصبرين وهي المسماة العشبة وكينكيته . وقد اطال المؤلف الكلام عن هذه المفردات مما يعد صفحة مفيدة في تاريخ مفردات الأدوية وما ينسب الى عمل المؤلف عبدالرزاق نفسه ذكره أيضاً لبعض المفردات التي لم تكن معلومة ، بعضها محلي وبعضها الآخر مستعار من التركية أو البربرية بل من الأوربية نفسها . وذكر جميع مفردات الأدوية المستعملة في العلاج في عصره عند العشائين الوطنيين وهو يحتوي على ألف مفرد .

وهناك كتاب لمؤلف مغربي اسمه « تحفة الأحباب في ماهية الأعشاب » منه نسخة خطية في خزانة كتب الجزائر تحت رقم (١٠٣١) . ولم يقتصر على ذكر النبات بل ذكر فيه كثير من المفردات الحيوانية والمواد المعدنية أيضاً . وقد تفنن في استخراج منافع النباتات والحشائش والداواة بها . وقد نقله الى الفرنسية (Alphonse Meyer) وعلق عليه تعليقات مفيدة وهو عبارة عن معجم صغير .

المواش

- ١ - انظر المصدر : نباتات شافية من العرب ، ١٩٦٢ ، ص ١٥ - ١٦ .
- ٢ - انظر المصدر : (تاريخ النبات عند العرب) ١٩٤٤ ، ص ٤٣ .
- ٣ - انظر المصدر : النباتات الطبية عند العرب ، ١٩٨٤ ، ص ٢٩ .
- ٤ - انظر المصدر : النباتات الطبية ، ١٩٨٠ ، ص ٩ .
- ٥ - انظر المصدر : الزراعة والنبات عند العرب ، ١٩٥٢ ، ص ١٢٤ - ١٣٨ .
- ٦ - انظر المصدر : الزراعة والنبات عند العرب ، ١٩٥٢ ، ص ١٢٤ - ١٣٨ .

المصادر

- ١ - أبو النصر ، عادل (١٩٦٠) ، تاريخ الزراعة القديمة .
- ٢ - الشيخ ، عادل محمد علي (١٩٧٢) . الرواد العرب في الزراعة والنبات ، مجلة الزراعة العراقية ، ٥١ ، العدد ٢ ، المجلد ٢٧ ، ٥١ - ٦٥ .
- ٣ - (١٩٧٢) النبات في وصف الرحالة العرب ، العدد ٤ ، المجلد ٢٧ ، ٩١ .
- ٤ - بك ، أحمد عيسى (١٩٤٤) . تاريخ النبات عند العرب ، مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر .
- ٥ - ميلم ، ميليت (١٩٦٢) . نباتات شافية من العرب ، (مترجم) مكتبة الجوادين .
- ٦ - صفر ، ناصر حنين (١٩٨٠) . النباتات الطبية (مترجم) مطبعة جامعة بغداد .
- ٧ - (١٩٨٢) . النباتات الطبية عند ابن سينا ، ألقى جامعية ، العدد ٢٢ ، ٥٣ - ٥٩ .
- ٨ - (١٩٨٢) . النباتات الطبية عند العرب ، طب وعلوم ، العدد ٤٨٤٢ ، جريدة الجمهورية .
- ٩ - ———— النباتات الطبية عند العرب ، الندوة العلمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب ، الكويت .
- ١٠ - ———— (١٩٨٤) . النباتات الطبية عند العرب ، الموسوعة الصغيرة ، ١٤٤ ، دار الحرية للطباعة - بغداد .
- ١١ - ———— (١٩٨٥) دراسة مقارنة في كتب التراث الزراعية ، المورد ، المجلد الرابع عشر ، العدد الرابع ، ١٣٣ - ١٣٨ .
- ١٢ - طوقان ، قنوي حافظ (١٩٦٠) . العلوم عند العرب . دار مصر للطباعة .
- ١٣ - عبدالرحمن ، مؤيد صديق (١٩٧٣) . الزراعة عند العرب ، مجلة الزراعة العراقية ، العدد ١ ، المجلد ٢٨ ، ٦٧ - ٨٠ .
- ١٤ - هواد ، كوركيس (١٩٥٢) . الزراعة والنبات عند العرب ، مجلة الزراعة العراقية ، المجلد ٧ ، ج ٢ ، ١٢٤ - ١٣٨ .
- ١٥ - قنوالي ، الأب شحاته (١٩٥٩) . تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والمصر الوسيط ، دار المعارف بمصر .

مداد الذهب

صناعته في العصور الاسلامية

بقلم

بروين بدرى توفيق

بغداد / الجمهورية العراقية

مذهب كتب للخليفة عمر بن عبدالعزيز (الفهرست ٢٠) يدل على انه كتب بالذهب فعلاً ، وليس بشيء له لونه وصحيح ان ابن النديم يشير الى اسماء عدد من المذهين للمصاحف لكنه لا يذكر في كتابه كله طريقة عملهم ، وماطوروه من هذه الصناعة الدقيقة . وهكذا نجد أن المؤرخين والرواة وان سجلوا لنا مثل هذه الاشارات - وهي مهمة فعلاً - لكنهم اغفلوا الكلام على الجوانب الفنية البحتة فيها ، ومن ثم اعوزتنا النصوص عن تطور ركن أساس في صناعة المخطوط العربي ، ركن اشترك فيه - على مر الزمن - المذهبون والمزوقون والخطاطون والكيميائيون على حد سواء .

ان اقدم المخطوطات التي وصلت الينا ، وهي جميعاً من المصاحف الكريمة ، تدل على ان صناعة التذهيب كانت تجري ، حتى القرن السابع الهجري (١٣ م) وفق طريقة واحدة ، هي لصق رقائق الذهب على الموضع المراد تجميله بها ، ولاشك في ان هذه الطريقة معقدة وصعبة نظراً لشكل الحروف العربية اللينة ، اذ كيف يمكن للمذهب ان يكتب نصاً طويلاً على هذا النحو ، ان عليه اما ان يقص الكلمة او الحرف كله ثم يلصقه في موضعه ،

ليس من المعروف البدايات الاولى لتذهيب الكتب والمصاحف في الحضارات القديمة ، ومن الراجح ان تذهيب الكتب المقدسة كان معروفاً في بلاد المشرق منذ عصور مبكرة . وثمة اشارات مهمة عن ممارسة العرب هذه الصناعة منذ الجاهلية ، حين استفادوا منها في تزيين اهم تصوصهم الأدبية ، وهي المعلقات وفي أكثر أماكنهم قدسية ، وهي الكعبة . والذي نراه - ان صحت هذه الاشارات - ان كتابتهم او تجميلهم بالذهب ، كانت تجري وفق الطرق القديمة ، في صهر الذهب نفسه ، ووضعه على مايراد تجميله لتزيد قيمته .

وعلى الرغم من الموقف السلبي للمسلمين الاوائل من مسألة تزيين الاي الكريم ، فان نصوصاً أدبية تشير الى تذهيب مصاحف فاخرة منذ أواخر القرن الثاني للهجرة (٨ م) على أقل تقدير ، الا ان هذه النصوص لا توضح الطريقة التي كانت تتبع في التذهيب . كما ان اشارات اخرى تنوه بانتشار مصاحف وربعات « محلات بالذهب » منذ القرن الرابع الهجري (١٠ م) لكنها لا توضح ، هي أيضاً ، طريقة استخدام هذا المعدن النفيس في التعلية . والنص الذي ذكره ابن النديم عن مصحف

على ان تأتي الكلمات في مستوى واحد من السطر ، او ان يستخدم قطعاً عديدة ليشكلها وفق الكلمات المطلوبة ، وبما ان كلا من الطريقتين كان صعباً ، فقد اكتفى مذهب المصاحف الأوائل ، وهم الذين اشار الى مثلهم ابن النديم ، فيما يبدو ، بتذهيب الفواصل بين الآيات ، وهي غالباً ذات أشكال محددة متكررة .

ويظهر ان مشكلة اولئك المذهبيين كانت تكمن ايضاً في طريقة لصق هذه الرقائق الذهب على الورق وتثبيتها عليه بشكل دائم ، لا يمكن سقوطها منه . وأول من وصف طريقة معالجة هذه المشكلة ، صاحب كتاب « عمدة الكتاب » الذي ألف للمعز بن باديس ، في منتصف القرن الخامس الهجري (١١ م) حيث قال : « نخذ من الذهب المضروب واطبقه على الغراء من يومه ، ولا تؤخره اكثر من ذلك ، وان قاوم الذهب الالتصاق بالغراء فسخن الذهب على النار وانثر عليه الشب لئلا يغير عليك اليباض (أي يبيض الورق) ، فاذا اطبقته اتركه يومين واصقله ، ويستعان على لصفه بنداوة الاصبع الوسطى وحرارة النفس (عمدة الكتاب ، مخطوطة مصورة) ولا شك ان ورود هذا النص ، في هذا الوقت المبكر ، يرد على مزاعم بعض المستشرقين امثال جوهن وكروستي وهارتن ، اللذين ادعوا نسبة هذه الطريقة الى الفرس ، او الى الأوربيين في القرن الرابع عشر الميلادي (انظر عنهم ، اعتماد القصيري : فن التجليد عند المسلمين ٣٦) اي الى ما بعد ثلاثة قرون من وصف صاحب عمدة الكتاب اياها على ذلك النحو الدقيق . ويظهر لنا ايضاً ان هذه الطريقة كانت تحفها بعض المشاكل ، وأهمها تعرض الورقة ، بما فيها من خطوط ، الى احتمال التلف اذا زادت حرارة الذهب على درجة معينة ، وهو ما استعان المذهب عليه بنثر الشب كما رأينا . ومن ناحية أخرى فان ابتكار نوع من الغراء له قابلية عالية على الالتصاق ظل هدف المذهبيين على الدوام ، ويظهر ان استخدام غراء السمك الأبيض ظل هو المفضل لديهم منذ عهد صاحب « عمدة الكتاب » ، فما بعده ، وكانت تعوزنا النصوص عن طريقة العلماء العرب في تجاوز هذه المسألة حتى عثرنا على

قطعة من مخطوط بعنوان « أنواع اللين وكيفية أعمالها » تبحث عن « صفة لصاق الذهب » فاذا بها تشير الى استعمال نوع من الصمغ النباتي ، ذي قابلية فائقة على اللصق ، يدعى (الكلخ) واسمه باليونانية (امونيايون) وقد ذكر صاحب المخطوط المذكور انه سمي ايضاً (لزاق الذهب) « لانه يلحمه » ووصفه بأنه جيد ، وبينما يحتاج غراء السمك الى يوم كامل ليتل ويلين (عمدة الكتاب ، مخطوط) فان هذه المادة البديلة لا تحتاج غير ساعة واحدة فحسب ، وينوه صاحب المخطوطة بصفة قطع أوراق الذهب فيقول « تؤخذ قطعة جلدة حور (جلدة ضان مدبوغ تمجد به الكتب) تخطها شبه المخلة الصغيرة ، وتحمى قطن ، وتأخذ ورق الذهب بطرف السكين ويعمل على المخلة ، وتقطع منها على السكين قدر حاجتك » (بروين بدري توفيق : رسالتان في صناعة المخطوط العربي ، مجلة المورد ، المجلد ١٤ ، العدد ٤ ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧٣) .

ان قطع رقائق الذهب بهذه الطريقة ، وما يمتد بها من احتمال تلف القطع ، وعدم انتظامها في الأشكال التي يريدونها المذهب أو المزوق ، من ناحية ، وصعوبة لصق القطع على الورق ، واحتمال سقوطها منه ، دفع بأهل الصنعة الى التفكير في وسائل أكثر تطوراً من شأنها ان تسر عملهم هذا ، وقد تركزت محولاتهم في اختراع نوع من المواد يكون الذهب ملصقته الأساس ، بحيث يستجيب لقلم المذهب أو المزوق ، ولا شك في ان نجاح مثل هذه المحولات كان يسر عمل الخطاطين هم ايضاً الاستفادة من لون هذا المعدن الجميل في كتاباتهم . والذي يظهر لنا ان اختراع اول طريقة لعمل هذا المداد ، جرت في القرنين السابع والثامن للهجرة (١٣ و ١٤ م) وقد سجل لنا القلقشندي صفة هذه الطريقة بوضوح ، حيث توصل المعنون بهذا الأمر الى اذابة رقائق الذهب في حامض الليمون النقي (وربما باضافة مواد ملذية أخرى) ثم صب الماء الصافي على الناتج ، وانتظار جزيئات الذهب لترسب في الاناء ، ليوضع معها قليل من الزعفران ، وقليل من ماء الصمغ المحلول ويكتب له (صبح الأعشى ٢ / ٤٤٠) على ان هذه الطريقة ، وان

استخدمت على نطاق واسع في خط الطفرات والأسماء الجلييلة ، على ما يذكر القلقشندي ، وحفظ الزمان لنا نماذج غير قليلة منها ، إلا أنها لم تخل من بعض النواقص ، أهمها كثافة هذا المداد الشديدة أو غلظة قوامه ، التي تجعل من الحروف بارزة غير مستوية السطح ، ولذا يشير القلقشندي الى طريقة لمعالجة هذه الأشكال ، هي صقله ، بعد جفافه ، بمصقلة من جنزح حتى يأخذ حده . وهذا يعني انه اذا ما دبس الحرف المذهب بالجنزح ، فان مداد الذهب سينفرش على مساحة الحرف ولكن على غير انتظام ، فيترك بعض الفراغات او النواقص في أطراف الحروف ، وينصح القلقشندي الخطاط ان يتدارك الأمر بأن « يزكمه بالخبر من جوانب الحرف » أي ان يملأ تلك الحواف بالقلم .

على ان جهوداً أخرى بذلت للتغلب على مثل هذه المشاكل الفنية ، ففي مخطوطة قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار لأحمد بن عوض المغربي (القرن الحادي عشر للهجرة / ١٧ م) عدة طرق جديدة للحصول على مداد الذهب ، منها ان يؤخذ ورق الذهب ويجعل في صلابة ، أي على حجر المسن ، ويسحق سطحاً ويصب عليه خل الحمر ، ثم يضاف اليه ماء الك ، وهو صمغ نباتي ذي لون ضارب الى الحمرة ، ويصب عليه الماء لغسله ، حتى يصبح له قوام العسل ولونه ، وي طرح عليه الكثراء ويكتب به . ومنها ان يسحق الذهب على المسن بماء الزاج (كبريتات الحارصين او الحديدوز) والنوشادر (كلوريد الألمنيوم) ثم يضاف اليه الصمغ ويكتب به ، ومنها ان تؤخذ برادة الذهب ، فتسحق بشيء من الزعفران والصمغ العربي والحل ، وتجعل في لينة ويكتب به (قطف الأزهار ، مخطوط حققناه واعدناه للنشر ، ونشرنا الفصول الخاصة بصناعة الأحبار والليق والألوان في مجلة المورد ، المجلد ١٢ ، العدد ٣ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤) .

ويضيف مؤلف آخر ، في رسالته « في صناعة الاحبار والليق » (مخطوطة نشرناها في مجلة المكتبة العربية ، بغداد ،

العدد ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٠) الى مواد الطريقة الاولى ، وهي الخل والصمغ والعسل والكثراء ، فضلاً عن رقائق الذهب مادة أخرى ، هي الملح الاندراي (ملح شديد البياض) فانه « يجوده » .

واذا كانت هذه الطريق قد تغلبت ، الى حد ما ، على مشاكل قطع رقائق الذهب ولصقها ، فانها لم تحل المشكلة الأساس فيها ، وهي غلاء ثمن الذهب نفسه ، خاصة وان التوسع في التذهيب يحتاج ، دون شك ، الى كميات وافرة من هذا المعدن النفيس ، ومن هنا فقد احتج الى بدائل رخيصة للحصول على نتائج شبيهة أو مقاربة ، ويظهر ان تجارب عديدة ومهمة قد أجريت ، في هذا المجال ، في القرون التالية لعصر القلقشندي ، اذ سجل لنا أحمد بن عوض المغربي في مخطوطته اثنان وعشرون طريقة لصناعة أنواع من المداد لها لون الذهب ويريقه ، وتدخل في صناعتها مجموعة من المواد النباتية والمعدنية ، وأصماغ وألوان مختلفة . وتكشف طرق اعداد هذه الأنواع عن خبرة واسعة في خواص المواد ، وفي ضبط التفاعل بينها ، والحصول على نتائج محسوبة ودقيقة ، كما تدل ايضاً على كثرة المواد التي استخدمها المذهبون والخطاطون في تلك العهود ، مثل : السندروس (وهي مادة راتنجية أجودها الأصفر البراق) والزعفران ، والزرنينج الأحمر ، والزرنينج الأصفر ، وماء العفص ، والكركم ، والبورق (كاربونات الكالسيوم) والكبريت الأصفر ، والشب الأبيض ، والطلق (سليكات الألمنيوم المزدوجة مع المغنسيوم او الكالسيوم او الحديد) والقلقند (كبريتات الحديدوز) والزئبق ، والكلس ، وخل العنب ، وفراء السمك ، والنظرون (بيكاربونات الصوديوم) وبرة الحديد ، وماء البصل الأبيض ، والبيض والوشق (نوع من الاصماغ) وماء الاقاقيا (عصارة القرض وهو ثمر السنط او الاكاسيا) والنوشادر (كلورات النوشادر) والعسل ، وماء البقم (شجر يستخرج منه صمغ أحمر) والقصدير ، والاسفيداج (كاربونات الرصاص القاعدية) والملك (صمغ راتنجي لدن) والزاج (ضروب منها كبريتات الحارصين) والزنجفر

(كبريتيد الزئبق) والقل (اوكسيد الصوديوم) .

ومن الطرق التي نوه بها نذكر :

١ - يؤخذ سندروس ويسحق ، ويجعل في قارورة واسعة ، ويصب عليه من خل الخمر الأبيض الى ان ينحل ، ويضاف اليه الزعفران .

٢ - يؤخذ زعفران وزرنيخ احمر ربع جزء ويسحق الجميع ويعجن بماء العفص ويستعمل .

٣ - يؤخذ كركم ، ويسحق ، ويغسل بالبورق .

٤ - يؤخذ زعفران وزرنيخ وصمغ عربي بكميات متساوية ، ويسحق الجميع ، ويكتب به .

٥ - يؤخذ كبريت اصفر وشب ابيض بكميات متساوية ، ويسحق الجميع حتى يختلط ، ويوضع في اناء ، ويغل عليه غلوتين ، ثم يترك حتى يبرد ويزال ماعليه من قشور مثل الفلوس ، ويجعل في الظل ، ثم يسحق منه جانب بخل خمر ، ويكتب به « فانه يكون مثل الذهب » .

٦ - يسحق الزرنيخ الاحمر الخالص ناعماً ، ويوضع مع زعفران جديد لادهن فيه ، في خرقة ثقيلة (كثيفة) ويجعل في ماء حتى يسيل ، ثم يعصر على ذلك الزرنيخ ، ويضاف اليه ماء الصمغ ، ويكتب به « فانه يجيء مثل الذهب ويكتب به أوائل السور » .

٧ - تسحق كميات متساوية من الصمغ والطلق والقلقند القبرسي ، بالعسل ، سحقاً فائقاً ، ويجعل في الودعة والانيق ، ويصعد ماؤه ، ويؤخذ ما صعد فيجعل في اناء ويترك في الشمس تسعة أيام وقيل عشرين يوماً ، ويخلط معه صمغ ، وينوب ويكتب به .

٨ - توضع كميات من الزئبق وكلس البيض والشب اليماني وخل عنب قوي ، وغراء السمك ، في قدر صغير ، على نار لينة حتى يحترق الخليط ، ثم يعصر ، حتى يخرج الزئبق ويكتب به .

٩ - يغمر الطلق الجيد مع النظرون والنوشادر بكمية من الخل الصرف ، ويترك في الشمس الحارة خمسة عشر يوماً ثم يجعل

في كيس ضيق ، ويدلك على اليد ، مع ماء الباقلاء المسلوق الحار وحصى صغار دلكاً شديداً ، ثم يضاف الى ماخرج منه مسحوق الزعفران والصمغ العربي ، ويكتب به « فانه يأتي على لون الذهب ان شاء الله » .

١٠ - تسحق كميات متساوية من برادة الحديد والزرنيخ الاحمر والصمغ العربي ، سحقاً ناعماً ، مع ماء البصل الأبيض ، ويكتب به .

١١ - يوضع زرنيخ اصفر وصمغ عربي في بيضة قد افرغت من بياضها ، ويسد رأسها بالطين وتدفن في زبل اربعين يوماً ، ثم تحرى ، ويكتب بما فيها .

١٢ - يسحق الزرنيخ الاحمر سحقاً ناعماً ، ويضاف اليه شيء من مرارة ثور ، ثم شيء من ماء افاقيا الذهب (عصارة ثمر السنط) ، ثم ماء الصمغ الأبيض ، ويسحق به ، ويوضع في اناء زجاج ، ويلقى منه على اللبقة ، ويفرغ عليه ماء الصمغ وتخمّر اللبقة ، ويكتب به .

١٣ - تؤخذ كمية من الزاج الاصفر ، وأخرى من النوشادر ، بنسبة ٤ : ١ ويلقى الزاج جريشاً ، ويلقى النوشادر ناعماً ، ويوضعان في مرارة ثور ، وتعلق في تنور فاتر الحرارة ليلة كاملة ، ثم يخرج وقد صار له قوام ثخين لين ، ويكتب به ، ويصقل بعد ان يجف « فانه يخرج مثل الذهب الابريز » .

١٤ - يؤخذ مثقال من كل من السندروس وانزورت (ضرب من الكحل) وهرد (نبات بري) ونصف مثقال زعفران ، وواقشين عسل ، ومرارة ماعز ، ويخلط الجميع في اناء واسع ، ويستقطر بنار لينة ، وماخرج يكتب به .

١٥ - يؤخذ الاشق (ضرب من الأصماغ) وينقع في ماء البقم (صبغة حمراء) يوماً وليلة ، ويهرس في الاناء بالأصابع ، ويلقى عليه صمغ مسحوق ، « فانه يأتي أحسن من الذهب » .

١٦ - يسحق القصدير مع زرنيخ اصفر ويعمل في اللبقة .

وثمة طرق أخرى ، تستبدل فيها بعض المواد بأخرى لها

خصائص مشابهة ، ولها نتائج حسنة ، اذ وصف المداد المحضر بواسطتها بانه « مليح جداً غاية » و « مثل الذهب الابريز » الخ .

ويذكر صاحب مخطوطة « رسالة في صناعة الاحبار والليق » مجموعة أخرى من طرق صناعة مداد الذهب ، بعضها يشبه ما ذكره المغربي من قبل ، والبعض الآخر يختلف عنه في المواد أو في الكميات المستخدمة . فمن الطرق الجديدة المختلفة في موادها عما أشير اليه من قبل ، طريقة خاصة بالمصاحف ، هي : ان تأخذ صفار عشر بيضات تنقعها في خل خمسة عشر يوماً ، فاذا صلبت اجعلها في نار وقلبها وحركها بعود ، ثم تخرجه وتجعله في جام من القوارير ثم اسحقه (بعهن) في القوارير أيضاً واطرح عليه وزن درهم زعفران ، واسحقها جميعاً حتى يصير مثل الخلق ثم اكتب به واطلي على ماشئت فاذا جفت فاصفله بمصفلة من الزجاج (مجلة المكتبة العربية نص أشير اليه سابقاً) .

• • •

صدر عن دار الشؤون الثقافية



مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب المتوفى بعد سنة ٤٣٧ هـ القسم الرابع

تحقيق

د . هاتم صالح الضامن

كلية الآداب - جامعة بغداد

قول في النظم^(١) :

نظم الكلام : هو تأليفه على وضع الاتساق وتساوي الأقسام واعتدال الفصول والأجزاء ، لأن الكلام قد يؤلف مخلطاً غير متناسب ولا مقسم فلا يستحق اسم النظم ، وإنما يستحق هذا الاسم إذا كان موصوفاً مرتباً ذاهباً في مذهب الانتظام (١٥٢) وموازنة الأقسام .

والنظم على خمسة أضرب : ثقل ، وفصل ، ووزن ، وقلب ، ومثل .

فالثقل في الكلام بالتقديم والتأخير ، وهو يحسن من ستة وجوه :

الاول : أن تكون الحاجة الى ذكره أشد والعلم به أهم ، كقولك : فقطع اللص الأمير .

والثاني : أن يكون التأخير أليق بما اتصل به من الكلام ، كقوله تعالى : « وتغشى وجوههم النار »^(٢) ، فهذا أليق بما بعده وهو قوله : « إن الله سريع الحساب »^(٣) ، وهو أيضاً أشكل بما قبله ، لأن قبله : « مقررّين في الأصفاة »^(٤) .

والثالث : أن يكون الأول أعرف من الثاني ، وذلك في الأخبار والصفات . وأما الأخبار فكقولك : (زيد قائم) ، ينبغي أن يبدأ بذكر زيد لتطلع النفس بذكر ما يعرف الى الإخبار عنه بما لا يعرف ، فتقع الفائدة حينئذ على حقها وفي مرتبتها . فهذا أصل الكلام في كل خبر إلا الأفعال ، كقولك : (قام زيد) ، فإنه يختص بالتقديم لقوة تعلّقه بالمخبر إذا كان لا يخلو منه . وأما الصفات فيجب أن يقدم الأعراف منها ، كقولك : (زيد الطويل) ، فزيد أعرف من الطويل .

والرابع : تقديم الحروف التي لها صدر الكلام ، مثل حروف الاستفهام ، كقولك : (أزيد في الدار) ، فهذا أحسن من قولك : (زيد هو في الدار) .

والخامس : تقديم المعنى بعقده في الجملة ، ثم تفسيره بذكر تفصيله ، كعقد هذا الباب في الجملة على باب النظم وتفسير هذا العقد بتفصيله (١٥٣) الى الفصول الخمسة التي ذكرناها .

والسادس : أن يكون المعنى الأول يقتضي الثاني ويدل كالفعل فإنك إذا فسرته وقررتَه ذلكت به على الثاني ، فهو في مرتبة الدلالة المقدمة على العلم بالفاعل .

وكذلك كل نتيجة فهي بعد مقدماتها من حيث كانت دالة عليها ، وهي قبل مقدماتها من حيث كانت عرضاً فيها . وكذلك كل لفظ يحضر النفس المعنى الثاني ، كالفعل فإنه يحضر معنى الفاعل ، والحركة تحضر معنى المتحرك ، والإرادة تحضر معنى المرید .

فهذه الأوجه الستة يحسن فيها التقديم والتأخير ، إلا أن الترتيب المذكور أحسن .

ومن هذا الباب ثمانية أضرب لا يجوز فيها التقديم جملة :

الضرب الأول : تمام الاسم ، كالصلة والمضاف ، تقول في الصلة : (الذي في الدار من شأنه كذا وكذا) ، ولا يجوز : (في الدار الذي من أمره كذا وكذا) على التقديم ، لتمام الاسم عليه . والمضاف من () تمام الاسم أيضاً ، كقولك : (دار فلان) ، لا يجوز تقديم (فلان) على (الدار) .

والثاني : توالي الأسماء ، وكل تابع فهو بعد المتبوع ، كقولك في التاكيد : (أتاني القوم كلهم) ، وفي الصفة : (جاءني زيد الطويل) وفي البدل : (رأيت القوم خمسهم) ، وفي العطف : (جاءني زيد وعمرو) .

والثالث : الفعل ، فإنه يتقدم الفاعل لدلالته عليه ، والدلالة قبل المدلول .

والرابع : تقديم المضمر على الظاهر في اللفظ والمعنى ، لا يجوز من قبل أنه رجوع الى الذكر بالإيجاز ، تقول : (ضرب زيد غلامه) ، ولا (١٥٤) يجوز : (ضرب غلامه زيد) .

والخامس : التقديم إذا ألبس ، كقولك : (ضرب هذا ذاك) ، ولا يجوز فيه التقديم والتأخير ، ويجوز في : (ضرب هذا زيدا) .

والسادس : الحروف التي لها صدر الكلام ، لا يتقدم ما بعدها على ما قبلها ، تقول : (مازيد قائماً) ، ولا يجوز : (قائماً مازيد) .

والسابع : ما لم يكن له قوة في العمل كالفعل ، وهو الصفة المشبهة ، والتمييز ، وما عمل فيه حرف ، وعمل فيه معنى :

فالأول : كقولك : (إن زيدا قائم) .

والثاني : كقولك : (تصبب عرقاً) .

والثالث : كقولك : (إن زيدا قائم) .

والرابع : كقولك : (هذا زيد قائماً) .

والثامن : ما فصل فيه بين العامل والمعمول مما ليس منه ، كقولك : (كانت زيدا الحمى تأخذ) .

والفصل : هو أن تجعل بين الشئين حاجزاً يمنع أحدهما من الاتصال بالآخر ، وهو على ضربين : قافية ، وسجع .

فالقافية () حرف الروي ، وهي التي لا بد منها في كل الشعر ، ونحن نعي بما وضع في القوافي عن التشاغل بالقول عليها

في هذا الموضع ، إلا أن الذي يحتاج الى ذكره هاهنا لمجانسته للأسجاع واشتباه حاله بحالها أن يعلم أن القوافي على ثلاثة أضرب :

ضرب منم : وهو كقول امرئ القيس () يصف الفرس :

إذا ماجرى شأوينِ وابتل عطْفُهُ
تقولُ هزيرُ الريحِ مَرَّتْ بِأَثَابِ
والأثابُ : شجرٌ يكون للريح في نضاعيفه حفيفٌ شديدٌ ، فزاد في الصفة أنه (١٥٥) يجيشُ بعد عرقه ولا يكلُ .
وَضُرْبُ متمكن : وهو كقول زهير^(١٥٦) :

واعلمُ مافي اليومِ والامسِ قبلهُ
ولكنني عن علمِ مافي غدٍ غمِ
فلعمِ ماها موقع لطيف .

وَضُرْبُ مُتَكَلِّف لا يُراد به غير التقفية ، وهو كقول أبي تمام^(١٥٧) :
كالظبية الأدماءِ صافتُ فارتفتُ
زهرُ العرارِ الغضُ والجشجاشُ

لأن الظبية لانعت إلا بأثابها تعطر الشجر رافعةً رأسها مذعورةً ، فأما رغيها الجشجاش فلا يزيد في حُسْنها ، والجشجاش^(١٥٨) أيضاً فليس من المرعى .

وينبغي لمن أراد نظم الشعر وإنشاء الرسائل أن يتخير الألفاظ التي تقع في القوافي والفصول ، لتأتي متممة المعنى متمكنة غير قلقة ولانافرة ، فإن مراعاة السامع ، كما قلنا فيما تقدم ، إنما هي مصروفة إلى تتبع مبادئ الكلام ومقاطعِهِ .
وأما السَّجْعُ^(١٥٩) فهو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن ، واشتقاقه من الساجع ، وهو المستقيم لاستقامته في الكلام واستواء أوزانه . وقيل : هو مشتق من سَجَع الحمامة ، وهو ترجيعُها بكاءها على حَدِّ واحد . يُقالُ : سَجَعَتِ الحمامةُ تسجعُ سَجْعاً فهي ساجعة . وإنما اشتق هذا النعت لهذا النوع لأن مقاطع الفصول تأتي على ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلم متوازية متماثلة ، ويشبه ذلك الترجيع .

وقد تكلم فيه أبو الفرج قدامة^(١٦٠) وأبو علي الفارسي^(١٦١) (١٥٦) وأبو علي الخاتمي^(١٦٢) وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني .
فأما أبو الفرج قدامة فإنه قال في المنزلة الثالثة من كتاب الخراج المرسومة بالكلام على البلاغة ، بعدما حذف من عبارته للاختصار : الترصيع نصب الأجزاء والألفاظ متناسبة الوضع ، متقاسمة النظم ، متعادلة الوزن ، يُتوخن في كلِّ جزأين منها مثلاً أن يتداولوا الكلام يكون مقطعهما على حرف واحد من السمع ، أو حرفين متقاربين المخرجين من الفم ، فإن انضاف إلى ذلك أن تكون الألفاظ الجزأين مسجوعةً كان أحسن ، كما قال أبو علي البصير^(١٦٣) : (حتى عاذ تعريضك تصريحاً ، وتحمريضك نصيحاً) ، فإن لم تتوجه هذه المنزلة ، وهي أشقُّ المنازل وأشقُّها على المتناول فيما دونها ، وهي السجع بالحرف الواحد أو ماضارعه وخرج من مخرجه من غير تزاوج الألفاظ ، كما قال بعضُ الكتاب : (إذا كنت لاتولي من نقص كرم ، وكنت لاوتي من ضعف سب ، فكيف أخاف خيبة أمل ، أو عدولاً عن اغتفار زلل ، أو فتوراً من لمُ شعب وإصلاح خلل) . فوضعهُ النقص بإزاء الفتور مناسبة في رُضْع الألفاظ وصحة موازنة ، وإلا فقد كان يمكن أن يُقال مكان نقص : قلة ، ومكان فتور : تقصير ، فكانت حينئذ غير متوازنة . وإن لم يتسهل أن يكون الجزءان متوازيين في القدر فليكن الأخير أطول .

وأما أبو علي الفارسي فإنه قال : السجع سجعان ، حال وعاطل : فالخالي ماجاءت الكلمتان (١٥٧) اللتان في آخر الفصلين على روي واحد ، وهو كقوله تعالى : « والنجم إذا هوى » . ماضلٌ صاحبكم وماغوى^(١٦٤) . والعاطل أن تكون

الكلمتان على وزن واحد وروئي مختلف ، كقوله سبحانه : « فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم »^(١٣٧) . فقابل أدبارهم بأعمالهم ، وهما على الوزن لاعلى الروي .

وأما أبو علي الحائمي فذكر في (حلية المحاضرة) أنه^(١٣٨) قد استوفى القول على السجع في كتابه المنعوت بـ (الحالي والعاقل) ، ولم يقع إلى هذا الكتاب فأطلع من تضمنه على مذهبه فيه .

وأما أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى فإنه كره إيقاع السجع في الكلام ، ولذلك لم يُجَدِّده ولا قسَّمه ولا تكلم على ماهيته فأعلم ماعنده من خلاف ووافق ، ولكنه قال : إنَّ مُستعمل الأسجاع يضطر الى أن يجعل المعاني تابعة لها ، وأنَّ ذلك عكسُ مانوحيَّة الحكمة في الدلالة ، إذ الغرض الذي هو حكمة الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة . فإذا كانت المُشاكلة على خلاف ذلك فهو عيبٌ ، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة ، ومثل الفاعل لذلك كَمَنْ رَضِعَ تاجاً وألبسَ زنجياً ساقطاً ، ونظم فلانة دُرَّ وطوق بها كلباً .

واستدل على سقوط السجع وخلوه من المعاني باشتقاقه من سجع الحمامة ، وقال : كما أنه ليس في سجع الحمامة إلا (١٥٨) الأصوات المتشاكلة فكذلك ليس في سجع الكلام إلا الحروف المتشاكلة^(١٣٩) .

وأبو الحسن ، رحمه الله ، وإنَّ كان الصدر الذي به يُقْتَدَى ومن مُصنَّفاته يُسْتَمَلَى ، فإنه أطلق القول في هذا الموضع اطلاقاً من سلم الى عفوها جُء ، وبادره خاطره ولم يراجع قوله منعماً للنظر فيه ، ولو أعطاه حقه من التأمل لهُدِّبه وصقله ، ونقحه ونقى قذاه .

ونحن نقول في كلامه هذا قولاً فصلاً ، ونحكمُ عليه حكماً عذلاً ، فنقول : إنَّ اشتقاق السجع في الكلام الذي هو حروف متوازنة متعادلة ، وكلم متوازنة متعابلة ، صحيحة المباني ، مبهمة للمعاني ، من سجع الحمامة الذي هو أصوات متشاكلة ورجيعات متماثلة لامعنى تحتها ، غير موجب لتشابهها من جميع الجهات ، وتضاهيهما من كل الصفات ، لأنه لو كان كلُّ مشتقٍّ بطابق المشتق منه مطابقة البُئْل للبُئْل ، والعقيب للعقيب ، لأنه يقع التباين بينهما في الدلالة على مايدلان عليه ، وإنما العادة جارية أن يشتق الشيء من الشيء إذا وقعت بينهما مناسبة في بعض الأحوال ، كاشتقاقهم من لفظة : (اجنان الشيء) المتضمنة معنى السر والتغطية تسمية عالم الأرض بالجنِّ لاستارهم عن الأعين ، وتسمية القلب جنناً لتغطيه بما يستره ، وقولهم (جنُّ عليه الليل) ، إذا ستره بظلامه ، وتسمية الدرع (١٥٩) جُنَّةً والترس جُنَّةً لاستار المحارب بهما مما يرادُّ عليه من قرنه . وتسمية الولد الذي في بطن أمه جنيناً لاستاره في الرحم والحشا ، وتسمية القبر جنناً لستره الميت . وقد فرَّعوا على هذا الأصل فروعاً فسَمَوْا صنفاً من أصناف الحيَّات جَانًا ، لرغمهم أنَّ الجنَّ تظهر في صور الحيَّات ، وسَمَوْا الانسان الذي تعرض له الجن فتخبله مجنوناً ، وأمثال هذا الاشتقاق كثير تطيل بذكرها .

وكذلك الحكم في التشبيه والاستعارة ، فإنهم يشبهون الشيء بالشيء وهم يريدون بعضه ، كتشبيههم المرأة بالظبية ، وإنما يريدون جيدها وعينها ، والسيف بالجدول ، وإنما يريدون زرقته وأطرافه ، ومن ذلك : ضحكك الأرض ، إذا أنبتت ، لأنها تنشق عن النور والزهر كما يفتّر الضاحك عن الثغر ، وتسميتهم طلع النخل إذا انفتق عنه كافورة الضحك ، لأنه يبدو كما يبدو ثغر الضاحك .

ومن اعتبر الاشتقاقات والتشبيهات والاستعارات الواقعة في الكلام ، وضعَّ له أنَّ هذه سبيل جميعها ، وإنما اشتق سجع الكلام من سجع الحمام لما يجمعها من معنى التناسب في التقسيم والتعديل وتوازن المقاطع ، لامن طريق خُلُو سجع الحمام من المعاني .

ولو قصد قاصد أن يؤلف كلاماً من حروف متشاكلة في السمع لاتفيد جملة المركبة من اللفظ والمعنى لكان هاذياً (١٦٠) لأنهم قد حذوا الكلام بأنه ما تألفت حروفه وفهم تأليفه وأفاد سابعه . وهذا يفسد قوله : إنه ليس في سجع الكلام إلا الحروف المتشاكلة كما أنه ليس في سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة ، لأننا نجد جميع الكلام المسجوع مفيداً ، وإنما يتفق أن يوجد في بعضه استكراه أو ألفاظ موضوعية في غير مواضعها ، إما لأن ساجعه متكلف غير مطبوع ، فالألفاظ لا تنقاد له الى مطابقة المعاني . وهذا الفن من السجع هو الذي يضطر صاحبه الى عكس الواجب في تقديم العناية بالألفاظ على العناية بالمعاني ، دون غيره مما لابدخلة هذا العيب ويلم به . وما كان من الكلام هذه صفته فليس السجع يساقط فيه حسب ، بل والمعنى واللفظ ، وإن كان غرضه رجباً فهم بنريد النظر والتأمل وإعمال الفكر ، لأن الفضيلة إنما هي للكلام البين الذي يوصل المعنى الى النفس بغير حائل ولا مهلة ، فالسجع ليس بمكروه لذاته متى استعمل على حقيقته وحده ، وإنما المكروه أن يتكلفه من ليس بمطبوع عليه فيوقعه في غير موقعه ، أو من يقصد تحسين كلامه ويخلل باتقان معناه ، فأما إذا استعمله المطبوع المناسب له بغير زنه الموفى للمعاني والمعاني حقها من التفتيح ونصيبتها من التصحيح ، فوضعه في مواضعه (١٦١) فتتم به معاني كلامه ، ونظمه في سلك لفظه ، فلا مبرية في حسنه ومزونه ، لأن مقاطع الكلام إذا كانت ألفاظاً متوازية متممة للمعنى وقعت أحسن موقع من القلب والسمع . ومن المجمع عليه بين نقدة المعاني وجهابذة الكلام أن الشاعر إذا تم معنى بيته قبل القافية ثم أتى بها لحاجة الشعر إليها فكملت المعنى أوزادته ما هو من صفته فقد حاز الى فضيلته فضيلة أخرى ، كقول امرئ القيس (١٦٢) :

كَأَنَّ عَيُونََ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا

وَأَرْحَلِنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُشْقَبْ

فإنه أتم التشبيه بقوله : (الجزع) ، ثم لما اضطر الى الإتيان بالقافية قال : (الذي لم يشق) ، فزاد في حسن التشبيه وتمم المعنى أحسن تميم وبلغ به في التوكيد الى الأمد الأقصى ، لأن عيون الوحش بالجزع غير المثقّب أوقع في التشبيه . وحكى أبو بكر بن دريد (١٦٣) عن التوزي (١٦٤) قال : قلت للأصمعي :

مَنْ أَسْعَرَ النَّاسَ ؟ قَالَ : مَنْ يَأْتِي إِلَى الْمَعْنَى الْخَسِيسِ فَيَجْعَلُهُ بَلْفَظَةً رَفِيعاً ، فَيَقْتَضِي كَلَامَهُ قَبْلَ الْقَافِيَةِ ، فَإِذَا احتاجَ إِلَى الْقَافِيَةِ أَفَادَ بِهَا مَعْنًى ، قُلْتُ : نَحَرَمَنْ ؟ قَالَ : نَحْوُ قَوْلِ الْأَعَشَى (١٦٥) حَيْثُ يَقُولُ :

كِنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيَنْفَلِقَهَا

فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ

فقد تم الكلام على قوله : (وأوهى قرنه) ، فلما احتاج الى القافية قال : (الوعل) فزاد معنى ، قلت : فكيف صار الوعل منفصلاً على كل ما ينطع ؟ قال : لأنه ينحط من الجبل على قرونه (١٦٦) فلا يستضر بذلك .

وإذا كان هذا منسهماً للناظم المحصور في سجن الوزن فكيف يتوعد على الناظم المطلق العنان أن يوقع في مقاطع كلامه من الألفاظ ما ينخرط في سلك معناه ويتممه ، ولا سيما وهو غير مهوون في جميع قصود رسالته الى ما يدفع إليه الشاعر في جميع قوافي قصيدته من الإتيان بها على حرف واحد ، وإنما يأتي بمزاوجة أو مزواجيتين ثم ينتقل الى غيرها ، وهذا أمر ظاهر لا يدفع .

وما أرى أن أحداً يكره السجع إذا سلم من الاستكراه ، وطابق المعنى ، وكان مبنياً على البيان والفائدة في تكميله للمعنى أظهر من مزاوجة اللفظ ، وسلم مخرجه ، وحسن موقعه ، وقرب مثاوله .

وقد قال أبو الحسن ، رضي الله عنه : إن ما هذه صفته من السجع ليس بسجع ، وإنما هو فضل بلاغة . فكأنه إذا عدنا الى التحقير إنما يخالف في الاسم دون المعنى ، لأن هذا هو السجع المرغوب فيه المؤثر المنتظم في سلك البلاغة .

وقال : إنَّ الأسجاع التي وقعت في مقاطع الآي ليست بأسجاع وإنما هي فواصل . واحتجَّ بأنَّ الساجع يأتي بالسجع في كلامه للموازنة بين مقاطع فُصوله ، والواصل تأتي للإيذان بختام الآية . وهي حجة صحيحة ، إلا أنَّ بعض العرضين وإن اختلفا فلا خلاف بين الأسجاع والواصل ، وذلك أنَّه قال (١٦٣) : والواصل على وجهين : على الحروف المتجانسة ، والحروف المتغاربة ، ومثل المتجانسة (١٦٣) كقوله تعالى : والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور (١٦٤) ، وهذا من السجع الحالي . ومثل المتغاربة كقوله تعالى : في القرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (١٦٥) ، فهذا من التوازن .

ولو أطلقنا وقوع السجع في القرآن لم يكن ذلك مادحاً في إعجازه ولا واضعاً من مناره ، لأنه إذا تضمن ما في طباع البشر أن تأتي بمثل ثم قصرت عن مضاهاته فلا برهان أنور من برهانه ، ولا إعجاز أبهر من إعجازه . وبعضُ ما ذهبنا إليه من حسن موقع السجع في الكلام إذا طابق المعنى ، وحسن في المختتم والمبتدأ ، ووقع في الموقع اللائق به ، وأعجز من بروم تبديله وجود ما يتوبُّ من الالفاظ .

وقد طعن أبو الفرج قدامة على من ذمَّ السجع وأزرى عليه بقوله : وقد رأيتُ قوماً يذهبون إلى كراهة السجع من غير أن يعرف لهم في ذلك حجة ، ولا وجد فيها ينكرونه منه دليل ، فعلمنا أنهم ذمُّوه لما راموه فلم يصلوا إليه ، وإلا فلا كلام أجل من كلام الله تعالى وكلام رسوله (ﷺ) ، وقد ورد في كتاب الله ، وكان رسول الله يتوخاه ويقصده ، كقوله للحسن والحسين ، عليهما السلام : (أعيدكما من السائمة والعامة وكل عين لامة) (١٦٦) ، وإنما أراد : مُلَمَّة ، فللمقارنة بين الالفاظ وإتباع الكلمة اخواتها في الوزن قال : (لامة) .

وقوله : (ارجعن ما زورات غير ماجورات) (١٦٧) ، وإنما أراد : موزورات ، من الوزر ، فجاء بها لمكان اختها (١٦٨) . وكذلك قوله (ﷺ) : (١٦٩) (خير المال بركة ما بورة ومهرة مامورة) (١٧٠) . والقياس : مؤمرة ، فجاء بها لمكان اختها . وقال (ﷺ) ، في بعض كلامه : (هل من خلاص أو مناصر ، أو مرار أو محار ، أو معاذ أو ملاذ) . ولست أقول إنَّ تطلب الأسجاع وغيرها من أثواب البديع بعسف واستدعاءها بعنف مما يصفى فرتد الكلام ويزيد في جوهر النظم ، لكن أقول : إنَّ الحسن أن يكون الكلام مطرداً متسقاً ، فإذا تهيأت للمتكلم فرصة السجع انتهزها ورقمها في الموضع الأشبه بها ، فإن جاذ الخاطر في جمع الكلام بالسجع من غير تكلف ، يحمّد نور المعنى ويغض من رواه وبهجته فهو أشرف وأشرف . والوزن ، في الأصل : هو التعديل بين الشيئين في الخفة والثقل ليعلم مقدار أحدهما من الآخر ، لا يخلو من أن يكون مساوياً أو زائداً أو ناقصاً .

فأما الوزن في الكلام فهو التعديل بالحروف والحركة والسكون . والتعديل بالحروف من وجهين : أحدهما المساواة من غير زيادة ولا نقصان ، والآخر المساواة في الخفة والثقل .

فأما المساواة من طريق عدد الحروف والحركة والسكون فهو للشعر خاصة ، لأنَّ كل بيت من الكلم مساوٍ لما قبله وبعده ، إلا ما أجازوه للزحاف .

وأما المساواة في الخفة والثقل على اللسان فهو في سائر الكلام ، وهو على مراتب ، والعلّة فيه أن من الحروف ما يتنافر في التأليف ، فكلمة جمعت الحروف المتنافرة كان أصعب وأغمس ، ومن ذلك ما ولدوه من تأليف (١٦٥) الحروف ، ولا يرتضيه العرب لثقله على اللسان فرفضوا وألقوا . ومن المتنافر قول ابن بشر (١٦٦) :

لم يفسرها والحمد لله شيء

وانثنت نحو عرفت نفس ذهول

فإنَّ الفاظَ هذا البيت يتبرأ بعضها من بعض ، وهو من معائب الكلام .
وأحسنُ الكلام ما التأمَّت أجزاؤه وتناسبت نظامه وخفَّت على لسانِ موره ، كقول النُميري (١١١) :
مَنْ كَانَ ذَا عَضِدٍ يُذْرِكُ ظِلَامَتَهُ
إِنَّ الذَّلِيلَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ عَضْدُ
تَنْبُو يَدَاهُ إِذَا مَاقِلَ نَاصِرَةٍ
وَيَأْنِفُ الضُّيْمَ إِنْ أَثَرَى لَهُ عَسْدُ

والقلبُ : على ضربين : إبدال كلمة مكان كلمة ، وتغيير حرف من صورة الى صورة .
والإبدال يكونُ لأمور ثلاثة : الأوضح ، والأخف ، والأشكَل .
فأما الإبدالُ للإيضاح فكقول القائل (١١٢) :

لِيَا لَسِيَّ اللَّهُوَ يُطَيِّبُنِي فَاتَّبِعْهُ

ثم تبدل مكان (تطيبي) (تدعوني) للإيضاح .

وأما الإبدالُ للأخف فيكون من جهة الحذف والاختصار ، ويكون من جهة التاليف والانتظام ، ويكون من جهة الاستعمال .

فأما الحذف والاختصار فكقولك : (رُسُلٌ وَصُحُفٌ وَكُتُبٌ) ، لأنه أخف من : (رُسُلٌ وَصُحُفٌ وَكُتُبٌ) . وكذلك :
(الهلالُ والله) ، لأنه أخف من : (هذا الهلالُ والله) .
وأما التاليف والانتظام فكقولك بدلاً من قوله (١١٣) :

وَلَيْسَ قُرْبُ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

(وليسَ عند مدفنِ حربٍ قبرٌ) ، لأنه أسهل وأخف من جهة تاليف الحروف .

(١٦٦) وأما كثرة الاستعمال فكقولك : (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) بدلاً من قولك : (إِنْ شَاءَ ذَلِكَ) ، لأنه تعمق وعدول عما كثر في الاستعمال وقرب مأخذُه .

وأما الإبدالُ للأشكَل فكقوله تعالى : « إِنْ شَجَرَةَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْإِثْمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ » (١١٤) .
فالإثْمُ أشكَل بالفصل من (الفاجر) لو وضع موضعه .

والمثل في النظم يكون على وجوه ، وهي : القافية والوزن والمزاج والمطابق والمجانس .
فأما القافية والوزن فقد أشرنا إليهما فيما تقدَّم .

وأما المزاج فكقوله تعالى : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » (١١٥) .
وأما المطابق فيكون في اللفظ والمعنى ، وذلك كمطابقة الجواب للسؤال ، فيقال في هذا إنَّ الجواب مثل السؤال في المقدار من غير زيادة ولا نقصان .

والمجانسُ كقول أبي تمام (١١٦) :

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّيْبِ

فالخذ الثاني ليس بمثل الحخذ الأول على الإطلاق ، ولكنه مجانس له .
وسنذكر الفرق بين المجانس والمزاج والمطابق في باب المشاكلة ، إن شاء الله .
قول في الترتيب :

الترتيب وضع الشيء في حقه . ويُقال : ايقاع الشيء في موقعه . ويُقال : تصوير الشيء في مرتبه . وله حظٌ عظيم في تهذيب المعاني وتنقيحها وتعديل أقسام (١٦٧) الكلام وتصحيحها .
ولما كان الكلام هو الطريق إلى الإبانة عما في الأوهام ، وكان منه المستقيم والخطل ، والمرتب الحسن والمخلط القبيح ، احتج إلى تميزه ليسلم من وقوع عيب فيه ، لأن التخليط إذا وقع في الكلام أفسد بنيته وسلب حليته وقبح صيغته ، فإن زاد فيه مع تخليطه ما ليس منه زاد ذلك في قبحه ، وإن جمع إلى تخليطه وزيادة ما ليس منه ما لا يتم إلا به كان أشد قبحاً ، لأن الكلام إذا خالطه ما ليس منه زال عن مرتبه وهبط بغير مكانه لا متزاجه بما لا يناسبه ، وإذا خرج منه ما هو منه انتقص رتبته ، لأنه صار الخارج منه بالمكان الذي ليس على التقدير .

والكلام وغيره مما يرتب يخرج عن رتبته بأحد ستة أشياء ، وهي : التقديم والتأخير والرفع والخفض والاختصاص وشمالاً .
وليس ترتيب الكلام بتخير الفاظه ، لأنه لالفة من الألفاظ وإن أنصعت كل الإنصاع إلا والحاجة ماسة إلى العلم بها لأمرين : أحدهما : أن تضرب مثلاً في الفتح ، ولذلك حسن التمثيل بالشعر السخيف في الموضع اللائق به .
والآخر : ليحذر من تهجين الكلام بإيقاعها فيه . وإنما ترتيب الكلام بوضعه في الموضع الذي يستحقه كائناً ما كان ذلك الكلام .

وينبغي لمن رام ترتيب الكلام أن يتميزه ليتمكن من إلحاق كل شيء بشكله وما هو أولى به ، ثم يتبعه بالترتيب ليضعه في الموضع الذي هو له . وحقيقة التمييز قرآن الشيء بما هو أولى به ، ولا سبيل إلى (١٦٨) استقامة الترتيب إلا بصحته .
وفي الترتيب فوائد جمّة ، منها : وجود المطلوب مرتباً ، وتحسين الصورة ، والعلم بقدر كل جملة ، ورفض ما لا يقع فيه ، وحضور النفس كل طبقة ، والإرشاد إلى الملتبس بالصفة ، وظهور مانع به المعرفة ، إلى غير هذا من الفوائد .
ودلالته من أوضح الدلالات ، لأنك إذا قلت : (ظننت الرجل امرأة) دللت على معنى ، فإذا قلت : (ظننت المرأة رجلاً) دللت على معنى آخر .

ومن دلالته ما يقع في ترتيب المصنفات ، كتعدد أبواب الكتاب وعقد كل باب على ما ينتظمه من الفصول ، وذلك أن جميع الفصول متعلقة بما عقد عليه الباب ومرتبطة به ، فهي ما يعدله ، وترتيبه بذلك المكان منها دال عليها ومذكر بها ومعين على ضبطها ومبين لتناسبها وموضح لمشكلتها بالمقابلة والتناسب .

ومن دلالته أيضاً نظم المعاني على ما هو أولى بالتقديم ، كتقديم صدر الكتاب ، وإتباعه بما هو أقرب منه وأشكل به ، ثم نسق ما يتلو ذلك شيئاً فشيئاً إلى آخر الكلام المفاض فيه .

وعلى الجملة فإن كل ما رتب كان أوضح وأجلى ، وأملح وأبهر عما لم يرتب .
والتخليط في الكلام وإيراد المعاني على غير نظام قبيح مسترذل والغرض في الترتيب ما فيه من حسن الدلالة وبهاء الصورة وسهولة ما يستغنى .

وبهاء الصورة بالترتيب ظاهر في أمور كثيرة (١٦٩) كالنفوس المرتبة المتعادلة القسمة ، والخطوط المتناسبة المتشاكلة ،

والأبنة وغير ذلك .

وهذا كله فإنما هو مثال لترتيب المعاني الوهمية ، ويحسن الترتيب تفاضلت البلفاء والشعراء والخطباء .
ولا بد في الترتيب من مراعاة التناسب والتشاكل والتخير والتقسيم والتميز والتحصيل والتحديد والنظم والوصف ، فمتى وقع الإخلال بشرطة أو الخطأ في مقدمة كانت المضرة بحسبها .
أما المشاكلة فلأن المشاكل أولى من المتباين .

وأما المناسبة فلأن النسيب في الجملة أولى من الغريب .
وأما التخيير فلأن به يدرك الأولى بأن يكون مع المرتب في المرتبة أو بعده أو قبله .
وأما التقسيم فلأن به تتبين المناسبة .

وأما التمييز فلأن به ينفرد ما كان على المشاكلة .
وأما التحصيل فلأن به يظهر المطلوب برتبته من غيره .
وأما التحديد فلأن به يسقط حشو الكلام وفضوله .
وأما النظم فلأن بمراعاته يتبين التقديم والتأخير والذكر والإسقاط .
وأما الوصف فلأن بمراعاته يتبين موضع الموصوف .

فإذا حضرت المعاني للنفس فليس يحتاج بعدها إلا إلى حسن الترتيب ، ويحسن الترتيب بكون الكمال والتمام .
والأسباب التي يحسن بها الترتيب في الكلام كثيرة ، منها الوزن ، ومنها المناسبة ، ومنها المطابقة ، وكل ذلك في اللفظ والمعنى .

(١٧٠) والترتيب على ضربين : ترتيب في المكان على الحقيقة ، كعقد الباب وما يذكر بعده من تفصيله ، وترتيب ما قدر تقدير المكان ، كتقديم بعض اللفظ على بعض ، وذكر بعضه دون بعض ، وهو أيضاً على ضربين : ضرب ينقل الصورة من مكان إلى مكان كترتيب الكتب بعد تمييزها ، **«ضرب»** تنشأ فيه الصورة من مكان دون مكان كالخط .
والترتيب علة للبيان ، وذلك أن أسباب الأشكال أربعة : الاشتراك والتخليط والتباعد والتعبير .
والاشتراك في الصورة الواحدة يغلط في اعتقاد ذات المقصود ، ويصد عن ادراك المطلوب .
والتخليط يمنع من التمييز .
والتباعد يمنع من الضبط والتحصيل .
والتعبير يمنع من درك الحقيقة .

فقد وضع أن الترتيب أحد أسباب البيان التي تمنع الإلباس .
ولفضل الترتيب قالوا في مراتب العلم إنها كالمواقي لا توصل إلى العاشرة إلا من التاسعة .
ويجب أن يعتمد في الترتيب على الغرض ، والغرض ما اكتسب منفعة أو دفع مضرة ، والمجتبى من الأغراض على حسب العلوم المقاض فيها .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن لغیر صناعة البلاغة شركة في هذا الباب . ونحن لذلك نقتصر منه على ما أوردناه لغنى الكاتب بمعرفته عن معرفة ماسواه .

قول في التصرف :

(١٧١) في التصرف ضرورٌ من البيان لا يلحق بها غيرها ، ولا يجري مجراها سواها ، لأنك إذا دلت على الشيء الواحد من وجوه متباينة وطرق متشعبة كان أوضح له وأبين من أن تدل عليه من طريق واحدة .
ويحتاج فيه الى علم : ما التصرف ؟ وما الحاجة إليه في البلاغة ؟ وكيف تصرف اللفظ دون المعنى والمعنى دون اللفظ ؟ وكيف تصرفها معاً ؟ وما الطريق الى علم التصرف ؟ وما يناسب المعاني في التصرف ، وما يتصرف والاصل واحد ، وما يتصرف والاصل مختلف .

والتصرف تغير المعنى عما كان عليه ، ثم كثر حتى قيل لتغير الدلالات عليه تصرف ، وإن كان لم يتغير في نفسه ، وذلك أن المعنى قد يكون مرّة ماضياً ومرّة حاضراً ، وتارة مفعولاً ، وتارة غير مفعول ، ووقتاً مأموراً به ، ووقتاً منهيّاً عنه ، وفي حال تحييراً به ، وحيثاً يكون مثبتاً ، وحيثاً يكون منفيّاً ، وحيثاً لامثباتاً ولا منفيّاً ، وكثرة تبني الصفة من الفاعل ، وكثرة تبني من المفعول به ، وكثرة تدل عليها .

والحاجة الى التصرف في علم البلاغة شديدة ، وذلك أنه قد يكون في موضع إطناب ، وقد يكون في موضع إيجاز ، والعاجز عن التصرف فيهما يقصر في البلاغة .

وأما تصرف المعنى دون اللفظ ، وهو أن يقع على وجوه مختلفة بلفظ واحد كالعين ، فإنها تتصرف في معانٍ كثيرة^(١٧٢) والاصل واحد ، وهو : عين الحيوان ، ثم يُقال : عين الماء ، وعين القوم ، والعين الذهب ، وعين الشمس ، وعين الميزان .
ولوقيل في هذا إن اللفظ يتصرف لكان صواباً ، لأن تصرفه وضعه في هذه المواضع المختلفة ، فعين الماء شبه بعين الحيوان وعين القوم ، كأنهم يرون به لأنه يؤدي اليهم ماتؤدي العين . والعين الذهب (١٧٢) شبه بعين الحيوان لشرفه على ما يتعامل به ، فهو كالعين في شرفها على جملة البدن . وأما عين الميزان فمشبه بعين الأحوال^(١٧٣) ، ألا ترى أنه يُقال : في الميزان حول ، وهو أحول .

وأما تصرف اللفظ دون المعنى فهو أن يتغير اللفظ ولا يتغير المعنى ، كقولك : قرب واقرب ، والطلوع والمطلع ، وقراح وقروح في جمع قرح ، والذهاب والذهوب في مصدر ذقب .

وأما ما يتصرف لفظه ومعناه فعليه أكثر الكلام ، كقولك : الضرب والاضطراب والضراب والمضاربة والتضارب والاستضراب .

وأما تناسب المعاني في التصرف فهو^(١٧٤) أن يرجع الى اصل واحد ، ومثاله أن معنى الفخر يدور في كل ما تصرف كما يتصرف معنى الضرب في جميع بابيه .

وقد تناسب المعاني بوجهين أحدهما ضم الأصل لها ، فإن الأنساء كلها ، أعني الأصل في أنفسها كما يكون ذلك في الألفاظ سواء ، والمضارب أقرب الى الضراب منه الى الاستضراب ، لأن زيادته عليه حرف واحد ، والزيادة في الاستضراب ثلاثة أحرف .

وقد يتصرف في المعنى الواحد بالفاظ مختلفة الأصل والفرع ، وذلك كقولك : حركة ، وثقل ، وزوال ، فالاصل والفرع في اللفظ مختلف والمعنى واحد .



وأما الطريق إلى علم التصرف فهو بتوفر الخواطر على الفكر والرياضة والرواية والدراسة ، (١٧٣) فإن اتفق مع ذلك حصول طبع فاضل بلغ الغاية العالية من البلاغة ، وعلى حسب قصور الطبع يكون التقصير فيها .

ومن التصرف في كتاب الله تعالى قوله : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » ، وقوله في موضع آخر : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ، وقوله في قصة موسى ، عليه السلام : « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » ، وقوله : « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ [بِآيَاتِنَا] فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ » ، وقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » .

فأما التصرف في مثنوي الكلام ومنظومه فأشهر من أن يحتاج إلى تمثيل ، لأن ضروب المعاني التي يستعملها الكتاب والخطباء والشعراء لو عُدَّتْ لكانت أصولها محصورة . وقد تصرف كل من هؤلاء في كل أصل من أصول التصرف الذي لا ينحصر ولا يتحد ولا يقف عند غاية ولا أمد ، لأنه مع الخواطر في السيلان على ممر الأبد والأزمان .

قول في المشكلة :

أصل المشكلة في الاشتقاق التقييد ، ومنه : شكال الدابة وشكل الحروف لأنها يُقَيَّدَانِهَا ، والشكل في الهندسة ، لأنه صورة تقييد (١٧٤) المثل في النفس .

والشكل : الدل ، لأنه تشابه بعض الأحوال ببعض في الحس ، فهناك معنى ربط كل واحد منها بالآخر وتقيده بصاحبه . والمشكلة تكون في اللفظ ، وتكون في المعنى ، وتكون فيهما معاً .

والمشكلة والمماثلة تكون بالنفس ، ولمعنى غير النفس ، فالمماثلة بالنفس أن يسد كل واحد من الشئين مسد الآخر ، كالسواذين والياضين وما أشبه ذلك . والمماثلة لمعنى غير النفس أن يسد أحد المتماثلين مسد الآخر من جهة ، كالعلم والنور فإنهما يتساكلان في معنى الإبانة .

والفرق بين المشكلة والمماثلة أن المماثلة بالنفس والمشكلة بمعنى ، إلا أنها قد تداخلت فصارت كل واحد منها يستعمل مكان الآخر .

والمشكلة باللفظ تكون بالحروف ، وبالأعراب ، وبالوزن .

فالمشكلة بالحروف على وجوه ، منها : القافية والسجع والحروف المتقاربة المخارج والحروف المتجانسة . فأما القافية والسجع فقد مضى الكلام عليهما .

وأما الحروف المتقاربة المخارج ، فإن بها تكون المشكلة في الكلام ، وذلك أن للحروف ستة عشر مخرجاً ، فإذا كانت الكلمة مؤلفة من حروف متقاربة المخارج كان الناطق بها بمنزلة من يمشي وهو مقيّد ، وإذا كانت الكلمة مؤلفة من حروف متباعدة المخارج كان الناطق بها بمنزلة الواهب من مكان إلى مكان .

(١٧٥) واستكراه هذين التركيبين يظهر بثقلهما على اللسان وبشاعتهما في السمع ، وإنما يحسن التأليف إذا كان من حروف معتدلة ليست بذات بُعد بعيد ولا أقرب قريب .

وأما الحروف المتجانسة فتلاثة عشر صنفاً ، وهي : المجهورة ، والمهموسة ، والشديدة التي تمنع الصوت الجري معها ،

والرخوة ، والمتحركة ، والشديدة التي يجري الصوت معها ، والمكررة ، واللينة ، والهاوية . والمطبقة ، والمتفتحة ، والمستعلية ، والدلق . وينبغي أن يعرف كل جنس منها ، وما يحسن ويقبح من تأليفها وتركيبها ، ليختار المتناسب المتشاكل ويعدل عن المتباين المتنافر .

وقال الخليل بن أحمد^(١٢٨) : أصناف الحروف تسعة ، وهي :

الحلقية واللهوية والشجرية والأسلية والنطعية والثبوتية والدلقية والشفهية والهاوية .

قال^(١٢٩) : والدلاقة في المنطق إنما هي بحروف أسلية اللسان ، وذلق اللسان تحديده مثل ذلق السنان ، ولا ينطلق شبا اللسان

إلا بالحروف الدلقية ، وهي : الراء واللام والنون ، ويلحق بها الحروف الشفهية ، وهي : الفاء والباء والميم .

قال^(١٣٠) : ولما ذلقت هذه الحروف ومذلل بها اللسان سهلت على المنطق وكثرت في أبنية الكلام ، فليس يعرَى شيء من

الرباعي والخماسي الثام منها أو من بعضها . فإن وردت كلمة رباعية أو خماسية مُعرّاة من هذه الحروف الستة فالكلمة مُحذّنة مولدة

لبست من كلام (١٧٦) العرب .

قال^(١٣١) : وقد قالوا : المسجد والقُداجس^(١٣٢) ، ولولا ما لزمهما من العين والقاف ماحستا ، إلا أن هذين الحرفين

لا بدخلان في بناء إلا حسناه ، لأنها أطلق الحروف . أما العين فأنصع الحروف جرساً وألينا سماعاً . وأما القاف فأبين الحروف

وأصحها جرساً ، فإذا كانتا في بناء حُسن لنصاعتهما ، فإن كان البناء اسماً لزمته السين والدال مع لزوم العين والقاف ، لأن الدال

لانت عن صلابه الطاء وكزازتها ، وارتفعت عن حقوق التاء فحُسنت وصارت حال السين بين مخرج الصاد والزاي كذلك ، ولهذا

لا يضر الكلمة ماخالطها من الحروف الصم .

قال^(١٣٣) : والهاء تَحتمل في البناء لهشاشتها وأنها نفس لا اعتياص فيها .

قال^(١٣٤) : والمضاعف بناء تستحسنه العرب وتستلذه ، فيجوز فيه جميع ما جاء من الصحيح والمعتل والدلق والطلق

والصم ، وذلك : الصلصلة والزلزلة ، والمهارة في هذا وما يناسبه يدل على «ما» يحسن من التأليف ويقبح ، وما يقع في أعلى

الطبقات وأوسطها وأدونها ، ويعين على مشاكلة الأعلى بالأعلى والأوسط بالأوسط والأدون بالأدون .

وأما المشاكلة بالإعراب فإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : (ضَرَبْتُ زَيْدًا) قُلْتَ : (وَغَمَرْتُ كَلِمَتَهُ) ، لأنك بنيت الكلام على الفعل ، ومنه

قوله تعالى : « يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدُّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »^(١٣٥) .

وأما المشاكلة في الوزن فنكون في أبيات القصيدة ، إذ كل بيت منها على (١٧٧) زنة ما قبله وما بعده . ونحسن في المقاطع ،

كقوله تعالى : « إِذْ نَادَى رَبُّهُ نَدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبُّ إِنِّي وَهِنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبَّ شَقِيًّا »^(١٣٦) .

وأما المشاكلة في المعنى فهي على ثلاثة أضرب : المجانس ، والمزاج ، والمطابق .

فالمجانسة كقول أبي تمام^(١٣٧) :

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد والسلب

فقوله : (في حده الحد) تناسب بمعنى الأصل ، وذلك أن أصل الباب المنع ، ففي حد السيف منع ، وفي الحد بين الجد

واللعب منع أيضاً ، لأن معناه الفصل الذي يمنع أحدهما أن يختلط بالآخر .

وفي هذا البيت ترصيع آخر ، وهو مقابلة صورة الحد بصورة الجد وهما متفقان خطأ لالفظاً .

وقد سُمي البديعون المجانسة تجنيساً ، وهو تفعيل من الجنس ، والجنس ما كانت تحته أنواع كالحيوان والنبات ، وقد قال

قوم : إن النوع أعظم من الجنس ، وأن الأجناس تحته ، والأكثر هو القول الأول .

ووجدت عامة من نظر في البديع لم يفرق بين التجنيس والترصيع إلا أبا علي الفارسي فإنه فرق بينهما ، ومثل كلا منهما بأمثلة تميزه عن الآخر ، وذلك أن الجماعة يرون أن ما اتفق لفظه واختلف معناه من باب التجنيس ، وأبو علي يراه من باب الترصيع ، ولم أسمع لغير أبي علي كلاماً في الترصيع ، وهذا يدل على أن أبا علي (١٧٨) قسم ما ضمنوه باباً في بابين وسمى أحدهما تجنيساً والآخر ترصيعاً ، وقد أحسن كل الإحسان ، وذلك أن الكلمة إذا اتفقت صورتها وتقابلت في المنظر بالخط ، أو في المسمع باللفظ أشبهت الجواهر المتفقة الأجسام إذا تقابلت في النظام ، وإذا تضمن بعض الكلم ما في البعض من الحروف فقد (١٧٩) تجانسا لاشتغال كل كلمة على أكثر ما في الأخرى من الحروف التي رُكبت منها .

ونحن نذكر مذاهب الناس في هذين البابين وغيرهما ، ونشير إلى مواضع الخلاف والوفاق بمشيئة الله تعالى .

فالتجنيس على مذهب عبد الله بن المعتز (١٨٠) : أن يؤق بكلمتين على لفظ واحد ولهما معنيان ، أو على لفظ تتقارب حروفه . فمن التجنيس الذي يتفق لفظه ويختلف معناه قول بعضهم : (اللهم اني مُسَلَّمٌ مُسَلَّمٌ) . وهذا القسم عند أبي علي الفارسي داخل في باب الترصيع .

ومن التجنيس الذي تتقارب حروفه قول أبي تمام (١٨١) :

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة

أضاه لها من كوكب الحُسن آفله

وهذا هو التجنيس الصحيح على مذهب أبي علي الفارسي ، لأن حروف إحدى الكلمتين وهما (ظلمات) و (ظلم) تجانسان لحروف الأخرى .

والتجنيس عنده ، أعني أبا علي الفارسي ، على ضربين : مجموع ومفروق .

فالمجموع ما ليس فيه بين حرفي المجانسة فاصلة ، كقول امرئ القيس (١٨٢) : (١٧٩)

لقد طمخ الطمّاح من بُعد أرضيه

لئليسي من دأبه مائلبنا

وقول جرير (١٨٣) :

وما زال معقولا عقال عن الندى

وما زال محبوساً عن الخير حابس

لأنه ليس بين (طمخ) و (الطمّاح) حرف فاصل .

والمفروق كقول الكنانة :

فأرذلت الفوارس من فراس

وبالعنقا كرزنا وماهينا

وقول الكميت (١٨٤) :

نقل الجذام قد جذمتكم وسيلة

إلينا كمختار الرذاف على الرخل

لأن بين (الفوارس) و (فراس) لفظة ، وبين (جذام) و (جذمت) لفظة (قد) .

وقال أبو علي الحائمي (١١١) : التجنيس نوعان ، ~~بمعنى~~ تجانس فيه الكلمة أختها في بعض حروفها ويشق من معناها ، وهو كقول الله تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ » ~~وكقول الله تعالى~~ : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ »

فلما زدها في الشُّوْل شالَتْ
بذِيالٍ بَكِيَّةٍ لَهَا لِفَاغَا

وقول النابغة (١١٢) :

وَأَقْطَعُ الْحَرْقُ بِالْحَرْقِ قَدْ جَفَلَتْ
مِنْ الْكِلَالِ نَيْسُكُ الْأَيْنِ وَالسُّأْمَا

ونوع تجانس الكلمة فيه الكلمة في حروفها دون معناها ، كقول رجل من عبس (١١٣) :

وَفَلَكُمْ أَنْ ذُلَّ الْجَارِ حَالْفُكُمْ
وَأَنْ أَنْفُكُمْ لَا يَأْلُفُ الْأَنْفَا

(١٨١) وقول جرير (١١٤) :

كَأَنَّكَ لَمْ تَبْرَأْ بِبِلَادِ نَعْمٍ

وَلَمْ تَنْظُرْ بِنَظَرَةِ الْحَبَامَا

وقال آخرون : التجنيس أن تجانس الكلمة الكلمة في ~~معنى~~ حروفها ، ولم يراعوا مراعاة غيرهم من التقسيم المتقدم ،

مثل قوله بقول امرئ القيس :

طَمَحَ الطَّمَحُ

وقد كتب البيت فيما تقدم (١١٥) .

ويقول عبدالله بن طاهر (١١٦) :

وَأَبَى لَشْفَرِ الْمَخْوَفِ لَطَالِي

وَلَشْفَرِ يَمْرِي ظَلْمَةُ لَرَشُوفِ

وهذا تجنيس على رأي الأكثر ، وترصيع على مذهب أبي علي الفارسي .

وأما أبو الفرج قدامة فلم يذكر التجنيس ، ولكنه ذكر الاشتقاق والمضارعة ، وقال : إنها من نعوت الألفاظ ، ومثلها بأمثلة يتنظم جميعها في باب التجنيس على القول الأعم ، ويتنظم بعضها في باب التجنيس ، وبعضها في باب الترصيع على قول أبي علي الفارسي ، فقال : الاشتقاق كقول خالد بن صفوان (١١٧) : هَشَمْتُكَ هَشَامَ وَخَرَمْتُكَ مَخْرُومَ . وقول الآخر (١١٨) : (لَا تَرَى الْجَاهِلَ إِلَّا مُفْرَطًا أَوْ مُفْرَطًا) . والمضارعة كقول بعضهم : (إِيَّاكُمْ وَالْمُشَارَةَ فَإِنَّهَا تَمِيتُ الْغُرَّةَ وَتُحْيِي الْعُرَّةَ) (١١٩) .

وقد حكى عن أبي علي الفارسي أيضاً أنه يرى أن التجنيس صنفان : لفظي ومعنوي .

فاللفظي اشتراك الكلمتين في أكثر حروفهما ، كقوله تعالى : « يَمْحَقُ اللَّهُ (١٨١) الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ » (١٢٠) ، وقوله تعالى : « وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ » (١٢١) ، وقوله : « ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ » (١٢٢) ، وقوله : « يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » (١٢٣) .

والمعنوي أن يأتي في الأول كلام ويأتي في الثاني كلام يدل على أنه جواب له ، وهذا يقع في الجزاء ، كقوله تعالى : « فَمَنْ

اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَى عَلَيْكُمْ » (١٢٤) ، أي جازوه بما يستحق على سبيل العدل ، وهذا هو المزاوج ، وسيأتي

ذكره فيما بعد .

ومن مستحسن الشعر المَجْنَس قول بعضهم :

فلهيك عن وزيد الرياض بوجنة
شهدت لقد أوليتي منك مئة
أبدي يضا بفت وجة مطلبي
واغنييني غيثن يمن مئة
توردها من يانع السور آتبع
شهادتها مقبولة ليس تدفع
مقدارها كسفا طالما السور آتبع
ويلقى على النزر اللقي يتفجع

وقول الآخر :

لعمري لئن أبلى الحديدان جدتي
لرب صباح قد سقت شروقة
بصرف على صرف الزمان معينة
وضففت معي الدهر ما يتصفع
صباحا وورق الأبك في الأيك تسجع
ويكر من البكر العقيلة أمتع

وقول الآخر : (١٨٢)

نفائس المعاهد والمغاني
بالبينة الدموع عن الغواني

وأما المزاوج فقد تقدم قميله ، ومنه قول الله تعالى : « يخادعون الله وهو خادعهم » (١٨١) ، الخداع الثاني إنما ورد لمزاوجة الأول ، لا على أن الله تعالى هو يخدع أحدا من عباده . وقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١٨٢) ، والثانية ليست بسيئة وإنما هي حق وجزاء . وقوله : « مستهزمون » الله يستهزئ بهم (١٨٣) ، الاستهزاء الثاني مستعار لمزاوجة الأول .
ومن الشعر المزاوج قول الشاعر (١٨٤) :

الا لا يجهلن أحد علينا
الجهل الثاني إنما هو مزاوج للأول .
فجهل مثل جهل الجاهلينا

وقول الآخر :

خليلي روحا بي الى الراح واغتدوا
حتى ميلة السور منها سواردي
وقول أبي تمام (١٨٥) :
لا تشقني ماء الملام فلاني
ولا تجعللا شربي لها شرب تضريد
فلا تحرماني شرب ماء العناقيد
صب قد استعذبت ماء بكائي

وأما المطابقة (١٨٦) فهي ذكر الشيء وضده .

وقال الخليل بن أحمد (١٨٧) : يقال : طابقت الشبتين إذا جعلتهما على حذو واحد والصقتهما .
وقال الأصمعي (١٨٨) : (١٨٣) المطابقة وضع اليد موضع الرجل .

وقد ذهب قوم إلى أن المطابقة اشتراك المعنيين في لفظ واحد .
والعلماء بالبدیع مجمعون على خلافهم ومتفقون على أن المطابقة ذكر الشيء وضده .
وسيل المطابقة أن يُقَيَّ على التطابق والتوازن ، فلا يطابق اسم مع فعل ، ولا فعل مع اسم ، وإن تطابق الأسماء بالأسماء
والأفعال بالأفعال ، فإن ذلك أذهب في الصنعة ، كقول النبي (ﷺ) ، للأنصار : (إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند
الطمع)^(٣٨) ، فإنه طابق (تكثرون) بـ (تقلون) ، وهما فعلاان .
وقد نظم عريف^(٣٩) القوافي هذا المعنى معكوساً ، فقال يهجو :
أَلْتُم أَقْلَ النَّاسِ عِنْدَ لَوَاتِهِمْ وَآكثَرَهُمْ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ وَالْقَذِيرِ

وقول عمرو بن كلثوم^(٤٠) :
بِأَنَّا نُورِدُ الرِّيَابَ بِيضاً وَنُضْفِرُهُنَّ مُحَرّاً قَدْ رَوِينَا
فطابق (نورد) بـ (نضفر) ، وهما فعلاان .
وقول زهير^(٤١) :
وَمَنْ يَمُصُّ أَطْرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ يَطْبِغُ الْعَوَالِي رُكْبَتُ كُلِّ قَدَمٍ
فطابق (يمصي) بـ (يطبع) ، وهما فعلاان .

وقول بشامة النهشلي^(٤٢) :
إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوْعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامِ بِهَا فِي الرُّوْعِ أَغْلِينَا
فطابق (نرخص) بـ (أغلينا) ، وهما فعلاان .
(١٨٤) وقول آخر^(٤٣) :
حُلَمَاءُ فِي النَّادِي إِذَا مَا جَنَّتْهُمْ جُهِلَاءُ يَوْمَ عَجَابَةٍ وَلِقَاءِ
فطابق (حلما) بـ (جهلاء) ، وهما اسمان .
وقول آخر :

أَبَا الْحَسَنِ أَقْبَلَهَا هَدِيَّةً مَخْلُصٍ مِنْ الْوَفْرِ مَجْدُودٌ مِنَ الْفَهْمِ مَحْدُودٌ
فطابق مجدوداً بمجدود ، وهما اسمان .
وقول عبدالله بن الزبير الأسدي^(٤٤) :
فَرْدٌ شَمْرُزْمُنُ السُّودَ بِيضاً وَرْدٌ وَجُوهُهُنَّ الْبَيْضَ سُوداً
فطابق البيض بالسود ، وهما اسمان من أسماء الجمع .

وأما أبو الفرج قدامة فلم يذكر المطابقة في (نقد الشعر) ، ولا في المنزلة من (الحراج) المقصورة على ذكر البلاغة ، ولكنه
ذكر التكافؤ ، وأحسب أنه اكتفى به ، إذ ليس بينه وبين المطابقة كبير فرق . على أن غيره قد فرق بين المطابقة والتكافؤ ، وأفرده لكل
منها باباً خاصاً به .

وسنأتي بمشيئة الله على شرح ذلك إن شاء الله .

قول في التلازم :

الكلام المتلائم هو ما تناسبت تاليقته ، وارتبط بعض أجزائه ببعض ، واتصلت فصوله ، وقرب متناوله ، وعذب لفظه ، ولطف معناه ، وبرع مبتداه ومُنْتَهَاهُ ، ووقعت كل كلمة من كلمه في الموضع اللائق بها ، واقترنت بترها حتى لا يوجد أحق (١٨٥) منها بالمكان الذي رُتبت فيه فيقال : لو كان كذا مكان كذا لكان أولى ، وخلا من التفسير والاستكراه في اللفظ والوخامة والقرامة في المعنى ، وعلق بالطباع ، وخف على القلوب والاسماع ، وحلا في الصدور حتى إنه تعلق بنفس سامعه وتلهج بترديده وهو غير قاصد لذلك .

وقل ما تجتمع هذه المحاسن في كلام المخلوقين ، وإنما اجتمعت في كتاب الله ، عز وجل ، لتخصصه بالمعجز ، إلا أنه ينبغي لمن أحب الحصول على فضيلة البلاغة أن يرمي بهيمته الى الغاية التي يتمكن أن يصل اليها بلغاء البشر ، وأن يقدح فكره بالتأمل والنظر حتى يبلغ الحد الذي نقف غريزته عنده وتنتهي قريحته إليه ، فإن للقرائح حدوداً لاتتعداها ، وللغرائز غايات لاتحوز مداها .

وينبغي أن يعلم أن الكلام على ثلاث طبقات : مُلْتَم في الطبقة العالية ، وهو كلام الله تعالى كله . وملتم في الطبقة الوسطى ، وهو كلام البلغاء والفصحاء من الناس ، وهو الذي يجب أن ترومه وتتحداه بطلبه . ومتنافر^(١٨٦) . فمن المتلائم في كلام البلغاء المنشور :

قول عمر بن الخطاب : (لا يَكُنْ حُبَّكَ كَلْفًا وَلَا بُغْضُكَ تَلْفًا) .

وقول الآخر : (مَنْ عَرَفَ النَّاسَ دَارَاهُمْ وَمَنْ جَهِلَهُمْ مَارَاهُمْ) .

وقول الآخر : (دَعْ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْقُلُوبِ إِنْكَارُهُ وَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ اعْتِذَارُهُ ، فَمَا كُلُّ مَنْ حَكِيَ عَنْكَ ذِكْرًا يَطِيقُ أَنْ يَوْسَعَهُ عُذْرًا) .

وقول بعض الأعراب : (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ حَرَمْتَنِي دَاعِيًا لَقَدْ رَزَقْتَنِي سَاهِيًا) .

ومن المتلائم في كلام البلغاء المنظوم : (١٨٦)

زَمَنِي وَبَسَّرَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا	عَشِيَّةُ أَحْجَارِ الْكِنَاسِ رَمِيمُ
زَمِيمُ الَّتِي قَالَتْ لِحَارَةِ بَيْتِهَا	ضَمِنْتُ لَكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ يَهْرُمُ
فَلَوْ كُنْتُ أَسْطِيعُ الرَّمَاءَ رَمِيْتُهَا	وَلَكِنْ عَهْدِي بِالنُّضَالِ قَدِيمُ ^(١٨٧)

وقول أبي كبير الهذلي^(١٨٨) :

أَلَا بِأَحْمَامِ الْأَيْكِ الْفُكَّ حَاضِرُ	وَعَصْنُكَ مِيَادَ نَفِيمِ تَسْوِخُ
أَفْنٍ لَا تُنْخَ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ فَإِنِّي	بَكَيْتُ زَمَانًا وَالْفَوَادُ صَحِيحُ
وَلِسْعًا فَتَشَطَّتْ غَرِبَةً دَارُ زَيْنِ	فَهَا أَنَا أَبْكِي وَالْفَوَادُ قَرِيبُ

وقول ذي الرمة^(١٨٩) :

هِيَ الشَّمْسُ إِشْرَاقًا إِذَا مَا تَزَيَّنَتْ	وَيْثِيَةُ النُّفَا مُغْتَرَّةً فِي الْمَوَادِعِ
وَلَسَا تَلَاقِينَا جَسْرَتْ مِنْ عِيُونِنَا	دَمُوعُ كَفَفْنَا مَاءَهَا بِالْأَصَابِعِ

فلنا سقاطاً من حديث كائن
وقول جميل (٣٣١) :

إذا ابتذلت لم يؤذيها ترك زينة
لها النظرة الأولى عليهم وبسطة
وفيها إذا ازدانت لذي نيفة حُشْبُ
وإن كرت الأبصار كان لها العقبُ

والتناظر (٣٣٢) كثير في كلام غير البلغاء من الناس . (١٨٧)

ومن قول الشاعر (٣٣٣) :

وقبر حارب بمكان قبر
وليس قرب قبر حارب قبر

والسبب في تنافر الكلام ما ذكرناه من استعمال الحروف المتقاربة المخارج والموالاة بينها ، أو البعيدة المخارج ، وذلك أنها إذا تبعثت كان التكلم كالتواثب من موضع الى موضع ، وإذا تقاربت كان التكلم بمشي مقيداً ، لأنه يرفع لسانه من موضع ويرده إليه ، وذلك ضئب ثقيل ، والسهولة والخفة إنما تكون بالاعتدال ، ولهذا وقع في الكلام الإبدال والإدغام . وهذا كافٍ في معرفة أحكام الكلام الثلاثم .

قول في المثل :

المثل تشبيه سائر (٣٣٤) . ومعنى سائر أنه بكثر استعماله على معنى أن الثاني بمنزلة الأول ، كأنه يسير في الناس على هذا الوجه . والأمثال كلها حكايات لا تغير ، وهي من أحسن الطرق دلالة على المعنى ، لأنها تتضمن حُسن البيان مع شدة الاختصار . والأمثال تقع في النثر والنظم ، فما وقع منها في النثر فينبغي لمستمعه أن يوقعه في المعنى الذي يناسبه والحال التي يشابهها ، ويورده بعبارة التي (٣٣٥) سبق المتمثل به الى التعبير عنه بها .

وأما ما يقع في النظم منها فإن أحسن أبيات الأمثال ما اشتمل على ثلاثة أمثال أو مثليين ، ثم ما اشتمل أحد مضراغيه (١٨٨) أو جميعه على المثل .

فمن الأبيات التي تشتمل على ثلاثة أمثال قول زهير (٣٣٦) :

وفي الحلم إدهان وفي العفو ذريرة
وفي الصديق منجاة من الشر فاضلتي

وقول النابغة (٣٣٧) :

الرفق بمن والأناة سعادة
فاستأن في رفي تلاقٍ نجاحا

وقول صالح بن عبد القدوس (٣٣٨) :

كل آتٍ لابد آتٍ وذو الجهد
لـ مَغْنَى والغم والحزن فضل

ومن الأبيات التي تشتمل على مثليين قول امرئ القيس (٣٣٩) :

الله أنجح ما طلبت به
والبر خير حقيبة الرُحْل

وقوله (٣٤٠) :

فإنك لم يفجر عليك كعاجز
ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقول النابغة (٣٤١) :

خلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذنب

وقول طرفة (١٨٨) :

سُبْدِي لَكَ الْآيَاتُ مَا كُنْتُ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

وقول الخطيئة (١٨٩) :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَتَعَذَّرُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
(١٨٩) وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يَشْتَمِلُ أَحَدُ بِضَاعِهَا عَلَى مَثَلِ قَوْلِ مُحَمَّدِ بْنِ ثَوْرٍ (١٩٠) :

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تُصْبِحَ وَتَسْلِمَا

وقول الهذلي (١٩١) :

تَوَكَّلْ بِالْأَدْنِ وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي

وقول عنترة (١٩٢) :

وَالْكَفَرُ تَحِيَّةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ

ومأشبق إليه .

وقول جرير (١٩٣) :

لَيْتَ الشُّكِّي كَانَ بِالْعُرَادِ

وقول أبي ذؤيب (١٩٤) :

وَإِذَا تَرَدَّدَ إِلَى قَلْبِهِ تَقَنُّعٌ

وقول الأخطل (١٩٥) :

وَالْقَوْلُ يَنْفُذُ مَا لَا تَنْفُذُ الْإِبْرُ

وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يَسْتَوْعِبُ الْبَيْتُ مِنْهَا الْمَثَلُ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ (١٩٦) :

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
وقوله (١٩٧) :

إِذَا قُلْتُ هَذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيتُهُ وَقَسَرْتُ بِهِ عَيْنَايَ بُدِّلْتُ آخِرًا
وقوله زهير (١٩٨) :

وَمِمَّا تَكُنْ عِنْدَ أَمْرِي مِنْ خَلِيفَةٍ وَلَوْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
وآيات الأمثال المفردة كثيرة جدًا (١٩٩) .

وَمِنَ الْأَمْثَالِ مَا يَكُونُ الْكَلَامُ فِيهِ عَلَى الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ ، وَمِنْ ذَلِكَ (٢٠٠) قَوْلُ الشَّاعِرِ (٢٠١) يَصِفُ سَيْوْفًا :

وَبِضْ رِفَاقٍ قَدْ غَلَّشَهُنَّ كَبِيرَةٌ يُدَاوِي بِهَا الصَّادُ الَّذِي فِي النَوَاطِرِ
· الصَّادُ دَاءٌ يَأْخُذُ الْبَعِيرَ فِي رَأْسِهِ فَيَطْمَحُ بِهِ . وَمَعْنَاهُ : أَنَّ مَنْ كَانَ مَتَكِّفًا لِمَطَامِحِ الرَّأْسِ كَالْحَيَّةِ دَاوِيَةً بِهَذِهِ السَّيُوفِ .
وَمِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ (٢٠٢) :

إِنِّي أَمْرٌ أَحْبَبْتُ غَمَزَ الْفَائِقِ

أَيُّ أَعَالَجَ مَنْ بِهِ الدَّاءُ .

وقول الجعدي (٢٠٣) :

بِهِ رَأْسُ الْكَيْمِيِّ مِنَ الصُّدَاعِ

وَمَنْسُورٌ مِنَ الْمَنْسُودِ يُشْفَى

وقول العجاج (٢٠٤) :

جَاءُوا مُخْلِينَ وَلَا قَوْأَ حَمَضَا

وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ جَاءُوا يَشْتَهُونَ الشَّرَّ فَوَجَدُوا مَنْ شَفَاهُمْ .

- ١٨١ - ينظر في النظم : نظرية النظم - تاريخ ونظور : للدكتور حاتم صالح الضامن . نظرية عبدالقاهر في النظم : للدكتور درويش الجندي .
- ١٨٢ - ابراهيم ٥٠ . ١٨٣ - ابراهيم ٥١ .
- ١٨٤ - ابراهيم ٤٩ . ١٨٥ - في الأصل : فمن .
- ١٨٦ - ينظر في الغاية : القوافي للأخفش ، القوافي للتوحي ، الميون الفائزة على خبايا الرامزة .
- ١٨٧ - ديوانه ٤٩ . ١٨٨ - ديوانه ٢٩ .
- ١٨٩ - ديوانه ١ / ٣١٢ . ١٩٠ - النبات ٨٧ .
- ١٩١ - ينظر عن السجع : الصناعتين ٢٦٦ ، الايضاح في علوم البلاغة ٣٩٣ ، المطول ٤٥٣ .
- ١٩٢ - ابن جعفر ، ت ٣٣٧ هـ . (الفهرست ١٤٤ ، معجم الأدباء ١٢ / ١٧) .
- ١٩٣ - الحسن بن أحمد النحوي ، ت ٣٧٧ هـ . (نزعة الألباء ٣١٥ ، إنباء الرواة ١ / ٢٧٣) .
- ١٩٤ - محمد بن الحسن ، ت ٣٣٨ هـ . (معجم الأدباء ١٨ / ١٥٤ ، بنية ١ / ٨٧) . وفي الأصل : أبو حاتم الطائفي ، وهو وهم .
- ١٩٥ - الفضل بن جعفر ، ت بعد ٢٥٨ هـ . (معجم الشعراء ١٨٥ ، معجم الأدباء ١٣ / ١٨١) .
- ١٩٦ - النجم ١ - ٢ . ١٩٧ - محمد ٢٧ - ٢٨ . ١٩٨ - في الأصل : فانه .
- ١٩٩ - النكت في اعجاز القرآن ٩٨ . وفيه : المتشاكلة .
- ٢٠٠ - ديوانه ٥٣ .
- ٢٠١ - محمد بن الحسن ، ت ٣٢١ هـ . (مراتب النحويين ٨٤ ، معجم الأدباء ١٨ / ١٢٧) .
- ٢٠٢ - أبو محمد عبدالله بن محمد ، ت ٢٣٠ هـ . (مراتب النحويين ٧٥ ، إنباء الرواة ٢ / ١٢٦) .
- ٢٠٣ - ديوانه ٦١ . ٢٠٤ - النكت في اعجاز القرآن ٩٨ .
- ٢٠٥ - الطور ١ - ٣ . ٢٠٦ - في ١ - ٢ .
- ٢٠٧ - ينظر : سنن الترمذي ٤ / ٣٤٦ ، النهاية ٢ / ٤٠٤ .
- ٢٠٨ - سنن ابن ماجه ١ / ٥٠٣ ، النهاية ٥ / ١٨٩ ، وفي الأصل : مأخوذة عن غير ، وهو خطأ .
- ٢٠٩ - ينظر : اصلاح المنطق ٣٧ ، الزاهر ١ / ١٥٧ ، دقائق التصريف ٢٢٧ .
- ٢١٠ - غريب الحديث لأبي عبيد ١ / ٣٤٩ ، مسند الشهاب ٢ / ٢٣٠ .
- ٢١١ - بلاغ في سر الفصاحة ١٠٨ ومنهاج البلاغ ٢٢٤ .
- ٢١٢ - للأجود الثغفي في الشعر والشعراء ٧٣٤ ، وللتففي في البيان والتبيين ١ / ٦٧ ، ونسب الأول الى التلمس في جمهرة الأمثال ١ / ٥٤٠ ، وينظر ديوانه ٢٧٩ .
- ٢١٣ - فوالرمة ، ديوانه ٣٨ ، وعجزه :
كانني ضارب في غمرة لعب
- ٢١٤ - بلاغ في سر الفصاحة ١٠٨ والمثل السائر ١ / ٤٠١ والإيضاح في علوم البلاغة ٥ . وقبله : وقبر حرب بمكان قفر .
- ٢١٥ - البدخان ٤٢ - ٤٦ . ٢١٦ - البقرة ١٩٤ . ٢١٧ - ديوانه ٤٠ / ١ .
- ٢١٨ - ينظر في معاني (العين) : ما تنفق لفظه واختلف معناه : ٨ ، المنجد في اللغة ٣٢ ، الزاهر ٥٢ ، السامي في الأسامي ٣٢٤ .
- ٢١٩ - في الأصل : الأحوال ، وهو وهم . ٢٢٠ - في الأصل : هو .
- ٢٢١ - البقرة ٣٤ . وفي الأصل : وإذا قال ربك للملائكة . والصواب ما أثبتنا .
- ٢٢٢ - الكهف ٥٠ . ٢٢٣ - الأعراف ١٠٣ .
- ٢٢٤ - يونس ٧٥ . وما بين القوسين المربعين من المصحف الشريف .
- ٢٢٥ - هود ٩٦ - ٩٧ .
- ٢٢٦ - بعدد في الأصل كلمة مقحمة هي : المتجانسة .
- ٢٢٧ - ينظر : الكتاب ٢ / ٤٠٥ ، سر صناعة الاعراب ٤٦ ، الرعاية ٢٤٣ ، مخارج الحروف وصفاتها ٧٩ ، ابراز المعاني ٤٤٦ .
- ٢٢٨ - الفراميدي ، ت ١٧٥ هـ . (طبقات النحويين واللغويين ٤٧ ، نور القيس ٥٦) .
- ٢٢٩ - العين ١ / ٥١ . ٢٣٠ - العين ١ / ٥٢ . ٢٣١ - العين ٥٣ / ١ .
- ٢٣٢ - القداحس : الجري الشديد (العين ٣ / ٣٢٣) .
- ٢٣٣ - العين ١ / ٥٤ . ٢٣٤ - العين ١ / ٥٥ . ٢٣٥ - الانسان ٣١ .
- ٢٣٦ - مريم ٤ - ٣ . ٢٣٧ - ديوانه ٤٠ / ١ . ٢٣٨ - في الأصل : وقد .
- ٢٣٩ - البديع ٢٥ (الأوربية) ٥٥ (المصرية) . وينظر عن التجنيس : الصناعتين ٣٣٠ ، المعمد ١ / ٣٢١ ، البديع في نقد الشعر ١٢ ، تحرير التعبير ١٠٢ .

- ١٨١ - ينظر في النظم : نظرية النظم - تاريخ ونظور : للدكتور حاتم صالح الضامن . نظرية عبدالقاهر في النظم : للدكتور درويش الجندي .
- ١٨٢ - ابراهيم ٥٠ . ١٨٣ - ابراهيم ٥١ .
- ١٨٤ - ابراهيم ٤٩ . ١٨٥ - في الأصل : فمن .
- ١٨٦ - ينظر في الغاية : القوافي للأخفش ، القوافي للتوحي ، الميون الفائزة على خبايا الرامزة .
- ١٨٧ - ديوانه ٤٩ . ١٨٨ - ديوانه ٢٩ .
- ١٨٩ - ديوانه ١ / ٣١٢ . ١٩٠ - النبات ٨٧ .
- ١٩١ - ينظر عن السجع : الصناعتين ٢٦٦ ، الايضاح في علوم البلاغة ٣٩٣ ، المطول ٤٥٣ .
- ١٩٢ - ابن جعفر ، ت ٣٣٧ هـ . (الفهرست ١٤٤ ، معجم الأدباء ١٢ / ١٧) .
- ١٩٣ - الحسن بن أحمد النحوي ، ت ٣٧٧ هـ . (نزعة الألباء ٣١٥ ، إنباء الرواة ١ / ٢٧٣) .
- ١٩٤ - محمد بن الحسن ، ت ٣٣٨ هـ . (معجم الأدباء ١٨ / ١٥٤ ، بنية ١ / ٨٧) . وفي الأصل : أبو حاتم الطائفي ، وهو وهم .
- ١٩٥ - الفضل بن جعفر ، ت بعد ٢٥٨ هـ . (معجم الشعراء ١٨٥ ، معجم الأدباء ١٣ / ١٨١) .
- ١٩٦ - النجم ١ - ٢ . ١٩٧ - محمد ٢٧ - ٢٨ . ١٩٨ - في الأصل : فانه .
- ١٩٩ - النكت في اعجاز القرآن ٩٨ . وفيه : المتشاكلة .
- ٢٠٠ - ديوانه ٥٣ .
- ٢٠١ - محمد بن الحسن ، ت ٣٢١ هـ . (مراتب النحويين ٨٤ ، معجم الأدباء ١٨ / ١٢٧) .
- ٢٠٢ - أبو محمد عبدالله بن محمد ، ت ٢٣٠ هـ . (مراتب النحويين ٧٥ ، إنباء الرواة ٢ / ١٢٦) .
- ٢٠٣ - ديوانه ٦١ . ٢٠٤ - النكت في اعجاز القرآن ٩٨ .
- ٢٠٥ - الطور ١ - ٣ . ٢٠٦ - في ١ - ٢ .
- ٢٠٧ - ينظر : سنن الترمذي ٤ / ٣٤٦ ، النهاية ٢ / ٤٠٤ .
- ٢٠٨ - سنن ابن ماجه ١ / ٥٠٣ ، النهاية ٥ / ١٨٩ ، وفي الأصل : مأخوذة عن غير ، وهو خطأ .
- ٢٠٩ - ينظر : اصلاح المنطق ٣٧ ، الزاهر ١ / ١٥٧ ، دقائق التصريف ٢٢٧ .

- ٢٤٠ - ديوانه ٢ / ٢٦ . ٢٤١ - ديوانه ١٠٨ . ٢٤٢ - ديوانه ١٨٤ .
- ٢٤٣ - شعره : ٢ / ٦٤ . ٢٤٤ - تنظر : حلية المحاضرة ١ / ١٦٤ .
- ٢٤٥ - الروم ٤٣ . ٢٤٦ - ديوانه ٤٣ . ٢٤٧ - ديوانه ١٠٨ .
- ٢٤٨ - البديع ٢٧ (الأوربية) ٥٨ (المصرية) ، نقد الشعر ١٦٦ ، الموازنة ١ / ٢٨٢ .
- ٢٤٩ - ديوانه ٢٢٢ وروايته : ... بجنوب قو ولم تعرف
- ٢٥٠ - تنظر الحاشية ٢٤١ .
- ٢٥١ - شعره : ٣٨ عن الممددة ١ / ٣٢٣ ، ويضاف : حلية المحاضرة ١ / ١٤٦ . وقد أخل به شعره في كتاب أدب الطاهريين .
- ٢٥٢ - من الخطباء المشهورين . (المعارف ٤٠٣) .
- ٢٥٣ - هو الإمام علي (رض) في النهاية ٣ / ٤٣٥ . وروايته : لأبى الجاهل . وهو بالتخفيف : المشرف في العمل ، وبالتشديد : المنقصر فيه .
- ٢٥٤ - مسند الشهاب ٢ / ٩٥ ، اللسان (عرر ، غرر) .
- ٢٥٥ - البقرة ٢٧٦ . ٢٥٦ - النمل ٤٤ . ٢٥٧ - التوبة ١٢٧ .
- ٢٥٨ - النور ٣٧ . ٢٥٩ - البقرة ١٩٤ . ٢٦٠ - النساء ١٤٢ .
- ٢٦١ - الثوري ٤٠ . ٢٦٢ - البقرة ١٤ - ١٥ .
- ٢٦٣ - عمرو بن كلثوم ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٤٢٦ .
- ٢٦٤ - سلف ذكره .
- ٢٦٥ - بنظر في المطابقة : حلية المحاضرة ١ / ١٤٢ ، الممددة ٢ / ٥ ، البديع في نقد الشعر ٣٦ ، كفاية الطالب ١٢٨ ، تحرير التحرير ١١١ ، جواهر الكنز ٨٤ .
- ٢٦٦ - العين ٥ / ١٠٩ . ٢٦٧ - الممددة ٢ / ٦ .
- ٢٦٨ - الفائق ٣ / ١١٥ ، النهاية ٣ / ٤٤٣ .
- ٢٦٩ - في الأصل : حريف ، وهو تحريف . والبيت في شعر صوف (شعراء أمويون ٣ / ١٤٧) .
- ٢٧٠ - شرح القصائد السبع الطوال ٣٨٨ . ٢٧١ - ديوانه ٣٨١ .
- ٢٧٢ - شرح ديوان الحماسة ١٠٤ ، ونسب الى مهشل بن حرّقي (شعراء مفلون ١٢٧) .
- ٢٧٤ - شعره : ١٤٤ .
- ٢٧٥ - ينظر في التلاؤم : التكت ٩٤ ، الرسالة المسجدية ١٥٦ ، الروض المربع ١١١ .
- ٢٧٦ - الأبيات لأبى حبة النعميري في شعره : ١٧٢ - ١٧٣ مع خلاف في

الرواية .

- ٢٧٧ - أخل بها ديوان الهذليين . وفي الأصل : أبى كثير . والأول لأبى كبير في طبقات الشعراء المحدثين ١٨٦ . وتنظر : الزهرة ١ / ٢٤١ .
- ٢٧٨ - ديوانه ٧٨٤ - ٧٨٥ . ٢٧٩ - ديوانه ٢٧ .
- ٢٨٠ - ينظر في التنافر : البيان والبيان ١ / ٦٥ ، الإيضاح ٢ ، المطول ١٦ .
- ٢٨١ - البيان والبيان ١ / ٦٥ بلا عزو .
- ٢٨٢ - ينظر عن معنى المثل : الأمثال في القرآن الكريم ١٩ - ٦٤ .
- ٢٨٣ - في الأصل : الذي . ٢٨٤ - ديوانه ٢٥٢ .
- ٢٨٥ - ديوانه ٢٢٨ . وفيه : والرفق . ٢٨٦ - شعره : ١١٨ .
- ٢٨٧ - ديوانه ٢٣٨ .
- ٢٨٨ - ديوانه ٤٤ ورواية صدره فيه : وإنك لم يفخر عليك كفاخر
- ٢٨٩ - ديوانه ٧٦ . ٢٩٠ - ديوانه ٤٨ . ٢٩١ - ديوانه ٢٨٤ .
- ٢٩٢ - ديوانه ٧ وصلر البيت :
- أرى بصري قد رابني بعد حنة
- ٢٩٣ - أبو خراش ، ديوان الهذليين ٢ / ١٥٨ وصلرته :
- بلى إنما تغفو الكلام وإنما
- ٢٩٤ - ديوانه ٢١٤ وصلرته :
- نبئت عمراً غير شاكر نعمتي
- ٢٩٥ - ديوانه ٥٠٧ وصلرته :
- ونعود سيدنا وسيد غيرنا
- ٢٩٦ - ديوان الهذليين ١ / ٣ . وفي الأصل : يرد . . يقنع . وصلر البيت :
- والنفس راغبة إذا رغبتها
- ٢٩٧ - ديوانه ١٠٥ وصلرته :
- حتى استكانوا وهم مني على منفض
- ٢٩٨ - ديوانه ٩٩ . ٢٩٩ - ديوانه ٦٩ . ٣٠٠ - ديوانه ٣٢ .
- ٣٠١ - تنظر في : الأمثال والحكم للماوردي ، الأمثال والحكم للرازي .
- ٣٠٢ - الراعي النميري ، ديوانه ١٣٢ . وفي الأصل : عليهن كبوة . وهو تحريف .
- ٣٠٣ - نيل ديوانه ١٠٣٣ نقلاً عن اللسان (سلق) .
- ٣٠٤ - أخل به شعره . ٣٠٥ - ديوانه ١ / ١٣٥ . وفيه : فلاقوا .

ابن مُرَج الكحل وما تبقى من شعره

جمع وتقديم

أحمد عبد علي رئيس

معهد المعلمين في واسط

وقد جعلت طائفة من المصادر شهرة الشاعر : « مرج الكحل »^(١) ، في حين جعلت طائفة أخرى من المصادر هذه الشهرة : « ابن مرج الكحل »^(٢) . وجعل الرعيبي - وهو أحد تلامذة الشاعر - هذه الشهرة اسماً لجذ الشاعر ، فقال : « محمد بن إدريس بن مرج الكحل »^(٣) . وذهب القفطي وحده في شهرة الشاعر مذهباً خالف فيه جميع المصادر فذكر أنه : « الكحلي »^(٤) . ويتضح لنا من هذا أن الشاعر كان يعرف بابن مرج الكحل أو بمرج الكحل ، وربما كانت هذه الشهرة قد لحقت به لكون جدّه قد سُمّي هذا الاسم ، أو لعلها لحقت به لأنه كان يمتلك مزرعاً أو مروجاً ، فقد ذكرت المصادر أن : « ابن جهور » الأزدي من أهل مرسية وأحد نبهاتها وأدبائها قد مرّ بجزيرة شُقر بأرض حمراء لابن مرج الكحل غير صالحة للعمارة فقال بداعبه :

يا مرج كحل ومن هذي المروج له
ما كان أحوج هذي الأرض للكحل
ما حرة الأرض عن طيب وعن كرم
فلا تكن طمأ في رزقها العجل
لكن شيمتها إخلاف صاحبها
فما تفارقها كيفية الخجل

المقدمة :

يتناول هذا البحث شاعراً لم تصل إلينا من أخباره إلا نصف سيرة متفرقة في كتب الأدب الأندلسي قديمها وحديثها ، ولم يصل إلينا من شعره إلا مجموعة قليلة على الرغم من كون الشاعر صاحب ديوان شعري كان معروفاً في زمانه . ولقد أهملت بعض المصادر الشاعر أيما إهمال فلم تترجم له . ومن يدري ؟ فربما لظروف لا يمكن البت فيها : قد تكون من ملاسبات عصره ، أو لظروف تتعلق بحياته الاجتماعية وكونه من عامة الناس ومن طبقة دنيا ، فلقد كان يبيع السمك ويعتاش عليه - كما تحدثت عنه الروايات - وقد يكون عامل الزمن وراء إغفال هذا الشاعر ، وعدم وصول أخباره وديوانه كاملين .

اسمه وكنيته ولقبه :

تكاد المصادر التي تحدثت عن اسمه تتفق من حيث التعريف به فهو : « أبو عبدالله محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم »^(٥) . وقد خالف هذه الرواية ابن سعيد فذكر أنه : « محمد بن الدمن »^(٦) ، ولكن ابن سعيد يعود في كتاب آخر فيذكر ما أجمعت عليه المصادر وهو : « محمد بن إدريس »^(٧) .

فجأوه :

باقائلاً إذا رأى مرجي وحرته

ساكان أحوج هذي الأرض للكحل^(١٧)

.... الأبيات .

وفي اللسان : « والمرج : قبل أرض ذات كلاً ترعى فيها الدواب ، وفي التهذيب : أرض واسعة فيها نبت كثير تخرج فيها الدواب ، والجمع مروج ، وفي الصحاح : المرج الموضع الذي ترعى فيه الدواب ، وفي الحديث وذكر خيل المرباط فقال : طول لها في مرج ، المرج : الأرض الواسعة ذات نبات كثير تخرج فيها الدواب أي تُحَلَّى تشرح مختلطة حيث شاءت^(١٨) .

ولادته وبلدته :

لم تذكر المصادر التي ترجمت للشاعر السنة التي ولد فيها ، ولولا ابن خلكان لجهلنا تاريخ ولادته ، فقد ذكر ابن خلكان أن ولادته : « كانت سنة أربع وخمسين وخمس مئة بجزيرة شقر^(١٩) . ونقل عنه صاحب الأعلام إلا أنه يذكر أن ولادته كانت في بلنسية ، وتابعه في ذلك صاحب معجم المؤلفين^(٢٠) . ويتضح من المصادر الأخرى أن الشاعر : « من أهل جزيرة شقر^(٢١) ، ومنهم من أطلق عليه لقب : « شقري^(٢٢) » وشقر جزيرة : « قرية من شاطبة ، وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلاً . ويقول ابن سعيد عنها : ليست بجزيرة في البحر وإنما نهرها أحدث بها^(٢٣) . ووصفها ابن الخطيب فقال : هي : « بلدة من أعمال شرق الأندلس تقع شمال شاطبة على نهر شقر El Jucar وعلى مقربة من مصبه في بقعة في متهى الخصب ، وقد كان إلى جانبها داخل مصب النهر الجزيرة الشهيرة في الشعر الأندلسي - جزيرة شقر - وهي التي اشتهرت بإنجابها رهطاً كبيراً من العلماء . وبالاسبانية Alcir^(٢٤) ، وضبطها الحموي بالفتح ، فقال : « شقر بفتح أوله وسكون ثانيه ، جزيرة شقر : وهي أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجراً وماء^(٢٥) .

مركزه الاجتماعي وشخصيته :

يبدو مما ذكره ابن سعيد أن الشاعر كان من طبقة اجتماعية ليست ذات شأن خطير بل : « هو في المغرب مثل الوأواء

الدمشقي في المشرق ، كان ينادي في الأسواق حتى أنه تعيش بيع السمك ، ترفت به همت إلى الأدب قليلاً قليلاً إلى أن قال الشعر ، ثم ارتفعت فيه طبقة ومدح الملوك والأعيان^(٢٦) . وقد انعكست حاله الاجتماعية على صفحة شعره ، فهو : « يعرض علينا في أبياته التالية وبصورة غير مقصودة الآمال التي تراود أفراد الطبقة الوسطى في الغنى ، ولكنها لا تلبث أن تخيب ، وعندئذ يلجأ إلى تعزية نفسه وتسليتها بقوله إن الأصل الطيب لا يضره عدم الغنى :

عذيري من الآمال خابت قصودها

ونالت جزيل الحظ منها الأخابث

..... الأبيات

ويصف لنا رزق الطبقة الوسطى وكيف يغيب أحياناً ويتوفر أحياناً أخرى ، ويعطينا له صورة جميلة جداً في قوله^(٢٧) :

مثل الرزق الذي تطلبه

مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعاً

وإذا وليت عنه اتبعك

ولعل حالة الشاعر الاجتماعية كانت السبب الذي اختفى وراء عدم اشتهاره ووصول أخباره ودبوانه إلينا كاملين ، فهو : « لم يأخذ تلك المكانة التي كان له أن يأخذها ، ولعل ذلك نابع من كونه إنساناً من طبقة دنيا اجتمعت عليه ظروف لم تسمح أن تصل أشعاره إلينا بالطريقة التي توضحها وتبين قيمتها التي ينبغي لها أن تكون^(٢٨) .

وقد عُرف الشاعر بدمامة أخلاقه ، فقد ذكر الرعيبي :

« روفعت بينه وبين الكاتب أبي زكريا يحيى بن إبراهيم الخنوج - وأنا حاضر - ملاحاة ، خرج عليه فيها أبو زكريا لفضل حنة كانت فيه ، فقام عنه وأنشده :

نعرفت قول الخير في كل حالة

ومن كان مثلي فهو للخير قائل

ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها

وغيري لما من سائر الناس فاعل^(٢٩) »

وكما عرف الشاعر بدمائه أخلاقه فقد عُرف بعدم اهتمامه بظهوره ، فقد كان : « مبتذل اللباس على هيئة أهل البادية »^(١١) . وذكر المقرئ أن الشاعر كان أمياً ، ولكن الخبير يحمل بين طياته شكاً لأنه جاء بصيغة المبني للمجهول : « ويقال إنه كان أمياً »^(١٢) . ويزداد الأمر تعقيداً حين نقرأ في المصادر التي ترجمت له أنه كان يكتب قصائده التي كان يبعث بها إلى أصدقائه وأدباء عصره ، فنقرأ عبارة (وكتب إلى فلان)^(١٣) ، وإن كان بالامكان أن يجعل هذا القول على أنه كان يملئ قصائده على آخرين فيكتبونها له .

وهو إلى جانب ذلك صاحب شخصية مريحة وطريقة ، فقد ذكر المقرئ : « وقال ابن مرج الكحل : اجتمعنا في حانوت بعض الأطباء باشبيلية فأضجرونا بكثرة جلوسنا عنده ، وتعذرت النعمة عليه من أجلنا فأنشدنا :

خففوا عنا قليلاً

رب ضيق في براح
هل شكوتهم من مقام

أو جلسنا للصباح
فأضفت إليهما ثالثاً وأنشدته إياه على سبيل المداعبة :

إن أتيتهم ففرادى

ذاك حكم المستراح^(١٤)
ولقد كانت لابن مرج الكحل صداقة حميمة تربطه ببعض معاصريه ، فقد ذكر صفوان بن إدريس : « اجتمعت مع ابن مرج الكحل يوماً فاشتكني إلى ما يجيد لفراقي وأطال عتب الزمان في إسامه وإعراقي ، فقلت : إذا تفرقنا والنفوس مجتمعة فما يضر أن الجسم للرحيل مزمنة ، ثم قلت له :

أنت في العين والفؤاد

دنوت أو كنت في إبعاد
فقال وهو من بارع الإجازة :

رأيت في القلب في السويداء

وأنت في العين في السواد^(١٥)
ولم يقصر ابن مرج الكحل علاقاته بمعاصريه على

صفوان بن إدريس ، فقد ذكر الرعيبي : « وبينه وبين أبي البحر صفوان ، وأبي الحسن بن حريق ، وأبي عمرو بن غياث وغيرهم غمابات شعرية ، ومراجعات ظهرت فيها براعته ، ونفقت بها صناعته »^(١٦) .

رواته :

أخذ عن ابن مرج الكحل رهط من الأدباء ، ورووا أشعاره وأذاعوها بين الناس ، فقد ذكر ابن الأبار : « وقد كتب عنه من شيوخنا : أبو الربيع سالم ، وأبو عبدالله بن عسكر وغيرهم »^(١٧) . ومن رواة شعره أيضاً أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيبي الإشبيلي صاحب كتاب (برنامج شيوخ الرعيبي) ، قال الرعيبي : « لقبته بقرطبة وأجاز لي الرواية عنه لكل ما يحمله ولجميع نظمه ونثره ، ولقبته بعد ذلك بمُرْسِيَة ، فلزمني بها وأنس بي ، وقرأت عليه معظم ديوان شعره الذي استقر رأيه عليه في ذلك الوقت »^(١٨) . ويضيف المقرئ إلى قائمة الرواة أسماء أخرى ، هي : « أبو جعفر بن عثمان الورداد وأبو عبدالله بن الأبار وأبو محمد بن عبدالرحمن بن برطلة »^(١٩) .

وفاته :

أجمعت المصادر التي ترجمت للشاعر على أن وفاته كانت ببلدة - شقر - : « يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ، ودفن يوم الثلاثاء بعده سنة أربع وثلاثين وست مئة للهجرة »^(٢٠) التي توافق سنة ألف ومئتين وست وثلاثين الميلادية ، وقد ذهب مرشد حمد إلى أن وفاة الشاعر كانت سنة ٦٣٦ هـ^(٢١) ، وهو وهم منه لأن المصادر جميعها أجمعت على أن وفاته كانت سنة ٦٣٤ هـ .

شاعريته :

أعجب القدماء بشاعرية ابن مرج الكحل ، فقد ذكر ابن الأبار أنه : « كان شاعراً مغلماً بديع التوليد والتجويد ، وقد حمل عنه ديوان شعره ، وسمعت بلفظه كثيراً منه »^(٢٢) ، وتلك شهادة مهمة من شاعر كاتب أديب .

وقد أبدى الرعيبي إعجابه بأبيات من رائيته التي اشتهر بها ، وبعد ذكره قول ابن مرج الكحل :

ما اصفر وجه الشمس عند غروبها

إلا لفرقة حسن ذلك المنظر

قال معقياً عليه : « هذا من الشعر الرائق الفائق الذي

لا نظير له »^(٣٣) ثم ذكر بيتي الشاعر من القصيدة نفسها :

أرأت جفونك مثله من منظر

ظل وشمس مثل خد معذر

وجداول كأرقام حصباؤها

كبطونها وحبابها كالأظهر

فقال مبدئاً إعجابه : « هذا التميم العجيب في تشبيه

الجدول بالأرقام ، زعم أنه لم يسبق إليه »^(٣٤) . ولا يفوت المقرئ

أن يبدل بدلوه ، ويعقب على قول الشاعر (والنهر مرقوم

الباطح) : « لم يصف أحد النهر بآرق ديباجة ولا أطرف من

هذا الإمام »^(٣٥) . ويوازن المقرئ بين رائية ابن مرج الكحل

ورائية شمس الدين الكوفي فيقول : « ومارأيت رائية تقرب من

التي لابن مرج الكحل التي أولها (عرج بمنعرج الكتيب الأعفر)

إلا رائية شمس الدين الكوفي الواعظ وهي قوله :

روح الزمان هو الربيع فبكر

وانهض إلى اللذات غير منكّر

ولكن قصيدة ابن مرج الكحل أعذب مذاقاً^(٣٦) . ويشير

د . حكمة علي الأوسي وهو في صدد تحليله أبيات هذه الرائية إلى

أن الشاعر وإن كان مقلداً في بعض أبياتها للشعر القديم إلا أنه

كان صادق الشعور في الأبيات الأخرى ، ولا يخفى إعجابه

بالبيت الثالث عشر فيقول : « ثم يسلك في البيت الثالث عشر

ضرباً من المحسنات البديعية يسميه أصحاب البديع (حسن

التعليل) فيجيد فيه أيما إجادة »^(٣٧) .

وقد أثر عن الشاعر أنه : « كان شاعراً مقلداً غزلاً بارع

التوليد رقيق الغزل »^(٣٨) ، ويعجب المقرئ مرة أخرى في أزهار

رياضه بأبيات غزلية للشاعر :

أوا بالجزع برقاً فاستهاموا

ونام العاذلون ولم يناموا

..... الأبيات

وقال معقياً عليها : « ما أحسن قول ابن مرج
الكحل »^(٣٩) .

وقد طارت شهرة الشاعر و : « اشتهر بآفاق

المغرب »^(٤٠) ، وما يدل على قدرته الشعرية وسرعة بديته هذه

الرواية التي ينقلها إلينا ابن عبد الملك المراكشي : « وقال رجل :

الحمد لله على كل حال ، أقيّل له : هذا موزون فأجزه ، فقال

ملتزماً ما لا يلزم :

الحمد لله على كل حال

بحال حل وبحال ارتحال

بدأنا عن قدرة أولاً

ثم يعيد البسطة بعد استحال

وهي أحد عشر بيتاً^(٤١) . وهو إلى جانب ذلك : « شاعر

مطبوع حسن الكتابة ذا كبر لأدب متصرف فيه »^(٤٢) .

ولم يقتصر الإعجاب بشاعريته على القدامى بل إن

الحديثين أعجبوا بهذه الشاعرية ، وبالغوا في وصفها ، فقد ذكر

محمد عبدالله عنان : « وكان من أعظم شعراء عصره »^(٤٣) ،

ويقول د . محمد مجيد السعيد عن قول ابن مرج الكحل :

طفل المساء وللنسيم تصوّغ

والأنس يجمع شملنا ويجمع

« فلفظتا (طفل) و (تصوغ) شعريتان لا يخفى مافيهما

من دماثة وإيماء »^(٤٤) .

موضوعات شعره :

عالج ابن مرج الكحل الكثير من موضوعات الشعر ، منها

فن الاخويات ، فمن ذلك : « تلك الرسالة التي كتبها إلى

أبي عمر ومحمد بن عبدالله بن غياث »^(٤٥) :

أبا عمرو ولي نفس ونفس

تهادي ذا إليك وذو تمهيش

..... الأبيات

وأجاد الشاعر في فن الروضيات ، وتغنى بالرياض ومباهها

وأزهارها ، ولم يكف بوصفها وصفاً خارجياً ، بل عمد إلى

إضفاء الحياة عليها ، ولونها بالوانه النفسية ، فقد رسم ابن مرج

الكحل صورة جميلة لعشبة صافية على نهر (الغنداق) خارج

بلدة لوشة فقال :

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر

بين الفرات وبين شط الكوثر

..... الأبيات (١١) .

ولقد أثرت الطبيعة في شعر المدح ، وإذا كان شعراؤنا القدماء في المشرق قد درجوا على استهلال قصائدهم بالوقوف على الأطلال فإننا نجد شعراء الأندلس قد انصرفوا عن ذلك إلى ما يلائم بيتهم ، فاستهلوا قصائد المدح بروضيات رقيقة تعبر عن واقع يعيشونه ويملك عليهم قلوبهم وأحاسيسهم . وهذه : قصيدة أخرى لابن مرج الكحل يصف فيها روضة غناء منفوعة بنسبها ، ضاحكة بزهرها ، طروبة بأمواج نهرها ، رائحة بأغصان أشجارها ، ثم هو يجعل من ذلك كله مقدمة وتمهيدا للانتقال إلى مدح صاحبه فيقول (١٢) :

طفل الماء ولنسيم تضرع

والأنس يجمع شملنا ويجمع

..... الأبيات .

وقد أثر عن ابن مرج الكحل أنه هاجى مجموعة من الشعراء . وقد ذكر صفوان بن إدريس أن أبا خريز محفوظ بن مرعي الشريف قد هجا ابن مرج الكحل بخمس مقطعات ، وقد رده عليه ابن مرج الكحل بثلاث مقطعات ، ومنها قوله :

أحمد بن حميد العذل الرضى

دعوى محب فيكم معروف

..... الأبيات (١٣) .

وينقل ابن الأبار لنا أن أبا الحسن مطرف من أهل غرناطة

قال :

وصفوا سهلاً فقالوا

حاطب والليل ليل

إنما المعلم الشريفا

والنفق سهل سهل

وبلغ ذلك (سهلاً) فقال :

حسدوا سهلاً فنقلنا

إي لعمري حسدوه

صغروا الاسم افتراء

وكبيراً وجدوه

ورده عليه ابن مرج الكحل :

إن دغوني سهيل

فأنا حقاً سهيل

قد دهاكم من ضلوعي

يا بني الزناء ويل (١٤)

وأشعار ابن مرج الكحل الهجائية تمثل عصرها خير تمثيل : « فهي لا تخرج عن القذف بالشتائم والسباب ، وهي في جملتها تقوم على الانتقاص من شاعرية المهجو ، أو الوصف بالشتم ، أو الاتهام بالزندقة والكفر ، أو بالوضاعة والخسة في النسب ، والإكثار من ذكر السوءات والفواحش ، وقليل منه يفت ويتعد عن البذاءة والسوقية ، وينسرف عن هتك الأعراض ، أو جرح الكرامات فيأتي بما يتقبله الذوق الأدبي ، ويستنبهه العرف الاجتماعي » (١٥) .

ويشير ابن عبد الملك المراكشي إلى أن الشاعر : « له أمداح في كثير من أمراء وقته ورؤسائه ، وكان ذلك مما أجاد فيه » (١٦) . ولقد وجدت فيما بين أيدينا من المصادر مدحتين : أحدهما في الناصر ، وذلك حين : « قفل الناصر إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع سنة أربع وست مئة ، ولما استقر بالحضرة ، وفدت عليه الوفود ، وهنأت الشعراء بالفتح ، فكان من ذلك ما أنشده ابن مرج الكحل وهو قوله :

ولما نوالى الفتح من كل وجهة

ولم تبلغ الأوهام في الوصف حده

..... الأبيات .

فاستحسن الكتاب منه ذلك ووقع أحسن موقع ، وأشار بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين ، فلما كانت أن يكتب السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور : الحمد لله وحده (١٧) ، والثانية في السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي : « وهذا الرجل هو الذي تعين صاحب الأندلس ، من بعد انقراض دولة الموحدين وملك مربية وقرطبة واشبيلية

وغرناطة ومالقة والمرية وما إلى ذلك ، بحال اجتماع وافتراق
وانتزاء من أهلها عليه وشقاق . وكان يُدعى بأمير المسلمين ،
ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله . وكان يتسب
إلى المستعين بن هود ، ولأجل ذلك يقول أبو عبدالله بن مرج
الكحل من قصيدة يمدحه بها :

فتحت بلاد الله دون مشقة
وماعرفت أربائها حادثاً نُكرا
.... الأبيات (١٠) .

تأثره بسابقه :

تأثر الشاعر - شأنه شأن أي شاعر آخر - بشعر من سبقه ،
فتمثل معاني الأقدمين ، وأجاد في ذلك أيما إجادة ، فقد أشار
القفطي إلى أن قول ابن مرج الكحل :

وفي أجفانها السكرى دليل
وما ذقنا ولا زعم الهمام
أخذه من قول النابغة (١١) في النعمان بن المنذر
مملوحة :

زعم الهمام بأن فاما بارد
عذب مقبله شهى المورد
زعم الهمام ولم أذقه انه
عذب اذا ماذقته قلت ازد
زعم الهمام ولم أذقه انه
يشفى برياريقها العطش الصدي
وقوله :

هون علينا أن يبيد أثائنا
وتبقى علينا المكرمات الأثاث
فيه : « تلويح إلى بيت المتنبي (١٢) :
هون علينا أن تصاب جسوننا
وتسلم أعراض لنا وعقول
وذكر صفوان بن إدريس أيضاً أن قول الشاعر :

أبا عجباً ما للشرىف يذمني
وبغضني حتى كاني مسجداً

ولاعيب عندي غير أني مسلم
وأذ اسمي اسم الهاشمي محمد
أخذه من قول المخزومي (١٣) .

ما ليزنيدي بني فاعل
بأنم مني كل ما محمد
يلحظني شرراً إذا مر بي
كانني في عينيه مسجداً
ولرج الكحل في الشريف أيضاً :

أبا ناقصاً يدعي أنه
كريم الحدود شريف السلف
ألا جرة لنا باب واحد
وضيع ونحن نحط الشرف
أخذه واحسن الأخذ فيه من قول بعض شعراء
البيعة (١٤) :

يذا الذي يفرع أسماءنا
مغالطاً بالنسب البارد
أقم لنا «الدة» أولاً
وانت في جل من الوالد
ويذكر ابن الأبار أن قول ابن مرج الكحل من رائيته :
ما اصفر وجه الشمس عند غروبها
إلا لفرقة حسن ذاك المنظر
قد أخذه عن أبي جعفر عبدالله بن محمد بن محمد بن جرج
الكاتب ، وهو قوله :

(أما ذكاء فلم تصفر إذ جنحت) ، قال ابن الأبار :
« واهتم البيت الأول منها أبو عبدالله بن مرج الكحل (١٥) .
مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لاتدركه متبهما
فاذا ولبت عنه تبعك
« في معنى هذين البيتين (١٦) ، وهما لعروة بن أذينة :
لقد علمت وما الاشراف من خلقي
أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

فوددت باموسى لَوَأْنَك يوشع

واستوحى ابن مرج الكحل القرآن الكريم في قوله :

دخلتم فأفسدتم قلوباً بملكها

فأنتم على ماجاء في سورة النمل

وبالجود والاحسان لم تتخلقوا

فأنتم على ماجاء في سورة النحل^(١)

فانه يشير في البيت الأول إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا

دخلوا قرية أفسدوها ﴾^(٢) وفي البيت الثاني يؤمىء الى قوله

تعالى : ﴿ أَنبَأْ بِوَجْهِهِ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾^(٣) .

اسمى له فيعني تطلبه

ولو قعدت أناني لأيعني

ويشير المقرئ إلى أن قول ابن مرج الكحل :

فأمنت باموسى الغروب ولم أقل

فوددت باموسى لَوَأْنَك يوشع

قد : ملح إلى قول الرصافي الأندلسي البلنسي يخاطب

من اسمه موسى^(٤) :

سقطت ولم يملك نديك ردها

ماتبقى من شعر ابن مرج الكحل :

(١)

[من الطويل]

قال ابن مرج الكحل في ذم الجهل :

وما عنده ان الذنوب ذنوب

ولم يره ذنباً فكيف يتوب

(٢)

[من الطويل]

وكتب إلى أبي بحر صفوان بن إدريس قصيدة منها :

ونالت جزيل الحظ منها الأباعث

تحولاً ولا ذكر مع البخل ماكث

وتبقى علينا المكرمات الأثائب

إذا لم يغيره من الدهر حادث

عجبت لمن يرجو متاباً لجاهل

إذا كان ذنب المرء للمرء شيمة

عذيري من الآمال خابت قصودها

وقالوا ذكرنا بالغنى فأجبتهم

يرون علينا أن يبيد أثائنا

وماضراً أصلاً طياً عدم الغنى

ومنها يعنب :

مقيم على عهد المودة ماكث

فعاقت عن الود الخطوب الكوارث

(٣)

[من الطويل]

وقال ابن مرج الكحل :

وعرف ظلام الأفق منه تأرجح

به ياسميناً والظلام بنفسج

فقلت فؤادي خافقاً متوهمجاً

فأذكرني ثغراً لسلمى مفلجاً

سرواً يجبطون الليل والليل قد سجا

إلى أن نحيلنا النجوم التي بدت

ومها شجاني أن تالقي بارق

وشيب بياض القطر منه بحمرة

أنت التي صبرتِ قَدَّكَ مائساً
وَأَغْضَبِكَ التَّشْبِيهُ بِالْبَدْرِ كَامِلاً
وَقَلْبٍ شَجٍ صَبْرِيهِ كَرَّةً وَقَدْ
فَلَا زَحَلْتُ إِلَّا بِقَلْبِي ظَمِينَةً
وَبِعَظْفِكَ مَيَّاداً وَرِدْقَكَ رَجْرَجاً
وَبِالذَّغَصِ مَرْكُوماً وَبِالظُّبِيِّ أَدْعَجاً
أَجَلَّتْ عَلَيْهِ لَامٌ صُدْغِكَ ضَوْجاً
وَلَا حَمَلْتُ إِلَّا ضُلُوعِي هَوْدَجاً

(٤)

[من مجزوء الرمل] وأنشد في حانوت بعض الأطباء على سبيل المداعبة :

إِنْ أَتَيْتُمْ فَفُرَادَى ذَاكَ حَكْمُ الْمُسْتَرَاخِ

(٥)

[من الكامل] وقال ابن مرج الكحل :

وَعُشْبَةٌ كَانَتْ قَنِصَةً قَتِيَةً
فَكَانَهَا الْعَنْقَاءُ قَدْ نَصَبُوا لَهَا
فَبَلَّتْهُمْ آدَابُهُمْ فَتَجَنَّا ذُبُوا
وَالْوُرُقُ تَقْرَأُ سُورَةَ الطَّرَبِ الَّتِي
وَالنَّهْرُ قَدْ صَفَحَتْ بِهِ نَارِجَةً
فَتَخَالَهُمْ خَلَّلَ السَّمَاءُ كَوَاكِباً
خَرَقَ الْعَوَائِدُ فِي السَّرُورِ نَهَارَهُمْ
أَلْفَا مِنْ الْأَدَبِ الصَّرِيحِ شِيْخَا
مِنْ الْأَنْحَنَاءِ إِلَى الْوُقُوعِ فُخُوشَا
سَرَّ السَّرُورِ مَحْدَثاً وَمُصِيخَا
يَنْسِيكَ مِنْهَا نَاسِخٌ مَنْسُوخَا
فَتَيَمَّمْتُ مِنْ كَانَ فِيهِ مُنِيخَا
قَدْ قَارَنْتُ بِسَعُودِهَا الْمَرِيخَا
فَجَعَلْتُ أَيْيَاتِي لَهُ تَارِيخَا

(٦)

[من الطويل] قال يهجو أبا حريز محفوظ بن قرعي الشريف :

أَبَا عَجَباً مَا لِلشَّرِيفِ يَذْمُنِي
وَلَا عَيْبَ عِنْدِي غَيْرَ أَنِّي مُسَلِّمٌ
وَيُبَيِّضُنِي حَتَّى كَأَنِّي مُسْجِدٌ
وَأَنْ أَسْمِيَ اسْمَ الْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٌ

(٧)

[من الطويل] وقال مهتاً الناصر بالفتح :

وَلَا تَوَالِ الْفَتْحِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
تَرْكُنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَشُكْرِهِ
فَلَا نِعْمَةَ إِلَّا تَوْدَى حَقُوقَهَا
وَلَمْ تَبْلُغِ الْأَوْهَامَ فِي الْوَصْفِ حَذَّه
بِمَا أَوْدَعَ السِّرَ الْإِلَهِيَّ عِنْدَهُ
عَلَامَتُهُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ وَحْدَهُ

(٨)

[من مجزوء البسيط] وقال وهو من بارع الإجازة مخاطباً صفوان بن إدريس :

وَأَنْتَ فِي الْقَلْبِ فِي السَّوِيدَا وَأَنْتَ فِي الْعَيْنِ فِي السَّوَادِ

(٩)

[من الطويل] وقال بمدح السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي :

فَتَحَتْ بِلَادَ اللَّهِ دُونَ مَشْقَةٍ
وَلَا بَدْءَ مِنْ فَتْحِ الْبَقِيَّةِ عَاجِلاً
وَمَا عَرَفَتْ أَرْبَابَهَا حَادِثاً نُكْرَا
وَيَعْجَلُ لِلْأَشْيَاءِ خَالِقَهَا قُدْرَا

وكم زهرة فتحت وهي كمامة
أضل ابن هود أخذاً بترائه
وإن كان مغصوباً فإن محمداً
ونادى على ملك تقهقر مدة
فيوشع رد الشمس في جريانها
قضى ربه أن يملك الأرض آخراً
وكم آخر قد جاء بالفضل أولاً
ففي رمضان ليلة القدر كونها

ولم تجز غير البيض من فتحها زهراً
ومن كان موتوراً فلا يدع الوترا
بصارمه الهندي قد رده قهراً
وعاد إلى ما كان في مدة آخراً
ومابعدت نوراً ولا نقصت قسداً
فقدّمه فضلاً وأخره عضراً
وهل تجعل الدنيا سواء من الآخر
وما صححت إلا أواخره العشر

(١٠)

[من الكامل]

قال في عشية بنهر - الغنداق - خارج بلدة لوشة :

عرج بمنعرج الكتيب الأعفر
ولنغشيقها قهوة ذهبية
وعشبة كم كنت أرقب وقتها
فلنا بهذا ما لنا في روضة
والدهر من ندم يسفه رأيه
والورق تشدو والأراكة تنشي
والروض بين مفضض ومذق
والنهر مرقوم الأباطح والرّبي
وكانه وكان خضرة شطه
وكانا ذاك الحباب فرئده
وكانه وجهاته عفوقة
نهر يهيم بحسه من لم يهيم
ما اصفر وجه الشمس عند غروبها
أرأت جفونك مثله من منظر
وجد أول كآراقسم حصاؤها
وفرارة كالعشر بين خيلة
فكانها مشكولة بمصنديل
امل بلقناه بهضب حديقة
فكانه والزمر ناج فوقه
راق النواظر منه رائق منظر

بين الفرات وبين شط الكوثر
من راحتي أحوى المرافف أحور
سمحت بها الأيام بعد تعذر
تهدي لنا شقها شميم العنبر
فيما مضى فيه بغير تكدر
والشمس ترفل في قميص أصفر
والزهر بين مذرهم ومدنير
بمنصدل من زهره ومعصفر
سيف يسل على بساط أخضر
مهما طفا في صفحة كالجوهر
بالأس والنعمان خد معدر
ويجيد فيه الشعر من لم يشعر
إلا لفرقة حسن ذاك المنظر
ظل وشمس مثل خد معدر
كبطونها وحبابها كالأظهر
سالت مذاربها بها كالأسطر
من يانع الأزهار أو بمعصفر
قد طرّزته يد الغمام المطير
ملك تجلى في بساط أخضر
يصف النضارة عن جنا الكوثر

كم قاد خاطرٍ خاطِرٍ مستوفٍ
لولا لي فيما تقادم لم أقل

وكم استفرَّ جماله من مُبصرٍ
عرجٍ بمنعرج الكتيب الأعفر
(١١)

[من الكامل]

وقال يتندم لذنوبه ويذكر بعض الواعظين ويستدعي منه الدعاء :

اذكُرْ ذُنُوبَكَ أَيُّهَا ذَا النَّاسِي
واقرع على مافات منك نادماً
وانفض عن الدنيا يدبك ولا تكن
واكل جفونك بالشهاد قائماً
أنتام عن من ليس بمنع وصله
من بات ملتذاً بقرب حبيبه
لو أن وجدك لا يفتر لم تكن
الا وجدت الوجد فيه لذة
انظر لنفسك قبل وقت رحيلها
ياذا الذي أهدي لنا تحف الهدى
حينك نفس صبةً بتحية
ترجو بيمينك دعوة من مؤمن
عن خاطرٍ صعب القيادٍ مخاطرٍ
وفرجة بالسيسات قريحة
هزت مواظك القلوب تشوقاً
فلتشفها بعد الضلالة بالهدى

واستغفرن الله رب الناس
واكرع من العبرات في اكواس
تعي بهذي الأربع الأدراس
يرضى حينك غابة الأيناس
أخطأت إن خالفت كل قياس
لم تنصل أجفانه بنعاس
تنسى حبيباً لم تجذه بناس
الا رايت السقم خير لباس
واذكر بقبرك قلة الأيناس
وأعاد ذكر الدين بعد تناس
وردت عليك نفيسة الأنفاس
بيت من التوفيق فوق أساس
من كثرة الأوزار في وسواس
خدت وكانت في ذكاء إياس
حتى الآن كل قلب قاس
أنت الطيب لها وأنت الأسى

(١٢)

وما كتبه الى أديب الأندلس أبي بحر صفوان بن إدريس قوله :

بأمن تبوأ في العلباء منزلة
لم يتركها في العلا حظاً للتمس
وإني كباكم فارتد لي جذلي
وللنوى لوعة تطفو فيطفتها

جذاه قد أسساها أي تأسيس
سيان هذا وهذا ابن إدريس
واعترضت من فرط أشواقى بتأنيس
مسك المداد وكافور القراطيس

(١٣)

وكتب إلي أبو عمرو محمد بن عبد الله بن غياث فقال :

أبا عمرو ولي نفس ونفس
وجاش لكها لاقى بصبر
وقلب ضل عني لست أدري
سوى أن يطير إليك روجي

تهادى ذا إليك وذى تجيش
جيوش هوى أسدتها جيوش
أمشوا الجزيرة أم شريش
بأجنحة الهوى والشوق ريش

[من الوافر]

كانا لم نزل بالجزع أنسا
ومن سر السرور لنا مهاذ
وقد راى الشاب جناح أنسي
فيا عجباً من الأيام تبدي
ألا الله منك صفى ود
نمازج روحه حباً بروحي

تلوذ به حوالينا الوحوش
وفوق رؤوسنا منه عروش
بحيث جناح غيري لا يريش
لنا دعة وأيدينا تبوش
له رجحان جلم ما يطيش
فما أدري بأيهما أعيش

(١٤)

[من الوافر]

وقال بشوق إلى أبي عمرو بن غياث :
أبا عمرو متى تقضي الليالي
أبت نفسي هوى الأ شريشاً

بلقبائكم وهن قصصن ريشي
ومابعد الجزيرة من شريش

(١٥)

[من الكامل]

وقال ابن مرج الكحل :
طفل الماء وللنسيم نضوء
والزهر يضحك من بكاء غمامة
والنهر من طرب يصفق موجة
فانم أبا عمران وأله بروضة
ياشادن البان الذي دون النقا
الشمس بغرب نورها ولربما
إن غاب نور الشمس لنا تنقي
أفك فتاب مناك عن اشرافها
فانت يا موسى الغروب ولم أقل

والأنس يجمع شملنا ويجمع
ربعت لشمم سيوف برقي تلمع
والفصن يرقص والحمامة تسجع
حسن المصيف بها وطاب المربع
حيث التقى وادي الحمى والأجرع
كسفت ونورك كل حين يسطع
بسناك ليل تفرق ينطلق
وجلا من الظلماء ما يتوقع
فوددت يا موسى لو أنك يوشع

(١٦)

[من الطويل]

وقال ابن مرج الكحل :
لك الخبر - يا مولاي - ما العبد بامرئ
وهل أنا إلا مثل حسان شيمة :

لديه حسام بل لديه يراع
جبان وفي النظم النفيس شجاع

(١٧)

[من الوافر]

وله من قطعة كتب بها إلى أبي الربيع بن سالم فقال :

لقد فقت ابن سالم البرايا
حسنت فكنت لذة كل عين
بما خولت من قذر رفيع
كانك قد خلقت من المجوع

(١٨)

[من المتقارب]

وقال يهجو أبا حريز محفوظ بن مرعي الشريف :

أباً ناقصاً يدّعي أنه
الاجيء لنا باب واحد

كسريم الجدود شريف السلف
وضيع ونحن نحط الشرف
(١٩)

[من الكامل]

وقال يهجو أبا حريز محفوظ بن مرعي الشريف :

أحمد بن حميد العذل الرضي
إن الذي قرّبت غير مقرب
وغد يرى الصلوات نافلة له
إن القريب من القريب مناسب
دعوى محب فيكم معروف
إن الذي شرفت غير مشرف
ويقول بالتعطيل والتحريف
والأقربون أحق بالمعروف
(٢٠)

[من الرمل]

وقال ابن مرج الكحل :

مثل الرزق الذي تطلبه
أنت لا تدركه متبعاً
مثل الظل الذي يمشي معك
فإذا ولّيت عنه أتبعك
(٢١)

[من الطويل]

وقال ابن مرج الكحل :

ألا بشروا بالصبح من كان باكياً
ففي الصبح للصب المتيم راحة
ولا عجب أن يسك الصبح عبرتي
أضربه الليل الطويل مع البكا
إذا الليل أجرى دمه إذا شكا
فلم يزل الكافور للدم تمسكا
(٢٢)

[من السريع]

وقال رجل : الحمد لله على كل حال ، فقبل له : هذا موزون فأجزه ، فقال ملتزماً ما لا يلزم :

الحمد لله على كل حال
بدلنا عن قدرة أولاً
أرواحنا ذبن لأجالنا
يقنادنا الموت وأعمارنا
أباً تاركاً أوزاره بعمده
إننا إلى الله وإننا له
هل ينفع النفس على ضعفها
لا تتحل غير التقى خطئة
بإستغفر الله على ماضى
والذكر إذا حلت فكم نادم
قرت عيون شاهدات لها
بحال حل وبحال ارتحال
ثم بعد البدء بعد استحال
وملك الموت عليها محال
كأنها العيس ونحن الرحال
باقية لم تستحل واستحال
نعامل الله بهذا المحال
محالها عند شديد المجال
فإن تقوى الله خير انتحال
وجدد التوبة في كل حال
لم يغنيه من ندم حين حال
بنور من تشهد فيه اكتحال

(٢٣)

[من مجزوء الرمل]

فأنا حقاً سهيلُ
يابني الزناء ويلُ

(٢٤)

[من الطويل]

ومن كان مثلي فهو للخير قاتلُ
وغيري لها من سائر الناس فاعلُ

(٢٥)

[من مجزوء الوافر]

فكل جهالةٌ ذلّةُ
بمعين منه منهلةُ
أراد إزالة الزلّةُ
نفوس من معنلةُ
إذا لم يعرف العلّةُ

(٢٦)

[من البسيط]

ماكان أحوج هذي الأرض للكحل
في الفتح بيضُ ظُبا أجدادي الأول
في حُمره الخدُّ أو إخلافه أملِي

(٢٧)

[من الطويل]

فأنتم على ماجاء في سورة النمل
فأنتم على ماجاء في سورة النحل

(٢٨)

[من الوافر]

ونام العاذلون ولم يناموا
يخبر أن ريفتها مُدامُ
وماذقنا ومازعم الممامُ
إذا عرضت لقلبي الخيامُ
وأطربني إذا غنى الحمامُ

وقال ابن مرج الكحل :

إن ذعنوني بسهيل
قد دهاكم من ضلوعي

وقال ابن مرج الكحل :

تعدت قول الخير في كل حالة
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها

وقال في التحريض على التعلم :

نعلم إن نشأ عزاً
فكم بالك على وزر
ورينما يزل إذا
وهل تشفى بلا علم
طبيب المرء علته

وقال ابن مرج الكحل :

باقائلاً إذا رأى مرجي وحرته
تلك النداء التي للروم قد سفكت
أحببها إذ حكمت من قد كلفت به

وقال ابن مرج الكحل :

دخلتم فافسدتم قلوباً بملكها
وبالجود والاحسان لم تتخلقوا

وقال ابن مرج الكحل :

راؤا بالجزع برقاً فاستهاموا
وعندي من مراشفها حديثُ
وفي أجفانها السكرى دليلُ
نعال الله ما أجرى دموعي
واشجاني إذا لاحت بروقي

وقال ابن مرج الكحل :

[من الكامل]

لا تذكروا في المرء حبّ رياسة
كل أبوه آدم وطلابيه
حب الرياسة في طباع العالم
إرث الخلافة في أبيه آدم

(٣٠)

وقال في حسن الظن بالله عز وجل :

[من الخفيف]

إن ظني بمن عصيتُ جميلُ
ما أراه إلا يجود بعفو
أتراه معذبي ؟ ما أظنُ
إن قلبي بعفوه مطمئنُ
حاشي لله أن يخيبَ ظني
إنه لا يخيبُ في الله ظنُ

(٣١)

وانشد أبا الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني مرتجلاً :

[من الوافر]

أبا حسن أعندك أن عيني
مكائنك في المودة من فؤادي
إذا ما أبصرْتُكَ تقرأ عيني
مكائنك في السراوة من رُعيني

هوامش المقدمة

- ١- التكملة ، ٢ / ٦٣٦ ، ونفع الطيب ، ٥ / ٥١ .
- ٢- المغرب ، ٢ / ٣٧٣ . ٣- رايات المبرزين ، ص ١٢١ .
- ٤- زاد المسافر ، ص ٣٥ . والتكملة ، ٢ / ٦٣٦ . ورايات المبرزين ، ص ١٢١ . والمغرب ، ٢ / ٣٧٣ ، والوافي ، ٢ / ١٨١ .
- ٥- المحمدون ، ص ١٤٦ . وبرنامج الرعيني ، ص ٢٠٨ ، ونفع الطيب ، ٥ / ٥١ .
- ٦- برنامج الرعيني ، ص ٢٠٨ . ٧- المحمدون ، ص ١٤٦ .
- ٨- القنضب ، ص ١٣٧ . والإحاطة ، ٢ / ٣٤٨ . ونفع الطيب ، ٥ / ٥٥ ، مع اختلاف في رواية الأبيات أشرنا إليه في ملحق ماتبقى من شعر ابن مرج الكحل .
- ٩- لسان العرب ، ٢ / ٣٦٤ . ١٠- وفيات الأعيان ، ٢ / ٣٩٦ .
- ١١- تنظر : الأعلام ، ٦ / ٢٥١ . ومعجم المؤلفين ، ٩ / ٣٤ .
- ١٢- التكملة ، ٢ / ٦٣٦ . وبرنامج الرعيني ، ص ٢٠٨ . ونفع الطيب ، ٥ / ٥١ .
- ١٣- الذيل والتكملة ، ٦ / ١١٠ . ١٤- رايات المبرزين ، ص ١٢١ .
- ١٥- الإحاطة ، ص ٣٤٣ ، ويتنظر مصدره .
- ١٦- معجم البلدان ، ٣ / ٣٥٤ . ويتنظر : الروض المعمار ، ص ٣٤٩ .
- ١٧- المغرب ، ٢ / ٣٧٣ . والوآء : هو محمد بن أحمد ، وقيل محمد أبو الفرج النساني الدمشقي شاعر عباسي ، والوآء في اللغة صباح
- ابن آوى ، ولما كان أبو الفرج يبيع الفاكهة في السوق وينادي عليها فقد يكون لقبه أثناء من ذلك . . ينظر : معجم القاب الشعراء ، ص ٢٥٧ .
- ١٨- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ١٦٠ . وتنظر الأبيات في موضعها من الملحق .
- ١٩- الطليعة الأدبية ، ص ٦ . ٢٠- برنامج الرعيني ، ص ٢١١ .
- ٢١- نفع الطيب ، ٥ / ٥١ . ٢٢- المصدر نفسه ، ٥ / ٥١ .
- ٢٣- ينظر : زاد المسافر ، ص ٧٠ . وبرنامج الرعيني ، ص ٢١١ . ونفع الطيب ، ٥ / ٥٧ .
- ٢٤- نفع الطيب ، ٥ / ١٣٢ . ٢٥- زاد المسافر ، ص ٣٥ . ونفع الطيب ، ٥ / ٦٢ .
- ٢٦- برنامج الرعيني ، ص ٢١١ . ونفع الطيب ، ٥ / ٥١ .
- ٢٧- التكملة ، ٢ / ٦٣٦ . ٢٨- برنامج الرعيني ، ص ٢٠٨ .
- ٢٩- نفع الطيب ، ٥ / ٥١ .
- ٣٠- التكملة ، ٢ / ٦٣٧ ، وفيات الأعيان ، ٢ / ٣٩٧ ، والوافي ، ٢ / ١٨١ . والإحاطة ، ٢ / ٣٤٨ . ونفع الطيب ، ٥ / ٥٥ .
- ٣١- تنظر الطليعة الأدبية ، ص ٦ . ٣٢- التكملة ، ٢ / ٦٣٦ . والوافي ، ٢ / ١٨١ .
- ٣٣ و ٣٤- برنامج الرعيني ، ص ٢٠٩ . ونفع الطيب ، ص ٥٢ .
- ٣٥- نفع الطيب ، ٥ / ٥٥ . ٣٦- المصدر نفسه ، ٥ / ٥٦ .

- ٣٧- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ٦٦ .
- ٣٨- نفع الطيب ، ٥ / ٥١ . ٣٩- أزهار الرياض ، ٢ / ٣١٦ .
- ٤٠- ربايات البرزين ، ص ١٢٣ . ٤١- الذيل والتكملة ، ١١٤ / ٦ .
- ٤٢- نفع الطيب ، ٥١ / ٥١ . ٤٣- نهاية الأندلس ، ص ٤٣٥ .
- ٤٤- الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٣٣٥ . والشطر الثاني عنده : (والأنس ينظم شملنا ويجمع) والصحيح ما أثبتناه ، وهو رواية : زاد المسافر والإحاطة ونفع الطيب وينظر تخريج القصيدة في موضعه من الملحق .
- ٤٥- الذيل والتكملة ، ١١٦ / ٦ . وتنظر الأبيات في موضعها من الملحق .
- ٤٦- تنظر الأبيات في موضعها من الملحق .
- ٤٧- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، ص ٦٧ . وتنظر الأبيات في موضعها من الملحق .
- ٤٨- ينظر : زاد المسافر ، ص ١٢٦ . وتنظر الأبيات في موضعها من الملحق .
- ٤٩- ينظر : المقنضب ، ص ٩٩ . ٥٠- الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٢٤٨ .
- ٥١- الذيل والتكملة ، ١١٦ / ٦ . ٥٢- الاستقصا لأخبار دول

هوامش الشعر

- فلنا بها آمالنا في جنة أهدت لنا شقها شميم المنبر
والشطر الأول من البيت التاسع فيه : (والنهر فيها والنبات بحضة) .
وقد ذكر من القصيدة سبعة أبيات فقط . والمغرب ، ٢ / ٣٧٣ ،
وذكر من القصيدة عشرة أبيات إلا أنه اسقط البيت الخامس والثامن
والخادي عشر . والإحاطة ، ٣٤٣ / ٢ . ونفع الطيب ، ٥١ / ٥ .
وأزهار الرياض ، ٢ / ٣١٥ واختار منها ثلاثة عشر بيتاً .
- ١١- الذيل والتكملة ، ١١٣ / ٦ .
- ١٢- نفع الطيب ، ٥٧ / ٥ .
- ١٣- الذيل والتكملة ، ١١٦ / ٦ . والجزيرة الخضراء من مدن الأندلس
مقابلة لسبنة تسمى اليوم Algezras . وشريش من جنوب الأندلس
تسمى Xeres ومنها الشريشي شارح مقامات الحريري .
- ١٤- زاد المسافر ، ص ٦٠ . والإحاطة ، ٣٤٦ / ٢ . ونفع الطيب ، ٥٣ / ٥ .
- ١٥- الإحاطة ، ٣٤٧ / ٢ . ونفع الطيب ، ٥٣ / ٥ . وزاد المسافر ،
ص ٧٠ ، وقد سقطت رواية البيت السادس . ويلاحظ أن الشطر

- ١- الذيل والتكملة ، ١١٣ / ٦ .
- ٢- زاد المسافر ، ص ٧٠ . والبيت الأول : (... خابت صفورها)
والصحيح ما أثبتناه (خابت قصودها) وهي رواية الإحاطة ،
٣٤٦ / ٢ . ونفع الطيب ، ٥٣ / ٥ .
- ٣- المغرب ، ٢ / ٣٧٤ .
- ٤- نفع الطيب ، ١٣٢ / ٥ .
- ٥- برنائج الرعي ، ص ٢٠٨ . والإحاطة ، ٣٤٥ / ٢ . ونفع الطيب ، ٥٢ / ٥ .
- ٦- زاد المسافر ، ص ١٢٥ .
- ٧- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٢ / ٢١٧ .
- ٨- زاد المسافر ، ص ٣٥ ، ونفع الطيب ، ٦٢ / ٥ .
- ٩- أعمال الأعلام ، ص ٢٧٨ . ويلاحظ ما وقع فيه الشاعر من عيوب
القافية (الإيطاء) .
- ١٠- برنائج الرعي ، ص ٢٠٩ . والمقنضب ، ص ٦١ . وقد روى منها
ثلاثة عشر بيتاً . وربايات البرزين ، ص ١٢٣ . والبيت الرابع فيه :

الثاني من البيت الأخير هو تضمين لقول الرصافي الأندلسي البلبسي .

١٦- النكلمة ، ٢ / ٦٣٧ . والوافي ، ٢ / ١٨١ .

١٧- برنامج الرعيني ، ص ٢١١ .

١٨- زاد المسافر ، ص ١٢٥ .

١٩- زاد المسافر ، ص ١٢٦ .

٢٠- النكلمة ، ٢ / ٦٣٦ . وفیات الأعيان ، ٢ / ٣٩٦ . والوافي ،

١٨١ / ٢ . والإحاطة ، ٢ / ٣٤٧ . ونفع الطيب ، ٥ / ٥٤ .

٢١- الإحاطة ، ٢ / ٣٤٧ . ونفع الطيب ، ٥ / ٥٤ .

٢٢- الذيل والنكلمة ، ٦ / ١١٤ . وينظر مافي الأبيات من إبطاء .

٢٣- المختضب ، ص ٩٩ .

٢٤- برنامج الرعيني ، ص ٢١١ .

٢٥- الذيل والنكلمة ، ٦ / ١١٣ .

٢٦- المختضب ، ص ١٣٧ . والإحاطة ، ٢ / ٣٤٨ ، ورواية البيت الثاني

فيه :

هو احمرار دماء الروم سبلها بالبيض من مر من آبائي الأول

ونفع الطيب ، ٥ / ٥٥ .

٢٧- الإحاطة ، ٢ / ٣٤٨ . ونفع الطيب ، ٥ / ٥٤ .

٢٨- لزهار الرياض ، ٢ / ٣١٦ . وزاد المسافر ، ص ٦٩ . وقد سقطت

رواية البيت الأول . والمحمدون ، ص ١٤٦ . وقد سقطت رواية

البيت الأول أيضاً ، واختلطت رواية البيت الرابع بالخامس كالآتي :

تعالى الله ما أجرى دموعي وأطربني إذا غنى الحمام

والغرب ، ٢ / ٣٧٤ ، وذكر منها البيتين الثاني والثالث فقط .

والإحاطة ، ٢ / ٣٤٦ ، وقد سقطت رواية البيت الأول . ونفع

الطيب ، ٥ / ٥٣ ، وقد سقطت رواية البيت الأول .

٢٩- الذيل والنكلمة ، ٦ / ١١٦ .

٣٠- الذيل والنكلمة ، ٦ / ١١٣ .

٣١- برنامج الرعيني ، ص ٢١١ .

مصادر ومراجع البحث والتحقيق :

- ١- الإحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب ت ٧٧٦ هـ ، تحقيق محمد عبدالله عتار ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٧٤ .
- ٢- الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، د . حكمت علي الأوسي ، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، بلا تاريخ .
- ٣- أزهار الرياض في أخبار عياض ، أحمد بن محمد المقرئ ت ١٠٤١ هـ ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، الجزء الثاني ، طبعة القاهرة ١٩٤٠ .
- ٤- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، أحمد بن خالد الناصري السلاوي ت ١٣١٥ هـ ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الجزء الثاني ، طبعة الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .
- ٥- أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق [. لبفي بروقتسال ، طبعة بيروت ١٩٥٦ .
- ٦- الأعلام ، خير الدين الزركلي ت ١٣٩٦ هـ ، الجزء السادس ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٧٩ .
- ٧- برنامج شيوخ الرعيني ، علي بن محمد بن علي الرعيني ت ٦٦٦ هـ ، تحقيق ابراهيم شيوخ ، طبعة دمشق ١٩٦٢ .
- ٨- النكلمة لكتاب الصلة ، أبو عبدالله بن الأبار القضاعي ٦٥٨ هـ ، تحقيق عزة العطاء الحسيني ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٩- الذيل والنكلمة لكتاب الموصول والصلة ، محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي ، تحقيق د . احسان عباس ، الجزء السادس ، طبعة دار الثقافة - بيروت ١٩٧٣ .
- ١٠- رايات المبرزين وغايات المميزين ، ابن سعيد الأندلسي ت ٦٨٥ هـ ، تحقيق د . النعمان عبدالمتعال القاضي ، طبعة القاهرة ١٩٧٣ .
- ١١- الروض المطار في خير الأقطار ، محمد بن عبدالمنعم الحميري ت ٩٠٠ هـ ، تحقيق د . احسان عباس ، طبعة بيروت ١٩٧٥ .
- ١٢- زاد المسافر وغرة نحا الأدب السافر ، صفوان بن إدريس التجيبي المرسى ت ٥٩٨ هـ ، تحقيق عبدالقادر محداد ، طبعة بيروت ١٩٧٠ .

- ١٣ - الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، د . محمد مجيد السعيد ، طبعة وزارة الثقافة والاعلام - بغداد ١٩٨٠ .
- ١٤ - الطلبة الأدبية ، مرج الكحل ، مرشد حمد ، العدد الأول السنة الرابعة ، بغداد ١٩٧٨ .
- ١٥ - لسان العرب ، ابن منظور ت ٧١١ هـ ، الجزء الثاني ، طبعة دار صادر وبيروت ١٩٥٥ .
- ١٦ - المحمدون من الشعراء وأشعارهم ، علي بن يوسف الففطي ت ٦٤٦ هـ ، تحقيق حسن معمر ، طبعة الرياض ١٩٧٠ .
- ١٧ - معجم ألقاب الشعراء ، د . سامي مكّي العاني ، طبعة النجف ١٩٧١ .
- ١٨ - معجم البلدان ، باقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦ هـ ، الجزء الثالث ، دار صادر وبيروت بلا تاريخ .
- ١٩ - معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، الجزء التاسع ، طبعة دمشق ١٩٦٠ .
- ٢٠ - المغرب في حلّ المغرب ، ابن سعيد الأندلسي ، تحقيق د . شوقي ضيف ، الجزء الثاني ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .
- ٢١ - المنقضب من كتاب تحفة القادم ، أبو عبد الله بن الأبار الفضاوي ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، المطبعة الأميرية - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٢٢ - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقرئ ، تحقيق د . إحسان عباس ، الجزء الخامس ، طبعة دار صادر - بيروت ١٩٦٨ .
- وتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الجزء الخامس ، دار الكتاب العربي - بيروت . بلا تاريخ .
- ٢٣ - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين - وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، طبعة مصر ١٩٥٨ .
- ٢٤ - الوافي بالوفيات ، صلاح الدين بن أبيك الصفدي ت ٧٦٤ هـ ، باعثناء هلموت ريتز ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، طبعة فرايزر شتاينريثسبادن ، ١٩٦١ .
- ٢٥ - وفيات الأعيان ، ابن خلكان ت ٦٨١ هـ ، تحقيق د . إحسان عباس ، الجزء الثاني ، طبعة دار الثقافة - بيروت ١٩٧٨ .



صدر عن دار الشؤون الثقافية



ترجمة أسامة بن منقذ لابن العديم

تحقيق

د . جليل العطية

باريس

« المنازل والديار » مكتوبة بخط أسامة بن منقذ ، كتبها أسامة بخطه المرتعش ، أيام شيخوخته في « حصن كيفا » . . . وسرعان ما انهمك بدراسة هذا الكتاب ثم تولى نشره المستعرب المعروف أنس خالدوف (موسكو - ١٩٦١) .

كتب كراتشكوفسكي دراسات قيمة عن حياة وأعمال ابن منقذ ترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبية ، وأخذ بعضها طريقة لعدد من الموسوعات العالمية .

ومن المعاصرين يُبنى المستعرب الفرنسي أندريه ميكيل (Miquel) كثيراً بأعمال أسامة حيث نهض بتقديم ترجمة « الاعتبار » إلى الفرنسية ، ترجمة أمينة (باريس - ١٩٨٣) ونشر مؤخراً دراسة بالفرنسية تتناول حياة أسامة وأعماله وأهمية مذكراته (باريس - ١٩٨٦) .

ولاشك أن سبب عناية الغربيين بأسامة بن منقذ يعود إلى كونه أحد أهم شهود الحروب الصليبية ، وقد اعتبروا « كتاب الاعتبار » شهادة أو وثيقة لا بد من دراستها وتحليلها إلى أقصى حد ممكن .

وحظى ابن منقذ بعناية المؤلفين والمؤرخين العرب

بين يدي النص :

حين تذكر الحروب الصليبية يذكر صلاح الدين الأيوبي . وعندما يذكر صلاح الدين الأيوبي يذكر شاعره : أسامة بن منقذ .

وقد ارتبط اسم ابن منقذ بالشجاعة والفروسية والشعر الأصيل .

نال هذا الفارس عناية المستشرقين منذ أن « اكتشفه » الفرنسي ديرنبورغ (Derenbourg) قبل نحو قرن وعشرة أعوام . وقد سلخ هذا الرجل نصف حياته - تقريباً - بدراسة وترجمة آثار أسامة إلى الفرنسية ومنها كتاب « الاعتبار » الذي عثر على مخطوطته الفريدة أثناء إعداده فهارس مكتبة الاسكوريال الإسبانية .

وتلقف المستشرقون « الاعتبار » بالدراسة والترجمة ويكاد هذا الكتاب يلي « ألف ليلة وليلة » بالأهمية ، من حيث عدد اللغات الأجنبية التي تُرجم إليها .

ومن عُني بابن منقذ : السوفييتي كراتشكوفسكي (Kratchkovesky) الذي عثر في صيف ١٩٢١ م على مخطوطة

ألفه نحو سنة ٦٤٠ هـ فقد ذكر فيه وفاة شيخه
- ابن شاعر - سنة ٦٣٨ هـ بجمرة النعمان (تعريف القدماء ،
٥٠٦) .

وقد نُشر هذا الكتاب أكثر من مرة .

٣ - بغية الطلب في تاريخ حلب - سيأتي الحديث عنه .

٤ - تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد .

ذكره ابن شاعر الكتبي (فوات الوفيات ٣ / ١٧٢) .

وموضوعه واضح ، وهو مفقود .

٥ - تذكرة ابن العديم .

لم تذكرها المصادر القديمة . تتكون التذكرة من ستة عشر
جزءاً ، ضاعت الأجزاء الأربعة الأولى ، ووصلت إلينا مخطوطة
منها بخط ابن العديم ، وعلى النسخة خطه وسماعه ، وتاريخ
النسخة وتأليفها . (شكك المرحوم الزركلي بهذا) .

تضمّ التذكرة طرائف من الشعر والنثر والحكمة والاختبار
لبعضها أهمية بالغة .

وكان الدكتور سامي الدّهان قد حقق هذا الكتاب ،
ووعده بنشره ، (الزبدة ١ / ٤٦) غير أنه لم يصدر بسبب انتقال
الدّهان إلى رحمة الله .

٦ - الخطّ وعلومه ووصف آدابه وأقلامه وطروقه .

ذكره ابن شاعر الكتبي والصفدي وغيرهما . وهو مفقود .

٧ - الدراري في ذكر الدراري .

ألفه عندما كان في الثانية والعشرين (سنة ٦١٠ هـ) .
جمعه للملك الظاهر ، وقّده إليه يوم وُلد ولده الملك العزيز
سلطان حلب .

طُبِع في الجوائب بالاستانة ١٢٩٨ هـ .

٨ - ضوء الصباح في الحثّ على السماح .

صنّفه للملك الأشرف (موسى) ، وكان قد سبّر إليه من
« خزان » يطلبه ، فإنه لما وقف على خطّه اشتبه أن يراه ، فقدم
إليه فأحسن إليه وكرمه ، وخلع عليه ، والكتاب مفقود .

٩ - الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب .

لم يذكر الذين ترجموا لابن العديم هذا الكتاب ، وقد
وصلت إلينا منه عدّة مخطوطات ، ويتألف من مقدّمة قصيرة

والمسلمين من القدامى والمعاصرين ، وعلى الرغم من ذلك تبقى
ثمة زوايا في حياة وأعمال هذا الرجل القُدّ ، بحاجة إلى إنارة !
ومن خلال تتبّعي ، تبين لي أنّ ثمة ثلاثة مؤرخين بارزين
قدّموا ترجمة لأسامة ، لاتزال مخطوطة ، وبالتالي فإنها بعيدة عن
متناول الباحثين وطلبة العلم ، هم :

١ - ابن عساكر (٥٧١ هـ) في « تاريخ مدينة دمشق » .

٢ - ابن العديم (٦٦٠ هـ) في « بغية الطلب » في تاريخ
حلب .

٣ - المقرئزي (٨١٤ هـ) في « المقفى الكبير » .

وقد درست هذه التراجم ، فوجدت أن « ابن العديم »
يتفرد بتقديم ترجمة أصيلة ، فيها الكثير من الجِدّة والعمق . ولهذا
عزمت على تقديمها هنا ، ليشارك القراء لذة التمتع بمطالعتها
واستخلاص العبر منها أيضاً .

ابن العديم :

هو كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة
العُفيلي^(١) (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ) : مؤرخ ، محدث ، من
الكتاب ، وُلد بحلب ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز
والعراق وتوفي بالقاهرة .

سمع من أبيه ومن عمّه أبي غانم محمد وابن طبرزد
والكندي وغيرهم ، كان حافظاً ، صادقاً ، فقيهاً مفتياً ، بليغاً ،
كاتباً ، مجوداً ، دُرّس وأفنى ، وترسل عن الملوك ، وكان رأساً في
الخطّ ، المنسوب إلى ابن البواب ، وله شعر رقيق .

من آثاره :

١ - الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة :

قال ياقوت : « وصنّف كتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني
جرادة ، وأنا سأله جمعه ، فجمعه لي ، وكتبه من نحو أسبوع ،
وهو في عشرة كرايس (ياقوت ١٦ / ٤٥) .

ويتناول الكتاب نسب أهله ومآثر أجداده ، ومآله من
الفضل والفقه والأدب والشعر . وهو مفقود .

٢ - الانصاف والتحرّي ، في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء
المعري .

وعشرة أبواب هي في الطب والعطور وموادها ، والاشربة وفوائدها ، والمياه وصنعتها ، والأطعمة ، والحلويات والمخللات وأنواع الاثنان والصابون والمطيب .

وقد ظهر مؤخراً بتحقيق السيدتين سلمى محجوب ودرية الخطيب (منشورات معهد التراث العلمي العربي بحلب) .
ونسبت لابن العديم بعض الكتب ، خطأ منها :

١ - الإشعار بما للملوك من النواذر والأشعار (السوافي ٢٢ / ٤٢٣) .

وهذا الكتاب لاحد بن علي القاشي (من علماء القرن السادس الهجري) .

٢ - سوق الفاضل - مخطوطة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة (الاعلام ٥ / ٤٠) .

وهذا الكتاب لمؤلف متأخر ، من بني العديم أيضاً .

بغية الطلب :

« بغية الطلب في تاريخ حلب » كتاب ضخيم في تاريخ حلب ، أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ، ومن كان بها من العلماء ، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراسة والملوك والأمراء والكتاب .

بدأ ابن العديم تاريخ حلب في صدر شبابه ، وقضى عمره وهو يهينه ويكتب فيه ، حتى أعجلته المنية . فلم يتمه . ولا يظن أنه نقله إلى نسخة أخرى ، بل تركه مسودة لم يبيّضه ، وقد كان ينتظر ان يتاح له اتمامه على الخطة التي رسمها ، لكن الأحداث التاريخية واشتغاله بالسياسة والسفارة حالت دون تحقيق أميته ، لذلك بقي الكتاب مبتوراً .

يتكون المجلد الأول من وصف جغرافي لحلب وما قيل فيها من شعرونثر . ثم بدأ التراجم على الحروف ، فصنع كما يصنع المحذثون بذكر الاسناد المتسلسلة لاثبات ترجمة الرجل وما عرف عنه ، وما نقل من كتبه ، وما وصل إلى سمعه من حديثه وشعره وكتبه ونقله ، وهو بهذا شبيه بابن عساكر في « تاريخ دمشق » وبالخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » .

فابن العديم لم يثبت خبراً إلا ذكر المصدر الذي استقي

منه ، ولم يورد شعراً إلا يصف لنا الديوان الذي وصل إليه أو الكتاب الذي قرأه فيه ، ولم يسرد حديثاً إلا قال : سمعت ، وقرأت ، وأخبرنا ، - وحدّثنا ، قال لي عمي ، إلى أقصى ما يستطيع أن يصنعه رجل ثقة ومؤرخ حجة ، وهو بهذا كله ثمين قيم ، وسجل مفصل لتاريخ العرب .

وقد استخرج منه (زبدة الحلب من تاريخ حلب) نُشر في ثلاثة أجزاء بتحقيق الدكتور سامي الدقّان (دمشق ١٩٥١ - ١٩٦٨) .

ووصل إلينا « بغية الطلب » في عشر مجلدات بخط ابن العديم نفسه ، وهي موجودة في إسطنبول :

- مخطوطة آيا صوفيا - رقم ٣٠٣٦ .

- مخطوطة مكتبة أحمد الثالث (٨ مجلدات) تحمل الرقم ٢٩٢٥ .

- مخطوطة مكتبة فيض الله وتحمل الرقم ١٤٠٤ .

ولم ينشر من هذا الكتاب سوى ملتقطات صغيرة ، أهمها :

١ - ترجمة المعري ، نشرت أول مرة بعناية الاستاذ سامي الكيالي - (القاهرة - ١٩٤٥) .

٢ - ترجمة القرامطة - بيروت .

٣ - من سير الثغور للقاضي الطرسوسي . تحقيق الدكتور شاكر مصطفى (مجلة كلية الآداب والتربية التي تصدرها جامعة الكويت) ٨ - ديسمبر - كانون الأول - ١٩٧٥ ، ٧ - ٥٥ .

٤ - تراجم السلاجقة بتحقيق علي سويم (أنقرة - ١٩٧٦) . ولا يزال هذا السفر ينتظر جهود الباحثين لانجاز نشره .

ترجمة أسامة :

النص الذي أقدمه الآن مستخرج من مخطوطة بغية الطلب - نسخة أحمد الثالث ذات الرقم ٢٩٢٥ .

وتقع الترجمة بين الورقة ٢٠٤ ظ والورقة ٢١١ ظ من الجزء الثاني من المخطوطة المكتوبة بخط ابن العديم - كما قدّمت .

وعسى ان يشارك هذا النص في إلقاء أضواء جديدة على

حياة وأعمال :

- أسامة بن مُنقذ :

فارس الشعراء وشاعر الفرسان .

والله أسأل التوفيق فيها كان وفيها سيكون .

[الأمير أسامة بن مُنقذ الشيزري]

[١] (ق ٢٠٤ ظ) - أسامة^(١) بن مُرشيد بن علي بن مقلد بن نصر بن محمد بن مُنقذ بن نصر بن هاشم بن سُرَّار^(٢) بن زياد بن زُغيب^(٣) بن مَكْحُول بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كِثانة بن بكر بن عُذرة بن زيد اللات بن رُفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حُلوان بن عمرو^(٤) بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان بن عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

أبو المظفر بن أبي سلامة بن أبي المتَّوج الكِنَاني الشيزري الملقب مؤيد الدولة^(٥) .
ولد بشيزر^(٦) ونشأ بها ، وأخرجه عمه أبو العساكر سلطان بن علي^(٧) خوفاً منه [ق ٢٠٥ ظ] على نفسه^(٨) ، لما رأى من شجاعته وإقدامه . وقَدِم حلب مراراً متعددة .
وكان من الأمراء الفضلاء ، الأدباء الشعراء ، الشجعان الفرسان ، له مصنفات عديدة^(٩) ، ومجاميع مفيدة ، ومواقف مشهورة ، ووقائع مذكورة ، وفضائل مسطورة .
روى عن أبي الحسن علي بن سالم بن الأغر بن علي السُّنَسي ، وابنه كامل بن علي ، ومؤدبه أبي عبدالله محمد بن يوسف بن المنيرة الكفرطابي^(١٠) ، ووالده أبي سلامة مُرشد بن علي بن منقذ وأبي عبدالله محمد بن شافع بن الحسين بن العرار سمعهم بشيزر .

وأبي بكر^(١١) محمد بن مخلد بن عبدالله بن مخلد التميمي الإشبيلي سمعه بمصر .
والخطيب يحيى بن سلامة الحصكفي سمعه بميفارقين .
وأبي هاشم محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر سمعه بحماة .
وأبي القاسم عبدالملك بن زيد بن ياسين الدولعي خطيب دمشق سمعه بدمشق و^(١٢) وغيرهم .
وروى بالاجازة عن :

أبي الحسن علي بن أحمد بن قبيس الغساني .
روى عنه الحافظان : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي .
وأبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور السمعاني .
وعماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني الكاتب . وعبدالسلام بن يوسف الدمشقي وأبو البركات محمد بن محمد بن علي - قاضي أسيوط والشريف أبو القاسم عبدالله بن علي بن زهرة الحلبي وولده العضد مرهف^(١٣) بن أسامة بن منقذ وجماعة غيرهم .

روى لنا عنه أبو إسحاق^(١) إبراهيم بن شاكر بن عبدالله بن سليمان وأبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي وأبو محمد عبدالله بن عمر بن علي الحموي والحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة الكولبي وأبو عبدالله محمد بن عبد الكافي بن علي الرُّبَعي وأبو علي الحسن بن محمد بن إسماعيل القيلوي [ق ٢٠٥ ظ] وأبو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن العجمي .

[٢] أخبرنا القاضي بهاء الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي قراءة عليه بدمشق والشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي الدمشقي بها وشمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبد الكافي بن علي الرُّبَعي قاضي حمص بحلب وبدمشق .
وأبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبدالله الكولبي بالقصر الغربي بالقاهرة .
قالوا أخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مُرشد بن علي بن مُنقذ الكِنَاني :
قال أخبرنا الشيخ أبو الحسن علي بن سالم بن الأغربن علي السُّبُسي بغير شيزر سنة تسع وتسعين وأربعمائة قال :
أخبرنا الشيخ أبو صالح محمد بن المهذب بن علي قال :
حدثنا جدي أبو الحسين علي بن المهذب بن أبي حامد قال :
حدثنا أبو حامد بن همام قال :
حدثنا محمد بن سليم القرشي قال :
حدثنا إبراهيم بن هُدبة ،
عن أنس بن مالك قال :
قال رسول الله (ﷺ) :
ألا من بكى على ذنب في الدنيا ، حتى تسيل الدموع على حروجه ، حَرَمَ الله دياره وجهه على جهنم .

[٣] أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي قال :
أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني^(٢) الامام قال :
[ق ٢٠٦ و] أسامة بن مُرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن مُنقذ الشيزري أبو المظفر المعروف بمؤيد الدولة من أهل شيزر - قلعة بالشام من الثغر - :
أمير فاضل ، غزير الفضل ، وافر العقل ، حسن التدبير ، مليح التصانيف ، عارف باللغة والأدب ، مجود في صنعة الشعر ، من بيت الامارة والفروسيّة واللغة ، سكن دمشق ، لقيته بالفوار بظاهر دمشق بحوران ، واجتمعت معه بدمشق عدّة نوب وكان مليح المجالسة ، حسن المحاورة ، كثير المحفوظ ، كان يقول لي : كنت أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر النعمان^(٣) ، علقت عنه من شعره شيئاً وقال لي : دخلت بغداد وقت محاربة دُبَيس بن صدقة^(٤) مع المُسترشد بالله^(٥) .

قال : ونزلت الجانب الغربي عند باب البصرة وما عبرت الى شرقها . سألته - أعني أبا المظفر - عن مولده فقال :
وُلدت في سنة سبع أو ثمان وثمانين وأربعمائة : أنا الشاك .

[٤] أخبرنا زينُ الامناء أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن - فيما أذن لنا في روايته عنه - قال : أخبرنا عمي الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن^(١) قال :
أسامة بن مُرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم أبو المظفر الكنانى الملقب بمؤيد الدولة :

لَهُ يَدُ بِيضَاءُ فِي الْأَدَبِ وَالْكِتَابَةِ وَالشَّعْرِ . ذَكَرَ لِي أَنَّهُ وَلِدَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَقَدِيمَ دِمَشْقَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَتَخَدَّمُ بِهَا [ق ٢٠٦ ظ] السُّلْطَانُ ، وَقُرَّبَ مِنْهُ ، وَكَانَ شُجَاعاً فَارِساً ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مِصْرَ ، فَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الشَّامِ ، وَسَكَنَ حِمَاةً ، وَاجْتَمَعَتْ بِهِ بِدِمَشْقَ وَأَنْشَدَنِي قِصَائِدَ مِنْ شَعْرِهِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ .

[٥] قَرَأْتُ بِخَطِّ مُؤَيِّدِ الدَّوْلَةِ أَسَامَةَ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ بِـ « أَزْهَارُ الْأَنْهَارِ » - وَقَدْ أَجَازَ رَوَايَتَهُ مَعَ غَيْرِهِ لِمَجْمَاعَةِ أَجَازُوا لَنَا ذَلِكَ عَنْهُمْ : الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلْوَانَ - قَالَ :
وَمَا يَخْصُنِي مِنْ غَرَائِبِ اللَّبَنِ أَنِّي حِينَ وَلِدْتُ أَلْتَجِسُ لِي مِنْ يَرْضَعُنِي فَقَدَّرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الرِّزْقَ مِنْ أَمْرَأَةٍ كَبِيرَةٍ قَدْ نَبَتْ عَنْ السَّنَةِ سَنَةً ، لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ صَغِيرٌ ، فَدَرَّتْ عَلَيَّ وَأَرْضَعْتَنِي إِلَى حِينَ فُطِمْتُ ، وَعَاشْتُ بَعْدَ فُطَامِي نَحْوًا مِنْ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةً ، وَكَانَتْ - رَحِمَهَا اللَّهُ - مَتًى عَصُرْتُ ثَدْيَهَا طَارَ مِنْهُ اللَّبَنُ كَأَنَّهَا مُرْضِعَةٌ .

[٦] أَنْبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ :

أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ قَالَ :

قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْمَلْحِيِّ الْأَمِيرِ :

مُؤَيِّدُ الدَّوْلَةِ أَسَامَةُ بْنُ مُرْشَدٍ بْنُ مُنْبَذٍ : شَاعِرُ أَهْلِ الدَّهْرِ ، مَالِكُ عِنَانِ النِّظَمِ وَالنَّثْرِ ، مُتَصَرِّفٌ فِي مَعَانِيهِ ، لَا حَقَّ بِطَبَقَةِ أَبِيهِ لَيْسَ يُسْتَقْصَى وَصْفُهُ بِمَعَانٍ ، وَلَا يَبْعَثُ عَنْ شَرْحِهَا بِلِسَانٍ ، فَقِصَائِدُهُ الطُّوَالُ لَا يَفْرَقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ شِعْرِ ابْنِ الْوَلِيدِ وَلَا يَنْكُرُ عَلَى مُنْشَدِهَا نَسْبَتَهَا إِلَى لَيْدٍ ، وَهِيَ عَلَى طَرَفٍ لِسَانِهِ بِحَسَنِ بَيَانِهِ ، غَيْرُ مُحْتَفِلٍ فِي طُولِهَا ، وَلَا يَتَعَثَّرُ لَفْظُهُ الْعَالِي فِي شَيْءٍ مِنْ قِصُولِهَا [ق ٢٠٧ و] وَالْمُقْطَعَاتُ فَاحِلٌ مِنَ الشَّهْدِ وَالذُّمِّ مِنَ النَّوْمِ بَعْدَ طَوْلِ الشَّهْدِ . فِي كُلِّ مَعْنَى غَرِيبٍ وَشَرْحٍ عَجِيبٍ .

قُلْتُ : وَلَمْ يَذْكُرِ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ فِي تَارِيخِهِ أَحَدًا مِنْ تَأَخَّرَتْ وَفَاتَهُ عَنْ وَفَاتِهِ غَيْرَ أَرْبَعَةٍ أَوْ خَمْسَةٍ : أَبُو الْمَظْفَرِ أَسَامَةُ بْنُ مُنْبَذٍ : هَذَا أَحَدُهُمْ وَذَلِكَ لَجَلَالَتِهِ عِنْدَهُ وَعُلُوُّ مَنْزِلَتِهِ .

[٧] أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أَبِي الْحَجَّاجِ الْمِصْرِيِّ قَالَ :

أَخْبَرَنَا عِمَادُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ خَامِدٍ الْكَاتِبُ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ « خَرِيدَةِ الْقَصْرِ وَجَرِيدَةِ الْعَصْرِ » تَأْلِيفُهُ قَالَ :

أَسَامَةُ كَانَتْهُ ، فِي قُوَّةِ نَثَرِهِ وَنَظْمِهِ ، يُلَوِّحُ مِنْ كَلَامِهِ أَمَارَةً الْإِمَارَةِ ، وَيُؤَسِّسُ بَيْتَ قَرِيضِهِ عِمَارَةَ الْجِبَارَةِ ، تُشِيرُ لَهُ عِلْمُ الْجِلْمِ وَرَقِي سُلْمُ السَّلْمِ ، وَلِزِمَ طَرِيقَ السَّلَامَةِ ، وَتَنَكَّبَ سُبُلَ الْمَلَالَةِ^(٢) وَالْمَلَامَةِ ، وَاشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ ، وَتَحَاوَرَةَ أَبْنَاءَ جَنْسِهِ ، حُلُوَ الْمَجَالِسَةِ ، حَالِي الْمَسَاجِلَةِ ، نَدِيَّ النَّبِيِّ بِمَاءِ الْفُكَاهَةِ ، عَالِي النِّجْمِ فِي سَمَاءِ النَّبَاهَةِ ، مُعْتَدِلُ التَّصَارِيفِ ،

مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق الغوطة ، دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما ينبو^(١) الدار بالكريم ، فانتقل إلى مصر فبقي بها مؤمراً مشاراً إليه بالتعظيم ، إلى أيام ابن رزّيك^(٢) فعاد إلى الشام ، وسكن دمشق تَخْصُوصاً بالاحترام ، حتى أخذت شيزر من أهله ، ورشقهم صرّف الزمان بنبله ، ورماء الحدثان إلى « حصن كَيْفَا »^(٣) مقيماً بها في ولده ، مؤثراً بلدها على [ق ٢٠٧ ظ] بلده ، حتى أعاد الله سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة سبعين^(٤) . ولم يزل مشغولاً بذكره ، مُسْتَقَرّاً بإشاعة نظيمه ونثره ، والأمير العضد مُرْهَف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه ، ونديمه وأنيسه ، فاستدعاه إلى دمشق ، وهو شيخ قد جاوز الثمانين وكنت قد طالعت « مُذَيِّل »^(٥) السمعاني فوجدته قد وصفه وقرّظه ، وأنشدني العامري^(٦) له بأصبهان^(٧) من شعره ما حفظه ، وكنت أتمنى أبداً لقياءه ، وأشيمُ على البُعْدِ حَيَّاه^(٨) ، وسألته عن مولده ، فقال : يوم الأحد سابع عشرين^(٩) جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

[٨] وقرأت في كتاب « أنموذج الأعيان »^(١٠) لعبد السلام بن يوسف الدمشقي بخطه قال :
الأمير الأوحّد العالم مجد الدين مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مُرْشِد بن عبي بن مقلّد بن نصر بن منقذ الشيزري الكنازي :

مُبَرِّز في علم الأدب ، غَرِيقٌ في النُسب ، من بيت التّقدم والامارة والسيادة ، في البداوة والحضارة ، مع غُفْلٍ كاملٍ وافرٍ ورأيٍ ، وجهُ العواقب عنده سافر ، لم يزل موصوفاً بالاقدام والشجاعة ، معروفاً باللسان والبراعة ، لقيته بدمشق في شهر جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وأخبرني أنّ مولده في ثالث عشر من جمادى الآخرة يوم الأحد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وأنشدني من نظمه ما يضاهاى نظام [ق ٢٠٨ و] اللّالي ، ويكون قلادة في جيد الأيام والليالي .

قلت^(١١) كان في الأصل بخط عبد السلام بن يوسف : سابع عشر من جمادى ، فضرب بخطه على سابع وكتب فوقه : ثالث .

والذي يظهر لي أنّ المضروب عليه هو الصحيح .
وقرأت في كتاب الاعتبار^(١٢) تأليف أسامة بن مُرْشِد :
وُلِدْتُ أنا وهو - يعني ابن عمه سنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد في يوم واحد :
يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

[٩] أخبرني أبو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن عبد الرحمن الحلبي قال :
سمعتُ أسامة بن مُرْشِد بن مُنْقِذ - مؤيد الدولة - يحكي لنا بدمشق أن سبب إخراج عمه إياه من شيزر أنه قتل أسداً ضارياً بناحية شيزر فأخرجه عمه - يعني أبا العساكر سلطان بن علي منها خوفاً على نفسه منه .
وقال لنا :

جاء الخبر إلى عمي بأن في بعض نواحي شيزر أسداً ضارياً قد أذى الناس في طريقهم ، فتقدّم عمي إلى غسكهم كلهم ، أن يركبوا بكرة الغد من ذلك اليوم الذي تقدّم إليهم فيه ، للتأهب للقاء الأسد وقتله قال :
فاستدعيت غلامي ، وأمرته بأسراج ذابتي ، وأخذ رعي معه ، وركبت أنا والغلام في اليوم الذي أمر عني

بالتأهب له ، وخرجت وغلّامي معي حتى أتيت الموضع الذي فيه الأسد ، فخرج الأسد وحمل عليّ ، فقابلته وصرعته ، ونزلت إليه فقطعت رأسه ، وناولته الغلام ، وأمرته بتسميته^(١) معه على الدابة التي تحته ، ودخلت شيزر بيتها ، فلما أصبح الصباح ، ركب عمي وعسكره وخرجوا يطلبون الأسد ، فوجدوا جثته مطروحة بلا رأس ، فعجبوا من ذلك ، وأنا ساكت لا أتكلّم . قال : وتحدثت غلامي مع الغلمان بذلك ، فشاغ بينهم ، حتى علم عمي به ، فرجع ودخل شيزر ، وصعدنا على العادة إلى قلعتها وبتنا تلك الليلة ، فقام عمي نصف الليل [ق ٢٠٨ ظ] وطلبني ، وأمر من أسرج له مركوباً وأمرني بالركوب وقال : أريد أن تجيء معي ، إلى موضع سمّاه ، خارج شيزر في شغل ، فركبت معه حتى أبعذ بي عن شيزر ، ثم قال لي : يا ابن أخي شيزر : لك . فهبها لي ! فوالله ما بقيت أقدر على مُساكتك ، ولم يأخذني في هذه الليلة نوم ، من شدّة فكري فيك ، إذا كان فعلك مع الأسد هذا الفعل غايش^(٢) يكون معي لو سولت لك نفسك أن تفبك بي ؟ ومنذ رجعت إلى القلعة ليس لي فكر إلا فيك ، ولم يأخذني نوم في ليلتي هذه ، ولا قرار إلى أن بادرت إلى إخراجك فما أقدر وأنت على هذه الصفة .

فقال : فامثلت أمره ، وودعني ، وعاد إلى شيزر .

قال : فخرجت منها ، وأقيمت في مكان ، سمّاه لنا شدّ عني اسمه .

قلت وإلى هذا أشار أسامة في قوله وقد أسنّ وأرعشت يده وكتب خطأ مضطرب الحروف :

فَاعْجَبَ لَضَعْفِ يَدٍ عَنْ حَمْلِهَا قَلْبًا
مِنْ بَعْدِ خَطْمِ الْقَنَا فِي لَبَةِ الْأَسَدِ^(٣)

[١٠] أنشدنا إفتخار الدين أبو هاشم عبدالمطلب بن الفضل بن عبدالمطلب الهاشمي قال :

أنشدنا تاج الإسلام أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور السمعاني :

ثم :

أنشدني تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر أحمد بن علي العتكي بدمشق قال :

أنشدنا أسامة بن مُرشد بن مُنقذ الشيزري لنفسه :

يادهر مالك لا يصدك عن مساءتي العتاب^(٤)

[ق ٢٠٩ و] أمرضت من أموى ويا

ب أن أمرضه الحجاب

لر كنت تُنصف كانت الأمرا

ض لي وله الثواب

قال العماد أبو عبدالله محمد بن حامد الكاتب الأصبهاني ، وقد أورد لأسامة هذه الأبيات في « خريدة القصر » :

قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر ، مُخترع بديه^(٥) ومُبتدع فكر ، إلا أن هذه الأبيات لطيفة المعنى^(٦) ، ظريفة

المغزى^(٧) ، مقصدها سهيل وموردها سهل ، لو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها عقل ، ولا شك أن حبيته عند

استنشاق هوائها ، فاز براء مُهَجَبته وشيفائها .

[١١] أنشدنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي قال :
 أنشدني أبو المظفر أسامة بن مرثد بن علي بن مقلد بن مُنْقِذ الكِنَانِ لنفسه :
 إذا الضَّبُّ أَشْفَى مِنْ جَوَاهِ عَلَى شَفَا
 أن البأسُ تَمَّا يَسْرُجِي بِشَفَائِهِ
 وقد زادني بَأْسٌ سَقَاماً فَكَيْفَ
 بِالشِّفَاءِ لَضَبٍ دَاوَهُ فِي دَوَائِهِ

[١٢] أنشدني أبو علي حسن بن محمد بن إسماعيل النيلي قال :
 أنشدنا مؤيد الدولة أسامة بن مرثد بن مُنْقِذ لنفسه في كتاب الغضا :

حَسَائِي الدَّهْرُ وَأَبْلَسُ	خِي اللَّيَالِي وَالْفَيَرُ
فَصِرْتُ كَالْفُرْسِ وَمِنْ	غَضَائِي لِلْفُرْسِ وَتُرُ
أَهْدَجَ فِي نَشْيٍ وَفِي	خَطْبِي فُتُورٌ وَقِصْرُ
[ق ٢٠٩ ظ] كَأَنِّي مُقْبِلٌ	وَأَمَّا الْقَبِيلُ الْكَبِيرُ
وَالْعَمْرُ مِثْلُ الْكَاسِ فِي	آخِرِهِ يَبْقَى الْكَذْرُ

[١٣] أنشدنا محمد بن أحمد بن علي بدمشق قال :
 أنشدني أبو المظفر أسامة بن مرثد بن مُنْقِذ لنفسه في ضرس قلعه :

وَصَاحِبِ صَاحِبِي فِي الصَّبَا	حَتَّى تَرُدِّيْتُ رِدَاءَ الْمَشِيبِ
لَمْ يَسْبُدْ لِي سَتِينَ حَوْلًا وَلَا	بَلَوْتُ مِنْ أَخْلَاقِهِ مَا يَرِيبُ
أَفْسَدَهُ الدَّهْرُ وَمِنْ ذَا الَّذِي	يَحَافِظُ الْعَهْدَ بِظَهْرِ الْمَغِيبِ
ثُمَّ افْتَرَقْنَا لَمْ أَصِبْ بِثُلَّةٍ	عُمَرِي ، وَمِثْلِي أَبَدًا لَا يُصِيبُ
فَاعْجَبْ لَهَا مِنْ فَرْفَةٍ بَاعَدَتْ	بَيْنَ الْيَفِينِ وَكُلِّ خَبِيبِ

[١٤] أنشدني الحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبدالله الكولي بالقاهرة قال :
 أنشدنا مؤيد الدولة أسامة بن مرثد بن مُنْقِذ لنفسه بدمشق ، في سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة ، في ضرس قلعه :

وَصَاحِبِ صَاحِبَتِهِ	سَتِينَ حَوْلًا مَا رَأَيْتُهُ
حَتَّى إِذَا عَايَنْتُهُ	غَابَتْ مِنْهُ مَا أَبَيْتُهُ
وَالْبَحْرُ فِيهِ رَاحَةٌ	مِنْ كُلِّ مَصْحُوبٍ قَلْبَتُهُ

وأنشدنا الحكيم أبو القاسم المذكور قال أنشدنا مؤيد الدولة أسامة بن مُنْبَذ لنفسه في مثله :
[ق ٢١٠ و]

وضاحب لأتملُّ... الذَّهرُ صُحْبَتَهُ يشقى لنفسي ، ويسقى سعي مُجْتَهِدِ
لم ألقه مُدَّ تصاحبنا فحين بدا لنساظرني افتراقنا فُرْقَةً الأبدِ
قال العماد الكاتب - وأوردهما في الخريدة - ٢١ :

لو أنصفت فهمك إن كنت مُنتقدا ، فرقيت عن مرقب وهمك مُجْتَهداً ، وغضت بنظر فكرك في بحار معانيه ،
لغبت من فرائد دُرره ولالبه ، ولعلست أن الشعر إذا لم يكن هكذا قلغو ، وأنه إذا لم يبلغ هذا الحد من الجِدِّ فهُجَرُ وخو
ومن الذي أتى في وصف السنِّ المقلوع ، بمثل هذا الفنِّ المطبوع ، فهل سبقه أحدٌ إلى معناه ، وهل في هذا النُّسْط
ساواه ؟

[١٥] أنشدنا أبو هاشم عبدالمطلب بن الفضل الحلبي قال :

أنشدنا أبو سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني .
وأنشدنا محمد بن أحمد بن علي العتكي قال :

أنشدنا أبو المظفر أسامة بن مُرْشِد بن علي البكناني لنفسه :

لم يبقَ لي من هواكم أربُ سلوْتُكم ، والقلوبُ تنقلبُ
أوضحتم لي سُبُلَ السُّلو وقد كانت لي الطُّرق عنه تنشعبُ
إلام دمي من هجركم شربُ فإن ، وقلبي من غدركم يجبُ
إن كان هذا لأن تعبدني الحد ب قد اعتقتني الرِّيبُ
أحييتكم فوق ما ترقمه النِّا من وخُتتم أضعاف ما خسبوا

أورد أبو عبدالله محمد بن محمد الكاتب هذه الأبيات في الخريدة ٢١ وقال :

[ق ٢١٠ ظ] :

تأمل معاني هذه الأبيات ، بعين التأني والثبات ، تعرف أن قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الأبية ، وإخس
الغلية ، وكل من يملكه اخوى ويسترقه ، قلما يطلِّقه السُّلو ويعتقه ، إلا أن يكون كبيراً غلب عقله هواه ، واستهجن في
الشهوات المذمومة نيل مناه .

وقوله : « قد اعتقتني الرِّيب » في غاية الجودة ونهاية الكمال ، أعذب من الزلال ، وأطيب من [السحر]
الحلال ، وألعب بقلوب المتيمين من نسيم الشمال .

[١٦] أنشدنا شيخُ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبدالله بن عمر بن حمويه قال :

أنشدنا مؤيد الدولة أبو الظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ لنفسه :
 أنا نأج فرسان أهياج ، ومن بهم
 ثبثت أواخي ملك كل متخرج
 قوم إذا لبسوا الحديد عجبت من
 بحر يدافع في لظى متوقع

[١٧] أنشدنا أبو الحسن بن أبي جعفر قال :

أنشدنا أبو المظفر أسامة بن مرشد لنفسه - وقاها على لسان الشيخ أبي صالح بن المهذب - رحمه الله - وكانت فيه
 جذة مع فضل وعلم وتقى . وكان نزل بشير فريق من الغرب معهم جارية اسمها « شوق » مستحسنة . وكتب
 الأبيات ورمى بها نسخاً بشير فوق منها بيد الشيخ أبي صالح - رحمه الله - فقامت قيامته ، ولم يدبر أحد من عمل
 الأبيات ، فقال له الشيخ العالم أبو عبدالله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة - رحمه الله - وهو مؤدبه - هذه الأبيات التي
 [ق ٢١١ و] قد ربيت ما يحسن يقوها :

إلا أنا أو القاضي أبو مرشد بن سليمان أو أنت ، وأنا وأبو مرشد ما قلناها ! وما فاها غيرك ، وهي :

فولا لريم في حلة العرب :
 بما استجارت عيناك سفك دمي
 إليك أشكو ما يصنع اسمك بي
 لولاك ، والدهر كله عجب
 وأخذ قلبي من جملة السلب
 جارك أولى برعي ذمته
 هذا هوئ ، كنت في بلهنية
 ما خفرت في ذمة العرب
 أبترق الكريم ذا النسب الوا
 إن انت راعيت حرمة الصقب
 ويحمل الثار من به نخور
 عنه ، فيا للرجال للعجب
 نشدتك الله في احتمال دمي
 ضح غبد مستعجم النسب
 مافات قومي آل المهلب من
 عن احتمال الخجال والقالب
 فلا تريق دماً لدى أذب
 فمعشري ما يفونهم طلبي
 قبلي ثار في سالف الحقب
 يسطو بإفلامه على القائب

قلت : هذا أبو صالح بن المهذب ليس هو : أبو صالح الكبير محمد بن المهذب بن علي بن المهذب ، فإن أسامة لم
 يدرك زمنه ، لأنه توفي سنة خمس وستين وأربعمائة وهذا غيره . ذكرنا ذلك لئلا يلتبس به .

[١٨] أنشدنا أبو محمد عبدالله بن عمر بن حمويه قال :

أنشدنا أسامة بن منقذ لنفسه :
 أساكن قلبي ، والمهامة بيننا
 وإنسان عيني ، والمزار بعبد
 [ق ٢١١ ظ]
 تمثلك الأشواق لي كل ليلة
 فهمي جديد ، والفراق جديد

[١٩] أنشدنا محمد بن أبي جعفر بن علي قال :

أنشدنا أسامة لنفسه :
 أبي لي أن أبالي بالرزايا
 فؤاد لا يرؤغ بالخروب

وَنَفْسٌ لَا تَبْتَ لِمُسْتَفَادٍ وَلَا تَأْسَى عَلَى وَفَرٍ سَنِيبٍ
وَعَلِمِي أَنَّ مَا أَهْوَى وَأَخْشَى يَزُولُ بِغَيْرِ شَكٍّ عَنْ قَرِيبٍ

[٢٠] أنشدنا الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي قال :

أنشدنا أسامة بن مرشد بن علي في كتابه لنفسه :

يَا رَبِّ إِنَّ إِسَاءَتِي قَدْ سَوَّدَتْ بِيَدَ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ ضَحَائِفِي
وَالْخَوْفُ مِنْكَ وَمِنْ عِقَابِكَ مُتَلَقِي فَارْحَمْ مَخَافَةَ ذِي الْقُوَادِرِ الرَّاجِفِ
مَنْ خَافَ شَيْئاً فَرَّ هَارِباً وَإِلَيْكَ مِنْكَ مَفَرٌ عَبْدٌ خَائِفٌ

[٢١] أنشدنا محمد بن أحمد بن علي القرطبي قال :

أنشدنا أسامة بن مرشد لنفسه وكتبها على كتاب نسخته :

يَا رَبِّ حُسْنُ رَجَائِي فِيكَ خَسَنٌ لِي تَضْبِغُ وَقْتِي فِي لُغْوٍ وَفِي لُغْبٍ
وَأَنْتَ قُلْتَ لِمَنْ أَضْحَى عَلَى بَقِيَّةٍ بِحَسَنِ عَفْوِكَ : إِنِّي عِنْدَ ظَنِّكَ بِي

[٢٢] قال لي أبو علي حسن بن محمد بن إسماعيل التيلوي :

توفي أسامة بن مرشد بن منبج بدمشق في سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

قال : وفيها دخلت دمشق .

[٢٣] أنبأنا الحافظ أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري قال :

في ذكر من توفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة في كتاب « التكملة لوفيات النقلة » : وفي ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان توفي الأمير الأجل مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن أبي سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منبج الكِنَانِي الكَلْبِي الشَّيْزَرِي بدمشق ، ودُفِنَ مِنَ الْغَدِ بِجَبَلِ قَاسِيُونَ .

وكان مولده بشيْزَر في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة - وقيل في شهر رمضان منها - وحدث عن أبي الحسن علي بن سالم السَّيْسِي وغيره .

سمع منه الحفاظ :

أبو سعد عبد الكريم بن محمد السَّعْمَانِي ،

وأبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي ،

وأبو المواهب الحسن بن هبة الله بن ضُضْرِي ،

وأبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد ،

وحدثنا عنه :

ولده الأمير الأجل أبو الفوارس مُرْهَفٌ وغيره .

وهو من بيت الإمارة والشجاعة ، وله اليد البيضاء في اللغة ، والكتابة والشعر ، وله مصنفات مشهورة ، وكان

مشهوراً بالشجاعة والاقدام ، ودخل بغداد والموصل ودمشق ومصر .

[هوامش المقدمة]

- ١١ - هذا الاسم وما بعده أنشأه المؤلف بخطه في هامش الأصل .
- ١٢ - اسم غير واضح في الأصل .
- ١٣ - أبو الفوارس مَرْهَف بن أَسامة (٥٢٠ - ٦١٣ هـ) عالم ، أديب ، شاعر ، من آثاره : شرح ديوان المتنبي - مخطوط - انظر ترجمته في : الخريدة (الشام) : ٥٧١/١ - ٥٧٢ ، ياقوت ٢٤٣/١ ، التكملة للمنزري ٣٦٠/٢ - ٣٦١ (رقم ١٤٥١) ، ذيل الروضتين لأبي شامة ٩٣ - ٩٥٤ .
- واسم مَرْهَف ورد في هامش الأصل بخط المؤلف .
- ١٤ - سبرد ذكر نسبة في الفقرة اللاحقة .

١ - انظر ترجمة ابن العديم في :

معجم الأدباء ١٦ / ٥ (رقاعي) ، تالي كتاب وفيات الأعيان ٩٥ ، البير ٢٦١/٥ ، عيون التواريخ ٢٧٥/٢٠ ، فسوات الوفيات ١٢٦/٣ ، النجوم الزاهرة ٢٠٨/٧ ، الوافي بالوفيات ٤٢١/٢٢ ، شذرات الذهب ٣٠٣/٥ ، الاعلام ٤٠/٥ ومقدمة الزبدة ج ١ .

[هوامش النص]

[٢] لم أفر بالحديث في الكتب الحديثة المعتمدة .

١ - في : الوافي (١٩/٦) : عيادته .

[٣]

- ١ - أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي ، السمعاني (٥٠٦ - ٥٦٢ هـ) : مزيخ رحالة ، من حفاظ الحديث ، مولده ووفاته بمرور . من آثاره المطبوعة : الانساب ، أدب الاسلاء والاستملاء ، التحرير في المعجم الكبير .
- ترجمته : النجوم الزاهرة ٥٦٣/٥ ، تذكرة الحفاظ ١٠٧/٤ ، الاعلام ٥٥/٤ .
- ٢ - دُبَيْس بن صُدْقَة بن منصور الاسدي : صاحب الحلة الزيدية . كان جواداً كريماً ، عنده معرفة بالأدب والشعر . توفي سنة ٥٢٩ هـ .
- انظر ترجمته في الكامل (حوادث ٥٢٩ هـ) ، الوافي ١٣ / ٥٠٧ - ٥١٠ (رقم ٦٠٤) .
- ٣ - انظر الكتب التاريخية : حوادث ٥٢٩ هـ .

[٤] ابن عساكر ٢ / ق ٣٥١ .

- ١ - هو علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي المعروف بابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) ، صاحب التاريخ المشهور ، الحافظ ، الرحالة ، محدث الديار الدمشقية . ترجمته : ابن الاثير : حوادث ٥٧١ هـ ، البداية والنهاية ١٢ / ٢٩٤ ، الاعلام ٢٧٣/٤ - ٢٧٤ .

[٥] أزهار الأنهار من الآثار المفقودة اليوم . قال المقرئ في : فيه صفة الجنة ومنافع اللبن ومضاره (المقفى ق ١٧٢) .

[٦] ابن عساكر ٢ / ق ٣٥٢ .

[٧] الخريدة (الشام) ١ / ٤٩٨ - ٤٩٩ .

١ - الكلمة غير موجودة في الخريدة .

٢ - الخريدة : تنبو .

٣ - هو طلائع بن رزيك ، الملقب بالملك الصالح (٤٩٥ - ٥٥٦ هـ) :

[١] انظر ترجمة أسامة في : ابن عساكر (مخطوطة الظاهرية)

٢/ق ٣٥٢ - ٣٥٤ ، تهذيب ابن عساكر ٢/٤٠٠ ، الخريدة (الشام)

١/٤٩٨ - ٥٤٧ ، ياقوت - ارشاد (مرجليوث) ٢/١٧٣ - ١٩٧ ، ابن

خلكان ١/١٩٥ (رقم ٨٤) ، التكملة للمنزري ١/١٩٥ (رقم ٥١) -

وفي هامشه مصادر أخرى ، العبر ٤/٢٥٢ ، تاريخ الاسلام للذهبي

(مجلة المجمع العلمي الهندسي ٨/٣٧٨ - ٣٨٢ (رقم ٣٨١٨) ،

الشذرات لابن العماد ٤/٢٧٩ - ٢٨٠ ، النجوم الزاهرة ٦/٢١٧ ،

المقفى الكبير للمقرئ في (مخطوطة السليمانية ١٧٠ - ١٧٢) [ترقيمتها

مضطرب] طبقات اعلام الشيعة ٦/١٨) .

الاعلام ١/٢٩١ . وانظر أيضاً ، أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية

للاستاذ جمال الدين الألوسي (بغداد - ١٩٦٧) ، أسامة بن منقذ :

حياته وآثاره للأستاذ حسن عباس محمد (الاسكندرية - ١٩٧٨) ،

أسامة بن منقذ للسيدة قمر كيلاني (دمشق - ١٩٨٢) .

١ - قارن بالخريدة . وقد أوصل العماد نسبة إلى سيدنا آدم .

٢ - في المصادر الأخرى : سوار .

٣ - في بعض المصادر : رغب - بالراء .

٤ - في المصادر الأخرى : عمران .

٥ - ويلقب : مجد الدين أيضاً - ياقوت ٢ / ١٧٤ .

٦ - شيزر : كورة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم . ياقوت

[شيزر] لا ماتزال آثارها شاخصة حتى اليوم .

٧ - سلطان بن علي بن مقلد (٤٦٤ - ٥٥٢ هـ) ولي شيزر بعد أخيه

عز الدولة نصر . وكان شجاعاً ذا سياسة ورئاسة وحزم . له شعر . ابن

الاثير حوادث ٥٥٢ هـ والوافي ١٥/٢٩٨ رقم (٤١٦) .

٨ - سبرد التفصيل في الفقرة التاسعة .

٩ - انفراد المقرئ في يذكر آثار له لم تذكر في المصادر الأخرى .

١٠ - محمد بن يوسف بن عمر الكفرطاي (٤٥٣ هـ) نحوي ، وأديب ترجمته

في : الخريدة (الشام) ١/٥٧٣ - ٥٧٤ ، ياقوت ٧/١٤٤ .

- أصله من العراق ، قدم مصر فقيراً ، فترقى ، وكان شجاعاً حازماً . له ديوان طبع في النجف . ترجمته : الخريدة (مصر) ١٧٣/١ ، شذرات الذهب ١٧٧/٤ ، الاعلام ٢٢٨/٣ .
- ١ - بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر . (ياقوت) .
 - ٥ - انظر الكتب التاريخية (حوادث ٥٧٠ هـ) وما بعدها في أخبار صلاح الدين الأيوبي .
 - ٦ - ذيل السمعاني على تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، والذي مفقود وقد وصل إلينا مختصره الذي صنعه ابن منظور صاحب لسان العرب ، .
 - ٧ - هو أبو فراس علي بن محمد بن غالب الصامري ، المعروف بمجد العرب ، شاعر جال ما بين العراق والشام ومدح الملوك ، وتوفي بالموصل سنة ٥٧٣ هـ .
 - ترجمته : الشذرات ٤٢١/٥ ، قوات الوفيات ٨٧/٣ (رقم ٣٥٧) ، الوافي ١٠٩/٢٢ .
 - ٨ - الخريدة : أصفهان .
 - ٩ - الخريدة : حتى لقبته في صفر سنة إحدى وسبعين بمشرق .
 - ١٠ - هكذا في الأصل : والياء والنون ليسا واضحين وسحق المؤلف هذا التاريخ بعد قليل .

[٨]

- ١ - سماء السخاوي : أنموذج الأعيان والشعراء من أدرك بالسمع أو بالبيان (الإعلان بالتوبيخ : ٥٦٨ . والكتاب مفقود الآن) .
- ٢ - من هنا إلى نهاية الخبر وضمت في الهامش بخط المؤلف أيضاً .
- ٣ - الاعتبار نشره حتى : ١٥٩ .

[٩]

- ١ - أي مذ الجنة على ظهر الدابة .
- ٢ - [يش : عامية ، تعني : أي شيء] .
- ٣ - البيت لأسامة في :
العصا : ٤٠٦ ، الاعتبار ، الخريدة ١ / ٥٢٩ ، ابن خلكان ١٩٧/١ ، تاريخ الاسلام : ٢٢٧ . ورواية العماد : من حملها .

[١٠] الديوان : ٥٥ ، الوافي ٨ / ٣٧٩ .

- ١ - رواية الديوان : إسائي .
- ٢ - الخريدة ١ / ٥٠٢ - ٥٠٣ .
- ٣ - الخريدة : لديه ، خطأ .
- ٤ - الخريدة : لطيفة المغزى .
- ٥ - الخريدة : طريقة المغزى .
- [١١] أدخل بها الديوان .

[١٢] العصا : ٤٤٢ - ٤٤٣ .

- ١ - المقطوعة موجودة أيضاً في : الخريدة ١ / ٥٢٧ - ٥٢٨ ، وأدخل بها ديوانه . ورواية العصا : وأفتني .
- ٢ - الهدج : المشي في ارتعاش .
- ٣ - رواية العصا : مثل الماء .

[١٣] الخريدة ١ / ٥٠٠ ، تاريخ الاسلام : ٢٢٤ - ٢٢٥ .

[١٤] أدخل بها الديوان .

- ١ - لأسامة في : ابن عساكر ٢ / ٣٥٣ ، ابن خلكان ١ / ١٩٨ - ١٩٩ ، الخريدة (الشام) ١ / ٤٩٩ - ٥٠٠ ، الديوان : ١٥٣ ، وأنفروضين ٢٦٤/١ ، وذكر أبو شامة أنه وجد هذين البيتين مع آخرين في ديوان ابن منبر الطرابلسي وعنه في (شعر ابن منبر الطرابلسي - جمع وتحقيق الدكتور سعود محمود عبد الجابر - الكويت - ١٩٨٢ : ٧٨ - رقم ٢٩ باختلاف في الرواية) .
- ٢ - رواية الديوان والطرابلسي : لا أمل .
- ٣ - الخريدة (الشام) ١ / ٥٠٠ .
- ٤ - الخريدة : سواء .

[١٥] الخريدة (الشام) ١ / ٥٠١ - ٥٠٢ ، الديوان : ١٠٩ - ١١٠ .

- ١ - الخريدة ١ / ٥٠٢ .
- ٢ - إضافة من الخريدة .

[١٦] الديوان : ٢٠٩ وفيه : كبه على طوق خونة .

- [١٧] الديوان : ١٥٦ [فيه تقديم وتأخير] .
- [١٨] الديوان : ١١٨ [فيه : كتب إلى أخيه عز الدولة] .
- [١٩] أدخل بها الديوان .
- [٢٠] أدخل بها الديوان .
- [٢١] الديوان : ٢٧٦ .
- ١ - رواية الديوان : هو .

[٢٣] التكملة (ط ٢) ١ / ٩٥ - ٩٦ رقم الترجمة ٥١ .

- ١ - هو الحافظ زكي الدين عبدالمعظم بن عبدالقوي بن عبد الله (٥٨١ - ٦٥٦ هـ) سمع من البيهقي واليميني وغيرهم ، روى عنه الدماطي واليوثيني وابن عساكر ، ولي مشيخة دار الحديث الكاملية . ترجمته في : طبقات السبكي ٥ / ١٠٨ ، البداية والنهاية ١٣ / ٢١٢ ، الشذرات ٥ / ٢٧٧ ، الاسنوي ٢ / ٣٣٢ .
- وللدكتور بشار عواد معروف دراسة قيمة عنه ، عنوانها : المنذري وكتابه التكملة لوفيات النقلة (النجف - ١٩٦٨) .

المصادر والمراجع

- ١ - الاعتبار لاسامة بن منقذ . تحقيق فيليب حتي . برنستون ، ١٩٣٠ .
- ٢ - الاعلام لخبر الدين الزركلي (١ - ٨) . الطبعة الرابعة ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٣ - الاعلان بالنوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي - تحقيق فرانز روزنتال بعناية الدكتور صالح أحمد العلي ، بغداد ، ١٩٦٣ .
- ٤ - البداية والنهاية لابن كثير (١ - ١٤) القاهرة ، ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .
- ٥ - تاريخ الاسلام للذهبي : ترجمة أسامة بن منقذ (فقط) . تحقيق الدكتور مختار الدين أحمد - مجلة المجمع العلمي الهندي ٩ / ١ - ٢ (١٩٨٤) ٢١٧ - ٢٣٢ .
- ٦ - تاريخ ابن العديم (بغية الطلب) مخطوطة أحمد الثالث .
- ٧ - تاريخ ابن عساكر (تاريخ مدينة دمشق) للمحافظ ابن عساكر - مخطوطة الظاهرية .
- ٨ - تالي وفيات الأعيان لابن الصقاعي . تحقيق جاكين سوبله - دمشق ، ١٩٧٤ .
- ٩ - تذكرة الحفاظ للذهبي (١ - ٤) - حيدر آباد الدكن - ٩٥٥ - ١٩٥٨ .
- ١٠ - التكملة لوفيات النقلة للمنذري (١ - ٤) . الطبعة الثانية . بيروت ، ١٩٨١ . تحقيق الدكتور بشار معروف عواد .
- ١١ - تهذيب تاريخ ابن عساكر لعبدالقادر بدران (١ - ٧) ، طبعة مصورة ، بيروت .
- ١٢ - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني (قسم الشام) ج ١ ، تحقيق الدكتور شكري فيصل - دمشق ، ١٩٥٥ .
- ١٣ - ديوان أسامة بن منقذ تحقيق الدكتور أحمد أحد بدوي وحامد عبدالمجيد - القاهرة - ١٩٥٣ .
- ١٤ - الذيل على الروضتين = تراجم رجال القرنين السادس والسابع لأبي شامة ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ١٥ - زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم (١ - ٣) تحقيق الدكتور سامي الدمان ، دمشق ، ١٩٥١ - ١٩٦٨ .
- ١٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (١ - ٨) القاهرة ، ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ .
- ١٧ - شعر ابن منير الطرابلسي - جمع وتحقيق الدكتور سمود محمود عبدالجابر - الكويت ، ١٩٨٢ .
- ١٨ - طبقات اعلام الشيعة (اللغات الميوني في سادس القرون) ، للشيخ اغابزرك الطهراني - تحقيق علي نقي منزوي - بيروت ، ١٩٧٢ .
- ١٩ - طبقات الشافعية للأسوي (١ - ٢) تحقيق الدكتور عبدالله الجبوري - بغداد ، ١٩٧٠ - ١٩٧١ .
- ٢٠ - طبقات الشافعية الكبرى لشيخ الدين السبكي (١ - ١٠) تحقيق الدكتور محمود الطناحي والدكتور عبدالفتاح الحلوي ، القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٧٦ .
- ٢١ - البير في خبر من غير لشمس الدين الذهبي (١ - ٥) تحقيق صلاح الدين المتجد وفؤاد - يد ، الكويت ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .
- ٢٢ - المعصا لاسامة بن منقذ ، تحقيق الاستاذ حسن عباس - الاسكندرية .
- ٢٣ - هيون التواريخ لابن شاعر الكتبي (ج ٢٠) تحقيق الدكتور نبيل السامر ونبيلة داود ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- ٢٤ - فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (١ - ٥) تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٣ - ١٩٧٤ .
- ٢٥ - الكامل في التاريخ لابن الاثير (١ - ٩) - بيروت .
- ٢٦ - معجم الأدباء = إرشاد الأديب لياقوت الحموي (١ - ٢٠) تحقيق أحمد رفاعي ، القاهرة ٣٦ - ١٩٣٨ ، وطبعة مرجليوث الثانية ، القاهرة .
- ٢٧ - معجم البلدان لياقوت الحموي (١ - ٥) ، بيروت ، ١٩٥٥ - ١٩٥٧ .
- ٢٨ - المقفى للمبريزي ، صورة مكتبة السليمية ، استانبول .
- ٢٩ - من سير الثغور للقاضي الطرسوسي . تحقيق الدكتور شاعر مصطفى (مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت ٨ (ديسمبر) ، ١٩٧٥ (٧ - ٥٥) .
- ٣٠ - التجويز الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (١ - ١٦) ، القاهرة ، ١٩٢٩ - ١٩٧٢ .
- ٣١ - الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١ - ٢٢) تحقيق مجموعة من المحققين العرب والمستعربين - فيسبادن - بيروت ، ١٩٣١ - ١٩٨٣ .
- ٣٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان (١ - ٨) . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧٢ .

نَ شَرَّ الْأَسْفَرَانِي وَالْأَجْرِي وَابْنُ نَصْرٍ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدِ الطُّنْبُجِي
 وَالْأَجْرِي أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ النَّشَابُورِيُّ الرَّارِ الْمَعْرُوفُ
 بِابْنِ الْفَنَاءِ بِمُصَرِّ وَالْأَجْرِي أَبُو الطَّيِّبِ الْعَبَّاسُ بْنُ أَحْمَدَ مُحَمَّدِ بْنِ
 اسْمَعِيلَ الْمَعْرُوفِ الشَّافِعِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو اسْمَعِيلَ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 سُلَيْمَانَ بِعَرَفَةَ قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مَعْدٍ قَالَ حَدَّثَنَا شُعَاعُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ حَدَّثَنَا
 جَمِيلُ بْنُ الْكَذِّبِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ شَأْنًا مِنْ دِينِهَا
 بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَقِيهًا عَالِمًا

أَبُو اسْمَعِيلَ الشَّافِعِيُّ

أَبُو اسْمَعِيلَ بْنُ مُرَّةٍ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مَقْلَدٍ بَصْرِيٍّ مِنْفَذٍ مُحَمَّدِ
 بْنِ مِنْفَذٍ بَصْرِيٍّ هَاشِمِ بْنِ سَرَّارٍ بَصْرِيٍّ زَيْدِ بْنِ غَيْبٍ بَصْرِيٍّ كُحُولِ بْنِ
 عَمْرِو بْنِ الْخُرَيْثِ بَصْرِيٍّ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ بَصْرِيٍّ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ بَصْرِيٍّ كَنَانَةَ
 بْنِ كُرَّانَ عُدَّةَ بْنِ زَيْدِ الْإِلَاحَاتِ بَصْرِيٍّ فَيْلَةَ بْنِ ثَوْرٍ بَصْرِيٍّ كَلْبِ بْنِ وَبَرٍ بَصْرِيٍّ
 ثَعْلَبِ بْنِ جُلُؤَانَ بَصْرِيٍّ عَمْرِو بْنِ الْحَافِ بَصْرِيٍّ قُضَاعَةَ بْنِ مَالِكٍ بَصْرِيٍّ جَمِيلِ بْنِ مَرْثَدٍ بَصْرِيٍّ
 بَصْرِيٍّ زَيْدِ بْنِ مَالِكٍ بَصْرِيٍّ جَمِيلِ بْنِ سَبَّاحٍ بَصْرِيٍّ شَيْبِ بْنِ يَحْيَى بَصْرِيٍّ قُطَيْبِ بْنِ عَابَرٍ
 بَصْرِيٍّ رَجِيَّ بْنِ شَامٍ بَصْرِيٍّ يُوْحَ ابْنِ الْمُطَمَّرِ بَصْرِيٍّ سَلَامَةَ بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ
 بَصْرِيٍّ الْمَوْجِ الْكِنَانِيُّ الشَّيْبَرِيُّ الْمَقْبِيُّ مَوْلَى الدَّوْلَةِ وَارِثُ شَرِّ
 وَنَشَأَ بِهَا وَاحْرَجَهُ عَنْهُ أَبُو الْحَسَنِ كَرِهُطَانُ بْنُ عَلِيٍّ حَوْفَانُ

بغية الطلب في أخبار حلب - مخطوطة أحد الثالث - استنبول ، ترجمة
 لسامة بن منقذ بخط ابن العديم .

النُّفَرِي وكتاب (المواقف)

بقلم

ذاكر زكي علي المصطفى

محافظة تينوي / الجمهورية العراقية

المصوف من الفريسيين ، فافهم آريزي للكتاب يعني انه ليس
ثمة مجال للتحقيق بعد في هذا الموضوع^(١) .

وانني في هذا المقال الذي أردت أن أخصه من دراسة
طويلة لكتاب « المواقف » ظهرت لدي كثير من التساؤلات
والاشارات حول الكتاب ومؤلفه بالذات ونسبة الكتاب اليه ،
مضيفاً الى تحقيق آريزي أشياء ، بل منقحاً لعمله الذي لم يأت
مستوفياً كافة الجوانب التاريخية بالنسبة للمؤلف والابداعية
بالنسبة للكتاب .

وفي البدء اريد أن ادرّف بالمؤلف متخذاً السلسل الزمني
لمن حرّف به او ترجم له أو أشار اليه وإلى كتابه ، وفي ثنايا تلك
النقول تظهر لنا يوضح شخصية المؤلف (المبهمة) واسمه
والفترة التي عاش فيها وموطنه وعلاقة كتاب « المواقف » به .

دلائل وجود النُّفَرِي في الكتابات

ان اول من اشار الى وجود النُّفَرِي كشخصية حقيقية
ونسب اليه كتاب المواقف هو الشيخ الفقيه عند الصوفية - محيي
الدين بن عربي الفيلسوف المتصوف (٥٦١ - ٦٣٨ هـ) ، فقد
اهتم به ابن عربي في بعض فصول كتبه لاسيما « الفتوحات
المكية » وذكره مقروناً بكتابه المواقف أو مشيراً الى ماورد ضمن

قام المستشرق الانكليزي آرثر يوحنا آريزي عام ١٩٣٥
بنشر كتاب صوفي عميق العبارة بليغ الدلالة والمحتوى ، الا وهو
كتاب « المواقف » ويليه كتاب « المخاطبات » المنسوبان الى
النُّفَرِي - كما اشتهر بهذه النسبة - ، وطبع الكتاب في (لندن -
كمبريدج - القاهرة ١٩٣٥)^(٢) .

هذا المستشرق الذي عمل رئيساً لقسم الدراسات القديمة
بالجامعة المصرية لمدة ستين انتهت عام ١٩٣٥ ، ثم عين أميناً في
المكتبة الهندية للكتب والمخطوطات الشرقية بلندن . اهتمنى اثناء
إقامته بمصر وبإشارة من استاذ المستشرق الكبير نيكلسون الى
كتاب « المواقف » هذا ، فعمل على تحقيقه ونشره لأول مرة بعد
مقابله على سبع نسخ خطية قديمة ترجع أقدمها الى عام ٥٨١
هجري . وقدم للكتاب مقدمة باللغة الانكليزية أبان فيها عن
ترجمة (النُّفَرِي) صاحب المواقف ، كما ترجم المواقف التي
تضمنها الكتاب ايضاً ووضع بعض التعليقات على فقراتها مبيناً
أوجه الشبه بين أقوال هذا الصوفي وأقوال كبار الصوفية الآخرين
كالخلّاج والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغيرهم .

وبالرغم من غموض المواقف وبجهولية مؤلفها ، إلا ان
هذا الكتاب لم يلق عناية الباحثين ولم يثر اهتمام أحد من دارسي

كتابه المذكور ، والذي يظهر لنا جلياً عند تأمل عبارات ابن عربي أنه لم يطلع على معظم الكتاب بل على بعضه ، كما أنه يتحرج من ضم النّفري إلى رجال الله (الصوفية) .

وسأورد هذه الفقرات التي أشار فيها ابن عربي إلى صاحب المواقف ضمن كتابه « الفتوحات المكية » حسب تتابع الفصول :
١ - الموضع الأول : عند قوله : « الباب الحادي والأربعون : في معرفة أهل الليل واختلاف طبقاتهم وتباينهم في مراتبهم وأسرار أقطابهم » .

وفيه : « فلا يزال دأب أهل الليل هكذا مع الله في كل آية يقرؤها في صلاتهم وفي كل ذكر يذكرونه به حتى ينصدع الفجر . قال محمد بن عبد الجبار النّفري ، وكان من أهل الليل ، أوقفني الحق في موقف العلم . . وذكر رضي الله عنه ما قال له الحق في موقفه ذلك ، فكان من جملة ما قال له في ذلك الموقف : يا عبيدي : الليل لي لا للقرآن يتلى ، الليل لي لا للمحمدة والثناء ، يقول الله تعالى : « إنّ لك في النهار سبجاً طويلاً » ، فاجعل الليل لي كما هو لي فإن في الليل نزولي فلا أراك في النهار في معاشك . . » .

ويعمد ابن عربي في هذا الموضع إلى مزج كلامه وتفسيره لبيان الباب الذي يتكلم فيه بكلام صاحب المواقف ويتحدث بعبارات شبيهة بلازم المقام الذي نجهل فيه على سابقه النّفري .

٢ - الموضع الثاني : عند قوله : « فصل بل وصل : في وقت صلاة العصر » ، حيث يتكلم على الآن الفاصل بين الوقتين .

وفيه : « وقد بين ذلك محمد بن عبد الجبار النّفري في كتابه الذي سماه بالمواقف والقول ، وقفت على أكثره ، وهو كتاب شريف يحوي على علوم آداب المقامات يقول في ترجمة الموقف اسم الموقف ، يقول في انتقاله إلى موقف العلم مثلاً وهو من جملة مواقفه في ذلك الكتاب ، فقال : موقف العلم ، ثم قال : أوقفني في موقف العلم ، وقال لي : يا عبيدي لا تأتمر للعلم ولا خلقتك لتدّل على سواي ، ثم قال : قال لي : الليل لي لا للقرآن يتلى ، الليل لي لا للمحمدة والثناء . إلى أن يتهي إلى جميع ما يوقفه الحق عليه فإذا صرف حيثنّ يدخل إلى ذلك

المقام » .

٣ - الموضع الثالث : عند قوله « وصل في فصل : المرض الذي يجوز فيه الفطر » .

وفيه : « وأما من اعتبر المرض بالليل ، وهو الذي ينطلق عليه اسم المرض ، وهو مذهب محمد بن عبد الجبار النّفري صاحب المواقف ، من رجال الله كذا أحسبه » .

٤ - الموضع الرابع : « الباب الرابع والسبعون : في التوبة » .
وفيه : « والواقفية أرباب المواقف مثل محمد بن عبد الجبار النّفري وأبو يزيد البسطامي » .

٥ - الموضع الخامس : عند قوله « الباب التاسع والسبعون ومائتان : في معرفة منزل الاعتبار وأسراره من المقام المحمدي » .

وفيه : « فصل : وأعلم أنه ما من منزل من المنازل ولا منازل من المنازل ولا مقام من المقامات ولا حال من الأحوال إلا وبينها برزخ يوقف العبد فيه يسمى الموقف ، وهو الذي تكلم منه صاحب المواقف محمد بن عبد الجبار النّفري رحمه الله في كتابه المسمى بالمواقف ، الذي يقول فيه : أوقفني الحق في موقف كذا ، فذلك الاسم الذي يضيفه إليه هو المنزل الذي يتقل إليه أو المقام أو الحال أو المنازلة الآ قوله : أوقفني في موقف وراء المواقف . . » .

٦ - الموضع السادس : عند قوله : « الباب الرابع والثمانون ومائتان : في معرفة منزل المجازاة الشريفة وأسرارها من الحضرة المحمدية » .

وفيه : « . . . وهو الذي قال لصاحب المواقف ما حكاه عنه في مواقفه من القول ، أن لم يكن هو رحمه الله قد نبّه على مراتب علوم فقال لي وقلت له » .

٧ - الموضع السابع : في كتاب ابن عربي الموسوم بـ « كتاب منزل القطب ومقاله وحاله » .

وفيه يبين خال الإمام الروحاني الذي على يمين القطب يسميه « عبد الملك » ، حيث يقول : « عبد الملك ، مؤنث علوي ، صحيح الحال ، سعيد ، فارغ من الكون ، واقف بين

يُلي الحق ، وهو كان الغالب من حال صاحب محمد بن علي بن عبد الجبار النَّقري صاحب المواقف .

٨ - الموضع الثامن : في كتابه الموسوم بـ « كتاب التجليات الالهية »^(١) .

عند قوله : « نجلي لا يعلم التوحيد » .
حيث يقول : « وفي هذا التجلي رأيت النَّقري رحمه

الله » .

وفي هذه الفترة يظهر صوفي آخر شهيد هو سليمان بن علي المعروف بالعفيف التلمساني (٦١٠ - ٦٩٠ هـ) حيث يقوم بشرح كتاب المواقف ، وتضمنه بعض الاشارات الى حياة النَّقري وان كانت تنقصها الدقة التاريخية في الرواية ، فهي حكايات وروايات القيت عليه - كما هو ظاهر من كلامه - ، فعلى هذا فالاستناد اليها في بيان حياة النَّقري يكون على اوهى من بيوت العنكبوت ، وهذه نقطة مهمة في البحث عن حياة مؤلف المواقف .

اذن ، ظهر كتاب « المواقف » في الكتابات التي تعود الى القرن السابع الهجري ، واشتهر بين طائفة خاصة من الصوفية من اصحاب التجارب الذاتية ومن دعاة الفلسفات الصوفية المتأخرة . ويبدو ان يلتزم تلاميذ ابن عربي ومعاصلروه ومناصروه بكتاب المواقف ان وقع بين ايديهم أو يكتفوا بالاشارة اليه ، وهذا ما فعله عبدالرزاق الكاشاني (ت ٧٣٠ هـ) ، فقد أشار الى النَّقري في كتاب له في اصطلاحات الصوفية اسماء « لطائف العلام في إشارات اهل الالهام » عند تعريفه لمصطلح (الوقفة) حيث يكاد ينقل ما ذكره ابن عربي من التعريف الوارد لها في الموضعين الثاني والخامس المشار اليهما آنفاً . حيث يبدأ الكاشاني بالقول : « المواقف النَّقريَّة المنسوبة للشيخ محمد بن عبد الجبار النَّقري » ، وهي كما نلاحظ اشارة منقولة لاتعطينا أية تفصيلات اضافية عن حياة النَّقري ، الأمر الذي يؤكد لنا ان مجهولية صاحب المواقف تاريخياً وسيرة كانت عندهم كما هي الآن ، وان في نسبة الكتاب إليه شك .

وفي القرن السابع الهجري أيضاً ، يظهر الصوفي الفيلسوف عبدالحق بن سبعين المرسى (٦١٣ - ٦٦٩ هـ) وكان ذا عقلية خاصة ونزعة متوحدة أدت به الى رفض اعمال سابقيه من كبار الصوفية والفلاسفة ، ومن بينهم يشير الى النَّقري ، حيث يقول في « الرسالة الفقيرية »^(٢) مانعه : « ومن الوصول المنسوب والوقوف عنده بحسب متعلق الاسماء والصفات والمقامات والأرواح والتلوين والتمكين والمحبة والوجود والواحد والوحدة والإضافة المحلوفة والمجردة والشائعة وغير الشائعة بحسب - المواقف - المنسوبة الى النَّقري (١) المعلم الناقل من المولد على زعمه وغيره » .

ويتبع ابن سبعين تلميذ الشاعر الصوفي أبو الحسن الششتري (ت ٦٦٨ هـ) ، فإنه يورد اسم النَّقري في قصيدة طويلة^(٣) يذكر فيها ما يسمى باسناد الطريقة السبعينية أو بالأحرى مصادر الفلسفة السبعينية (نسبة الى شيخه ابن سبعين) ، ويذكر في عداد شيوخها النَّقري ، حيث يقول :
واقام لذات النَّقري مدحاً

يخطب بالتوحيد صيره خدنا
وكان خطاباً بين ذاتين ، من يكن
فقيراً يرى البحر الذي قد غصنا
ويظهر النَّقري ايضاً بين اتباع المدرسة الشاذلية في مصر وفي القرن ذاته ، حيث يشير اليه ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩ هـ) في كتابه « لطائف المنن »^(٤) فينقل عن بعض المشهورين من اصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦ هـ) : « ان الشيخ كان يوماً بالقاهرة في دار الزكي السراج وكتاب المواقف للنَّقري يُقرأ عليه » .

يظهر من هذا جلياً ان معظم من أشار الى النَّقري وكتابهم من الصوفية ومبرزهم ، ولا ريب فالكتاب ذو مصلك توحيد عرفاني عالٍ ، ولا يحتمل بعد هذا ان يأتي الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) ويشير الى النَّقري في كتابه « المشتبه في الرجال : اسمائهم وانسابهم »^(٥) من جهة نسبته فيقول : « النَّقري ، محمد بن عبد الجبار ، صاحب

المواقف والدعاوي والضلال ، وتعريف الذهبي له بمقتضى
أمران :

أحدهما : انه التقطه من كتب ابن عربي (من خلال
الفقرات السابقة حيث لم يتجاوزها فيما عرّف به) وعرف اسمه
ونسبته وكتابه ، ولا يخفى موقف الذهبي من ابن عربي ومائل
دعاة الوحدة الوجودية المطلقة وتبعه ونقله لكتبهم وعباراتهم
بلهجة شديدة قاسية .

ثانيهما : وهو الأرجح بنظري حيث تحتمله عباراته المتقدمة
من بعض الأوجه ، انه اطلع على كتاب المواقف ووقف عليه
وعلى عباراته المبهمة الشاطحة فنسب سهام تحريجه عليه وعلى
صاحبه .

ان الذي يهمني بعد هذا البيان القول : ان النّفري رجل
ربما نسب الى الصوفية من أجل كتابه « المواقف » وهو في مواقفه
يدع بين الصوفية وكتاباتهم الالهامية ، ومع كل هذا لم نثر على
من يذكره او يترجم له او يحكي عنه من قليل او كثير مدافعا او
معارضاً ، وعلى ترجيح الروايات التي تحكي انه عاش في القرن
الرابع الهجري وان موطنه (نفّر) من أرض العراق ملتقى العلماء
والمحدثين والمؤرخين والصوفية ، فابن هو في حلية أبي نعيم
الاصبهاني (ت ٤٣٠ هـ) ورسالة القشيري (٣٧٩ - ٤٦٥)
الصوفية وكتب السلمى (٣٢٥ - ٤١٢) لاسيما طبقات
الصوفية ، له و « كشف المحجوب » للهجويري (ت ٤٦٥ هـ)
و « قوت القلوب » لابي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) وفصول
من نشر علوم الصوفية بالتأليف في « التعرف » للكلاباذي
(ت ٣٨٠ هـ) و « اللمع » للسراج (ت ٣٧٨ هـ) ، وغير
كتب الصوفية وطبقاتهم من تواريخ الأمم والرجال والطبقات
والوفيات وحتى كتب الانساب . فعلى الرغم من ذكر الذهبي له
في « المشتبه » فان الفيروز آبادي (٧٢٩ - ٨١٧) لم يذكره في
« القاموس » عند كلامه على من نسب الى (نفّر) من الرجال ،
وقد نسب اليها بعضاً منهم ، وكذلك قبله السمعاني
(٥٠٦ - ٥٦٢) في « الانساب » ، وتلخيصه لابن الاثير
الجزري (٥٥٥ - ٦٣٠) المسمى « اللباب في تهذيب
الانساب » وعند تحريره لجلال الدين السيوطي

(ت ٩١١ هـ) المسمى « لب اللباب في تحرير الانساب »^(١١) ،
وحتى عند ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) في « معجم
البلدان »^(١٢) عند الموضع ذاته ، والذهبي نفسه لم يعاود ذكره في
كتبه الأخرى في تراجم الرجال ، كل اولئك لم يذكروا ولم يشيروا
الى اسم النّفري او الى وقوع هذه النسبة على رجل صوفي مثله ا
وأما وجوده عند الزبيدي في « تاج العروس »^(١٣) فانه ينقل ماورد
في « المشتبه » للذهبي حرفياً .

هذا الغموض والابهام اللذان يحيطان بشخصية النّفري
على أشده عند رجل متصوف عرف عنه شغفه في تتبع اخبار
الصوفية والترجمة لهم وبيان احوالهم الا وهو الشيخ عبدالوهاب
الشعراني (ت ٩٧٣ هـ) حيث يفرد له ترجمة خاصة - على الرغم
منه - بعد ان يترجم لابن عربي - وقد التزم التسابع الزمني
للمترجمين - في كتابه « الطبقات الكبرى »^(١٤) حيث يظهر لنا من
كلامه ان النّفري رجل مجهول تماماً خلال القرون التي مضت بين
عصره وعصر الشعراني وانه قد ترجم له عن حكايات غير متيقنة
زادتنا حيرة واستغراباً حيث يقول :

« ومنهم : العارف بالله تعالى : الشيخ محمد بن عبد الجبار
النّفري - رحمه الله - كان من أهل القرن الرابع - رضي الله عنه -
ولكن هكذا وقع لنا ذكره وان كنا لم نلتزم ذكرهم على ترتيب
الزمان - وكان له - رضي الله عنه - كلام عالٍ في طريق القوم ،
وهو صاحب المواقف ، نقل عنه الشيخ محيي الدين بن عربي
رضي الله عنه وغيره ، وكان إماماً بارعاً في كل العلوم . . . ثم
ينقل عنه عبارات من المواقف وغيرها ، ويقول : « وقد ذكرنا
جملة صالحة من كلامه في مختصر المواقف » .

ويعود كتاب « المواقف » ليظهر أخيراً في موسوعة حاجي
خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) المسماة « كشف الظنون »^(١٥) ، حيث
يشير الى ماثر عليه من بعض مخطوطاته ، فيقول : « المواقف في
التصوف : للنّفري ، وهو الشيخ محمد بن عبد الجبار بن الحسن
النّفري الصوفي المتوفى سنة ٣٥٤ هجرية » ثم يذكر شرح عفيف
الدين التلمساني عليه .

ويبدو ان يترجم للنّفري كل من خير الدين الزركلي في
« الاعلام »^(١٦) وعمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين »^(١٧)

والمستشرق كارل بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي »^(٣) وأخيراً
فؤاد سزكين في « تاريخ التراث العربي »^(٤) ويظهر عند الأخير
مؤلفات (أو أقوال) أخرى للتقري نسبت إليه في خطوط سنة
١٣١٥ هجرية .

من هو مؤلف « المواقف » ؟

تقدم في عبارات ابن عربي ان اسمه : محمد بن عبد الجبار
التقري ، وهكذا ذكره كل من عفيف الدين التلمساني شارح
المواقف والكاشاني والذهبي والشعراني ، اما حاجي خليفة فانه
يضيف اسم جده « الحسن » وهو ما يقرره آريزي في تحقيقه
للكتاب واهماً ان جميع المصادر متفقة على ذلك ، ويذكره
بروكلمان كذلك وينسبه الى بعض المخطوطات التي لم يعتمد
عليها آريزي في التحقيق ، وهكذا فعل من تابعه .

والآن يواجهنا السؤال التالي : هل ان محمد بن عبد الجبار
هذا هو مؤلف المواقف ؟ المرجح انه ليس هو المؤلف ، وهذا
شارح المواقف عفيف الدين التلمساني يكاد يتلمس هذه الحقيقة
ويطرحها علينا في مواضع مختلفة من شرحه مبيناً لنا ان مؤلف
المواقف ليس هو من قالها او من القيت عليه ، وتحرير في ثلاث
مقولات ، ونسرد الآن كلامه الذي أشار فيه الى ذلك نقلاً عن
تحقيق آريزي للمواقف :

١ - « وهذه إحدى الدلائل لتأييد الجزم بأن الشخص الذي
ألف المواقف كان ابناً للشيخ التقري وليس الشيخ نفسه ، وفي
الحقيقة ان الشيخ لم يؤلف اي كتاب على الاطلاق ولكنه اعتاد ان
يكتب هذه الالهامات (كشوفاته الروحية) على قصاصات من
الورق والتي حفظت لنا من بعده) فلم يكن التقري معنياً بأن
يترك وراءه أثراً من الآثار ، بل كان صولياً سائحاً ضارباً في
الصحراء جواباً للافلاق لا يستقر في مكان ولم يكن ليكشف عن
شخصيته لإنسان ، ويقال انه توفي في إحدى قرى مصر ، والله
أعلم » .

٢ - « وهذه دلائل بأن الشخص الذي رتب هذه المواقف ونشر
ترتيبها هو ابن بنت الشيخ وليس الشيخ نفسه هو الذي رتبها ،
لانه لو وضعها الشيخ بالترتيب لكانت رتب بصورة أفضل من
هذا الترتيب ! » .

٣ - « وهذا يشير الى حقيقة ان مؤلف هذه المواقف ليس هو
التقري ، ولكن أحد أصحابه ، وطبقاً لرواية أخرى ابن بنته » .
هذا التعارض بين الحكايات التي أوردتها التلمساني يفضي
بنا الى إشكال ، ينجلي بما أورده كارل بروكلمان في « تاريخ
الأدب العربي » بالاستناد الى مخطوطة لكتاب المواقف في
(آياصوفيا ٢١٢١) لم يمتد إليها آريزي . يقول بروكلمان نقلاً
عن هذه المخطوطة : محمد بن عبد الجبار بن الحسن البصري ا
كتب سنة ٣٥٢ / ٩٦٣ كتاب المواقف ، سمعه من كلام شيخه
أبي عبدالله محمد بن عبدالله التقري ، فن مواقف الصوفية
السبعة والسبعين ، وأولها موقف العز وآخرها موقف الكتف .
وهذا ما أكاد أجزم به ، من أن محمد بن عبد الجبار
البصري (التقري) دون هذه المواقف عن لسان شيخه
أبي عبدالله محمد بن عبدالله التقري ، وهذا الأخير ممن لم تذكره
المراجع او ترجم له فهو مبهم كجامع مواقفه ، وهذه النقطة
بالذات نلمحها في عبارة ابن عربي في كتاب « القطب » المتقدمة
وأظهر منها عبارة ابن سبعين في « الرسالة الفقيرية » المتقدمة
أيضاً . ويلوح لي أنه حصل خلط بين هذه النسبة أيضاً بين قائل
المواقف وجامعها ، فهل ان القائل كان يقرأ أيضاً ؟

مضى ولد التقري : ؟

اما المصادر التي أشارت إليه فلا تذكر عن ذلك شيئاً ،
وأول من يواجهنا بتحديد فترة وجوده هو الشعراني في عبارة
« الطبقات الكبرى » حيث يقول انه : « كان من اهل القرن
الرابع » ، ويستند الى ذلك آريزي حيث يقول : ويظهر انه نشأ
في النصف الأول من القرن الرابع الهجري .

والتحديد الثاني يظهر عند حاجي خليفة في « كشف
الظنون » حيث ينص على سنة وفاته وهي ٣٥٤ هجرية . بيد ان
هذا التاريخ يظن لي صحة آريزي حيث يشير الى ان بعض
المباريات (= المقطوعات) التي وردت في مخطوطتي غرطة
والقاهرة تروى الى السنوات ٣٥٢ و ٣٥٣ ومقطوعات أخرى الى
السنوات ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، مما به يمكن نسخ تاريخ وفاته
هذا الذي ذكره حاجي خليفة .

اما بروكلمان فيقرر - استناداً الى مخطوطة آياصوفيا - ان

التفري كتب المواقف سنة ٣٥٢ هجرية في حين يشير فؤاد سزكين في « تاريخ التراث العربي » الى وجود مخطوطة للمواقف في تشتربيقي تعود الى سنة ٣٤٤ هجرية وهي بخط المؤلف (أي محمد بن عبد الجبار التفري) .

فعل هذا يقرر أن التفري توفي بعد سنة ٣٦٦ هجرية .

نسبة صاحب المواقف :

اما نسبة مؤلف المواقف فقد أظهر آريزي اختلاف النسخ في كتابتها في المخطوطات السبع التي اعتمدها ، وبجملها أربعة : نوافزي ، نفري ، نفري . والنسبة الأخيرة مما يكاد يجمع عليه وهي التي اتفق عليها من ذكره أو اشار اليه من تقدم . واما (النفري) فانها وإن وردت في بعض المخطوطات ، فانها إن اعتمدت فسوف تغير كثيراً من الاحتمالات عن موطن المؤلف .

ويقرر آريزي أن من بين العلماء الغربيين (المستشرقين) يادر بروكلمان الى تقرير صحة نسبة (النفري) على الرغم من انه يذكر صيغة (النفري) كاحتمال آخر ، وتبعه على رأيه مرجليوث الذي قارن نسخ أوكسفورد^(١) ، ولم يظهر نيكلسون على ذلك أي اعتراض^(٢) ، اما ماسينيون فقد أحب صيغة (النفري)^(٣) . وترد الصيغة الأخرى (النفري) فيما دعاه بها ابن سبعين في عبارته المتقدمة مع ترجيحي أنها خطأ من النسخ وان استبعد ذلك .

وهذه النسبة المرجحة تشير الى موطنه - الذي لا تذكره المصادر والمراجع العربية مطلقاً - وبدون شك يقرر آريزي انها نسبة الى قرية (نفري) في العراق ويستند الى وجود هذه القرية على « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، و « تاج العروس » للزبيدي والثاني يذكر التفري عن نسب اليها . حيث يذكر ياقوت في « معجم البلدان » :

« نفري : بلد أو قرية هي الآن من نواحي بابل بأرض الكوفة . وينقل عن أبي سعد السمعاني : نفري : من أعمال البصرة . ويذكر عن أحمد بن محمد الحمداني قوله : نفري كانت من أعمال كسكر ثم دخلت في أعمال البصرة » ثم يرجع ياقوت الحموي ان الصحيح انها من أعمال الكوفة ، وقد نسب اليها قوم من الكتاب الأجلاء وغيرهم .

ولا يخرج الفيروز آبادي في القاموس والزبيدي في شرحه عما ذكره ياقوت في معجمه . وما يؤكد هذا الموطن ما أضافته مخطوطة (غسوطه) التي اعتمد عليها آريزي فتصفه بـ (العراقي) ، واما مخطوطة القاهرة فتصفه بـ (البصري) ، وهي أيضاً في مخطوطة (آياصوفيا) عند بروكلمان . ويحاول آريزي تأكيد ذلك بإشارته الى عبارة وردت في شرح التلمساني للمواقف (الذي كان يلمس الشيء ذاته) حيث يقول التفري في الموقف (٤٠) والذي يسميه موقف (هوذا تتصرف) يقول التلمساني : « ان تعبير هوذا تعبير مميز لأهل العراق » ولكنه (أي المحقق) يعود ليظهر تساؤله عن صحة ان يكتب مواطن هراقي كتاباً فيه الهاماته الالهية بلهجة عامية محلية ، ويحقق الأمر من بعض المختصين الذي يؤكد له عدم وجود إشارة عند النحاة الى ما قاله التلمساني بخصوص نسبة هذه اللفظة لأهل العراق .

والذي أريد أن أقرره في هذا الموضع ان شارح المواقف كان على مجهولية تامة بأمر صاحبها (النفري) واحواله وانخباره ، ويظهر ذلك من الحكايات المضطربة التي يرويها عن حياته ، وتعلقه بالالفاظ لاظهار موطن المؤلف الأصلي . واعجبها قوله انه توفي في إحدى قرى مصر ١١ ولعله وقع في اشتباه ورود اسم (النيل) في بعض - تطويعات المواقف وانها قد كتبت عند (النيل) - كما ورد في مخطوطة (غسوطه) النص على ان قطعاً معينة من المواقف كتبت عند النيل . واما بخصوص النيل فان ياقوت الحموي يشير الى اطلاقه على مناطق متعددة من بينها « قرية في اقليم الكوفة قرب ربيع فريد وتشرق هذه المنطقة قناة كبيرة تخرج من الفرات ، وهذه القناة كانت قد حفرت بأمر الحجاج بن يوسف الثقفي والذي سماها بـ « نيل مصر ») .

والذي تشير اليه المصادر أن (نفري) واقعة على نهر النهر من انهار الكوفة ، وهو نهر مأخذه من الفرات وعليه حنة قرى قد نسب اليه قوم والثياب الرئيسية تنسب اليه .

والذي أرجحه هنا وتؤكد الدراسات الأثرية الحديثة ان نهر أو نهجور السامية (Nappu) (= نفري) واقعة على نهر النيل

العراقي أو بعض فروعه ، وقد حُرِّفَ العجم ذلك الاسم إلى (النَّرس) ، لاسيما وأن هذا النهر قديم جداً وقد طهره وكراه الحجاج بن يوسف وإلى العراق .

واطرح الآن تساؤلاً يحقق للبحث جدته ، وهو هل ان هذه المدينة البابلية العظيمة نهور (= نَقْر) حسب مادحيث فيها بعد قد استمرت إلى العصور الإسلامية وسكنها الناس وظهر منها بعض الأعلام ؟ كلام الحموي في « معجم البلدان » يؤكد ذلك ولكنه لم يذكر أي أحد من هؤلاء ، فعُدت إلى المصادر الأخرى لاجد جواباً لذلك فوجدت أشياء عجيبة خلقتها أيدي النساخ والكتاب وهم لا يبدرون والنقل من كتاب إلى آخر والتصحيح والتحريف وانقطاع النساخ جعلتنا نقف من جليلة الأمر على حيرة ليس لها من مخرج ، وإن كان طرح بعض ذلك يخرج الموضوع عن مقصوده ولكنه مهم في هذا الموضع .

المؤرخ الذهبي يذكر النسبة (النَّقْري) ويذكر أولاً صاحب المواقف .

ثم أبو عمرو أحمد بن الفضل بن سهل النَّقْري ، ولا خلاف في النسبة عند الفهرودآبادي والسمعي والجزري ، ألا أن تحقيقه عند الخطيب في « تاريخ بغداد »^(١٠٠) حيث يذكره يقول أنه « من أهل تيمز . قدم بغداد وحُدث بها » فخصفه بـ « النَّقْري » .

ثم ذكر الذهبي : أبو الحسن محمد بن عثمان النَّقْري ، شيخ للعتقي .

وهو من ترجمة الخطيب البغدادي في تاريخه^(١٠١) فقال : محمد بن عثمان بن محمد بن عثمان بن شهاب ، أبو الحسن المعروف بالنقري ، ويذكر من سمع منه أحمد بن محمد العتقي أنَّه توفّر .

ثم : علي بن عثمان بن شهاب النَّقْري ، وأبو القاسم علي بن محمد بن الفرج النَّقْري الأهوازي ، الرجل الصالح .

ثم يقول بعد ذلك : وبالفتح والسكون (أي نَقْري) : المحدث وجيه الدين موسى بن محمد النَّقْري ، من طلبة مصر ، مات ليلاً . وهو ما يذكره ابن العماد الحنبلي في « شذرات الذهب »^(١٠٢) فيقول : الوجيه النَّقْري ، نسبة إلى النفر بلد على النرس ، موسى بن محمد المحدث ، أحد من عني بمصر بالحدث وقدم دمشق . وهكذا هو في « حسن المحاضرة »^(١٠٣) للسيوطي .

أما الزبيدي في « تاج العروس » فيتكلم عليه عند كلامه على مدينة (نَقْرَة) بالمغرب (الأندلس) فيقول : « ومن المنسوين إليها وجيه الدين موسى بن محمد النَّقْري ، عُدث ، مات بمصر » .

و (نَقْرَة) قرية بمالطة أو بلدة أو مدينة بالأندلس حسب أقوال المؤرخين ، والنسبة إليها (النَّقْري) وقد نسب إليها جماعة كثيرة مشهورة لهم ذكر في كتب التواريخ والتراجم والأنساب . وهناك أيضاً مواضع ذكرهم صاحب القاموس وهما :

نقار : ذكره الصاغاني .

ونقَر : من قرئ بخاري ، منها إلياس بن محمد بن موسى النوفري أبو الخطيب الخطيب .

ونقري : قرية بمصر من أعمال جزيرة قوسنا - والنسبة إليها نقراوي .

ويستدرك ابن الأثير الجزري على من نسب إلى نَقْر فيذكر :

أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن اسماعيل النَّقْري ، من أهل البصرة ، سمع الكثير وكان عارفاً بالأدب ، وكان رفيق محمد بن ناصر في الحديث . كتب عنه ابن ناصر شيئاً من الشعر .

مواقف النَّقْري :

لعلنا ندفع قول التماسي شارح المواقف من أن النَّقْري كان صوفياً سائحاً ضارباً في الصحراء جواباً للافق لا يستقر بمكان ، بكتابه « المواقف والمخاطبات » اللذين يكشفان أن صاحبهما كان من طراز فرید ذي تجربة حقيقة دون شك ، وهذه لا تتوفر عند السالحين بل تأتي من السكون والتمكن من الأحوال والمقامات ، وتحليل المواقف يكشف لنا عن كثير من جواب شخصية مؤلفها وثقافته الواسعة في مجال التصوف خصوصاً وعلوم الشريعة الأخرى عموماً .

أما استنتاج أن النَّقْري تأثر بالسابقين عليه من أصحاب المعارف كالحلاج - كما يستنتج / أريزي - فأننا لانرى أوجه للشبه بين عباراته ومقاصده وبين تاريخ وراث الحلاج الشائع ، كما تطرد هذه النظرة إلى معظم من اشتهر في هذا السلوك كالترمذي الحكيم وأبي يزيد البسطامي وحتى الجنيد البغدادي .

ومواقفه .

اما التراث الديني ومدلولات الشريعة فاننا نراها في مواقفه مع شيء من النظر العميق والتحليل الذاتي حيث يدلنا ذلك على ثقافة واسعة كان يحملها النقيري بمصادر الشريعة من القرآن والسنة وأقوال السلف وطرائقهم الروحية ، ولا تخلو « المواقف » من آراء متناقضة في هذا المجال .

وأخيراً فإن جانب الصنعة البديعية والتركيبية نلمسه واضحاً في عبارات « المواقف » المترابطة على الرغم من ان المحقق آريزي يقرر : ان بعض الفقرات ليست في محلها الأصلي من وضع المؤلف ، في حين تقابلنا « المخاطبات » بتلقائية وعفوية تبشرنا بدرجةها في الالهامات المطلقة . ونجد عند النقيري في كتاباته هذه ألفاظاً ومدلولات سبقت عصرها بكثير في الشروع والتداول واطلاق المعنى الخاص بها وبروزه ، وهذا مدافع المستشرق الكبير ماسينيون الى حد المواقف من انتحال أحد المتأخرين والشك في نسبتها الى رجل من أهل القرن الرابع الهجري .

ان الفرق بين « المواقف » و « المخاطبات » يكاد ينحصر في التقديم ، ألا ان الجوهر متفق والقائل واحد ، حيث ان في « المخاطبات » ، اشارات كثيرة الى « المواقف » والعكس كذلك ، أما ، المواقف فتبدأ فقراتها بعبار : « اوقفني في كذا » وقال لي . . . ، وتبدأ المخاطبات بعبار : « يا عبد . . . » ، وينص النقيري على ذلك في الموقف (٦٣) بقوله : « أذنت لك في أصحابك بأوقفني ، وأذنت لك في أصحابك بيا عبد ، ولم أذن لك بأن تكشف عني ، ولا بأن تحدث بحديث كيف تراه » .

أما السبب الذي جعل المواقف عدتها (٧٧) موقفاً ، وهل ان في هذا الرقم رمز الى شيء ؟ يدفع ذلك المحقق آريزي الى الاستعانة بصديقه ماسينيون في معرفة ذلك ، حيث يشير الى انه لا توجد أية اشارة رمزية أو غنوصية لهذا الرقم في حدود القرن الرابع الهجري ، ومن الجدير بالذكر أن آريزي يضيف موقفاً آخر وجده في بعض النسخ المخطوطة في آخر كتاب « المخاطبات » .

وبعد : فلعل في هذه المحاولة المتواضعة ما يكشف لنا عن هذا الأثر البديع ويوجه انظارنا الى تلمس آفاقه الرحبة من جديد في سبيل اغناء البنية الفكرية للانسان العربي الكامل من خلال دراسة كتابات النقيري العراقي مجهول الشخصية .

أما الشك الذي امتنع ابن عربي من اجله من ضم النقيري الى الصوفية فأمر لا يستغرب اذا ما وجدنا في ثنايا « المواقف » والمخاطبات « اتجاهات فكرية بعيدة - آنذاك - عن الجهر الصوفي الملتزم وربما فقراته العديدة والطويلة والغريبة نسبياً أسلوب المواقف والتي تحكي عن أحوال المهدي وظهوره بشيء من الغنوصية والتلاعب بالرموز والاشارات^(٣) . وان كان يشك في نسبتها آريزي الى المواقف - لاتدعم رأينا بالقوة التي نلتزمها عندما نرى بعض الاشارات الأخرى الى أفكار خاصة متطرفة ظهرت أوائلها في تلك القرون كفكرة البداء مثلاً والمروج الروحي وماشابه ذلك .

أما اذا اردنا ان نتلمس النواحي الصوفية في المواقف فاننا نكاد نبحت عنها بجهد غير قليل ولا تيسر ، خصوصاً المصطلحات الصوفية التي شاعت في القرن الذي عاش فيه وقبله ببعيد ، ونخرج بحشد هائل من المصطلحات الخاصة (النقية) كـ « كونه تجربة الرجل وعلومه والهاماته ومؤلفاته » ، وأشدّها قوة تلك الأركان حولها كثير من المعاني ويضعها في حدة قوالب فكرية بالفاظ مختلفة وعبارات ملونة ليخرج منها بتيجة ان الوقفة (حال الواقف) افضل من المعرفة (حال العالم) والتي بدورها افضل من العلم (حال العالم) . ثم يأتي مصطلح (الحرف) ليضفي جواً شديد الغرابة اذا ما حاولنا معرفة المدلول الصوفي العام (أو النقيري الخاص) لاطلاقه هذه الكلمة (الحرف) وإيقاع كثير من الأساسيات عليها ، فهل ان الحرف يعني عنده ما شاع بين الصوفية والفلسفات الدينية الأخرى من تحمله معاني اكبر من مدلوله الاطلاقي ؟ - وهذا اتجاه قديم اشاعته الحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض السور القرآنية - كما فعل صوفي آخر معروف هو سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣ هـ) الذي ألف رسائل وكتابات في أسرار الحروف ومعانيها واتصل ذلك بمن بعده حتى قمة التصكير الحروفي عند ابن عربي . ثم ان الحرف عنده لا يتعدى اطلاقه على العلم الظاهر أو علم الآلة المركب من هذه الحروف ؟ .

فعل هذا نخرج بتيجة : ان النقيري كان نسيج وحده فلم يقلد ولم يقتبس وانما له نظراته الخاصة واصطلاحاته الخاصة وطريقته الذاتية في تعامله مع الروح المتلقي عنه الهاماته

المواضع

- ١- الفلاسفة ، د . الطاهر أحمد مكي ، ص ٣٨٣ ، طبع دار المعارف .
وأيضاً : مجلة المورد العراقية ، المجلد التاسع ، العدد الثاني لسنة ١٩٨١ ، ص ٦٨١ .
- ١٤ - المشبه للذهبي ، ٦٤٦/٢ ، طبع القاهرة .
- ١٥ - اللباب في مهلب الأنساب ، عز الدين ابن الأثير ، ٢٠/٣ ، طبع بغداد .
- ١٦ - لب اللباب في تحرير الأنساب ، جلال الدين السيوطي ، ص ٢٦٤ ، طبع لندن ١٨٥١ .
- ١٧ - معجم البلدان لياقوت الحموي ، ١ / ٤ و ٧٧٣ و ٧٩٨ ، بدون تاريخ .
- ١٨ - تلج العروس ، مرتضى الزبيدي ، ٣/٥٧٨ و ٤/٨٧ .
- ١٩ - الطبقات الكبرى ، عبد الوهاب الشعراني المسماة : لوائح الأنوار في طبقات الأخبار ، ١/١٧٥ ، ومن الجدير بالذكر أن الشعراني يورد له أقوالاً غير مطابقة لما في المواضع .
- ٢٠ - كشف القنون ، - ناجي خليفة ، ١٨٩١/٢ .
- ٢١ - الاعلام (١ - ٨) ، خير الدين الزركلي ، ١٨٤/٦ ، ويخطئه في مصادره عن التقري حيث تلتبس عليه الأسماء بالشارحة إلى الوجهة التقري المحدث في شلوات الذهب ٤٣٣/٥ .
- ٢٢ - معجم المؤلفين ، - سر رضا كحالة ، ١٠/١٢٥ .
- ٢٣ - تاريخ الأدب العربي (النسخة العربية المترجمة) ، كارل بروكلمان ، ٤/٧٦ ، والنسخة الألمانية مع الملحق : 8.1366 (2007) 1217 .
- ٢٤ - تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، ١/١٥٨ ، ويذكر ثلاثة مقالات (منسوبة !) إلى التقري ضمن مجموع نسخ سنة ١٣١٥ هجرية وهي :
- مجموعة الأخبار - مقالة في القلب .
- كلامه الغريب في المحبة .
وانظر : أقدم المخطوطات ، كوركيس حواد ، ص ٢٣٠ .
- ٢٥ - مارجليوث في : Early development of Moham, 186 — 1118 .
- ٢٦ - نيكلسون في : Mystics of Islam, Passim, 71 .
- ٢٧ - ماسينيون في : Essai, Emata, 298 .
- ٢٨ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ٤/٢٤٦ ، ٢٩ - المرجع السابق : ٣/٥٠ .
- ٣٠ - شلوات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ٤٣٣/٥ .
- ٣١ - حسن المحاضرة ، جلال الدين السيوطي ، ١/٣٨٥ .
- ٣٢ - تنبه إلى ذلك الدكتور كامل مصطفى الشبي في كتابه : الصلة بين التصوف والتشيع ، ص ٤٦٧ - ٤٦٩ و ٤٨١ .

- ١ - المواضع والمخاطبات ، تحقيق : آرثر يوحنا آربري ، دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٣٤ ، وأعادت طبعه بالأولست مكتبة الخديوي ببغداد .
- ٢ - سبق لأربري مقالاً بعنوان : تعريف بالمواضع للتقري ، نشر في مجلة الثقافة الإسلامية السنة ١٩٣٠ ، ومقال في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الألمانية) ٣/٩٨٣ ، كما نشر قطعة من المواضع بخط المؤلف في : BSOAS, 16/1863/29 — 42 .
- ٣ - الفتوحات المكية : محي الدين ابن عربي ، دار صادر - بيروت ، بدون تاريخ ، ١/٢٣٨ ، وهذا الموضع لم يقب له علق المواضع في مقدمته .
- ٤ - المرجع السابق : ١/٣٩٢ . - المرجع السابق : ١/٦١٣ .
- ٦ - المرجع السابق : ٢/١٤٢ . - المرجع السابق : ٢/٦٢٥ . ٨ - المرجع السابق : ٢/٦٢٥ .
- ٩ - كتاب منزل القطب ومقاله وحاله ، ص ١٣ ، ابن عربي مجموعة رسائل ابن عربي ، طبع بيروت .
- ١٠ - كتاب التجليات الإلهية لابن عربي ، ضمن رسائله المجموعة ص ٢٥٢ ، ونشرت فصول منه مع الشرح ضمن الكتاب التذكاري لمحي الدين ابن عربي ، ص ٢٥٢ ، طبع القاهرة .
ومن الجدير بالذكر أن هناك شرحان آخران لمواضع التقري ما عدا شرح العفيف التلمساني ، أحدهما لمبدالرؤوف المناوي : انظر : خلاصة الأثر ، للمحيي : ٢/٤١٦ .
والآخر (لمجهول) اثار إليه الباحث فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي .
- ١١ - الرسالة الفقهية لابن سبعين ، ضمن رسائل ابن سبعين ، تحقيق الدكتور عبدالرحمن بلوي ، ص ١٥ ، طبع القاهرة .
- ١٢ - القصيدة موجودة بتمامها في : الاحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين ابن الخطيب : ص ٤١ - ٦٧ ، وأيضا كتابه : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص ٦٠٦ ، وديوان أبي الحسن الششتري ، تحقيق الدكتور سامي علي الشباد ، ص ٧٢ . ونشرها بعد تحقيق الدكتور كامل مصطفى الشبي في كتابه : الحلاج موضوعاً ، ص ١٢٨ ، بدون ذكر البيتين ، ومن الملاحظ أن الششتري أتبع الترتيب التاريخي لتسلسل رجال القصيدة ففي ذلك ما هو حي بمعرفة زمن مؤلف المواضع .
- ١٣ - لطائف المنن لابي عطاء الله السكندري ، هامش المنن الكبرى للشعراني ، ص ١١٠ ، طبع مصر . وهناك تلميحات أخرى إلى ما يتناسب القوال التقري وردت في : محاسن المجالس لابن العربي (ت ٥٣٦ هـ) ، انظر كتابه : دراسات اندلسية في الأدب والتاريخ

مقاييسات في الفلسفة الصوفية القسم الرابع

بين آريزي والتفري (تابع)

عزيز صارف

بغداد - المنصور - حي المهتمسين

بمهيضة لا يعرف لها رب . . وقد تطلت الضالة على المعاني ومنه
الكلمة الحكيمة : ضالة المؤمن ، وفي رواية : ضالة كل
حكيم ، أي لا يزال يتطلبها كما يتطلب الرجل ضاكة . . .
ومن الواضح ان الشيخ التفري أراد بهذه العبارة أن يقول
- وقد تصور أن الحق سبحانه قد خاطب بها العبد - (يا عبد !
أنت بغيتي وطلبتي ، وأنا بغيتك وطلبتك) - وهذا المعنى مفهوم
ومنوضحه .

أما ترجمة الاستاذ آريزي لهذه العبارة فنقول :

« أنت بهيمتي الضالة وأنا بهيمتك الضالة » ، والترجمة
- كما ترى - لا تؤدي هنا أي معنى ، وهي الى ذلك غير مقبولة ،
وكيف لأحد أن يقبل مثل هذا الكلام في مواجهة الحق جل
شانه .

ما الذي أراد التفري اذن بقوله : « أنت ضالتي وأنا
ضالتك » ؟

الذي نراه أن التفري كان يشير الى فكرة عميقة تتردد دائماً
عند الصوفية ، تلك هي فكرة الترابط الإضافي بين الوجود
والخلق .

ولقد عبّر الشيخ عبي الدين بن عربي عن هذا الترابط
الإضافي بقوله

أعرض هنا لمحة نصوص من (كتاب المواقف) للشيخ
التفري مع ترجمة الأستاذ آريزي لها بالانكليزية . وهي - كما
سنرى - من الاشارات الصوفية البالغة العمق في دلالتها ،
وتغلب عليها فكرة الترابط الإضافي بين الوجود والخلق .
وسنرى كيف ان الترجمة الانكليزية قد فاتها دلالة هذه
النصوص فابتعدت عن المعنى الصوفي العميق الذي أراد التفري
وقصد اليه .

(١)

نص التفري^(١) :

« أنت ضالتي وأنا ضالتك ومامننا من غاب » .

ترجمة آريزي للنص^(٢) :

(Thou art my Wandering beast, and I am strine: he who is absent is
not of us)

استدراك وتعليق :

تسوقفنا في هذا النص عبارة « أنت ضالتي وأنا
ضالتك » . و « الضالة » - (لغة) - مأخوذة من البهائم . . . وتقع
على الذكر والانثى والائنين والجمع . . والضالة من الإبل : التي

في (كتاب المسائل) :

« ... من أردته لم تصل اليه الا به ، ومن أراد أن يصل اليك لم يصل الا بك »^(١) .

ويفرق الصوفية بين « الذات » وبين « الوهية الذات » فالذات الالهية تتعالى عن أي تصور وتمتنع عن أي ادراك .

يقول ابن عربي : « الذات الالهية منزهة عن أن يكون لها بعالم الكون والخلق والأمر مناسبة أو تعلق بنوع ما من الأنواع ... »^(٢) .

أما « الوهية الذات » فهي التي تقبل الصفات ، وتقبل النسب والاضافات ، ومن هنا فهي تتطلب المألوه وتتطلبها المألوه .

ويوضح لنا ابن عربي هذا الفرق بين « الذات » وبين « الوهية الذات » في هذه الصورة البالغة العمق ، الرائعة الجمال ، الدقيقة كل الدقة في دلالتها ، ننقلها من كتابه « الفتوحات المكية » :

« ... الدائرة ، مطلقة ، مرتبطة بالنقطة .

النقطة ، مطلقة ، ليست مرتبطة بالدائرة .

نقطة الدائرة ، مرتبطة بالدائرة . - كذلك الذات مطلقة ، ليست مرتبطة بك . الوهية الذات ، مرتبطة بالمألوه (وهو أنت) كنقطة الدائرة (في ارتباطها بالدائرة) »^(٣) .

ويشرح لنا ابن عربي هذا الترابط الإضافي قائلاً :

« ... فكل ماثبت لله تعالى من الأحكام ماثبت الآ بالعالم ... فلو ارتفع العالم من الذهن ارتفعت الأحكام الإلهية كلها وبقي العين بلا حكم ، وإذا بقي بلا حكم وإن كان واجب الوجود لذاته لم يلزم أن يكون له حكم الألوهية ، فوجود أعياننا من وجوده ، ووجودنا أثبت العلم به في ذواتنا ... »^(٤) .

على فكرة الترابط الإضافي هذه تدور كثير من اشارات النظري .

قال في (كتاب المواقف) :

« فرضت عليك أن تعرف من أنت ، أنت ولئي وأنا وليك »^(٥) .

وقال : « أنا نظرك وأحب أن تنظر الي »^(٦) .

وقال : « اما أن تدعوني فأتيك ، واما ان ادعوك فتأتي »^(٧) .

وقال : « أين جعلت اسمي فثم اجعل اسمك »^(٨) ، والى هذا المعنى أشار النفري بقوله :

« أنت ضالتي وأنا ضالتك » .

(٢)

نص النفري^(٩) :

« أنت ضالتي فإذا أوجدتنيك فأنت حسي » .

ترجمة آريبري للنص^(١٠) :

(Thou art my stray camel: when I make myself to find thee, thou art enough for Me).

استدراك وتعليق :

يشير نص النفري - كما نرى - الى فكرة الترابط الإضافي بين الوجود والخلق ، أما ترجمة آريبري للنص فلا تدلنا على هذا المعنى ، ولنا على هذه الترجمة ملاحظتان :

الملاحظة الأولى :

من الواضح ان عبارة (أنت ضالتي) في نص النفري إنما تعني « أنت طلبتي وبخيتي » ، أما في ترجمة آريبري فمعناها « أنت بعيري الضال » ، وهذا المعنى - كما ترى - بعيد عن قصد النفري .

ما الذي قصد النفري بقوله : « أنت ضالتي » ؟

لتوضيح هذا المعنى سأضرب مثلاً :

(« السيد » اسم اضافي يحتاج الى حافظ)^(١١) ، والذي يحفظ للسيد سيادته هو « المسود » فلا سيد في الحقيقة بلا مسود .

وإذا عدم المسود عدم السيد .

فالمسود اذن هو ضالة السيد ، يتطلبه أبداً ويسعى اليه . وهكذا جميع الأسماء الإضافية .

قال ابن عربي في كتابه (الفتوحات المكية) :

« فأوجد العالم - سبحانه - ليظهر سلطان الأسماء : فان

(قدرة) بلا مقدور ، و (جوداً) بلا عطاء ، و (رازقاً) بلا مرزوق . . . حقائق معطلة التأثير^(١١) .

وقال ابن عربي في « كتاب المسائل » :

« . . . المتوجه على إيجاد كل ماسوئ الله تعالى إنما هو الألوهية وأحكامها ونسبها وإضافاتها المعبر عنها (بالأسماء والصفات) وهي التي استدعت (الآثار) ووجود كل ماسواها : إذ لا قاهر بلا مقهور ، وقادر بلا مقدور ، وراحم بلا مرحوم ، وخالق بلا مخلوق ، إلى جميع الأسماء الإضافية . . . »^(١٢) .

الملاحظة الثانية :

ذهب الأستاذ آربري في ترجمته لعبارة النفري « فإذا أوجدتنيك » إلى أن معناها :

« فإذا - أنا - جعلت نفسي أن أجذك » - والذي نراه أن معناها : « فإذا أنت جعلتني أجذك وأظفر بك » ، جاء في (اللسان) : « . . . أوجده أياه : جعله يجده . . . وأوجده الله مطلوبة : أي اظفره به . . . »^(١٣) مامعنى : أنت جعلتني أجذك ؟ لغرض التوضيح نعود إلى مثلنا السابق ذكره فنقول :

إن « السيد » يتطلب « المسود » ، فلا سيد بلا مسود ، غير أن « وجود المسود » - من جهة أخرى - يتوقف على وجود السيد ، فلا مسود في الحقيقة بلا سيد . ومن هنا يسعى (المسود) جاهداً في طلب السيد ليتيح له (للسيد) أن يظفر به فيسود عليه ، فلولا المسود في الحقيقة لما تحققت سيادة السيد .

إلى مثل هذا المعنى الدقيق أشار النفري بقوله :

« أوجدتنيك » - أي أنت جعلتني أجذك - ، لا كما ذهب آربري في ترجمته .

والى مثل هذا المعنى يذهب ابن عربي في « كتاب الأسراء » حيث يقول :

« . . . عبدي . . . لولاك ما عبدت ولا وُحِدْتُ ولا عُلِمْتُ

(٣)

نص النفري^(١٤) :

« انظر إليّ ، لما جعلتك ضالتي ألم أقبل عليك ؟ » .
ترجمة آربري للنص^(١٥) :

(Consider Me, why I have made thee my wandering beast: have I not turned to thee ?).

استدراك وتعليق :

يدور هذا النص - كما يبدو لنا - حول فكرة الترابط الإضافي السابق ذكرها . أما الترجمة الانكليزية فقد ابتعدت عن دلالة النص ، ولنا عليها ملاحظتان :

الملاحظة الأولى : أن عبارة « جعلتك ضالتي » في نص النفري تعني - كما هو واضح - « جعلتك قصدي وبغيتي » وليس كما جاء في الترجمة : « جعلتك يهيمتي الغضالة » .

الملاحظة الثانية : ذهب الأستاذ آربري في ترجمته إلى أن كلمة « لما » في هذا النص هي بمعنى (لِمَ أو لماذا) الإستفهامية . والذي نراه أن « لما » هنا (بفتح اللام وتشديد الميم) هي بمعنى (حين) الدالة على الظرفية الزمانية . فكأن النفري أراد أن يقول :

« تأمل فيما أقوله لك ! حين جعلتك قصدي ومطلوبي أقبلت عليك طالباً » .

والطالب والمطلوب (اللذان يوميء إليهما نص النفري) اسمان متضايقان ، يتوافقان في الزمان ؛ كلاهما يوجدان معاً في آن واحد ؛ وجود (الطالب) يقتضي وجود المطلوب والآ فهر طالب مَنْ ؟ ووجود (المطلوب) يقتضي وجود الطالب والآ فهر مطلوب مَنْ ؟

ومن هنا كانت (لما) في نص النفري بمعنى (حين) الظرفية الزمانية ، وليست بمعنى (لماذا Why) الاستفهامية ، كما ذهبت إليه الترجمة .

(٤)

نص النفري^(١٦) :

« إن كان غيري ضالتك فأظفر بالحرب » .

ترجمة آربري للنص^(١٧) :

(If other than I be thy wandering beast, then take possession of perdition).

استدراك وتعليق :

من الواضح ان عبارة « ان كان غيري ضالتك » الواردة في نص النفري انما تعني « ان كان غيري مطلبك ومبتغاك » ، اما الاستاذ آربري فقد ذهب بترجمته الى أن معناها : « ان كان غيري بهيمنتك الضالة » - وهذا المعنى - كما ترى - بعيد عن قصد النفري ولا يعقل أحد أن مثل هذا الكلام يمكن أن يقال في مواجهة الحق سبحانه .

مامعنى نص النفري ؟

يدور هذا النص - كما ترى - حول فكرة الوجدانية عند الصوفية وما يقابلها من الشرك في الوجود ، وهو الشرك الذي يسميه ابن عربي « شرك الغفلة » .

وكثيراً ما ردد النفري هذا المعنى . قال في (كتاب المخاطبات) : « يا عبد ! اخلصتك لنفسي فان أردت أن يعلم بك سواي فقد أشركت بي ، واذا سمعت من سواي فقد أشركت بي »^(٣١) .

وقال النفري في « كتاب المواقف » :

« كل شيء سواي يدعوك اليه بشركة وأنا ادعوك اليّ وحدي »^(٣٢) .

وقال : « أنت عبد السوءى مارأيت له أثراً »^(٣٣) .

وقال : « آليت لا أقبلك وأنت ذو سبب أو نسب »^(٣٤) .

وقال : « ان جعلت لغيري عليك مطالبة ، أشركت بي ، فأهرب هريين : هرباً من الغريم ، وهرباً من يدي »^(٣٥) .

(٥)

نص النفري^(٣٦) :

« ان كنت ضالتك نهت إلا عني ، وجرت إلا معي » .

ترجمة آربري للنص^(٣٧) :

(If I am thy wandering beast, thou earnest except from Me, and thou

art bewildered except with Me).

استدراك وتعليق :

من الواضح ان عبارة النفري « إن كنت ضالتك » الواردة

في هذا النص تعني : « ان كنت باعدي بغيتك وطلبتك » . وقد فأت الاستاذ آربري هذا المعنى فترجم هذه العبارة على النحو التالي : « ان كنت بهيمنتك الضالة » وهذا كلام - كما ترى - لامعنى له هنا ولا يعقل من أحد أن يقوله في مواجهة الحق سبحانه .

مامعنى نص النفري ؟

يبدولنا أن النفري يشير هنا الى ذلك السفر الصوفي ، سفر التيه والخيرة ، سفر من يطلب الحق بنفسه لا بالحق .

وهذا الاسفار ثلاثة لارابع لها^(٣٨) كما يقول ابن عربي « وهي سفر من عنده ، وسفر اليه ، وسفر فيه » وهذا السفر فيه هو سفر التيه والخيرة . . . »^(٣٩) .

ويتحدث ابن عربي في « كتاب الاسفار » عن المسافرين من عند الحق ، وعن المسافرين الحائرين التائهين الذين يطلبون الحق بأنفسهم ، فيسافرون اليه ، ويسافرون فيه ، ولكنهم لا يصلون الا الى أنفسهم .

فأما (المسافرون من عنده) فهم ثلاثة : مسافر مطرود كسفر ابليس ، ومسافر عاصٍ يخالف خجل من نفسه أن يقيم في الحضرة مع المخالفة ، ومسافر سفر اجتناء واصطفاء كسفر المرسلين من عنده الى خلفه وسفر الوارثين العارفين .

وأما (المسافرون اليه) فمنهم من جسم الحق وشبهه ، فهؤلاء محجوبون عن رؤية الحق ، لا يصلون اليه وانما يصلون الى (الحجاب) وهم أبدأ في تيه وحيرة . ومنهم من « نزهه عن كل ما لا يليق به بل يستحيل عابه عما جاء في التشابه في كتابه . . . »^(٤٠) فهؤلاء في سفرهم هذا لا يصلون الى الحق وانما يظلون أبدأ تائهين حائرين .

وثم صنف ثالث من « المسافرين اليه » هم المصومون المحفوظون الذين يصلون الى الحق بالحق .

« وأما المسافرون فيه فطائفتان :

طائفة سافرت اليه بأفكارها وعقولها فضلت عن الطريق . . . وطائفة (« سافر بها فيه ») وهم الرسل والأنبياء والمصطفون من الأولياء كالمحققين من رجال الصوفية . . . »^(٤١) .

ولقد أثارت إشارة أبي يزيد البسطامي :

« السالك مردود والطريق مسدود » هواجس بعض الصوفية فتساءل ان كان هذا القول يتعارض مع ما جاء في الحديث النبوي الشريف : « من طلب الله وجدته » . وليس في الحقيقة ثمّ تعارض - كما أوضح ابن عربي في (رسالة الانتصار) . وذلك أن « قوله (ﷻ) » - من طلب الله - يعني بالله أو بغيره ؛ ان كان بالله فضرورة أن يجده ، ومن طلبه بغيره كيف يصح أن يجده «^(٣١)» .

الى هذا المعنى قصد أبو يزيد البسطامي بإشارته . فمن طلب الحق بالحق وصل اليه ، أما من طلب الحق بغيره فطريقه أبداً مسدود .

وكثيراً ماكرر النفري هذا المعنى . قال في « كتاب المخاطبات » :

« وكلت حجابي بطلبك لي »^(٣٢) وقال :

« يا عبد ! ماتطلب مني ، ان طلبت ماتعرف رضىت بالحجاب وان طلبت مالاتعرف طلبت الحجاب »^(٣٣) .

وقال النفري في « كتاب المواقف » :

« من لم يكن جاذبه الله لم يصل الى الله »^(٣٤) .

وتتردد عند الصوفية حكاية لها دلالتها ومغزاها . يسأل النبي داود (عليه السلام) الحق - سبحانه - أين يجده ، فينكر عليه الحق سؤاله ويرد عليه معاتباً ومرشداً .

قال داود :

- يارب ! أين أطلبك ؟

- يا داود ! أنت من أول قدم فارقته .

- يارب ! وكيف ؟

- لأنك جعلت الطلب منك اليّ ، ولو جعلته مني اليك لوجدتني «^(٣٥)» .

— الهوامش —

٢١ - النفري - كتاب المواقف - ترجمة آرثر آربري - ص ٥٨ الفقرة (١٢) - النص الانكليزي .

٢٢ - النفري - كتاب المواقف - ص ٤٢ (الموقف ٢١) .

٢٣ - النفري - كتاب المواقف - ترجمة آرثر آربري - ص ٥٨ - الفقرة (١٠) - (الموقف ٢١) - (النص الانكليزي) .

٢٤ - النفري - كتاب المخاطبات - ص ١٤٧ . ٢٥ - النفري - كتاب المواقف ص ٥٧ .

٢٦ - المصدر السابق - ص ٦٦ . ٢٧ - المصدر السابق - ص ١٧ .

٢٨ - المصدر السابق - ص ٤٩ . ٢٩ - النفري - كتاب المواقف - ص ٤٢ .

٣٠ - النفري - كتاب المواقف - ترجمة آربري - ص ٥٨ - الفقرة (١١) - (النص الانكليزي) .

٣١ - ابن عربي - رسائل ابن العربي - كتاب الأسفار ص ٣ .

٣٢ - ابن عربي - المصدر السابق - ص ٦ . ٣٣ - ابن عربي - المصدر السابق - ص ٧ .

٣٤ - ابن عربي - رسائل ابن العربي - رسالة الانتصار - ص ١١ .

٣٥ - النفري - كتاب المخاطبات - ص ١٨٤ . ٣٦ - المصدر السابق - ص ١٨٧ .

٣٧ - النفري - كتاب المواقف - ص ٨٦ .

٣٨ - عز الدين عبد السلام المقدسي - كتاب حل الرموز ومفاتيح الكنوز - مخطوط برقم ١٠٣٦٣ (في دار صدام للمخطوطات / بغداد) - الورقة (٤) .

١ - النفري - كتاب المواقف - ص ٤٣ .

٢ - النفري - كتاب المواقف - ترجمة آربري بالانكليزية - ص ٥٨ ، الفقرة (١٣) .

٣ - راجع (لسان العرب) لابن منظور - مادة (ضل) -

٥ - ابن عربي ، رسائل ابن العربي - كتاب المسائل - ص ٨ .

٦ - ابن عربي - كتاب انشاء الدوائر - ص ٣٢ .

٧ - محيي الدين بن عربي - الفتوحات المكية - السفر الأول - تحقيق د . عثمان يميني - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٢ - ص ٢١٢ .

٨ - ابن عربي - الفتوحات المكية - دار صادر - بيروت - ج ٣ ص ٥٤٤ .

٩ - النفري - كتاب المواقف ، ص ٦١ . ١٠ - المصدر السابق ، ص ٣١ .

١١ - المصدر السابق - ص ١٠٥ . ١٢ - المصدر السابق - ص ٨٤ .

١٣ - النفري - كتاب المواقف - ص ٤١ .

١٤ - النفري - كتاب المواقف - ترجمة آرثر آربري - ص ٥٦ (الفقرة ١٦) - (النص الانكليزي) .

١٥ - ابن عربي - رسائل ابن العربي - كتاب التراجم - ص ٢٤ .

١٦ - محيي الدين بن عربي - الفتوحات المكية - تحقيق د . عثمان يميني - السفر الثاني ، ص ٢٢٩ .

١٧ - ابن عربي ، رسائل ابن العربي - كتاب المسائل - ص ٩ .

١٨ - راجع (لسان العرب) لابن منظور - مادة (وجد) .

١٩ - ابن عربي - رسائل ابن العربي - كتاب الأسرار - ص ٧١ .

٢٠ - النفري - كتاب المواقف - ص ٤٢ .

أغلوطة في سرح العيون

مناقشة

د . رشيد الجميلي

كلمية التربية للبنات / جامعة الأنبار

وعلى الرغم من أن الأمانة العلمية ، والدقة ، والبحث ، والتحري ، والإستقراء ، والإستقصاء . . هي السمات الرئيسة التي إتسمت بها معظم نتاجات وكتابات الأوائل من المؤرخين والباحثين ، إلا أن البعض منهم قد فاته حقيقة بعض ماورد في ماصتفه ، وهذه الأوهام والنفوس التي وقع فيها نفر من مؤرخينا وباحثينا القدامى قد تناقلها عنهم - وللأسف - من جاء بعدهم من صف المؤرخين والباحثين حتى كادت تصبح حقائق مسلم بها .

ولكن لحسن الحظ ، ولكي تأخذ الحقيقة سيلها إلى المعرفة ، فإن مافات البعض من مؤرخينا وباحثينا الأوائل ، لم يغفل عنه البعض الآخر عن سلك السبيل ذاته في ميدان البحث والتأليف ، فقد تنبه ونبه إلى ذلك .

ومع عظم أهمية هذا التنبيه الذي ينم عن تجسيد حي لأصول البحث العلمي ، فقد وجدنا ان همداء غير قليل من المؤرخين والباحثين ، القدامى منهم والمحدثين ، قد جهلوا أو تجاهلوا الواقع التاريخي لبعض الروايات والآراء والأفكار التي وردت في بعض مصادر التراث العلمي العربي ، الأمر الذي

من الأمور التي يتميز بها تراثنا العلمي العربي ، ان معظم هذا التراث قد حفظه لنا أناس كرموا جُلُّ أوقاتهم من أجل تلوين مآرؤوه ، أو سماعه ، أو شاهده ، أو ما توصلوا اليه عن طريق التجربة والملاحظة ، وهؤلاء هم مؤرخونا وباحثونا الذين نعتمد عليهم - من خلال مصنفاتهم - في دراستنا لتاريخنا العربي الاسلامي وحضارتنا العربية الاسلامية .

وإذا كان البعض من هؤلاء قد وجد في تسنمه للمناصب الرسمية مايسد عنه حاجته من المتطلبات الحياتية ، فإن البعض الآخر قد حوّل عن ضروب إنتاجه فحسب في سبيل الوصول إلى تحقيق هذه المتطلبات .

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تكتنف العصر التي عاش فيها الصف الأول من المؤرخين والباحثين - ومثل ذلك ماكانت تتسم به الحياة العلمية والعملية لأفراد هذه الطبقة ، فإن ماوصلنا من تراث على أيدي هذه الصفوة المثقفة ، يستحق منا أعلى درجات الثناء والتقدير . فلولاهم لما عرفنا ماعرفناه الآن ، ولولاهم لما وقفنا على ماوقفنا عليه اليوم .

يحتّم على المؤرخ والباحث المعاصر أن يتوقف عندها ليتبين صحتها من خطاها ، فيأخذ بصحتها وينبذ إلى خطئها تبعاً لمنهج البحث التاريخي وموضوعية البحث .

وبعد ، فلا نريد هنا الإشارة إلى أكثر مما أشرنا إليه آنفاً ، فإن ما سنقف عليه الآن خير مثال لبعض الروايات والآراء والأفكار التي وردت في بعض مصادر التراث العلمي العربي ، والتي ينطبق عليها ما ذكرناه أعلاه لإبتعادها عن جانب الصواب تماماً .

فمن هذه الروايات والآراء والأفكار ، نورد هنا ما جاء عند الأديب المؤرخ ابن نباتة المصري ، عن عالمنا الكيميائي جابر بن حيان ، والذي سيتبين لنا بلا أدنى ريب أن ما جاء به ابن نباتة في هذا الخصوص لا يتعدى كونه أغلوطة كنا نتمنى لو أن كتاب ابن نباتة الموسوم بـ « شرح العيون في شرح رسالة ابن زيلدون » قد خلا منها .

وقبل أن نأتي على مناقشة الأغلوطة التي وردت في كتاب شرح العيون ، وكجزء من مقومات بحثنا هذا ، نرى أن نقف أولاً على جانب من تاريخ حياة الأديب المصري ابن نباتة ومنهجه وآثاره ، والتعريف بكتابه الذي تضمن هذه الأغلوطة وأغراضه .

إن أديبنا المصري هو أبو بكر^(١) جمال الدين محمد بن شمس الدين^(٢) محمد بن شرف الدين محمد بن أبي الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب عبدالرحيم^(٣) بن محمد بن اسماعيل بن نباتة^(٤) الفارقي^(٥) الأصل ، المصري^(٦) المولد ، أحد أفراد الأسرة النباتية التي فخر في شعره بالانتساب إليها :

ورثتُ اللفظ عن سلفي وأكرم
بآل نباتة القُرُ السُراة
فلا عجب للفظي حين يحلو

فهذا القَطْرُ من ذاك النبات^(٧)
ولد جمال الدين محمد بمصر في ربيع الأول سنة ست
وثمانين ومستمائة (١٢٨٧ م) ، بزقاق القناديل ، أحد مواطن
الأشراف والأعيان في ذلك الحين^(٨) ، على عهد الملك المنصور

قلاوون ، ولم يكد يجاوز سن الحداثة حتى توجه للدرس والتحصيل والأخذ بأسباب العلوم والآداب ، فتلقى على أبيه علوم القرآن ، وكثيراً ما كان يصحبه إلى زيارة أصدقائه من الفضلاء ، منهم ابن دقيق العيد ، بدر العلماء وكوكبهم اللامع ، فبدله على نفائس الكتب ، ويحثه على قراءتها ، يذكر ابن نباتة منها : ديوان الحماسة لأبي تمام ، والذخيرة لابن بسام ، وجلس إلى شهاب الدين الحلاوي ، وعبدالعزیز الحصري ، وتلقى عنها الحديث ، كما ورد شرعة الشيخ الأبرقوهي ، فأخذ عنه السيرة النبوية بقراءة ابن سيد الناس عليه ، وغير هؤلاء من علماء عصره^(٩) .

أما الأدباء والشعراء ، فقد لقي أيضاً منهم الكثير ، ذكر منهم في إجازته لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي^(١٠) (المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) :

١ - الشيخ علم الدين قيس بن سلطان المصري الضرير من أهل منية ابن الخصب .

٢ - الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد المعروف بابن المفسر .

٣ - الشيخ الأديب سراج الدين عمر الوراق المصري .

٤ - الأديب نصير الدين المناوي الحمامي .

ولم يكف ابن نباتة بالتعرف على كل هؤلاء والأخذ عنهم ، وهم أساطين الشعر والأدب بل عاشر غيرهم ، وقد أشار إلى ذلك في معرض إجازته للصفدي ، واعتذر عن ذكرهم ، لأنه عز عليه ألا يحضره شعرهم^(١١) . لكن الصفدي يذكر لنا أنه كان يكثر من التردد على القاضي علاء الدين بن عبدالظاهر ، ويذكر أنه كان له منه نصيب^(١٢) .

وهكذا قضى جمال الدين بن نباتة صدر أيامه وأول حياته في صحبة العلماء يتخرج عليهم ، ويحمل العلم عنهم ، ومع الأدباء والشعراء يطارحهم الكلام ويطارحونه ، وينشدهم الشعر وينشدونه ، وفيما بين ذلك يقرأ الكتب والأسفار يتخصص مافيها من معارف ، ويعي ماحوته من آداب ، حتى أصبح ولما يبلغ الثلاثين ، من زعماء الشعر وأمرء الكلام^(١٣) .

ذكر الصفدي :

« جمال الدين أبو بكر ، الأديب الناظم النائر ، تفرد

بلطف النظم وعلوية اللفظ وجودة المعنى وغرابة المقصد وجزالة الكلام وإنسجام التركيب ، وأما نثره فانه الغاية في الفصاحة ، سلك منهج الفاضل ، وحذا حذوه ، وأطفأ نور ابن عبدالظاهر ، فلم يدع له في القلوب حظوة ، وأما خطه فأغل قيمة من الدرر لورزقي حظاً وأغزردية من الغيث ، إلا أن الزمان أصبح قلبه عليه فظاً لو أنصفه الدهر كان للكتاب إماماً ، ولورقاء رتباً يستحقها لغرد مسجعه حماماً ، وإنسجم لفظه غماماً ، وطلع بدر فضله قمماً ،

وغضارة الأيام تأن أن يرى

فيها لأبناء الذكاء نصيب

ولذاك من صحب الليالي طالباً

جداً وفيها فاتمه المطلوب»^(١١)

ثم أخذت الأيام به في مصر تمضي ، والشباب يطوي مطارفه شيئاً فشيئاً ، ويصبح فاذا له زوجة وأولاد ، فيضيق به العيش ، ويترنق أمامه الصُفُور ، ويتنفس بالشكوى ويبحث عن وظيفة في الديوان فلا يجد ، ويمدح الأمراء فلا يظفر إلا بالكفاف ، ثم تظل الديار المصرية الفتن ، ويشيع الإنقسام بين الأمراء ، وتحاك الدسائس في قصور الممالك ، وتروى أحاديث السلب والنهب في كل مكان ، فيضيق لكل ذلك صدره ، ويتشعب فؤاده ، وينوي الرحيل عن وطنه ، وإن أزاله لتتحني على الهم والأسى ، أن يفارق مسقط رأسه ، وملهن حدائته ، وملتنقى أصدقائه وأترابه .

سواطن أهلي ثم صحبي وجيوتي

وأول أرض قس جليدي ترابها»^(١٢)

وفي سنة ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) ، سافر إلى الشام ، واتخذ دمشق له مستقراً ومقاماً ، حيث أقام فيها مدة تقارب الخمسين سنة ، وفيها لقي والده شمس الدين ، وكان قد سبقه بالرحلة إليها ، وتولى دار الحديث النورية بها ، فكان كل ما يحصل عليه ينفقه على أحفاده أولاد جمال الدين ، وهناك طاب له العيش ، وأخذ إلى شيء من راحة ومكون . وكان ابن نباتة خلال إقامته

في دمشق كثير التردد على حماة وحلب وغيرها»^(١٣) .

وكان إسماعيل بن علي بن محمود الملك المؤيد المعروف بأبي الفدا ، أحد الأمراء الأيوبيين الذين تولوا حماة من قبل الملك الناصر ، ومنحه استقلالاً بها ، وكان رجلاً فاضلاً ، وعالمًا بحرياً ، له مشاركة في شتى العلوم والآداب . . وله في ذلك مؤلفات ، والملك سوق يجتلب إليه ما يفتق عنه ، لذلك هوت إليه أفئدة العلماء ، ورحل إليه الشعراء ، وقيلت فيه المدائح والمطولات ، فمنح الجزيل ، وأعطى الكثير ، وغدت ساحته بحماة مزبداً ومكافئاً .

فلم يجد ابن نباتة بداً من التوجه إليه ، ووصل حبله بحباله ، وما إن حل بساحته ، ووقعت عيناه عليه حتى أحبه وشغف به ، وملا عليه نفسه من أقطارها»^(١٤) .

وفي حماة ، وبجانب مليكها ، عاش ابن نباتة أسعد أيام حياته ، وفيها تفتت قريحته عن أروع شعره وأخلده على الأيام ، بل فيها نسي نيله ومصره ، وأهله ووطنه :

ألم تر أنا قد سلونا بأرضه

مراداً لنا في أرض مصر ومربما

إذا ابن تقي الدين جاد نباته

علينا فلا مئت يد النيل إصبعا

وكان الملك المؤيد قد رتب لابن نباتة في كل شهر ألف درهم ، غير ما كان يتحف به وهو مقيم بدمشق»^(١٥) . وفي كنفه ألف كتاب «مطلع الفوائد» ، وثناه بـ «سجع المطوق» ، وعمل له كتاب «الفاضل» من كلام القاضي الفاضل ، وجمع من مدائحه فيه طاقة من الشعر سُميت بـ «المؤيدات» .

وهكذا عاش ابن نباتة وهو ينال من أعطيات أبي الفداء ما لم يناله النواص من الرشيد ، والمتني من سيف بني حمدان .

وفي سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، مات الملك المؤيد ، إلا أن صلته بملوك حماة لم تنقطع بموته ، فلم يلبث أن تولى الملك الأفضل بعد أبيه ، فسار إليه ، وأنشده قصيدته المشهورة ، هناء فيها بالملك ، وعزاه في أبيه الراحل :

هناء عما ذاك السعزاء المقدما

فما عجبس المحزون حتى تبس»^(١٦)

وجرى الأفضل على سُنن أبيه ، فقربه إليه وأدناه ، وهو يجزيه المدائح السائرة ، والقصائد الفاخرة . وله عمل أرجوزته المسماة بفرائد السلوك في مصايد الملوك^(١) ، والتي حاكت فيها شعراء العصر العباسي عن قالوا في هذا الفن ، كأبي نواس وابن المعتز .

ولكن الأفضل لم يلبث أن اضطربت أمور مملكته اضطراباً انتهت بعزله ثم موته سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) ، وموته انتهت حياة الأسرة الأيوبية بحماة ، وانقطعت مدائح ابن نباتة لهذا البيت ، كما انقطع معين الرغد والمطاء ، وعاد الزمان بيدي لابن نباتة صفحة جديدة من الهم واضطراب الأحوال^(٢) ، خاصة وقد أضيف له إلى نكد الزمان - كما يقول الصفدي - أنه لم يمش له ولد ، فدفن فيها أظن قريباً من ستة عشر ولداً ، كلهم إذا ترصرع وبلغ حساً أو ستاً أو سبعاً يترواه الله ، فيجد لذلك الآلام المبرحة ، ويرثيهم بالأشعار الرائقة الرقيقة^(٣) ، فاقصر على الإقامة بدمشق ، والإنجماع عن الناس ، وقرر الصاحب أمين الدين أن يكون في كل سنة ناظر القمامة (القيامة)^(٤) بالقدس ، أيام زيارة النصاري لها ، فيتوجه يباشر ذلك ويعود^(٥) .

وأمين الدين المذكور كان أحد نُظار الدواوين بدمشق ، حينما أقام ابن نباتة فيها بعد موت الأفضل ، وتوطدت بينهما المودة والصداقة ، وصاحبه في رحلاته وأسفاره ، وله عمل الرسالة المعروفة بـ « حظيرة الأنس إلى حضرة القدس » .

ثم أضيفت إليه وظيفة أخرى بدمشق في ديوان التوقيع ، والتوقيع في عصر المماليك كان يطلق على أحد ضروب الرسائل والمكتبات الديوانية ، يشبه المراسيم ، وكان لابن نباتة في ذلك شأو بعيد ، وتوقيعات عُرف بها ، جمع طائفة منها في كتابه المسمى : « تعليق الديوان » . وكان على مضي الزمن ، يهتف بذكر مصر بين الحين والحين ، ويعاوده الحنين إليها ، وإلى نيلها وأهرامها ، وربوعها ومعاهدنا .

وفي الوقت الذي اشتد فيه حنينه ، كان السلطان الناصر حسن بن قلاوون يحكم مصر ، فأرسل إليه بمدحه ، ويشيد بأجداده ، فاستجاب له السلطان ، وإستدعاه ، وذلك سنة

٧٦١ هـ (١٣٥٩ م) ، وعاد ابن نباتة إلى وطنه وهو شيخ كبير عاجز ، وتحركت فيه نوازع الشعر ، وهزه عطف السلطان وأعطياته ، فأخذ ينشد فيه المدائح ، وأعجب السلطان بشعره ، فأمر بنسخ ديوانه ، وأن يوضع في أعز مكان من مكاتب قصوره .

وفي كنف هذا السلطان ألف ديواناً للخطب الجمعية ، على نحو ما فعله جده الأكبر عبدالرحيم^(٦) . ثم أمر السلطان بإجراء معلومه ، فوجما صُرف له وربما لم يصرف ، إلى أن مات في ٧ صفر سنة ٧٦٨ هـ^(٧) (١٣٦٦ م) ، بعد أن ملأ الدنيا شعراً ونثراً^(٨) .

ومن كتب وأثار ابن نباتة المصري ، والتي يقول عنها مؤلفها (ابن نباتة) : « وأما مصنفاتي التي هي كالراسمين لانسائي جمعها ، ولولا الخزائن الشريفة السلطانية الملكية المؤبدية تحيرها ما استخرت نصبها ورفعها فهي »^(٩) :

إبراز الأخبار - التحفة الإنسية في الرحلة القدسية - جلالة القطر - خبز الشعير - تلطيف المزاج في شعر ابن حجاج - خطبة في تعظيم شهر رجب - ديوان خطب جمعية - ديوان شعره - رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم - رسالة في المفاخرة بين الورد والترجمس - رسالة في هجاء الحسن بن علي بن حمد المعروف بابن شنار - سوق الرقيق - سلوك دول الملوك - السبعة السيارة - سجع المطوق - زهر المنتور - شعائر البيت التقوي - الفاضل من كلام الفاضل - طرائف الزيادة - فرائد السلوك في مصايد الملوك - القطر النبائي - مختارات ديوان ابن الرومي - مطلع الفوائد ومجمع الفرائد - مختار ديوان ابن سناء الملك - مختار ديوان ابن قلاؤس - مختار ديوان شيخ الشيوخ الشيخ شرف الدين - مراسلات ابن نباتة في مخاطبة أقرانه - المنتخب المنصوري - منتخب الهدية من المدائح المؤبدية - شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون^(١٠) .

وكتاب ابن نباتة الأخير « شرح العيون » هو الكتاب الذي يعيننا هنا تبعاً لما ورد فيه ، وما جاء في موضوع هذا البحث ، ومنحاول فيها يلي ، وشيء من الإيجاز ، تبيان أبرز وأهم سماته .

إن كتاب سرح العيون من الكتب الفريدة ، التي جمعت من شتات الفوائد ، ومتشعب التراجم والطرف والنوادر ، ومصطفى الشعر ومنخول الكلام مالا يجتمع في كتاب ، ألفه جمال الدين محمد بن نباتة المصري (المتوفى سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) تلبية لطلب الملك المؤيد ، وقد أشار في مقدمته إلى ذلك ، وأوضح أنه اعتذر للملك تواضعاً ، وقد ألح عليه بقبول هذه المهمة ، فقابل أمر الملك بالطاعة الواجبة ، وقد ألف ابن نباتة كتابه هذا شرحاً لرسالة ابن زيدون الهزلية ، كما أوضح بعض العقبات التي اعترضت مسيله في شرح رسالة ذي الوزارتين ، وذكر أنه لم يتيسر له أن يراجع بعض الأسفار في خزائن دمشق الوقفية^(١) .

وكان ابن زيدون من شعراء الأندلس وكتابتها ، متضلماً من فنون الأدب عارفاً بأنخبار العرب ، راوية لأشعارها وأمثالها ، حافظاً لطرفها وملحها ، كتب هذه الرسالة على لسان ولادة بنت المستكفي - إحدى الظريفات من بنات خلفاء الغرب الأمويين إلى أحمد بن عبدوس ، منافسه في حبها ، ومكانته عندها ، بأسلوب تهكمي ساخر ، وشاها بيديع الكنايات والتشبيهات ، ورصعها بالإشارات التاريخية ، والمعارف الأدبية ، كما ضمنها الكثير من الأبيات الرائقة ، والأمثال السائرة^(٢) ، وقد أحدث تأليفها آنذاك ضجة كبرى في الأوساط الأدبية ، فتناولها كثير من الأدباء بالتعليق والشرح ، نذكر منهم خليل الصفدي الذي شرحها ، وسماها « غمام المتنون في شرح رسالة ابن زيدون »^(٣) . وبالإضافة لما تقدم ، فقد تضمنت رسالة ابن زيدون هذه الكثير من الموضوعات التي يعوزها الشرح والتفسير ، فجاء ابن نباتة ، فشرح غريبها ، وترجم الأعيان الذين ورد ذكرهم فيها ، ثم استطرده إلى ذكر الوقائع والأيام والأحداث ونصوص الشعر والخطب والحكم ، مما جعل هذا الشرح مرجع الباحث ، وغنية المتأدب ، ومراد المستفيد^(٤) .

بدأ ابن نباتة الرسالة فترجم لمنشئها ، وبين سبب إنشائها ، وتناولها بعد ذلك ، فشرحها فقرة فقرة شرح أديب كبير . ويظهر أنه ألف هذا الكتاب أثناء إقامته بدمشق ، وشبابه

غض ، وعيشه مونتق ، وذمته حاضر جميع ، فنقل إليه عصارة محفوظه ، وخلاصة ما حوته خزائنه كتبه ، قال : « وكنت أعرف ببعض خزائن دمشق الوقفية أسفاراً فيها للطلاب منجع ، وللأفهام الناشئة ذكرى تنفع ، فلم يتبها أن أعار منها كتاباً ، ولا أراجع من السنة حروفها خطاباً ، فقلت : هذا علر آخر لم يكن في الحساب ، وهذا قصد قد تغلقت دونه الكتب فانها ذات أبواب ، ولم يبق الإصباة لحاصل التي أبقنتها نوب الدهر ، واستنباط الشمد إذا أعجز ورود البحر ، فأملت شرح هذه الرسالة عن فكر قد مدته القرح ، وشرحت إلا أنني مقصر وما أطيل الشرح ، بيد أنني لم اعتمد إلا على نقل خبر صحيح ، ونسب قول صريح ، ولم أخل ترجمة كل مذكور من فائلة سارة ، ونادرة دارة ، وأقوال سديدة ، وأبيات مشيدة ، وفقر ما أخطأها فطنة سعيدة ، ولم آل في إختيارها جهداً ، ولا ازددت مع صروف الزمان إلا نقداً ، هذا مع تجنب الإكثار ، وترك الإخلال بنظائر الأشعار ، والتخفيف عما لعل المباحث تقتضيه من العثار »^(٥) .

والآن ، وبعد أن وقفنا آنفاً على جانب من تاريخ حياة الأديب المصري ابن نباتة ، وما ينطوي عليه كتابه « سرح العيون » من أهمية متميزة ، نأتي إلى بيان الأغلوطة التي وردت فيه .

إن موضوع هذه الأغلوطة يتركز حول تفي المؤرخ ابن نباتة لحقيقة شخصية أبي الكيمياء العربية « جابر بن حيان » ، حيث يرى أن لا وجود لشخص بهذا الاسم في عالم الكيمياء ، فهو (ينكر أن رجلاً كهذا قد شهد التاريخ ، وهي قصة تتكرر مع كثيرين من نوابغ الفكر ، كأنما الإنسانية تستكثر على نفسها أن ينبغ من أبنائها أحد يجاوز بنيوذه هذا حداً معلوماً ، فان جاوزه نال عنه الخلف انه أسطورة لفقها الخيال)^(٦) ، وهذا هو المذهب إليه ابن نباتة في هذا الخصوص حيث يقول :

« وأما جابر بن -ميان المذكور ، فلا أعرف له ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد على نقله ، وهذا دليل على قول أكثر الناس ، أنه اسم موضوع ، وضعه المصنفون في هذا الفن ،

ويزعمون انه كان في زمن جعفر الصادق رضي الله عنه ، وإنه إذا قال في كتبه : قال لي سيدي ، وسمعت من سيدي ، فإنه يعني به جعفر الصادق رضي الله عنه . . .^(٣١) .

إن قول ابن نباتة المصري أنف الذكر ، يحتم علينا هنا أن نقف أولاً على جانب من سيرة عالمنا الكيميائي جابر بن حيان وتراثه العلمي والعمل ، وذلك كدليل سابق على حقيقة مانحن بصدد إثباته ، وخطأ ما ذكره الشاعر المصري ، ثم تأتي بعد ذلك إلى مناقشة الأغلوطة التي وردت بحق صاحبنا مؤسس علم الكيمياء .

وصاحبنا هذا هو أبو عبدالله جابر بن حيان بن عبدالله الكوفي المعروف بالصوفي ، وكان من أهل الكوفة^(٣٢) . ومن المؤسف هنا أن المصادر العربية المعروفة لم تذكر لنا تاريخ ولادة جابر ، ومن حقنا في هذا السياق أن نعتب على هذه المصادر لعدم تطرقها إلى هذا الجانب وأسفنا على هذا الجهل . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن هنالك ما يسوغ لنا إبداء الرأي في هذا المجال على وجه التقريب على أقل تقدير .

فمن الأمور المسلم بها في هذا المضمار ، تلك العلاقة التي ربطت بين جابر بن حيان والإمام جعفر الصادق (المتوفى سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م) من جهة ، وبين جابر بن حيان والخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) من جهة أخرى . ومن هنا يمكننا التسليم أن جابر بن حيان قد أدرك خلافة الرشيد وهو في العقد الخامس من عمره ، وعليه يمكننا القول أن ولادة جابر كانت في حدود العقد الذي سبق قيام الدولة العباسية (١٣٢ هـ / ٧٤٩ م) .

عرف جابر الكيمياء عن طريق الإمام جعفر الصادق ، وهو الذي كان يسميه في كتبه بـ « سيدي جعفر صلوات الله عليه »^(٣٣) .

ويعترف جابر في كتاباته بأن للإمام جعفر الصادق الفخر والفضل والشكر فيما علم وما وصل إليه في صناعة الكيمياء^(٣٤) . وكما قيل :

حكمة أورثناها جابر

عن إمام صادق القول وفي^(٣٥)

على أن صلة جابر بجعفر لا بد أن تكون قصيرة الأمد ، لأن وفاة جعفر كانت سنة ٧٦٥ م ، وهو بعد مولد جابر بما لا يزيد عن عشرين عاماً^(٣٦) .

لقد أولع جابر بدراسة الكيمياء ، وتشير مؤلفاته في هذا الصدد أن ولعه هذا قد دفعه إلى تمجيد وتعظيم هذا العلم . ففي كتابه الموسوم بكتاب « الحجر » ، يقول جابر في مقدمة هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ذي الآلاء والنعماء والطول والعظمة والكيمياء (بدل والكبرياء)^(٣٧) .

وإذا كانت مدينة الكوفة قد أغرت جابر بالبقاء فيها فترة طويلة « لتدبير الإكسير لصحة هوائها »^(٣٨) ، فإن حاضرة الخلافة العباسية - وبما عُرف عنها لأهل العلم وطلابه - قد جذبت إليها ابن الكوفة .

وهناك في بغداد - كما في الكوفة - أبدع جابر أيما إبداع ، فقال بذلك ما يليق بالعلماء من تكريم من لدن الخليفة المتنور هارون الرشيد على وجه الخصوص .

أما عن السنة التي توفي فيها الفيلسوف الكيميائي جابر بن حيان ، فلم تذكر لنا المصادر التي ترجمت له أي شيء بهذا الخصوص كما هو الحال بالنسبة لسنة ولادته ، الأمر الذي فتح الباب أمام التكهن والاجتهاد وما ترتب على ذلك من خطأ الكثيرين الذين خاضوا في هذا المجال - كما سنرى - وكما حدث مثل هذا في جوانب أخرى من تاريخ ابن حيان مستقف عليها من خلال صفحات هذا البحث .

ففي هذا الخصوص ذكر صاحب هدية العارفين أن وفاة جابر كانت في سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م)^(٣٩) . ويرى إدورد فاندريك أن جابر بن حيان قد توفي سنة ١٦١ هـ^(٤٠) (٧٧٧ م) . ويقول الأستاذ محمد محمد فياض أن جابر بن حيان : (قد أدرك عصر المأمون ، والمرجح أنه توفي سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م)^(٤١) . ويذكر الأستاذ خير الدين الزركلي أن جابر بن حيان قد توفي سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م)^(٤٢) .

أما الأستاذ محمد محسن ، الشهير بـ « آغا بزرك » ، فيرى أن جابر بن حيان قد توفي سنة ٢٠٠ هـ برواية أبي الربيع

سليمان بن موسى بن أبي هشام عن أبيه موسى في صدر كتاب الرحمة لجابر أنه قال : لما توفي جابر سنة المائتين من الهجرة ، وجد هذا الكتاب تحت رأسه^(١) .

ونحن نرى أن معاصرة جابر للرشيدي إبان فترة خلافته (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) ، خير دليل على خطأ كل من يرى أن وفاة جابر كانت في العقد الذي سبق تولي الرشيد الخلافة (أي قبل سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) .

ثم إن ما كان لجابر من مآثر مجيدة زمن الخليفة المذكور ، دليل آخر على أن حياة صاحبا العلمية والعملية قد امتدت حتى العقد الأخير من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، وعليه فإن وفاة جابر - على الأرجح - كانت في حدود التاريخ المذكور .

لقد وضع جابر أسساً وضوابط كيميائية أصبحت فيما بعد منهجاً قوياً لجميع العلوم التطبيقية : فقد شارك جابر باقي العلماء والفلاسفة العرب بالمبدأ المثالي لدراسة العلوم ، وهو « مبدأ التجربة والترصد » وجعل « المختبر » دعامة أساسية في دراسة الكيمياء^(٢) . وبلغ اهتمام جابر بالتجربة حد الإسراف في الحرص بطريقة لا موجب لها ، ولكن مما يدل على مبلغ دقته وحرصه الشديد في منهج بحثه .

فكان يشترط في خطته العملية في بحث خواص الأشياء أن تكون نابعة عن تجربته شخصياً^(٣) .

قال في كتاب « الخواص الكبير » :

« يجب أن تعلم أنا نذكر في هذه الكتب (أي الكتب التي يبحث فيها خواص الأشياء) خواص ما رأينا فقط - دون ماسمعه أو قيل لنا وقرأناه - بعد أن إمتحناه وجربناه ، ما صح أوردناه وما بطل رفضناه وما استخرجناه نحن أيضاً وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم »^(٤) .

وينفس المعنى أيضاً يقول جابر في كتابه « الخواص الكبير » :

« والله قد عملته بيدي ويعقل من قبل ، وبحثت عنه حتى صح ، وإمتحتة فيما كذب » ، ويقصد بهذه التعابير ، أنه وضع

النظرية ، ثم جرب ، وأكد . التجربة حتى صحت النظرية^(٥) . وقال في كتاب « الموازين » :

« إن كل نظرية تحتل التصديق والتكذيب ، فلا يصح الأخذ بها إلا مع الدليل القاطع » ، ويقصد بذلك التجربة في المختبر ، وقد نصح بالحرص على إتباع هذه القاعدة .

وذكر جابر في كتاب « العلم الإلهي » وصايا وتعليمات للباحث والمتعلم ، وأكد إتباعها ، وهذه أنماط منها :

- ١ - عين الغرض من التجربة وإتبع التعليمات الخاصة بها .
- ٢ - تجنب المستحيل وما لا فائدة منه .
- ٣ - اختر للتجربة الوقت الملائم لها .
- ٤ - كن صبوراً ومثابراً وصامتاً متحفظاً .
- ٥ - اختر لعمل التجارب مكاناً منعزلاً .
- ٦ - لاتصادق إلا من تثق به .
- ٧ - لاتفتقر بالظواهر ، لأن هذا قد يؤدي بتجربتك إلى نتيجة خاطئة^(٦) .

لقد تطرق جابر إلى الكثير من الموضوعات في حقل الكيمياء ، فكان له فيها جعباً لإنجاز علمي ثابت وواضح ، ومن يطلع على مصنعاته سيتبين تلك المآثر المجددة التي حققها ابن حيان في هذا الحقل ، نذكر منها على سبيل المثال :

١ - كان جابر أول من حضر الحوامض ، ولذلك لانخطيء إذا قلنا أنه أبو الكيمياء ، ذلك أننا لا يمكن أن نتصور علم الكيمياء بغير حوامض ، ولم يكن يعرف قبله حامض أقوى من الحقل المركز . فجابر أول من وصف طريقة تحضير حامض الشريك Nitro acid في كتابه « صندوق الحكمة »^(٧) .

٢ - حضر حامض الكبريت ، وسمي - زيت الزاج ، أو الزاج المذيب - والإسم لهذا الحامض نسبة إلى المادة الأولية التي استعملها في تحضيره ، وهي الزاج الأزرق - كبريتات النحاس ، وهذه مادة معروفة منذ العصور القديمة .

٣ - أبيض الرصاص - أي كاربونات الرصاص القاعدية - الأسفيداج .

٤ - الصودا الكاوية .

٥ - الزنجفر ، وهو كبريتيد الزئبق .

٦ - درس خواص الزئبق ، وحضر منه عدداً من الملاغم ، ووصفها وصفاً متقناً ، وكتب في الملاغم كتاباً جليلاً ، وسماه كتاب « الملاغم » .

٧ - إكتشف طريقة فحص النحاس - والمقصود هنا أيون النحاس - فحصاً نوعياً . فمركبات النحاس تكسب اللهب لوناً أزرق ، وهذا الكشف النوعي - المنسوب إلى جابر - لا يزال يستخدم في الكيمياء التحليلية للكشف عن أيون النحاس .

٨ - درس السموم وأنواعها وخواصها ، وقسمها إلى سموم حيوانية ، مثل سم الأفاعي والعقارب ، وسموم نباتية ، مثل الأفيون ، وسموم حجرية أو معدنية مثل الزنجار ، والزئبق ، والزرنخ .

٩ - صنف وشرح الأجهزة والأدوات المختبرية المهمة ، كالمواقد والأفران ، وتعديل الحرارة بحيث تلائم التجربة . وقال في التطهير ، والتقطير التجزيئي ، والتبخير ، والإذابة ، والبلورة ، والإختزال ، والتصفيد ، والتكليس - أي الأكسلة -^(١١) .

وإشتغل جابر أيضاً بتطبيقات كيمائية أخرى كثيرة مثل :

١ - تنقية المعادن .

٢ - تحضير الصلب .

٣ - صباغة الأقمشة والجلود .

٤ - صنع البرنيق (الورنيش) للأقمشة العازلة للماء والحديد .

٥ - استعمال ثاني أوكسيد المغنسيوم في صناعة الزجاج .

٦ - ونجد في كتاباته أيضاً ، وخاصة كتاب « الخالص » شروحاتاً لعمليات التكليس ، والتخثير ، والتبيض ، والتخمير ، والتثبيت ، والتقسية ، والتلين^(١٢) .

٧ - عمل في حقل العقاقير الطبية ، نباتية وحيوانية ومعدنية ، ودرس خواصها ، وله فضل كبير في إدخال الكيمياء في عالم الطب والصيدلة^(١٣) .

آمن جابر بنظرية العناصر الأربعة ، وكما آمن بها غيره من

الفلاسفة والعلماء ، ولكنه وضع نظرية جديدة - يقال فيها أنها تمحوير لنظرية أرسطو - وهي نظرية « الزئبق والكبريت » .

فجابر قبل على أية حال نظرية أرسطو في تكوين المعادن . ولكن يلوح أنه نظر إليها على أنها مبهمة بطريقة كبيرة تجعلها عاجزة عن أن تفسر الحقائق الملاحظة ، ولا يمكنها أن تنير السبيل إلى الوسائل العملية للتحويل Transmutation (أي التحويل إلى ذهب) ، ولذلك عدلها بطريقة ما ليجعلها أقل إبهاماً^(١٤) ، وقد شرحها في كثير من كتبه ، مثل كتاب « الإيضاح »^(١٥) ، وكتاب « الملة » .

إمتاز جابر بن حيان بذلكاء نادر ، ورأي ناضج يدل على تفكير علمي عميق . ولاشك أنه أول فيلسوف وعالم عراقي عربي جعل من الكيمياء علماً رفيعاً ، وقد عمل بالصنعة ، أي تدبير الذهب . ونعتقد أن تناوله للصنعة ، ماضواً إلا إمتداد للفكرة القديمة التي كانت تخيم على الأذهان حتى العصور المتأخرة . فلقد بقيت فكرة « التدبير » قائمة حتى أيام العالم الانكليزي المشهور (روبرت بويل ١٦٢٧ - ١٦٩١) ، الذي فسد نظرية العناصر الأربعة ، والنظريات التي اشتقت منها بمختلف إتجاهاتها وألوانها ، فذهبت - على يده - أدراج الرياح ، ودخلت مبادئ العلوم المعاصرة إلى الحضارة الإنسانية بمفهومها الحديث . ولكن المعروف تماماً أن (روبرت بويل) الذي جاء بعد جابر بن حيان بأكثر من ثمانية قرون ، كان يعمل بالصنعة سراً ، وكان في بيته مختبر يحاول فيه تدبير الذهب . ونستطيع أن نقول لو أن « جابراً » أنكر « الصنعة » بصراحة ، كما أنكرها الكندي وابن سينا ، لكانت منزلته كمتركة عبقرية من عباقرة القرن العشرين في عالم الكيمياء^(١٦) .

وهكذا طار لجابر ذكر في العالم ، واشتهر في أوربا أكثر من اشتهاره في العالم الإسلامي ، وحُرف عند نصارى القرون الوسطى باسم جبر^(١٧) Geber ، وأقبل على كتبه في القرون الوسطى جميع علماء الإفرنج ، وترجموا كثيراً منها إلى اللاتينية ، وتغالوا في مدحه والثناء عليه ، وعلوه من العقول النادرة التي سمح الدهر بها مرة^(١٨) .

والواقع ان هذه الشهرة التي حظي بها الكيمياء العربي جابر بن حيان في أوروبا هي التي دفعت ببعض من الأوربيين في زمن متأخر إلى تصنيف المصنفات في هذا الميدان ، ووضع اسم جابر عليها بقصد تسهيل تداولها ورواجها لشهرة مؤلفها .
ويصلد مصنفات جابر فانها تنقسم إلى عدة مجموعات أهمها :

١ - الكتب المائة والإثنا عشر ، وهي مقالات في صناعة الكيمياء لارابط بينها مع إشارات كثيرة إلى كيمياء القدماء .
٢ - كتاب السبعين : وهو بسط يحكم لمذهب جابر في الكيمياء .

٣ - كتب الموازين المائة والأربعة والأربعون ، وهي تناول بصفة عامة الأسس النظرية للكيمياء والعلوم الباطنة جميعاً ، كما تناول بصفة خاصة أسسها الفلسفية .

٤ - كتب الخمسمائة : وهي رسائل متفرقة تستقصي بعض مسائل كتب الموازين .

وقد أثرت رسائل جابر في كيمياء العرب المتأخرة تأثيراً كبيراً . ذلك أن كتاب العرب المتأخرين جميعاً ينقلون عنه ، وقد كتب كثير منهم شروحاً على رسائله ، وترجمت كتب من مجموع تواليفه إلى اللاتينية^(١) . وفيما يلي أسماء كتبه في الصناعة وغيرها :

ذكر ابن النديم :

« ولجابر بن حيان فهرست كبير يحتوي على جميع ما ألف في الصناعة وغيرها ، وله فهرست صغير يحتوي على ما ألف في الصناعة فقط ، ونحن نذكر جملاً من كتبه رأيناها وشاهدنا النقات فذكرها لنا ، فمن ذلك :

كتاب اسطقس الأس الأول - كتاب اسطقس الأس الثاني - كتاب الكمال - كتاب الواحد الكبير - كتاب الواحد الصغير - كتاب الركن - كتاب البيان - كتاب الترتيب - كتاب النور - كتاب الصيغ الأحمر - كتاب الحمائر الكبير - كتاب الحمائر الصغير - كتاب التدابير الرائية - كتاب يعرف بالثالث - كتاب الروح - كتاب الزريق - كتاب الملاغم الجوانية - كتاب الملاغم البرانية - كتاب العمالقة الكبير - كتاب العمالقة الصغير - كتاب

البحر الزاخر - كتاب البرص - كتاب الدم - كتاب الشعر - كتاب النبات - كتاب الإستيفاء - كتاب الحكمة المصونة - كتاب التبويب - كتاب الأملاح - كتاب الأحجار^(٢) - كتاب إلى قلمون - كتاب التدوير - كتاب الباهر - كتاب التكرير - كتاب الدرة المكنونة - كتاب الخالص - كتاب الحاوي - كتاب القمر - كتاب الشمس - كتاب التركيب - كتاب الفقه - كتاب الاسطقس - كتاب الحيوان - كتاب البول - كتاب التدابير - كتاب الأمراض^(٣) - كتاب كيما المعادن - كتاب الكيفية - كتاب السماء أولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة - كتاب الأرض أولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة - كتاب المجردات - كتاب البيض الثاني - كتاب الحيوان الثاني - كتاب الأملاح الثاني - كتاب الباب الثاني - كتاب الأحجار الثاني - كتاب الكامل - كتاب الطرح - كتاب فضلات الحمائر - كتاب العنصر - كتاب التركيب الثاني - كتاب الخواص^(٤) - كتاب التذكير - كتاب البستان - كتاب السيول - كتاب روحانية عطار - كتاب الإستتمام - كتاب الأنواع - كتاب البرهان - كتاب الجواهر الكبير - كتاب الأصباغ - كتاب الرائحة الكبير - كتاب الرائحة اللطيف - كتاب المنى - كتاب الطين - كتاب الملح - كتاب الحجر الحق الأعظم - كتاب الألبان - كتاب الطبيعة - كتاب ما بعد الطبيعة - كتاب التلميع - كتاب الفاخر - كتاب الصارع - كتاب الصادق - كتاب الروضة - كتاب الزاهر - كتاب الناج - كتاب الخيال - كتاب مقدمة المعرفة - كتاب الزرانيخ - كتاب الهي - كتاب إلى خاطف - كتاب إلى جمهور الفرنجي - كتاب إلى علي بن يقطين - كتاب مزارع الصناعة - كتاب التصريف - كتاب الهدى - كتاب قلين الحجارة - كتاب أغراض الصناعة - كتاب الباهت - كتاب عرض الأعراض .

وهذه الكتب مائة وإثنا عشر كتاباً ، وله بعد ذلك سبعون

كتاباً منها :

كتاب اللاهوت - كتاب الباب - كتاب الثلاثين كلمة - كتاب المنى - كتاب الهدى - كتاب الصفات - كتاب العشرة - كتاب النعوت - كتاب العهد - كتاب السبعة - كتاب الحمى -

كتاب الحكومة - كتاب البلاغة - كتاب المشاكلة - كتاب خمسة عشر - كتاب الكفو - كتاب الإحاطة - كتاب الراوق - كتاب القبة - كتاب الضبط - كتاب الأشجار - كتاب المواهب - كتاب المختقة - كتاب الاكليل - كتاب الخلاص - كتاب الوجيه - كتاب الرغبة - كتاب الخلفة - كتاب الهيبة - كتاب الروضة - كتاب الناصح - كتاب النقد - كتاب الطاهر - كتاب ليلة - كتاب المنافع - كتاب اللعبة - كتاب المصادر - كتاب الجمع .

فهذه أربعون كتاباً من السبعين كتاباً ، ثم يتلو ذلك رسائل في الحجر : أولى ، ثانية ، ثالثة ، رابعة ، خامسة ، سادسة ، سابعة ، ثامنة ، تاسعة ، عاشرة ، ولا أسماء لها .

وله بعد ذلك عشر رسائل في النبات ، من الأولى إلى العاشرة . وله في الأحجار عشر رسائل على هذا المثال ، فذلك سبعون رسالة ، ويتلو ذلك عشرة كتب مضافة إلى السبعين وهي :

كتاب التصحيح - كتاب المعنى - كتاب الإيضاح - كتاب الهمة - كتاب الميزان - كتاب الإتفاق - كتاب الشرط - كتاب الفضلة - كتاب التمام - كتاب الأعراض .

وله بعد ذلك عشر مقالات تتلو هذه الكتب وهي : كتاب مصححات فيشغورس - كتاب مصححات سقراط - كتاب مصححات افلاطون - كتاب مصححات أرسطوطاليس - كتاب مصححات أرسنجانس - كتاب مصححات أركافانيس - كتاب مصححات أمورس - كتاب مصححات ديمقراطيس - كتاب مصححات حربي - كتاب مصححاتنا نحن .

ثم يتلو هذه عشرون كتاباً بأسمائها وهي : كتاب الزمردة - كتاب الأعمودج - كتاب المهجة - كتاب سفر الأسرار - كتاب البعيد - كتاب الفاضل - كتاب العقيقة - كتاب البلورة - كتاب الساطع - كتاب الاشراف - كتاب المخايل - كتاب المسائل - كتاب التفاضل - كتاب التشابه - كتاب الضير - كتاب التمييز - كتاب الكمال والتمام - كتاب الضمير - كتاب الطهارة - كتاب الأعراض .

وله بعد ذلك سبعة عشر كتاباً أولها :

كتاب المبدأ بالرياضة - كتاب المدخل إلى الصناعة - كتاب التوقف - كتاب الثقة بصحة العلم - كتاب التوسط في الصناعة - كتاب المحنة - كتاب الحقيقة - كتاب الإتفاق والاختلاف - كتاب السنن والحيرة - كتاب الموازين - كتاب السر الغامض - كتاب المبلغ الأقصى - كتاب المخالفة - كتاب الشرح - كتاب الإغراء في النهاية - كتاب الإستقصاء .

ثم يتلو ذلك ثلاثة كتب وهي :

كتاب الطهارة - كتاب التفسير - كتاب الأعراض .

وقال جابر في كتاب فهرسته :

ألفت بعد هذه الكتب ثلاثين رسالة لا أسماء لها ، ثم ألفت بعد ذلك أربع مقالات وهي :

كتاب الطبيعة الفاعلة الأولى المتحركة وهي النار - كتاب الطبيعة الثانية الفاعلة الجالمة وهي الماء - كتاب الطبيعة الثالثة المنفعلة اليابسة وهي الأرض - كتاب الطبيعة الرابعة المنفعلة الرطبة وهي الهواء .

قال جابر : ولهذه الكتب كتابان فيهما شرح ذلك ، وهما : كتاب الطهارة - كتاب الأعراض .

ثم ألفت بعد ذلك أربعة كتب وهي :

كتاب الزهرة - كتاب السلوة - كتاب الكامل - كتاب الحياة .

وألفت بعد ذلك عشرة كتب على رأي بليناس صاحب الطلسمات وهي :

كتاب زحل - كتاب المريخ - كتاب الشمس الأكبر - كتاب الشمس الأصغر - كتاب الزهرة - كتاب عطارد - كتاب القمر الأكبر - كتاب الأعراض - كتاب يعرف بخاصية نفسه - كتاب المثني .

ولجابر أربعة كتب في المطالب وهي :

كتاب الحاصل - كتاب ميدان العقل - كتاب العين - كتاب النظم .

قال أبو موسى : ألفت ثلاثمائة كتاب في الفلسفة ،

وثلاثمائة كتاب في الحيل على مثال كتاب تقاطر ، وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة ، وآلات الحرب ، ثم ألف في الطب كتاباً عظيماً ، وألف كتاباً صغيراً وكباراً ، وألف في الطب نحو خمسمائة كتاب ، مثل : كتاب المجسة والتشريح .

ثم ألف كتب المنطق على رأي أرسطوطاليس ، ثم ألف كتاب الزيج اللطيف نحو ثلاثمائة ورقة - كتاب شرح إقليدس - كتاب شرح المجسطي - كتاب المرايا - كتاب الجاروف الذي نقضه المتكلمون .

ثم ألف كتباً في الزهد والمواعظ ، وألف كتباً في العزائم كثيرة حسنة ، وألف كتباً في النيرنجات ، وألف في الأشياء التي يعمل بغواصها كتباً كثيرة ، ثم ألف بعد ذلك خمسمائة كتاب ، نقضاً على الفلاسفة ، ثم ألف كتاباً في الصنعة يعرف بكتب الملك ، وكتاباً يعرف بالرياض^(٣٧) . ولجابر كتاب نفيس في السموم مخطوط في الخزانة التيمورية^(٣٨) .

ويعد ان وقفنا آنفاً على جانب من تاريخ جابر بن حيان وسيرته العلمية ، ويعد ان أوردنا آنفاً مقالته ابن نباتة المصري بخصوص جابر بن حيان ، نقول : إن جماعة من المعنيين بالعلوم ومن أصحاب المكاتب والنساخين^(٣٩) في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، قد قالوا بما قال به ابن نباتة عن جابر بن حيان ، إلا أن مقالته ابن نباتة ، لم يجد سبيلاً إلى بطون مصادر تراثنا العلمي العربي سوى من نحن بصدد دراسته الآن . ومن هنا يمكننا القول أن الصواب قد جانب صاحب « سرح العيون » في قوله آنف الذكر . إذ من المعلوم أن الكيميائي العربي جابر بن حيان كان حقيقة واقعة وليس خصباً من الخيال - كما ذكر ابن نباتة - بل ان جابر بن حيان كان من أشهر العلماء العرب الذين نبغوا في علم الكيمياء ، والذي يطلق عليه أحياناً اسم « أبو الكيمياء العربية » ، وذلك نظير الجهود التي بذلها في هذا المضمار وما أسفرت عنه من نتائج . وللدلالة على صحة ما نرى ونخطأ ما ذهب إليه ابن نباتة المصري ، نورد هنا ما يدل على ذلك .

ففي معرض حديثه عن جابر بن حيان ، يورد المؤرخ

الوراق أبو الفرج محمد بن اسحق المعروف بابن النديم البغدادي (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) مقالته جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين^(٤٠) عن جابر بن حيان من أنه لا أصل له ولا حقيقة . وقال بعضهم أن جابر بن حيان حتى وإن كانت له حقيقة تاريخية ، فهو لم يُصنف هذه الكتب الكثيرة التي قيل أنه مصنفها ، واستثنوا من ذلك كتاباً واحداً نسبوه إليه ، هو كتاب « الرحمة » ، وأما بقية مصنفاته فقد صنفها غيره ثم نحلوه إياها^(٤١) .

لكن ابن النديم يعقب على قول هذه الجماعة قائلاً : « إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتمب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة ، يتمب قريحته وفكره بالخراجه ، ويتمب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره ، إما موجوداً أو معدوماً ، ضرب من الجهل ، وإن ذلك لا يستمر على أحد ، ولا يدخل تحته من تحمل ساعة واحدة بالعلم ، وأي فائدة في هذا ، وأي عائدة ؟ والرجل له حقيقة ، وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر ، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة ، أنا أوردتها في مواضعها ، وكتب في معان شتى من العلوم ، وقد ذكرتها في مواضعها من الكتاب .. والرازي يقول في كتبه المؤلف في الصنعة : قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان . ولجابر بن حيان فهرست كبير يحتوي على جميع ما ألفه في الصنعة وغيرها^(٤٢) .

ويقول المؤرخ الأندلسي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد التغلمي (المتوفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م) وهو يتحدث عن جابر بن حيان الصوفي ، أنه « كان متقدماً في العلوم الطبيعية بارعاً منها في صناعة الكيمياء ، وله فيها تأليف كثيرة ومصنفات مشهورة ، وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة^(٤٣) .

وعلى ذكر علوم الفلسفة ، فإن ابن النديم يضع لاسم جابر بن حيان ضمن أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة^(٤٤) . ذلك ان جابراً لم يكن كيميواً وكفى ، بل كان كذلك فيلسوفاً ، يتصور الأمور كما يتصورها الفلاسفة من حيث محاولتهم أن يجمعوا أشتات الكون في بنية واحدة ، يبحثون لها

عن مبدأ أول ثم يفرعون منه الفروع ، وهكذا فعل جابر ، فله محاولة من هذا القبيل يدعّمها بجدل فلسفي من الطراز الأول^(٣٠) .

وكان جابر بن حيان - كما ورد عند ابن صاعد الأندلسي - متقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن ، وهو مذهب المتصوفين من أهل الاسلام .

ويضيف المؤرخ الأندلسي إلى ذلك قوله : « وأخبرني محمد بن السعيد السرقسطي المعروف بابن المشاط الإسطرلابي الأندلسي ، انه رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تأليفاً في العمل بالاسطرلاب تضمن ألف مسألة لانظير له »^(٣١) .

والجدير بالذكر هنا ان المؤرخ جمال الدين أبوالحسن علي بن يوسف الشهير بالقفطي (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) ، يورد نص قول ابن صاعد الأندلسي ألف الذكر في مؤلفه مما يشير إلى اعتقاده هو الآخر بحقيقة شخصية جابر^(٣٢) .

وفي إشارته للعلاقة العلمية بين جعفر الصادق وجابر بن حيان ، يقول المؤرخ الأيرلي^(٣٣) أبو العباس شمس الدين أحمد ، المعروف بابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) :

« وكان أبو موسى جابر بن حيان الصوفي ، تلميذ جعفر الصادق ، وقد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة »^(٣٤) .

وفي هذا السياق أيضاً ، يذكر المؤرخ المغربي عبدالرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :

« ... وإمام المدونين فيها (الكيمياء) جابر بن حيان حتى أنهم يخصونها به فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة »^(٣٥) .

ويتطرق الأديب والمؤرخ أبو العباس أحمد بن علي ، المعروف بالقلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) إلى مصنفات جابر ، فيؤكد لنا في هذا المجال أن « من الكتب المطولة في علم الكيمياء كتب جابر بن حيان »^(٣٦) .

وكما فعل ابن النديم في رفضه لدعوى جماعة من أهل

العلم وأكابر الوراقين ، معترفاً للرجل بأقل ما ينبغي الاعتراف به ، وهو وجوده ، قائلاً إن أمره أظهر وأشهر من أن يخفى ، وتصنيفاته أعظم وأكثر من أن ينكر وجود صاحبها^(٣٧) ، وكما أكد ذلك أيضاً من ذكرنا من المؤرخين مثل : ابن صاعد الأندلسي ، والقفطي ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، والقلقشندي ، كذلك أيضاً فعل الموسوعي العثماني والبليوجرافي المعروف عصام الدين أبوالخير أحمد بن مصطفى بن خليل ، الشهير بطاش كبري زادة (المتوفى سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م) عند ذكره للرواية نفسها التي تزعم عن جابر أنه أسطوري لاحقيقة له في التاريخ ، إذ قال : « وبعض الناس ينكر وجود جابر هذا إلا أنه بعيد لأن له تصانيف كثيرة تدل على وجوده ومهارته في صنعها »^(٣٨) .

أما صاحب كشف الظنون (المتوفى سنة ١٠٥٨ هـ / ١٦٥٧ م) ، وهو خاتمة مصادرنا هنا ، فيرى أن « جابر هو كيموي العرب الأول ، فهو أول من اشتهر علم الكيمياء عنه »^(٣٩) .

وهكذا كما نرى فإن معظم المصادر التي ترجمت لصاحبنا قد أجمعت على التالي :

- ١ - حقيقة وواقع شخصية جابر بن حيان .
- ٢ - إن اسمه جابر بن حيان الكوفي الصوفي .
- ٣ - إن جابر بن حيان هو تلميذ الإمام جعفر الصادق في حقل الكيمياء .
- ٤ - إن علم الكيمياء علماً عربياً ومؤسسه هو جابر بن حيان .
- ٥ - جابر بن حيان ، العالم الموسوعي ، وأحد العلماء المبرزين في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وفي مختلف ميادين العلم والمعرفة .

٦ - كثرة وجودة المصنفات التي تميز جابر بتصنيفها في أكثر من حقل وبخاصة في الكيمياء .

وإذا كان ماتقدم هو حال المصادر في أمر جابر بن حيان ، فإن الحال ذاته قد صيرت عنه معظم المراجع العربية والأجنبية ، حيث أشارت جميعها إلى حقيقة وجود جابر ، كما أشادت بعبقريته

ومكانته وفضله على البشرية اليوم ، ولعل ماستاني على ذكره الآن من آراء بعض الباحثين بهذا الصدد سيوضح لنا حقيقة مانوها عنه آنفاً .

فالأستاذ قلدي حافظ طوقان^(٢٤) ، في هذا الخصوص : (واشتهر جابر باشتغاله في العلوم ولاسيما الكيمياء ، وله فيها وفي المنطق والفلسفة تأليف كثيرة ومصنفات مشهورة كانت نبعاً للإفرنج استقوا منه واعتمدوا عليه في الموضوعات الطبيعية والطبية ، وكان لهذا النبع أثر كبير في تكوين مدرسة كيموية ذات أثر فعال في الغرب)^(٢٥) .

ويذكر الأستاذ روجي الخالدي أن جابر بن حيان هو (إمام المدونين في الكيمياء التي نسبت إليه ، فقل لها علم جابر)^(٢٦) .

ويشير الأستاذ محمد محمد فياض إلى أن جابر بن حيان قد درس (علوم الكيمياء والطب والتاريخ الطبيعي . . . ونبغ فيها جميعاً ، ووضع في هذه المواد مؤلفات كثيرة)^(٢٧) .

ويبلي الأستاذ محمد إبراهيم الصبيحي برأيه هنا فيقول : (وكما نبغ العلماء العرب في الطب ، فقد نبغوا أيضاً في الكيمياء التي تعد علماً عربياً ينسب إلى مؤسسه جابر بن حيان الذي اتخذ له فيها منهجاً تجريبياً علمياً بحثاً وهو الطابع الذي إتصفت به المدرسة العربية منذ القرن الثامن الميلادي في الكيمياء ، وقد خلف جابر من الكتب ما يعد ثروة علمية هامة)^(٢٨) .

ويعلق الأستاذ بطرس البستاني على زعم ابن نباتة هذا فيقول : (على أن جابراً اكتشف في امتحاناته أموراً كثيرة مهمة في علم الكيمياء المعروف في هذا الزمان ، وترجمت بعض مصنفاته إلى اللغات الأوروبية ، وطُبعت ، واشتغل بها الناس فانتفعوا بها . . فكيف يمكن أن يكون هذا اسماً بلامسمى كما زعم بعضهم)^(٢٩) .

إن اسم جابر بن حيان من الأسماء الخالدة في التاريخ ، وإنه من مفاخر الشرق برمته ، بل من مفاخر الإنسانية كلها^(٣٠) . ولكي نربط حقيقة الشرق بواقع الغرب ، كدليل على حقيقة وأثر جابر بن حيان في الشرق والغرب معاً ، لابد لنا من

أن نعرض هنا على آراء المستشرقين في هذا المضمار .

فالمستشرق الفرنسي، الدكتور غوستاف لوبون G. Lebon يبين لنا هنا بكل وضوح أن (أقدم علماء العرب في الكيمياء وأكثرهم شهرة هو جابر بن حيان الذي عاش في أواخر القرن الثامن من الميلاد ، وألف كتباً كثيرة فيها . وقد نُقل عدد غير قليل من كتبه إلى اللغة اللاتينية ، وقد نُقل كتابه المعروف بكتاب « الإستتمام » إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٦٧٢ م ، مما يدل على دوام نفوذه العلمي في أوروبا مدة طويلة .

ويتألف من كتب جابر بن حيان موسوعة علمية حاوية خلاصة ماوصل إليه علم الكيمياء في عصره ، وتشتمل تلك الكتب على وصف كثير من المركبات الكيميائية التي لم تذكر في كتب من ظهر قبله ، كماء الفضة (الحامض النتري) وماء الذهب المهيمن اللذين لا تصور علم الكيمياء بغيرهما ، والبوتاس ، وروح النشادر وملحه ، وحجر جهنم (نترات الفضة) ، والسليمان ، والراسب الأحمر . كما أن جابر بن حيان أول من وصف في كتبه التطهير ، والترشيح ، والتصفيد ، والتبلور ، والتلويب ، والتحويل . . الخ)^(٣١) .

ويتحدث الأستاذ إريك جون هوليارد Eric John Holmyard عن مكانة جابر فيقول : (هو أول من يستحق لقب « الكيموي » من المسلمين)^(٣٢) .

وقال عنه المترجم الإنجليزي ريتشارد رسل ، الذي ترجم بعض مؤلفاته إلى الانكليزية في سنة ١٦٧٨ تحت عنوان « أعمال جابر أشهر الأمراء والفلاسفة العرب » أنه (أشهر علماء العرب وفلاسفتهم)^(٣٣) .

ويرى المستشرق الإنكليزي روم لاندوان (أشهر علم من أصلام الكيمياء الإسلامية هو جابر بن حيان) وقد عرفه الأوربيون في القرون الوسطى باسم جبر G. Jaber الذي عاش في الكوفة في القرن الثامن ، ونحن مدينون له بأول تحضير معروف لمواد كالزرنينخ والأثماء (حجر الكحل) من كبريتوراتها Sulphides ، وينظرية في شكل المعادل الجيولوجي ، وبما يدعى نظرية المعادن الكبريتية الزئبقية . ولقد قام أيضاً بعمل هام في

تحضير الفولاذ ، وفي استعمال ثاني أكسيد المنغنيز في صنع الزجاج ، وفي لايقية Imponderability القوة المغناطيسية . ومنه نلقت الكيمياء ، أول ماتلقت ، مصطلحات من مثل : الأبيق Alembic والأتمد Antimony والقلي Alkali والمادة المعروفة بملح الشادر Sel — ammoniac .

أما كتابا جابر اللذان لفتا أنظار الغربيين أكثر ما يكون ، واللذان نقلهما إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر أعظم مترجمي العصر النصراني ، جيرارد الكريموني Gerard of Cremona وروبرت التشيستي Robert of Chester فكانا : كتاب صناعة الكيمياء ، وكتاب السبعين (١١) .

ويقول المستشرق البريطاني الطبيب إدوارد كرافيل براون Edward G. Brown (١٨٦٢ - ١٩٢٦) : (الكيمياء العربي المشهور جابر بن حيان ، وكان هذا يعرف في أوروبا في القرون الوسطى باسم (جبر) ، وهناك عدة كتب باللاتينية تنسب إليه إلا أن أغلبها مزيف كتبها أورييون ونسبت إليه لمجرد الشهرة ولتسهيل تعاملها وانتشارها ، والكتب العربية الأصيلة التي ألفها هذا العالم العربي نادرة الوجود) (١٢) .

ويرى المستشرق الايطالي ألدوميلي مارآء س ذكرنا آنفاً

من المستشرقين ، ويشير في هذا الخصوص إلى جوهر العلاقة التي ربطت بين الإمام جعفر الصادق وجابر بن حيان فيقول : (إن جعفرًا هذا كان يعد عالماً ألف الكتب العلمية ، وكان أستاذاً لجابر) (١٣) .

أما الأستاذ كارا دي فو B.Cara de Vaux فقد خبر عن رأيه برفض مازعمه ابن نباتة عن جابر بن حيان ذاكرًا مصدره بهذا الصدد فيقول : (وفي الفهرست رأي يقول إنه لم يوجد قط وإنما كان شخصاً من نسج الأساطير ، وهو رأي ننكره من فورنا) (١٤) .

وأخيراً فالتا لا نرى أي ميرر لما ذهب إليه ابن نباتة المصري في قوله المشار إليه آنفاً - والذي يتفرد هو فيه - وذلك لإجماع المصادر التي كتبت عن جابر بن حيان ، وبخاصة القرية منها للعصر الذي عاش فيه صاحبنا ، إضافة إلى ما ذهبت إليه معظم المراجع في تأييدها لما ورد ذكره عند المصادر في هذا الباب . وعليه فالتا نرى أن أي نكران لشخصية جابر بن حيان إنما هو أمر مرفوض تماماً ، ولعل ما أوردناه آنفاً من أدلة في هذا السياق قد أكد بلا ريب أن جابر بن حيان الكوفي الصوفي له حقيقة ، وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر (١٥) .

الهوامش

- ٣ - ولد في بلدة ميفارقين (أشهر مدينة بدير بكر = الحموي ، بالقوت بن عبدالله : معجم البلدان (بيروت ، ١٩٥٧) ج ٥ ، ص ٢٣٥) سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) ، وانتقل إلى حلب وأصبح مؤدباً في بلاط سيف الدولة ، واشتهر بالخطابة ، فلقب بخطيب الخطباء ، وقد توفي هذا الخطيب ببلدته ميفارقين سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) - ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (بيروت ، ١٩٦٩) ج ١ ، ص ٢٨٤ ، ج ٣ ، ص ١٥٧ . كذلك دائرة المعارف الإسلامية - مادة ابن نباتة ، بروكلمان ، كارل : تاريخ الأدب العربي (القاهرة ، ١٩٦٨) ج ٢ ، ص ١٠٨ .
- ٤ - عُرف باسم « ابن نباتة » أربعة من أعيان العربية وفصلاتها ، أولهم

- ١ - الجدير بالملاحظة هنا أن ابن نباتة قد عُرف بأكثر من كنية مثل : أبو الفضائل ، وأبو الفتح ، إلا أن الكنية التي اشتهر بها هي : أبو بكر - انظر ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (القاهرة ، دون تاريخ) ج ٢ ، ص ٣٣٩ ، الشوكاني ، محمد بن علي : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة ، ١٣٤٨ هـ) ج ٢ ، ص ٢٥٢ .
- ٢ - ولد في القاهرة سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) وتوفي في دمشق سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) - ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ١٧٣ ، بلشأ ، عمر موسى : ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق (القاهرة ، ١٩٧٢) ص ١٢٥ .

الخطيب أبو يحيى عبدالرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة الفارقي (٣٣٥-٣٧٤ هـ / ٩٤٦-٩٨٤ م)، خطيب حلب وصاحب الخطب المشهورة والحق بميلادها سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م)، وثانيهم أبو نصر عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة الصقلي (٣٢٧-٤٠٥ هـ / ٩٣٨-١٠١٤ م)، شاعر سيف الدولة والمتوفى ببغداد سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م)، وثالثهم ابن نباتة المحدث شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد (٦٦٦-٧٥٠ هـ / ١٢٦٧-١٣٤٩ م)، والمتوفى بدمشق سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م).

الرابع ولده ابن نباتة المصري جمال الدين محمد، أمير شعراء المشرق، وصاحب الديوان المعروف باسمه، وشارح رسالة ابن زيدون - أنظر لمن خلط كان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٥٦-١٥٨ ، ١٩٠-١٩٣ ، الزبيدي ، حب الدين أبو الفتح محمد مرتضى : تلخ العروس من جواهر القاموس (القاهرة ، ١٣٠٦ هـ) ج ١ ، ص ٥٩٠ ، ابن نباتة المصري : شرح العمون في شرح رسالة ابن زيدون (القاهرة ، ١٩٦٤) ص ٥ من التصدير .

ونبت : أي نحن في الشرف نهاية وفي النبت نهاية ، أي نبت المال على أيدينا . ويقال نبت لهم نهاية أي نشأ فيهم صفار لحقوا بالكبار وصاروا زيادة في العدد = السوطي ، جلال الدين عبدالرحمن : الدر الشبر تلخيص نهاية ابن الأثير ، ويأتي في صلب كتاب النهاية في هرب الحديث لمجد الدين أبو السماعات المبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير (القاهرة ، دون تاريخ) ج ٣ ، ص ١٢٧-١٢٨ .

٥ - أصله من ميفارقين ، إذ أن جده عبدالرحيم (٣٣٥-٣٧٤ هـ / ٩٤٦-٩٨٤ م) ولد فيها . وميفارقون بلد بالجزيرة يقال في نسبه الفارقي = حاجي خليفة ، مصطفى بن عبدالله : كشف القنون عن أسامي الكتب والفنون (القاهرة ، ١٩٤١) ج ١ ، هامش ص ٣ .

٦ - الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أليك : الوالي بالوفيات (فسيان ، ١٩٦١) ج ١ ، ص ٣١١ . كذلك ابن حجة الحموي ، تقي الدين أبوبكر علي : خزانة الأدب ونهاية الأرب (القاهرة ، ١٣٠٤ هـ) ص ٢٩٣ ، ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ، ابن تفرج بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ، دون تاريخ) ج ١١ ، ص ٩٥ ، السوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (القاهرة ، ١٩٦٧) ج ١ ، ص ٢٤٥ ، ابن أبيس ، أبو البركان محمد بن أحمد الخطي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة ، ١٩٧٤) ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦٢ ، الزبيدي : تلخ العروس ، ج ١ ، ص ٥٩٠ ، حاجي خليفة : كشف القنون ، ج ١ ، ص ٣ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

٧ - ابن نباتة المصري : ديوان ابن نباتة ، ص ٨١ ، ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ٦ .

٨ - ابن دلقاق ، إبراهيم بن محمد : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار (بيروت ، دون تاريخ) ، ج ٤ ، ص ١٣ . كذلك الصفدي : الوالي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٣١١ ، ابن حجة الحموي : بلوغ الأمل في فن الزجل (دمشق ، ١٩٧٤) هامش ص ٥٢ ، ابن تفرج بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٩٥ ، السوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥٧١ ، ابن أبيس : بدائع الزهور ، ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٦٢ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

والجنيد بالاشارة هنا أن صاحب الدرر الكامنة يذكر أن مولد الشاعر المصري ابن نباتة كان في شهر ربيع الأول سنة ٦٧٦ هـ - ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ .

٩ - ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ٦-٧ . كذلك ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٤٠ .

١٠ - أنظر الوالي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ٧-٨ .

١١ - أنظر ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٤٠ ، ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ص ٢٩٢ .

١٢ - الوالي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٣١١-٣١٢ .

١٣ - ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ٧-٨ . كذلك ابن كثير ، اسماعيل بن عمر الدمشقي : البداية والنهاية (بيروت ، ١٩٦٦) ج ١٤ ، ص ٣٢٢ .

١٤ - الوالي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٣١١-٣١٢ . كذلك ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ، السوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥٧١ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

١٥ - ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ٨-٩ .

١٦ - ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٣٩-٣٤٠ .

١٧ - ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ٩-١٠ . كذلك الصفدي : الوالي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٣١٢ ، ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق (دون مكان ، دون تاريخ) ص ١٢٣-١٢٤ ، ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٤٠ .

١٨ - ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق ، ص ١٢٤ . كذلك ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ٩٠ ، الصفدي : الوالي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٣١٢ .

١٩ - ابن نباتة المصري : ديوان ابن نباتة ، ص ٤٢٩ . ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ١١-١٢ .

٢٠ - مخطوط تحت رقم (٩٨٥٠) في مكتبة خزانة الأوقاف العامة ببغداد ، وقد نشرها الدكتور محمد أسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العراقي عام ١٩٥١ ، ج ٢ ، ص ٣٠٢-٣١٠ .

٢١ - ابن نباتة المصري : شرح العمون ، ص ١٢-١٤ .

- ٢٢ - الوالي بالوليات ، ج١ ، ص ٣١٢ .
- ٢٣ - لسانة ، كنيسة للصاري بيت المقدس ، ولي مواله آيات بهذه المناسبة ، والمطالع انظر ابن نباته المصري : ديوان ابن نباته ، ص ٤٧٢ ، ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٤ .
- ٢٤ - الصلبي : الوالي بالوليات ، ج١ ، ص ٣١٢ .
- ٢٥ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٦ - ١٧ .
- ٢٦ - ابن حجر المصنوع : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٣٤٠ . كذلك ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٧ ، ابن حجة الحموي : تاريخ الأصل ، ص ٢٧ ، ابن تيموني برقي : المعجم الزاخر ، ج١ ، ص ٩٥ ، ابن تيموني : بدائع الزهور ، ج١ ، القسم الثاني ، ص ٦١ - ٦٢ ، الشوكاني : البحر السطوح ، ج٢ ، ص ٢٥٣ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٥ ، ص ١٣٩ . والجدير بالذكر هنا ان التاريخ المعروف بابن كثير يذكر ان ولده ابن نباته بديار مصر وذلك سنة سبع وستين وسبعمائة = الهداية والهداية ، ج١ ، ص ٣٢٢ .
- أما صاحب كشف الظنون فقد ذكر في أكثر من مناسبة عند حديثه عن مصنفات ابن نباته أنه قد توفي سنة إثنين وستين وسبعمائة = حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٣ . ثم يذكر في مناسبة أخرى أنه قد توفي سنة ٧٦٨ هـ = كشف الظنون ، ج٢ ، ص ٩٦١ .
- ٢٧ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٧ من القصير .
- ٢٨ - ابن حجة الحموي : خزائن الأدب ، ص ٢٩٢ .
- ٢٩ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٨ - ٢٤ . كذلك الصلبي : الوالي بالوليات ، ج١ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .
- ٣٠ - ياقنا : ابن نباته المصري ، ص ٢٦١ .
- ٣١ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ٢٥ .
- ٣٢ - ياقنا : ابن نباته المصري ، ص ٢٦١ .
- ٣٣ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ٢٥ - ٢٦ .
- ٣٤ - أيضاً ، ص ١٤ - ١٥ ، ٢٦ .
- ٣٥ - محمود ، زكي نجيب ، جابر بن حيان (القاهرة ، دون تاريخ) ص ١١ .
- ٣٦ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ٢٢٥ .
- ٣٧ - ابن التميمي ، أبو الفرج محمد بن إسحق : الفهرست (القاهرة ، ١٣٤٨ هـ) ، ص ٤٩٩ .
- ٣٨ - أنظر كراوس ، بول : خطرات رسائل جابر بن حيان (القاهرة ، ١٣٥٤ هـ) ص ٣٠٥ . كذلك كراوس : دائرة المعارف الإسلامية - مادة جابر بن حيان .
- ٣٩ - أيضاً ، ص ٣١٤ .
- ٤٠ - حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٥٣١ .
- ٤١ - محمود : جابر بن حيان ، ص ١٩ .
- ٤٢ - هوليارد ، إدوارد جيمس : مصنفات في علم الكيمياء (باريس ، ١٩٢٨) ج١ ، ص ١٥ - ١٦ .
- ٤٣ - ابن التميمي : الفهرست ، ص ٤٩٩ .
- ٤٤ - الهندي ، إسماعيل : هدية العارفين (طهران ، ١٣٧٨ هـ) ج١ ، ص ٢٤٩ .
- ٤٥ - إكتفاء القانع بما هو مطبوع (القاهرة ، ١٨٩٦) ص ٢١٣ - ٢١٤ .
- ٤٦ - جابر بن حيان وحملته (القاهرة ، ١٩٥٠) ص ٢٨ .
- ٤٧ - الاعلام (القاهرة ، ١٩٥٥) ج٢ ، ص ٩١ .
- ٤٨ - الترجمة إلى تصانيف الشيعة (المجلد الأشرف ، ١٣٥٥ هـ) ج٢ ، ص ٥٥ .
- ٤٩ - الشكري ، جابر : لمحات بآثار العراقي العلمية في الكيمياء (بغداد ، ١٩٨٥) ص ١٩ - ٢٠ .
- ٥٠ - مظهر ، جلال : أثر العرب في الحضارة الأوربية (بيروت ، ١٩٦٧) ص ٢١١ .
- ٥١ - كراوس : خطرات رسائل جابر بن حيان ، ص ٢٣٢ .
- ٥٢ - الشكري : لمحات بآثار العراقي ، ص ١٩ - ٢٠ .
- ٥٣ - ياقنا : جابر بن حيان ، ص ٤٣ ، ٤٤ - ٤٥ . كذلك محمود : جابر بن حيان ، ص ٥٨ .
- ٥٤ - Holmyard, Eric John, Makers of Chemistry, Oxford, 1907, p. 80 .
- ٥٥ - الشكري : لمحات بآثار العراقي ، ص ٢٠ - ٢٢ .
- ٥٦ - مظهر : أثر العرب في الحضارة الأوربية ، ص ٢١٧ .
- ٥٧ - الشكري : لمحات بآثار العراقي ، ص ٢٢ .
- ٥٨ - مظهر : أثر العرب في الحضارة الأوربية ، ص ٢١٥ .
- ٥٩ - لقد أسمن ابن حيان كتابه هذا بهذا الاسم لأنه أراد أن يوضح فيه : رموز الحكياء من قبل وأكثرنا ذكره في كتبهم بالاسماء المختلطة الصفات المذهلة التي راموا بها تضليل الجهال عن هذا العلم الشريف وإدخالهم فيه ، هوليارد : مصنفات في علم الكيمياء ، ج١ ، ص ٥١ .
- ٦٠ - الشكري : لمحات بآثار العراقي ، ص ٢٢ - ٢٤ . كذلك الخالدي ، روجي : الكيمياء عند العرب (القاهرة ، ١٩٥٣) ص ٢١ - ٢٢ .
- ٦١ - كارا دي فو : دائرة المعارف الإسلامية - مادة جابر بن حيان .
- ٦٢ - الخالدي : الكيمياء عند العرب ، ص ٧٣ .
- ٦٣ - كراوس : دائرة المعارف الإسلامية - مادة جابر بن حيان .
- ٦٤ - توجد نسخة خطية منه في المكتبة الأهلية بباريس = ياقنا : جابر بن حيان ، ص ٣٩ .
- ٦٥ - طبع في لندن سنة ١٦٨٨ ، وسمته المكتبة الخديوية في فهرستها بكتشف الأسرار وهناك الأسرار = فانتيك : إكتفاء القانع ، ص ٢١٤ .
- ٦٦ - توجد نسخة خطية منه بالمخطف البريطاني = ياقنا : جابر بن حيان ، ص ٣٩ .

- ٢٢ - الوالي بالوليات ، ج١ ، ص ٣١٢ .
- ٢٣ - لسانة ، كنيسة للصاري بيت المقدس ، ولي مواله آيات بهذه المناسبة ، والمطالع انظر ابن نباته المصري : ديوان ابن نباته ، ص ٤٧٢ ، ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٤ .
- ٢٤ - الصلبي : الوالي بالوليات ، ج١ ، ص ٣١٢ .
- ٢٥ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٦ - ١٧ .
- ٢٦ - ابن حجر المصنوع : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٣٤٠ . كذلك ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٧ ، ابن حجة الحموي : تاريخ الأصل ، ص ٢٧ ، ابن تيموني برقي : المعجم الزاخر ، ج١ ، ص ٩٥ ، ابن تيموني : بدائع الزهور ، ج١ ، القسم الثاني ، ص ٦١ - ٦٢ ، الشوكاني : البحر السطوح ، ج٢ ، ص ٢٥٣ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٥ ، ص ١٣٩ . والجدير بالذكر هنا ان التاريخ المعروف بابن كثير يذكر ان ولده ابن نباته بديار مصر وذلك سنة سبع وستين وسبعمائة = الهداية والهداية ، ج١ ، ص ٣٢٢ .
- أما صاحب كشف الظنون فقد ذكر في أكثر من مناسبة عند حديثه عن مصنفات ابن نباته أنه قد توفي سنة إثنين وستين وسبعمائة = حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٣ . ثم يذكر في مناسبة أخرى أنه قد توفي سنة ٧٦٨ هـ = كشف الظنون ، ج٢ ، ص ٩٦١ .
- ٢٧ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٧ من القصير .
- ٢٨ - ابن حجة الحموي : خزائن الأدب ، ص ٢٩٢ .
- ٢٩ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ١٨ - ٢٤ . كذلك الصلبي : الوالي بالوليات ، ج١ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .
- ٣٠ - ياقنا : ابن نباته المصري ، ص ٢٦١ .
- ٣١ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ٢٥ .
- ٣٢ - ياقنا : ابن نباته المصري ، ص ٢٦١ .
- ٣٣ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ٢٥ - ٢٦ .
- ٣٤ - أيضاً ، ص ١٤ - ١٥ ، ٢٦ .
- ٣٥ - محمود ، زكي نجيب ، جابر بن حيان (القاهرة ، دون تاريخ) ص ١١ .
- ٣٦ - ابن نباته المصري : شرح العمون ، ص ٢٢٥ .
- ٣٧ - ابن التميمي ، أبو الفرج محمد بن إسحق : الفهرست (القاهرة ، ١٣٤٨ هـ) ، ص ٤٩٩ .
- ٣٨ - أنظر كراوس ، بول : خطرات رسائل جابر بن حيان (القاهرة ، ١٣٥٤ هـ) ص ٣٠٥ . كذلك كراوس : دائرة المعارف الإسلامية - مادة جابر بن حيان .
- ٣٩ - أيضاً ، ص ٣١٤ .
- ٤٠ - حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٥٣١ .

ج ١ ، ص ٢٨١ .

٨٤ - حاجي خليفة : كشف القنون ، ج ٢ ، ص ١٥٣١ .

٨٥ - العلوم عند العرب (القاهرة ، دون تاريخ) ص ٩٨ - ٩٩ . كذلك

الزركلي : الأعلام ، ج ٢ ، ص ٩٠ - ٩١ .

٨٦ - الكيمياء عند العرب ، ص ٩ ، ٢١ .

٨٧ - جابر بن حيان وعلمه ، ص ٣٩ . كذلك سركريس : معجم

الطبوعات ، ج ١ ، ص ٦٦٤ - ٦٦٥ .

٨٨ - الحضارة العربية وأثرها في أوروبا (القاهرة ، ١٩٨٤) ص ٢٣٤ .

٨٩ - دائرة المعارف - باب الجيم .

٩٠ - مظهر ، اسماعيل : تاريخ الفكر العربي (بيروت ، دون تاريخ)

ص ١٠١ . كذلك مظهر : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ،

ص ٢١٠ - ٢١١ .

٩١ - حضارة العرب (القاهرة ، ١٩٤٥) ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

٩٢ - Chemistry to the Time of Dalton, P.15 .

محمود : جابر بن حيان ، ص ١٩ .

٩٣ - Russell, R. J. J. Ibn Hayyan, p.2 .

محمود : جابر بن حيان ، ص ١٩ .

٩٤ - الإسلام والعرب (بيروت ، ١٩٧٧) ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

٩٥ - الطب العربي (بغداد ، ١٩٦٤) ص ٢٠ .

٩٦ - العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي (القاهرة ، ١٩٦٢)

ص ١١٠ .

٩٧ - دائرة المعارف الإسلامية - مادة جابر بن حيان .

٩٨ - ابن التميم : الفهرست ، ص ٥٠٠ .

٦٧ - الفهرست ، ص ٥٠٠ - ٥٠٣ .

٦٨ - سركريس ، يوسف اليان : معجم الطبوعات العربية والمصرية

(القاهرة ، ١٩٢٨) ج ١ ، ص ٦٦٥ .

٦٩ - انظر ابن التميم : الفهرست ، ص ٤٩٩ .

٧٠ - الوراقون : وهم أصحاب المكاتب ، وكثرتوا يتولون نسخ الكتب

أيضاً .

٧١ - الفهرست ، ص ٤٩٩ .

٧٢ - أيضاً ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

٧٣ - طبقات الأمم (القاهرة ، دون تاريخ) ، ص ٩٥ .

٧٤ - الفهرست ، ص ٤٩٧ .

٧٥ - محمود : جابر بن حيان ، ص ٨ .

٧٦ - طبقات الأمم ، ص ٩٥ .

٧٧ - تاريخ الحكماء (ليزيك ، ١٩٠٣) ص ١٦٠ - ١٦١ .

٧٨ - نسبة إلى محافظة أوبيل ، وهي إحدى المحافظات التي تقع في شمال

العراق .

٧٩ - وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٢٧ . كذلك حاجي خليفة : كشف

القنون ، ج ٢ ، ص ١٥٢٩ ، كمال الدين ، جليل : بغداد مركز

العلم والثقافة العالمية في القرون الوسطى (بغداد ، ١٩٨٥)

ص ٢٦ .

٨٠ - المقدمة (بيروت ، ١٩٧٨) ص ٥٠٤ .

٨١ - صبح الأعراس في صناعة الإنشاء (القاهرة ، ١٩٦٣) ج ١ ،

ص ٤٧٥ .

٨٢ - الفهرست ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ . محمود : جابر بن حيان ، ص ١٢ .

٨٣ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة (حيدر آباد الدكن ، ١٣٢٨ هـ)



كتاب التبيان في علم المعاني والبديع والبيان

ملحوظات في متن الكتاب وتحقيقه

معرض

مقداد رحيم

كلية الآداب

ألف العلامة شريف الدين حسين بن محمد الطيبي المتوفى سنة ٧٤٣ هـ كتاباً بديعاً في بلاغة اللغة العربية وإسرار جمالها ، وروعة بيانها ، سماه « التبيان في علم المعاني والبديع والبيان » ، وقد مضت عدة قرون والكتاب رهين المكتبات في العراق ومصر وتركيا مخطوطاً ، حتى هب الله له محققاً ثباتاً هو الدكتور هادي عطية مطر الهلالي ، قام بتفحص الثراب من الكتاب ، وإعادة ترميمه ، وإخراج نصه مصححاً ، محققاً تحقيقاً علمياً ، ونشرته دار عالم الكتب بيروت ، وصدر أواخر العام ١٩٨٧ م .

والكتاب ليس جليداً في بابه ، ولكن مزينة تكمن في انه جاء صورة واضحة للنظرية البلاغية التي صاغها النقاد والبلاغيون القدماء ، فضلاً عما أضافه المحدثون منهم الى عصر المؤلف في القرن الثامن الهجري ، ويُعدّ هذا الكتاب دالة من الدوال على أن العصور التي ماتزال تُعرف على أنها مظلمة ، ليست مظلمة ! .

وقد رتب المؤلف العلامة الطيبي كتابه هذا على فنون

رئيسين هما : فن البلاغة ، وفن الفصاحة ، تناول في الفن الاول العلوم البلاغية الثلاثة : علم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، أما الفن الثاني فقد تكلم فيه على مايتعلق بفصاحة الألفاظ ، وفصاحة التراكيب اللغوية التي استغرقت ، مع علم البديع ، نصف الكتاب ، أما النصف الآخر فقد استغرقه الكلام على علمي المعاني والبيان .

اعتمد المؤلف ، كما يقول المحقق ، في شرحه لعلوم البلاغة والفصاحة على ماضمنه صاحب المفتاح كتابه ، وهذه أصلاً ، كما أنه اعتمد على مافي الكشاف ، ووشح كتابه بما في المصباح ، والايضاح من التوارد ، وبزبدة النهاية ، والمثل السائر ، فضلاً عن تلخيصه مافي كتاب المثل السائر لابن الاثير من قضايا تتعلق بموضوع الفصاحة مع اضافة زيادات مفيدة من علماء آخرين .

وكان للعلماء الذين أخذ منهم العلامة الطيبي فضل واضح في كتابه ، وقد أشار في مواضع عديدة منه الى الزمخشري

والسكاكي ، وأشار الى ابن الأثير مرة واحدة في باب الفصاحة ، وهو عندما يأخذ من الزهري والسكاكي يذكرهما بالكشاف والمفتاح ، أو يقول : مقالته صاحب الكشاف ، وصاحب المفتاح ، وغير ذلك مما يفهم منه انه يعني كتابيهما ، وقد يأخذ منها نصاً ، قارة ، وبالمعنى قارة أخرى .

وهذا لا يعني ان العلامة الطيبي كان ناقلاً نقلاً مجرداً عن العلماء الذين سبقوه ، فجهوه الرجل واضحة بيّنة ، حيث خلق ما قبله من بعضهم من الأوابد ، ونظم فيه من هيون لرائد النثر مقتطعاً ذلك من خطب العرب ، وأمثالها ، ومن رسائل الكتاب والبلغاء ، وقد أحسن الاختيار والرصف والتفنيح في كل ذلك ، وقد أكثر من الآيات البيّنات لقواعد موضوعات كتابه ، وأوجز تفسيرها مبيناً الألفاظ البلاغية ، وأسرارها مستمعين بأحاديث نبوية أحياناً ، أو بأبيات شعرية غالباً ما يدهم أراءه بها ، وما يذهب اليه مبدأ غيره ، أو مبتدأ لآراء لا يأخذ بها ، أو يرفضها .

وأودع من الشواهد الشعرية أشعاراً كثيرة لمختلف العصور ، كمصر مائيل الاسلام والعصر الاسلامي ، والمصور العباسية المتصلة ، ولشعراء مشهورين كأمريء القيس ، والأعشى ، ولبيد ، وطرفة ، والناظية ، والخنساء ، وحنان ، وجهميل ، وجهرير ، والفرزدق ، والأعطل ، وبيشار ، وإبراهيم نواس ، والبحري ، وابن المعتز ، وابن الرومي ، والشريف الرضي ، وإبراهيم ، والتميمي ، والمصري ، وغيرهم .

وتحقيق النصوص التراثية القديمة المتخصصة ليس من الأمور الهينة ، ولأن المدخل المستهله ، بل هو طريق شائك ومعقد ، حل انه يسهل ، الى حد ما ، عندما تكثر المظان المطبوعة في حقله ، فضلاً عن توافر المصادر المخطوطة التي يمكن المتول بين يديها اذا اقتضت الحاجة الى فك رمز ، أو شرح جملة ، أو تفنيد عبارة ، أو ضبط كلمة ، أو تخريج نص .

وكتاب البيان الذي بين يدينا من هذا النوع ، ومع ذلك فهو من الكتب التي تحتاج الى عناء شديد في إظهارها على أتم وجه ، وأحسن حال ، فهو كبير الحجم ، كثير الاستشهاد

بالآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، والآيات الشعرية . والافتقار من النصوص الشعرية لعلماء سبقوا المؤلف الى مضمونه .

وجهد المحقق واضح جلي ، يدل على معالجة شديدة بذلها ، وعبرة واسعة استفاد منها ، ووقت طويل استغنىه ، وصعوبات كثيرة واجهها في الاشارة الى مكان كل آية من آيات القرآن الكريم ، وكل حديث من الأحاديث النبوية ، وتخرج كل بيت من الشعر بالاشارة الى مصدره ، والاحالة الى القياسات المؤلف من سبقوه ، فضلاً عن قدرته الفائقة على استخراج النص وهو أقرب ما يكون الى الحالة الى وضعه فيها المؤلف ، بتخليصه من التحريف والتصحيف والزيادة والنقص ، واصلاح الخلل ، ومن يطلع على هوامش التحقيق يشعر بجسامة الجهد ، ودقة العمل ، وصواب المأخذ ، ولكن ، . . ومع ذلك فانت الاستغناء المحقق أمور بسيطة ، كما لم تثق أمور كثيرة .

ولا أريد أن أدخل في مداخل التحقيق جميعاً ، بل أريد ان ابيه على شيء من تلك الأمور البسيطة ، فعمل الأخ المحقق يأخذ بها في طباعت كتابه المقبلة ، وينزعه مما أراه جديراً بالتصحيح وإعادة النظر ، وذلك أمر أصبح مألوفاً ، منذ أن حُقّق أول كتاب تراخي تحقيقاً علمياً ، إذ طالما يضيف الأساتذة المحققون - ولست منهم - المعنويون بتحقيق كتب التراث ، ما يرونه حقيقاً بالاضافة ، ويشيرون الى مناهج الاشارة اليه مما يفتوت محقق الكتب ، نزوها الى إكمال النص ، وتقليل منالعه ، وإخراجها بوجه أكثر حسناً ، وأدعى الى القول .

وهذا الذي لاحظته ، ينصب على النصوص الشعرية التي وردت في متن الكتاب وحدها ، من حيث تعامل الأستاذ المحقق معها ، ولجسدت ملحوظاتي فيما يأتي :

أولاً : الإحالات والتفريجات :

١ - بلل الأستاذ المحقق جهداً كبيراً في إنبات نسبة الآيات الشعرية الى أصحابها ، إذ لم ترد في متن الكتاب ، وتصحيحها إذ وردت خطأ ، وحرص الأراء المتباينة حول نسبة بيت أو حدة أبيات الى شاعر دون سواء ، ولكنه ، مع ذلك ، ترك كثيراً من

الآيات من غير نسبة إلى أصحابها ، كما جاء ذلك في صفحات
وحواش كثيرة أدبت على الملة .

ولعله وجد صعوبة بالغة لم يستطع معها التوصل إلى معرفة
أصحاب هذه النصوص الشعرية ، نظراً إلى وجودها خُفلاً من
ذكرهم في مصادر اللغة والأدب والفنون المتعلقة بها .

٢ - ص ٥٨ أشار المحقق ، في الهامش ، إلى دهوان
حلي بن جملة العكوك ، ولم يشر إلى الطبعة التي اعتمدها في
التحقيق ، فمعروف أن دهوان العكوك خُلق بضع مرات ، وطبع
في بغداد والنجف والقاهرة .

٣ - ص ٦٧ ورد في المتن بيت للفرزدق ، وقد أحال
المحقق إلى مصادر ليس من بينها دهوانه ، وكان الأجدر الإشارة
إليه حتى إذا لم يكن البيت موجوداً فيه . وفعل الشيء نفسه مع
بيت لحاتم الطائي ص ٧٢ ، وأعر لابي تمام ص ١٥٥ ، وثالث
لقاطب فراً ص ١٦٨ ورابع لابن الرومي ص ١٩٧ ، وخامس
للعكوك ص ٢٥٣ ، وبيتين آخرين لابن عنيون ص ٣٠٦ .

٤ - في الصفحات ٧٩ و١٢٨ و١٩٩ و٢٠٠ و٢٢٢ و٢٦٣
و٤٥٢ و٤٩٥ أنصاف أبيات لم يشر المحقق إلى انصافها الأخرى
في الهوامش ، كما فعل مع غيرها .

٥ - هناك أبيات لم يترجمها المحقق مع ورود ذكر أسماء
أصحابها في المتن ، ولم يشر إليها في الهوامش ، مثل بيت يزيد
ص ٥٥ وبيت ص ٣٨٦ ، وبيت ابن سرايا ص ٤٩٠ .

٦ - كما أن هناك أبياتاً وردت في المتن خُفلاً من ذكر أسماء
أصحابها ، ولم يلتفت إليها ولم يضع لها الهوامش ، مثل البيتين
الثلثين وردا في الصفحة ٣٨٦ والبيتين الثلثين وردا في
الصفحة ٤٨٢ .

٧ - وهناك أبيات وضع لها المحقق هوامش ، ولكن من
غير أن يقول فيها شيئاً (١) ، أمثال الهامش ٣ ص ٣٠٧ والهامش
٦ ص ٤٢١ والهامش ١ ص ٤٢٦ والهامش ٥ ص ٤٣٦
والهامش ٣ ص ٤٤٤ والهامش ٤ ص ٤٤٥ والهامش
٣ ص ٤٩٣ .

٨ - وهناك نوحان من الإحالات ، بالنسبة إلى التعريف
بصاحب النص الشعري المذكور في المتن ، الأول منها هو أن يرد
ذلك النص خُفلاً من ذكر اسم صاحبه ، فيشير المحقق ،
حينذاك ، إلى اسمه في الحاشية ويشير إلى مكان ورود النص ،
وأما النوع الثاني فهو أن يذكر اسم الشاعر في المتن ، وحينئذ
لا يورد لأعادة ذكر اسمه في الحاشية ، إلا أن المحقق دأب على
ذكر أسماء الشعراء في الحواشي مع أنها مذكورة في المتن ،
وللتدليل على ذلك تُنظر الصفحات ١١٠ و١٣٤ و١٣٧ و١٤٦
و١٤٧ و١٥٢ و١٦٠ و١٦١ و١٨٢ و١٨٣ على سبيل المثال
لا الحصر .

ثانياً : التراجم

دأب المحقق على ترجمة كل شاعر يورد لأول مرة في متن
الكتاب ، بجملة مناسبة من الكلمات ، ولكنه فاته أن يترجم
جملة من الشعراء :

١ - ص ٥٥ ورد بيت ليزيد ، ولم يضع المحقق له ترجمة مع أنه
ورد لأول مرة في الكتاب .

٢ - ص ٦٤ ورد اسم الشاعر أبو القاسم المستوفى ، وقد
البت المحقق في الحاشية أنه « أبو القاسم » في الأصل ، ولكنه
ترك القاري لا يندري مَنْ هو أبو القاسم المستوفى ، ويتساءل لماذا
لم يترجمه ؟

٣ - ص ١٢٨ يقول المحقق في الحاشية المرقمة ٦ إن البيت
« يُنسب للعباس » دون أن يزيل الإبهام عن العباس هذا ، فإني
العباسيون هو ١٩

٤ - كذلك بالنسبة إلى المعزّي الذي لم يترجمه بكلمة وقد ورد
في الصفحة المرقمة ٢٠٠ والحافظ الذي ورد في الصفحة المرقمة
٣١٩ .

(٥) صدر الكتاب عام ١٩٨٦ في مطبوعات جامعة الكويت بتحقيق د .
توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله وعنوانه : (التبيين في
البيان) . (لجنة المجلة) .

٥ - اما المتنبي فقد ترجمه عند وروده لأول مرة في الكتاب ص ٥٧ بقوله : « أبو الطيب المتنبي أشهر من نار على علم » ، وهي ترجمة غريبة ، إذ كون المتنبي أشهر من نار على علم لا يمنع من ترجمته بالكلمات القليلة التي اعتاد المحقق ان يضعها في مُترجميه .

٦ - ومنهج المحقق ليس واحداً في تراجمه ، من حيث ذكر سنوات الوفيات ، فمن الشعراء من يذكر سنوات وفياتهم ، ومنهم من يميلها ، ومن ينظر في حواشي الكتاب يضع يده ، ويسهولة ، على عشرات الأمثلة التي تؤكد هذا .

ثالثاً : الأوزان الشعرية والقوافي

أحسن المحقق صنيعاً عندما حاول استخراج أوزان الأشعار التي وردت في نص الكتاب ، والاشارة اليها في مواضعها ، وفاتته ، كذلك ، أشياء :

أ - أبيات فلت المحقق أن يشير الى أوزانها :

١ - ص ٥٧ ورد بيت المتنبي :

أمامياً لم نزدة معرفة

والها لنة ذكرناها

وهو من وزن المنسرح .

٢ - ص ٦٤ ورد بيتان لأبي القاسم المستوفي هكذا :

مالذي غرّكم محمود

المحمود انحازة بكل لسان

بأي القاسم المعظم ظل

الله في الأرض صفوة النّان

وهما من وزن الخفيف ، وبما أنها كذلك ، لم ينجح ان يكتبها

هكذا :

مالذي غرّكم محمود المحر

مود انحازة بكل لسان

بأي القاسم المعظم ظل ال

له في الأرض صفوة النّان

٣ - ص ٦٨ ورد بيت أبي العلاء المعري :

ان الذي الوحشة في داره

يؤنس الرحمة في تحديه

وهو من وزن السريع .

٤ - ص ١٢٣ ورد بيت الفرزدق :

انا الزائد الحامي الذمار والما

يدافع عن أحسابهم انا أو مثلي

وهو من وزن الطويل .

٥ - ص ١٨٦ ورد بيت الأبحتري :

فهي كالشمس بهجة والقضيب ال

لذن قدأ والريم طرأ وجيدا

وهو من وزن الخفيف .

٦ - ص ٣٠٠ ورد بيت ابن سرايا :

رواد حكي النساء لافي شجونه

ولكن له «ينان تجري حل صخر

وهو من وزن الطويل .

٧ - ص ٣٠٢ ورد بيتان مجهولا النسبة :

انا ابن من ذلت الرقاب له

من بين غزومها وماشمها

تأليه طوعاً اليه خاضعة

ياخذ من مالها ومن دمها

والبيتان من وزن المنسرح .

٨ - ص ٣٠٣ ورد بيتان لم يُنسب الى أحد :

وفي شحوب راكم ساجد

أخي نسحور دمة جاري

ملازم الخمس لأوقاتها

معتكف في خدمة الباري

والبيتان من وزن السريع .

٩ - ص ٣٢٠ ورد البيت :

لارمن ماض بطمنيته

حافني بالطمين في الظلم

رَامَ أَنْ يُدْمِيَ فَرَسَهُ
فَأَتَقَتُهُ مِنْ مِ
وهما من وزن المنهد .

١٠ - ص ٣٢١ - ٣٢٢ ورد البيتان :

لَا تَقُولَنَّ خَالَهُ نَقَطُ مَنْكَ
زَادَ فِي الْوَجْهِ يَهْجَةً وَجَمَالًا
ذَلِكَ مَاءٌ بِوَجْهِهِ فَقَّ حَقًّا
صَارَ إِنْسَانٌ حِينَ رَأَى رَأْسَهُ خَالًا
والبيتان من وزن الخفيف .

١١ - ص ٣٣٠ ورد بيتا ابن دريد :

وَلَوْ حَمَى الْمَقْدَارُ عَنْهُ مَهْجَةً
لِرَامِهَا أَوْ يَسْتَبِيحُ مَا حَمَى
تَغْلُو الْمَنَابِ طَائِعَاتٍ أَمْرُهُ
تَرْضَى الَّذِي يَرْضَى وَتَأْنِي مَا لَيْنَ
وهما من وزن الرجز .

١٢ - ص ٣٤٧ وردت أبيات الثعالبي :

عَلِمَ بِي مِنَ الْأَيَّامِ مَقْتُ صُرُوفِهَا
إِلَى وَجْهِ مَنْ أَهْوَى بِدِ النَّسْخِ وَالْمُخَوِّ
وَأَبَدَتْ بِوَجْهِهِ طَائِعَاتٍ أَرَى بِهَا
سَهَامَ أَبِي يَحْيَى مُسَلِّدَةً نَحْوِي
فَإِنَّكَ سَوَادُ الْخَطِّ يَنْهَى عَنِ الْهَوَى
وَهَذَا بِيضُ الْوُحْطِ يَأْمُرُ بِالصَّحْرِ
والأبيات من وزن الطويل .

١٣ - ص ٣٩٠ ورد بيت ابن الرومي :

نَكِهَتْهَا تَقْتُلُ جُلَانَهَا
لِقَرَبِ تَجَشَّاهَا مِنَ الْفَسَا
وهو من وزن السريع .

١٤ - ص ٤١٨ وردت رباعية الصاحب عطا ملك :

بِاطَاقَةِ شَعْرِهِ بِرَأْسِي انْتَشَبْتُ
بِإِضَاءَةِ نَضَارِي بِهَا [قَدْ] ذَهَبْتُ
بِإِلَاحِدَةٍ سَوَادٌ قَوْمٍ نَبِثْتُ
كَمْ مِنْ شَيْءٍ قَلِيلَةٍ قَدْ خَلَبْتُ

والرباعية من وزن الدوبيت ، وقد أضفنا إلى السطر الثاني
منها كلمة قد بين معقوفين ، ليستقيم بها الوزن ، ولعلها سقطت
بفعل التثنية .

١٥ - ص ٤٢٤ وردت الأبيات المنسوبة إلى المأمون :

بِعَمَشَتِكَ مَشْتَاقًا فَفَزْتُ بِنَظَرَةٍ
وَأَخْفَلْتَنِي حَتَّى أَسَاتَ بِكَ الظَّنَّ
وَرَقَدْتُ طَرَفًا فِي عِمَاسِنِ وَجْهِهَا
وَمَشَعْتُ فِي اسْتِمْتَاعِ نَفْسِهَا أَذْنَا
أَرَى أَثَرًا مِنْهَا بِعَيْنَيْكَ لَمْ يَكُنْ
لَقَدْ سَرَقْتُ مِنْكَ مِنْ وَجْهِهَا حُسْنًا
والأبيات من وزن الطويل .

١٦ - ص ٤٣٦ ورد البيتان :

مَنْ غَابَ عَنْكُمْ نَسِيتُمُوهُ
وَقَلْبُهُ عِنْدَكُمْ وَهَيْئَتُهُ
أَظَنُّكُمْ فِي الْوَفَاءِ تَمَنُّ
صَحْبَتُهُ صَحْبَةُ السَّفِينَةِ
والبيتان من وزن مَخْلَعُ الْبَسِيطِ ، والثالثة هاء ساكنة ،
لأنها مربوطة كما وردت في النص .

١٧ - ص ٤٤٤ ورد بيتا محمد بن المنافذ :

أَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ لَمَّا تَوَلَّى
هَذَا رَكْنًا مَكَانَ بِالْهَدُودِ
مَادَرْنِي نَعْمَتُهُ وَلاَحَامِلُوهُ
مَاعِلِ النَّمْلِ مِنْ عَفَالٍ وَجُودِ
وهما من وزن الخفيف .

١٨ - ص ٤٨٦ ورد البيتان :

مَضَى الصَّاحِبُ الْكَافِي وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَهُ
كَرِيمٌ يَرْوِي الْأَرْضَ فَيُضِ غَمَامِهِ
لَقَدْ بَنَاهُ لَمَّا تَمَّ وَاعْتَمَّ بِالْعُلَى
كَذَاكَ خَسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ
والبيتان من وزن الطويل .

١٩ - ص ٤٩٠ ورد بيت لم يُنسب إلى أحد ، هكذا :

لَاخَ أَنْوَارُ النَّسْلِ
مِنْ كَفِّهِ فِي كُلِّ حَالٍ

والصواب ان يكتب هكذا :

لاح أنوار السدى من
كله في كل حال
وهو من وزن مجزوء الرمل .

ب - أبيات لم تكن الاشارة الى أوزانها صحيحة :

١ - ص ١٨٣ ورد البيت :

لسمم حبيب لي خلالة ماء
وقتل نور في اديم سماه
وقد أثبت المحقق انه من وزن المقارب ، والصواب انه
من وزن الطويل .

٢ - ص ٢٥٧ ورد بيت أبو نواس :

يزهدك وجهه حسناً
إذا مازدته فكراً
وقد أثبت المحقق انه من وزن الوافر ، والصواب انه من
وزن مجزوء الوافر .

٣ - ص ٣٦٨ ورد بيتا المنخل :

ولقد فعلت على الفنا
الحناء في اليوم المطير
الكعاب الحسناء تر
لعل في الدمقس وفي الحبري
وقد أورد المحقق أنها من وزن الكامل ، والصواب أنها
من وزن مجزوء الكامل .

٤ - ص ٣٨١ ورد بيت أبي العبال الحلبي :

أكبرت أنهي فمأقني
صداع الرأس والتوصف
وقد أثبت المحقق انه من وزن الوافر ، والصواب انه من
وزن مجزوء الوافر .

٥ - ص ٤٤١ ورد بيتا أبي الطيب المتقي :

ومالي الدهر بالآراء حتى
فواني في غشاو من نبال

فصرت إذا أصابني سهام

تكسرت النصال على النصال
وقد أورد الاستاذ المحقق أنها من وزن الكامل ،
والصواب أنها من وزن الوافر .

ج - زادات أو نوالص يضطرب الوزن بها :

١ - ص ٦٩ ورد بيت الفرزدق هكذا :

اولئك أهالي فجلي بملهم
إذا جمعنا بجاهرهم المجامع
يتسكن القافية ، والصواب ان تُضم العين ، ليستقيم
الوزن بذلك .

٢ - ص ١٩٤ ورد بيت ابن رقيق القيرواني هكذا :

غيري جنى ، واليا المعالي فليكن
فكأنني سبابة المتعلم
يتسكن مهم فليكن ، والصواب ان تُضم ليستقيم بذلك
الوزن .

٣ - ص ٣١٢ وردت أبيات لأبي اسحق النخعي ، وكان

أول بيت فيها :

لاخرو إن كن السدحي لسيدنا
أو غص من دهر بالبريق أو جهر
والصواب « الداعي » بدلاً من « الدهي » .

٤ - ص ٣١٥ ورد البيت المنسوب الى ابن عثون هكذا :

انظر الي بعون مولى لم يزل

بعضية وتلاف لبل لئلا
ولادهي لتعوي وتلاف بالكسر ، لانه فعل أمر
معطوف على الفعل « انظر » في أول البيت ، وليس كلمة معطوفة
على عطية التي قبلها ، ولذلك ينبغي أن يكون « وتلاف » مفتوحاً
واحدة لا يستقيم الوزن إلا بها .

٥ - ص ٣٢٠ ورد بيت هكذا :

ولارس ماهر ببحر بـ
حافلي بالظمن في الظلم

والصواب، ان يرد هكذا :

فارسٌ صاحبٌ بحسبته

حائلي بالطعن في الظلم

في زيادة الواو قبل كلمة فارس كسرت الوزن ، وهو من

المديد ، ثم تبع ذلك ان تكون كلمة « حائلي » مفعولة على أنها

نعتٌ لفارس ، وهي مرفوعة ، في الحقيقة ، للسبب نفسه .

٦ - ص ٣٢٦ ورد بيت للصاحب بن عباد هكذا :

ولمّا سئل : لمّ حركك الغموم

وامرك منهل في الأسم

بفتح هم (لم) ، والصواب تسكينها للضرورة

الضمية ، وليستهم بذلك الوزن وهو المقارب .

٧ - ص ٣٣١ ورد بيت أبي تمام هكذا :

ولولا استعمال النار فيها جاورث

ماكان يُصرف طيب عرب الحور

والصواب حذف الواو ليستقيم الوزن .

٨ - ص ٣٩٢ ورد بيت لمجهول هكذا :

هو الكلب إلا ان فيه ملاءة

وسوء مراعاة وملائك في الكلب

وصواب الشطر الثاني منه ان يكون « وسوء

مراعاة » .

٩ - ص ٤٥١ ورد بيت أبي الطيب المظني :

يرى ان مهابان منه يضارب

بأفعل ما بان منه لمائب

والشطر الأول من البيت مكسور الوزن ، ولا يستقيم إلا

بإضافة [قد] قبل (ما) ، وكان ينبغي الإشارة الى ذلك ، مع

انه في ديوان المظني مكسور الوزن كذلك أيضاً .

١٠ - ص ٤٧٧ ورد بيت أبي صخر الهللي هكذا :

وقد كان حُرْمٌ في الممات لنا

المجّلت قبل الموت بالسُورم

في زيادة الواو وزعم الصاد في الشطر الأول ، وتشديد الجيم

وزعم الصاد في الشطر الثاني ، والصواب ان تحذف الواو ويصح

الصاد ، ويكسر الجيم من غير شك ، كما ورد في ديوان حماسة أبي تمام وهو مصدر المطلق ، وإلا فيخلل الوزن .

د - أبيات غفلة القطيع :

١ - ص ٢٦٥ ورد بيت ابن هرمة هكذا :

لا منعُ السُورم بالصصال

ولا ابتاعُ إلا قربة الأجل

والصواب أن يقطع البيت هكذا ، ليستقيم الوزن :

لا منعُ السُورم بالصصال ولا

أبتاعُ إلا قربة الأجل

٢ - ص ٢٦٨ ورد بيت أبي تمام هكذا :

إذا الميسر لالت بي أبا دلف

فقد قطع مايسر بين النوائب

والصواب ان يقطع هكذا :

إذا الميسر لالت بي أبا دلف فقد

قطع مايسر بين النوائب

٣ - ص ٢١٣ ورد بيت لمجهول هكذا :

فكيف صبري عنها الآن لأ جف

مّ طيب الهوامين ممدود ومقصود

والصواب ان يقطع البيت هكذا :

فكيف صبري عنها الآن لأ جفنت

طيب الهوامين ممدود ومقصود

٤ - ص ٢٢٣ ورد بيت السيد الرضي هكذا :

باروخ في الأمل من شرقي كما

ظمّ لد حارة القلب من ذكراك أحزاننا

والصواب ان يقطع هكذا :

باروخ في الأمل من شرقي كاللمعة

لد حارة القلب من ذكراك أحزاننا

٥ - ص ٢٢٧ ورد بيت امرئ القيس هكذا :

من القاصرات الطرف لو دبّ قد

بول من اللز فوق الإلب عينا لأكرا

والصواب ان يقطع هكذا :

من القاصرات الطرف لردب عول
من اللز فوق الإثب منها لأثرا

٦ - ص ٣٥٩ ورد بيت لكثير هكذا :

عل ابن أبي العاصي دلاص حص
جنة أجد المسنى نسجها فاذلها

والصواب ان يقطع هكذا :

عل ابن أبي العاصي دلاص حصنة
أجد المسنى نسجها فاذلها

٧ - ص ٤٠٤ ورد بيت أبي الفتيان ابن حيوس هكذا :

ضميرك والتقوى وكفك والغ
نى ولفظك والمعنى وسيفك والنصر

والصواب ان يقطع هكذا :

ضميرك والتقوى وكفك والغنى
ولفظك والمعنى وسيفك والنصر

٨ - ص ٤٠٩ ورد بيت للنهاي هكذا :

ألت وفي جفني وفي جفن منصر
لي غراران ذا سيف وذاك رقاد

والصواب ان يقرأ هكذا :

ألت وفي جفني وفي جفن منملي
غراران ذا سيف وذاك رقاد

٩ - ص ٤١٨ ورد بيت الصاحب بن عباد هكذا :

قلت : دمني وجهك الـ
جنة وحفت باللكارة

والصواب تقطعه هكذا :

قلت : دمني وجهك الجنـ
نة وحفت باللكارة

١٠ - ص ٤٩٠ ورد بيت لمجهول هكذا :

لاح انوار الندى

من كفي في كل حال

والصواب ان يقرأ هكذا :

لاح انوار الندى من

كفي في كل حال

رابعاً : أخطاء مطبعية

وهناك أخطاء لم يسلم منها أي كتاب يطبع في وقتنا
الحاضر ، وأثرت الإشارة الى أهمها هنا ، وكما يأتي :

١ - ص ٦٥ ورد في بيت ابن النخبة قوله في الحاشية رقم ١ :

« لأن سائتي أن نلتني بمسامة » والصواب : سائتي ..

٢ - ص ٦٦ الحاشية رقم ٥ ورد : « صنعة الصوي »

والصواب صنعة الصولي .

٣ - ص ١٥٢ من ٧ ورد : « كما فقي قول حسان »

والصواب : « كما في قول ... » .

٤ - ص ١٨٣ من ٣ ورد في بيت الشعر : « نسيم الصبا »

والصواب : « نسيم الصبا » ..

٥ - ص ٢٢٠ من ٩ ورد : « كقولها » والصواب :

« كقوله » .

٦ - ص ٢٩٩ من ٦ ورد في بيت الشعر : « نَقَدَ الأراك ... »

والصواب : « نَقَلَ الأراك ... » .

٧ - ص ٣٠٤ من ٢ وردت كلمة « زجر » والصواب

« رجز » .

٨ - ص ٤٧٥ من ١٠ ورد في بيت أبي الطيب : « ... له باقي »

حروف أنيسان » والصواب : « ... أنيسان » .

٩ - ص ٤٨٧ من ٧ ورد في بيت الشعر : « ... ولا الطرف »

ساهر » ينصب الطرف ، والصواب « ولا الطرف ساهر »

بضمه .

١٠ - ص ٥٣٧ من ٤ ورد قوله : « ... كقول الشنفرى »

بالهاء ، والصواب اثباتها بالالف المقصورة : « ... الشنفرى » .

١١ - وقد وردت في الحاشية المرقمة ٦ من الصفحة المرقمة

٤٣٥ عبارة « مطبوعات دار المأمون » بعد الإشارة الى معجم

الأدباء لياقوت الحموي ، ولأدري ما علاقة دار المأمون بمعجم

الأدباء ١٩

ملحوظة أخيرة

كنت آمل أن أجد النصوص الشعرية مثبتة في متن الكتاب على وفق أضبط الروايات وأشهرها ، بغض النظر عن ورودها في الأصل الذي اعتمده المحقق في تحقيقه « التبيان » ، بدليل وجود هذه الروايات « المضبوطة » في الدواوين الشعرية وكتب اللغة والبلاغة والنقد والأدب ، إلا أن المحقق ثبت في المتن ماورد في الأصل المعد للتحقيق ، وأشار في الهوامش الى الروايات الأخرى ، وكان ينبغي أن يكون أفضل الروايات في المتن لا في الحواشي .

وللدلالة على ذلك يمكن لنا أن نشير ، على سبيل المثال لا الحصر ، الى شيء من ذلك :

١ - ص ٦٨ ورد بيت أبي العلاء المعري :

أَنَّ الَّذِي السَّوْحَشَةُ فِي دَارِهِ

يَزُنُّهُ الرَّحْمَةُ فِي حَبِيهِ

وكان من الأفضل أن يورد المحقق مجزأ البيت كما ورد في سقط الزند وامراء الشعراء العربي والنسخة (ب) من نسخ الكتاب المخطوطة ، وهو :

تَزُنُّهُ الرَّحْمَةُ فِي حَبِيهِ

٢ - ص ٣٢٩ ورد بيت أبي نواس :

وَأَخَفَّتْ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى أَنَّهُ

لِيَخَافَكَ النُّطْفُ السَّيِّئُ لَمْ يَخْلُقْ

ورواية البيت في الديوان وبعض مصادر البلاغة الأخرى

كلايضاح مثلاً ، أفضل ، وهي :

لِيَخَافَكَ النُّطْفُ السَّيِّئُ لَمْ يَخْلُقْ

٣ - ص ٣٣١ ورد بيت أبي تمام هكذا :

وَلَسَوْلا اشْتَمَالُ النَّارِ فِيهَا جَاوَرَتْ

مَآكَانُ يُعْرِفُ طَيِّبُ عَرَفِ السُّودِ

وصدر البيت في كل المصادر ومنها ديوان الشاعر والنسخة

(ب) من النسخ المخطوطة للكتاب التي اعتمدها المحقق

تستبعد الواو في أوله ، فضلاً عن أن الوزن بها يتكسر !

٤ - ص ٣٣٥ ورد بيت ابن هاني الأندلسي هكذا :

وَمَاهِلُهُ الْأَيَّامُ إِلَّا كَمَا تَرَى

وهل نحن إلا كالعقرون الأوائل

وصدر البيت كما في ديوان الشاعر هو :

فَهَلْ هَلْهُ الْأَيَّامُ إِلَّا كَمَا نَعْلَا

٥ - ص ٤٣٠ ورد بيت المتنبي هكذا :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَ ظَنُونُهُ

وَصَلَّى مَا يَمْنَانُهُ مِنْ تَوْهُمِ

وأفضل من هذه الرواية ماورد في ديوان الشاعر بشرح

المكبري وشرح الشيخ ناصيف اليازجي كليهما :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظَنُونُهُ

هذا شيء مما لاحظته فيما يتعلق بتحقيق النصوص

الشعرية الواردة في متن « كتاب التبيان في علم المعاني والبديع

والبيان » للعلامة الطيبي ، بعد أن وجدته من الكتب المهمة في

بابه ..

كتاب مواد البيان

كتاب مطبوع منذ ست سنوات

بقلم

أبو القاسم محمد كرو

نولس

تحقيق أو مقابلة بين النسخ . ولهاية من ذلك توفير النسخ للباحثين والمؤسسات العلمية . ومعلوم لدى الممارسين للتراث ان الاستاذ فؤاد سيزكين ينجز ذلك من خلال (معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية) الذي يتولى الاشراف عليه ، ولد جاء نشره لكتاب « مواد البيان » في المجلد (٢٩) من (سلسلة ج - عيون التراث) . ونص في الصفحة الأولى من نشره هذه بأنها « طبعة بالتصوير عن مخطوطه فاتح ١٢٨٨ مكتبة السلمانية في استنبول »

ومعلوم أيضاً انها النسخة الوحيدة المعروفة حتى الآن . وهي مبنية في آخرها حيث نقص منها البهتان الأخيران . ولذلك اعتمدها - كما هي - المحقق الأول الدكتور حسين عبداللطيف وأكمل بعض النقص من « صبح الأعيان » للعلفشندي الذي أورد من « مواد البيان » نصاً كثيراً .

وهذا ما جعلني على المبادرة بالإشارة الى ذلك والتنويه بالمحقق الأسبق . . . وبلغت نظر مجلتي العزيزة علينا (المورد) حتى لا تتكرر عملية نشر نصوص تراثية سبق تحقيقها ونشرها . . . إذ الأولى نشر ما لم ينشر من قبل . ولا يفتني ان أنه أيضاً بصديقي الأستاذ عبدالوهاب .

مجلة المورد ، مجلة فريدة بين مجلاتنا العربية المعنية بالتراث . وقد كانت تصلي بالنظام ثم انقطعت منذ ثلاث سنوات فأصبحت أحرص على اقتنائها من أكشاك الدوريات كلها عثرت على عدد جديد منها . . . وقلما يتم لي ذلك .

ونظراً لاهتمامي بالتراث العربي عامة وما يتصل بالأدب والتاريخ منه بوجه خاص ، فان مراجعتي للعدد الأول من المجلد السابع عشر (لعام ١٩٨٨) قد تركزت على الأبواب المخصصة للفهارس والنصوص المحققة . . . والتي كان من بينها بل من أبرزها الحلقة الأولى من كتاب « مواد البيان » لعلي بن خلف الكاتب الذي شرع في نشره الدكتور حاتم صالح الضامن معلناً انه ينشر لأول مرة ١٩ والحال ان كتاب « مواد البيان » ، لعلي بن خلف الكاتب مطبوع مرتين :

الأولى : تحت منذ ست سنوات بتحقيق الدكتور حسين عبداللطيف الاستاذ المشارك بكلية التربية في طرابلس وقد تولت نشره جامعة الفاتح بطرابلس الغرب عام ١٩٨٢ : ٢

الثانية : تمت بالتصوير قام بها الاستاذ فؤاد سيزكين الذي يقوم منذ سنوات بطبع عيون التراث العربي والاسلامي بطريقة تصوير النسخ الفريدة أو الجيدة على حافها دون طباعة حديثة أو

النجار (مدير معهد ثانوي بالقبروان) الذي أكد الملاحظات المذكورة وأطلعني على النسخة المطبوعة وصور الصفحات المرافقة معها . وهي تشمل تقديم المحقق والفهارس . ولتترك لجلتينا أن ننشر منها ما نراه مناسباً .

واك من وراء القصد

كنا نظن د المررد أسعد مجلة حزن قدمت لقرائها - كبادرة لافرة - النص المحقق لكتاب د مواد البيان ، . . . ولم نعلم - قبل ورود خطابكم - أن بين علمائنا العرب من قام بتحقيقه . قلنا هلرنا ، وللدكتور حسن عبداللطيف فضيلة السبق . وفوق

كل في علم عليهم . وبالحذا لو جاء المحققون العرب على المررد ، بنسخة من آثارهم المحقة . . لتكون على بصيرة ، ولتملك رضاء في هذا المضمار . . بيد أن هذا الملحظ الوجهه لن يمنع المجلة من مباركة الجهد الصادق الذي بذله الدكتور حاتم الضامن في تحقيق ذلك الأثر الطيب ، مؤكداً انه اذا حققه كان مطمئناً الى انه فارص الميدان ، وأنه لا يعلم بما أنجزه الدكتور عبداللطيف ، ومن هنا جدارته بالثناء ورجائي ان يتفضل أسفادنا الكريم أبو القاسم محمد كرو يقول اعزازنا بحرصه ، وتقديرنا لعجسه عناء القبه . . فله الشكر أولاً وأخيراً .

د رئيس التحرير

صدر عن دار الشؤون الثقافية



فهرسة المخطوطات العربية الاسلامية

بعض التساؤلات الأولية

عبدالله عبدالرحيم

الدار البيضاء - المغرب

المخطوطات العربية الاسلامية لابد أن يشارك فيها بالاضافة للمؤرخ الباحث المتخصص

وكتوضيح لما سبق ذكره يمكننا إلقاء نظرة سريعة على مختلف الفهارس المتعلقة بالمخطوطات العربية أن نستخلص أن جميع هذه الاصدارات هي من إنجاز باحثين أو باحثين - أمناء خزانات .

إن كون فهرسة المطبوعات تستلزم إحترام مجموعة قواعد محددة يجعل منها عملية مكنتة ومعيرة ، إذ أن الفهرس بصفة عامة لا يبحث إلا عن بعض المعلومات الشكلية في حين أن فهرسة المخطوطات تبقى عملية معمقة وهذا يعني أن الباحث يرمي من خلال الفهرسة العثور على معلومات تتعلق بمضمون المخطوط قبل كل شيء .

زد على هذا أن فهرسة المخطوطات هي في حد ذاتها عملية لازمة لكي يتعرف الباحث على وجود أو عدم وجود مخطوط ما . وهذا يجرنا أن نؤكد مرة أخرى على خصوصية عملية فهرسة المخطوطات وأهميتها وتعدد جوانبها

كل هذا لا يجب أن ينسنا مسألة قواعد فهرسة المخطوطات وتوحيدها بالنسبة للتراث العربي الاسلامي . فقد حان الوقت لتدارك النقصان الكبير الذي تعاني منه في هذا المجال . ويبدو لنا أن دراسة فهارس المخطوطات العربية الاسلامية التي تم إصدارها لحد الآن قد تكون لها فائدة كبرى وقد تظهر لنا على الخصوص مدى التباين الذي تعاني منه فهرسة المخطوطات ليس من خلال المقارنة بين فهارسين مختلفين ولكن داخل الفهرس الواحد نفسه . قد لانكون قاضي بتوحيد

قواعد فهرسة المخطوطات ولكن يبدو لنا أن الوضعية الراهنة للمخطوطات العربية الاسلامية لا تسمح بهدر المزيد من الوقت والامكانيات البشرية والمادية . إن المسألة أصبحت حيوية ولا بد بالتعجيل بوجود حلول ناجحة لها .

هذا يطرح بالطابع مسألة الاطار القانوني والمؤسسي لعملية كهذه ، بأن جامعة الدول العربية من خلال احد منظماتها المتخصصة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس . . .) قد يكون لها دور ريادي في هذا المجال .

بالاضافة الى توحيد القواعد لابد من توحيد أدوات العمل اللازمة لفهرسة المخطوطات العربية الاسلامية . فلا يخفى على أحد أن فهرسة المخطوط تستلزم إستوضح مجموعة من المراجع خاصة التراجم والمعاجم وفهارس المخطوطات . وما دمننا لا تتوفر على لائحة حصرية لأدوات العمل اليومي سنظل نعمل بطريقة عشوائية لا تتوافق مع إلحاحية الاعمال التي تنتظرنا .

في إطار برنامجها الثقافي لسنة ١٩٨٨ نظمت مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الاسلامية والعلوم الانسانية ندوة في موضوع « المخطوطات العربية في الغرب الاسلامي : وضعية المجموعات وأفاق البحث » وذلك أيام ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ شعبان ١٤٠٨ الموافق ٧ ، ٨ ، ٩ ، ابريل . وقد كان هذا كان هذا الجمع ، الذي شارك فيه عدد من الباحثين والمتخصصين من المغرب والمشرق العربي وأوروبا وأمريكا الشمالية مناسبة لدراسة وضعية المخطوطات العربية الاسلامية في الغرب الاسلامي . وهي المنطقة الفنية تاريخيا وثقافيا بتراث عربي مخطوط قد يقل نظيره في العالم الاسلامي .

وقد حاول المتدخلون دراسة هذا الموضوع الحساس من خلال المغاور الثلاثة الآتية :

- ١ - تقارير عن وضعية المخطوطات العربية في الغرب الاسلامي
- ٢ - توثيق وفهرسة وتنظيم ونشر وصيانة المخطوطات العربية الاسلامية

٣ - إشكالية تحقيق ودراسة التراث المخطوط للغرب الاسلامي من خلال المناقشات التي جاءت بمثابة تكميل لمختلف المداخلات لاحظنا أن بعض الموضوعات قد نوقشت بإسهاب في حين أن موضوعات أخرى تمت معالجتها بسرعة نسبية لا تتناسب وأهميتها .

ويبدو لنا أن موضوع فهرسة المخطوطات لم يتطرق إليه المشاركون بطريقة معمقة بالرغم من ظهوره واضحا جليا ، ولكن بين السطور ، في كل المناقشات إن فهرسة المخطوطات العربية الاسلامية ليست مسألة تخص المؤرخين فحسب بل إنها تهم وبصفة وثيقة الباحث والمتخصص في التراث العربي المخطوط . قد يقول البعض أن الفهرسة عملية تقنية معقدة ومن الواجب أن يتم بها مؤرخون أكفاء . لكن لا يحق لنا أن ننسى أو نتناسى الحقيقة التالية من الطبيعي أن فهرسة المطبوعات تستلزم إحترام مجموعة من القواعد وأن أي إخلال بها قد تكون له عواقب وخيمة . ولكن هذه القاعدة لا يمكن أن نطبقها على فهرسة المخطوط . ذلك أن فهرسة المخطوطات كما سبق القول ليست عملية تقنية بل هي خصوصا مسألة ثقافية ومعرفية . فعندما نقوم بفهرسة مخطوط ما لابد لنا أن نكون على إطلاع ، على سبيل المثال لا الحصر ، بتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، وتاريخ العلوم ، وتاريخ الخط العربي . كما انه لابد لنا أن نكون على علم بكل التراجم والمترجمين حتى نستطيع إعطاء بيان المسؤولية بصفة واضحة وثامة . وقد لا يختلف إثنان في كون أن هذه المعارف تستلزم تكويننا متخصصا لا يتوفر إلا عند بعض الباحثين والمتخصصين المهتمين من قرب بالتراث العربي المخطوط .

لذا ومن وجهة نظرنا الخاصة ، فإن كل عملية لفهرسة



shwaihy
9-9-2010

المحتوى

أعياد نيسان ١-٣
البحوث والدراسات :

- القاهرة تأريخ وتراث ترجمة محمود حمدي ١٩-٥
بعض سمات الشعر العربي القديم ترجمة علي يحيى منصور ، مراجعة د. نوري القيسي ٣١-٢٠
الأنماط التحويلية في الجمل الاستهامية د. صمير شريف ستيتية ٦٢-٣٢
دراسة في معلومات المهد القديم التاريخية من فلسطين د. سامي سعيد الأحمد ٧٧-٦٣
التجديد الحضري لقلعة كركوك زين العابدين صفر ٨٤-٧٨
نظام البريد في الحضارة العربية د. حسين علي الداغوني ٩٣-٨٥
كلمات من (وبستر) و (لسان العرب) ناجية مران ١٠٩-٩٤
الفارابي وآراؤه اللغوية في كتاب الحروف ... د. هلدان محمد سلمان ١٢٥-١١٠
رحلة تاريخية مع تصانيف النباتات الطبية عند العرب د. ناصر حسين صفر ١٣٦-١٢٦
مداد الذهب صناعته في العصور الإسلامية برون بلدي توفيق ١٤١-١٣٧

النصوص المحققة :

- مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب تحقيق د. حاتم صالح الضامن ١٦٢-١٤٢
ابن مرج الكحل وماتبقى من شعره جمع وتقديم نجم عبد علي رئيس ١٧٩-١٦٣
ترجمة أسامة بن منقذ لابن العديم تحقيق د. جليل العطية ١٩٥-١٨٠

المناقشات والعروض والتقد :

- التفري وكتاب (المواقف) ذاكروكي علي العثمان ٢٠٤-١٩٣
مقائسات في الفلسفة الصوفية - القسم الرابع - عزيز حارف ٢٠٩-٢٠٥
أخروطة في مرع العمون د. رشيد الجميلي ٢٢٦-٢١٠
كتاب النيمان في علم المعاني والبديع والبيان مقداد رحيم ٢٣٥-٢٢٧
كتاب مواد البيان كتاب مطبوع منذ ست سنوات أبو القاسم محمد كرو ٢٣٧-٢٣٦
لمرسة المخطوطات العربية الإسلامية (بغض التسلاوات الأولية) عبد الله عبد الرحيم ٢٣٨

● سعر المجلة	
البحرين	١٠٠ دينار
الأردن	١٠٠ دينار
مصر	١٠٠ جنيه
السودان	١٠٠ جنيه
المغرب	١٣ درهما
تونس	١٠٠ دينار
السعودية	١٣ ريالاً
الإمارات	١٣ درهما
الكويت	١٠٠ دينار
البحرين	١٠٠ دينار
قطر	١٣ ريالاً
اليونان	١٣٣ درهما
انجلترا	٣٠٠ جنيهات

● الاشتراكات	
الاشتراكات الرسمية ١٢ ديناراً	
داخل العراق	٩٠ دينار
في الوطن العربي	٤٨ دولاراً
في الدول الاوروبية	٥٤ دولاراً
في أمريكا والاتحاد السوفياتي	٦٦ دولاراً

رقم الايداع في المكتبة الوطنية - بغداد
(١٠٠) لسنة ١٩٨٩

دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

WWW.ATTAWHEEL.COM

AL - MAWRID

A QUARTERLY JOURNAL OF CULTURE
AND HERITAGE

ISSUED BY THE MINISTRY OF CULTURE AND INFORMATION

BAGHDAD . REPUBLIC OF IRAQ

Volume 18 Number 1 - 1992